تيسير التفسير

لقطب الأئمة

الشيخ الحاج امحمد بن يوسف اطفيش

(ت: 1332هـ / 1914م)

تحقيق وإخراج

الشيخ إبراهيم بن محمد طلاي

بمساعدة لجنة من الأساتذة

الجزء الأول

من الفاتحة إلى الآية 203 من سورة البقرة

الطبعة الثانية

1439 هـ - 2018 م.

تيسير التفسير

الجزء الأول

لوزارة التُّراثِ والثقافة
سَلطنة عُمان

الطَّبعة الثَّانية
مزيدة ومنقّحة
1439هـ / 2018م

سلطنة عُمان ـ ص.ب.: 668 مسقط، الرمز البريدي: 100
هاتف: 24641300 / 24641325، فاكس: 24641331
البريد الإلكتروني: info@mhc.gov.om
موقع الوزارة على الإنترنت: www.mhc.gov.om

تيسير التفسير

لقطب الأئمة

الشيخ الحاج امحمد بن يوسف اطفيش

(ت: 1332هـ / 1914م)

تحقيق وإخراج

الشيخ إبراهيم بن محمد طلاي

بمساعدة لجنة من الأساتذة

الجزء الأول

من الفاتحة إلى الآية 203 من سورة البقرة

تخريجُ الأحاديثِ ووضعُ التراجمِ:

أ. أحمد بن حمو كروم

أ. عمر بن أحمد بازين

الرقنُ والفهرسةُ ومتابعةُ الطبعِ:

أ. مصطفى بن إبراهيم طلاي

تدقيقُ النصِّ ومتابعةُ الطبعِ:

د. مصطفى بن محمد شريفي

أعوذ بالله من الشيطان الرجيم

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿قُلْ نَزَّلَهُۥ رُوحُ ٱلْقُدُسِ مِن رَّبِّكَ بِٱلْحَقِّ
لِيُثَبِّتَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَهُدًى
وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ﴾

[سورة النحل: 102]

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدّمة

الحمد لله الذي بنعمته تتمُّ الصالحات، والصلاة والسلام على أشرف المخلوقات، سيِّدنا محمَّد عليه أفضل الصلوات، وعلى آله وصحبه أولي المكرمات، وعلى من اهتدى بهدي الآيات البيِّنات، وسار على نهج رسوله، واستنَّ بسنَّته إلى يوم الممات. أمَّا بعد:

فبعون الله وحسن توفيقه نضع بين أيدي القرَّاء الكرام الطبعة الثانية[1] في ثوب جديد لهذا التفسير القيِّم: «تيسير التفسير» للعلَّامة قطب الأئمَّة الشيخ الحاج امحمَّد بن يوسف اطفيَّش رَحِمَهُ ٱللَّهُ.

تتميَّز هذه الطبعة بما يأتي:

1 ـ إضافة بعض التخريجات التي لم نتمكَّن من إدراجها سابقا، نظرًا لقلَّة وسائل البحث آنذاك، وتوفُّرها وسهولتها اليوم، بما في ذلك بعض الأحاديث والأبيات الشعريَّة والأعلام. ونودُّ أن لو كان العمل أكمل، ولكن «ما لا يدرك جلُّه لا يترك كلُّه».

---

(1) نعني طبعة ثانية محقَّقة، إذ إنَّ الكتاب قد طُبع من قبلُ في الجزائر طبعة حجريَّة سنة 1326هـ، ثمَّ طبعته وزارة التراث القومي والثقافة، بسلطنة عُمان من سنة 1982م إلى 1987م، وهي التي نشير إليها في بعض الهوامش بالطبعة العُمانيَّة. وكلُّها بدون تحقيق. وأمَّا بتحقيقنا فقد طبعناه في الجزائر بين سنتيْ 1417هـ/1996م و 1424هـ/ 2003م، ثمَّ طبعته وزارة التراث العُمانيَّة تصويرًا من تحقيقنا سنة 1425هـ/2005م. ثمَّ طبعته تصويرًا كذلك وزارة الثقافة الجزائريَّة، سنة 1433هـ/2012م.

2 ـ تصويب هِنَات كانت في الطبعة السابقة، سواء في سقط بعض الكلمات، أو ضبطها، أو في وضع علامات ترقيم في غير محلِّها، ممَّا يشوِّش الفهم على القارئ. وهذه الهنات لم تكن كثيرة، بتوفيق الله، ولا يخلو منها أيُّ عمل بشريٍّ، والكمال لله وحده، لا سيما وأنَّ العمل طويل، وأسلوب الشيخ دقيق، يحتاج ـ في كثير من الأحيان ـ إلى تركيز عميق، وكتابته صعبة القراءة في معظم ما كتبه بخطِّ يده. (ينظر نموذج من خطِّه في صورة من نسخة «د»).

3 ـ إضافة ترتيب نزول السور في بداية تفسيرها، معتمدين على مصحف «رودوسي»، مثل: «سورة كذا.... مدنيَّة إلَّا آية كذا.... فمكِّيَّة، نزلت بعد سورة كذا...».

4 ـ تعديل أو إضافة بعض الموضوعات لبعض الفقرات: [لغة]، [نحو]...

5 ـ إخراج الكتاب في شكل أنيق، واستخدام الألوان في الطباعة.

ولا بدَّ من الاعتراف بالفضل لأولي الفضل، ونعني به وزارة التراث والثقافة لسلطنة عُمان الحبيبة، حيث تكرَّمت بنشر هذه الطبعة؛ فللقائمين عليها أسمى عبارات الشكر والامتنان، ولا تفي كلماتنا بما يُكنُّه الجَنان، من تقدير وثناء وعرفان، ولنترك الأمر للواحد الديَّان، أن يجزل لهم الثواب في فراديس الجِنان، ويكرمهم وإيَّانا بالزلفى والرضوان.

لجنة التحقيق

يوم الجمعة 8 محرَّم 1439هـ

29 سبتمبر 2017م

عملنا في الكتاب

لقد تتبَّعنا في تحقيق الكتاب وإخراجه للطبع في ثوبه الجديد الخطوات الآتية:

1 ـ تصحيح الكتاب وتحقيق النصّ فيه بالمقابلة بين النسخ المعتمدة، وإذا أشكلت علينا جملة أو كلمة ولم يتَّضح لنا وجه الصواب فيها ننبِّه إلى ذلك بكلمة (هكذا في النسخ)، أو بإدراج الكلمة التي ظهرت لنا أنَّها تصوِّب العبارة، ووضعها بين معقوفين لأنَّها منَّا هكذا: [...].

2 ـ تخريج الأحاديث المذكورة في الكتاب، وبيان موضعها في مشاهير كتب الحديث والتفسير.

3 ـ تخريج الآيات التي يوردها المصنِّف أثناء البحث، والإشارة إلى السورة ورقم الآية؛ حتَّى يمكن للقارئ الرجوع إليها إن شاء.

4 ـ التعريف ببعض الأعلام الذين ذكرهم المصنِّف، ويظهر لنا أنَّها مجهولة لا يعرفها القارئ، ولا نتعرَّض لمشاهير الأعلام.

5 ـ وضع عناوين جانبيَّة لبعض البحوث التي يتعرَّض لها المؤلِّف بشيء من التفصيل أخذا بيد القارئ، وخدمة له. وهي هكذا: [أسباب النزول]، [أصول الدين]، [فقه]، [نحو]، [لغة]، [بلاغة]، [قصص]...

6 ـ وضع فهرس في آخر كلِّ جزء للمسائل الفقهيَّة التي تعرَّض لها المصنِّف، وفهرس آخر للمسائل الأصوليَّة، دون بقيَّة البحوث.

7 ـ تقسيم الآيات إلى مقاطع، ووضع عنوان مناسب لكلِّ مقطع، وإدخال ذلك ضمن عمل المؤلِّف، وقد اخترنا في ذلك صنيع الدكتور وهبة بن مصطفى الزحيلي في كتابه «التفسير المنير»، واتَّبعنا خطواته في الغالب.

8 ـ وضع فهرس عامٍّ لمواضيع تلك المقاطع والعناوين التي اخترناها لها حسب ورودها في النص القرآني.

9 ـ **اعتذار**: قد توجد أحيانا بعض كلمات لم ترسم على خطِّ المصحف العثماني، وقد أجاز المحقِّقون ذلك في غير المصاحف القرآنية.

وصف النسخ المعتمدة

النسخة الأولى (أ):

وهي نسخة من الطبعة الحجريَّة في مكتبة المرحوم الشيخ حَمُّو بابا وموسى الداوي[1].

وقد عُرضت النسخة على المؤلِّف من تلميذه صاحب المكتبة، ووضع فيها تعاليقَ استفدنا من بعضها، وتصحيحات القطب للطبعة الحجريَّة بخطِّ يد صاحب المكتبة وذلك سنة 1327هـ.

والطبعة الحجريَّة كانت في حياة المؤلف قبيل وفاته وذلك سنة 1326هـ، من عمل الحاج عمر بن حاج إبراهيم العطفاوي، والحاج محمَّد بن الحاج صالح اليزقني.

---

(1) هو الشيخ **حمُّو بن باحمد باباوموسى الداوي** (ت: 1376هـ/1957م)، وهو من أبرز تلاميذ القطب، وقد كوَّن مكتبة ثريَّة بنفائس المخطوطات، منها بعض مؤلَّفات الشيخ اطفيَّش. وتولَّى مشيخة المسجد الكبير بغرداية، والإفتاء والتدريس فيه لمدَّة طويلة، رَحِمَهُ اللَّهُ.

النسخة الثانية (ب):

وهي مخطوطة تحمل المواصفات التالية:

الخطُّ: مغربيٌّ مقروء. لون الحبر: بنِّيٌّ، وأحمر أحيانا. الحجم: أربعة مجلَّدات. معلومات النسخ: دون اسم الناسخ، ودون تاريخ النسخ؛ المقاس: 24 سم × 17 سم؛ والملاحظ أنَّ في الهامش حواشيَ وزياداتٍ بخطِّ يد المؤلِّف، وهي مخرومة الآخر تنتهي عند تفسير الآية 24 من سورة الجنِّ.

تحصَّلنا على هذه المخطوطة من مكتبة الشيخ حمُّو باباوموسى أيضًا.

كتب على الورقة الأولى: «دخل ملك الفاضل أخانا سليمان بن سعد الله بالشراء من مؤلِّفه، وحبسه لوجه الله تعالى لا يباع ولا يشترى».

وقد ذكر أيضًا أنَّ مجموعة من تلامذة المؤلِّف استعاروا بعض كراريس ردَّت إليه وهم: إبراهيم بن بكير، وأخوه محمَّد، والحاج عمر بن حمو، وسليمان بن عبد الله.

النسخة الثالثة (ج):

تحصَّلنا عليها من مكتبة الشيخ الحاج عمر بن الحاج مسعود بالقرارة، وتحمل المواصفات التالية: الخطُّ: مغربيٌّ واضح. لون الحبر: بنِّيٌّ، وأحمر أحيانا. معلومات النسخ: دون اسم الناسخ، ودون تاريخ النسخ. المقاس: 24 × 17 سم. بدون حواش أو زيادات، يبدو أنَّهما حديثة النسخ.

كتب عليها اسم المالك وهو: الشيخ عمر بن الحاج مسعود بن يحيى بن عمر[1].

(1) وهو صاحب معهد قرآني، توفي رَحِمَهُ اللهُ بالقرارة سنة 1938م.

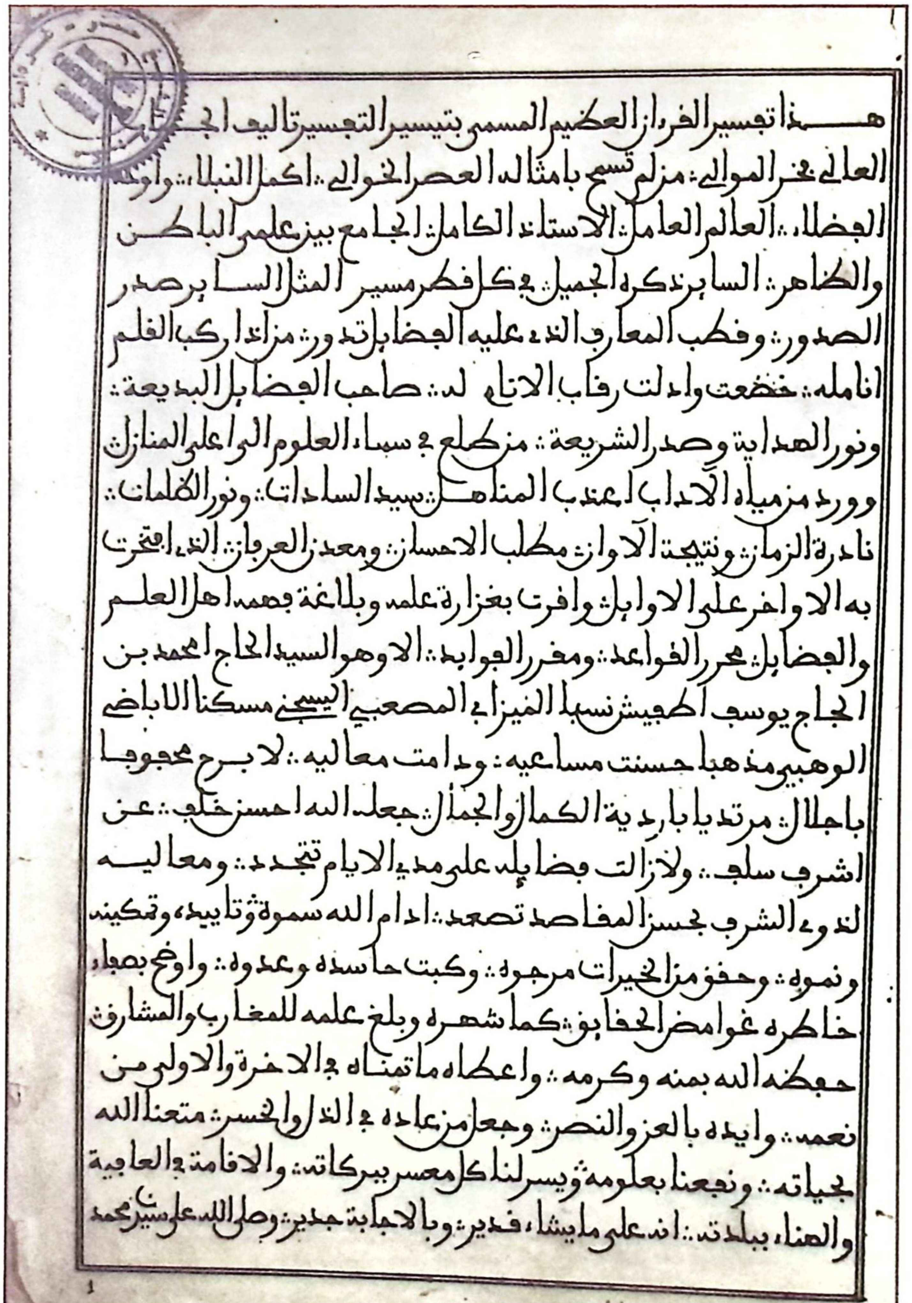
النسخة الرابعة (د):

تحصَّلنا عليها من مكتبـة القطب ببني يزقن، وهو المؤلِّف نفسـه، وهي مكتوبة بخطِّ يده، ولعلَّها تكون بمثابة النسخة الأمِّ للنسخ الأخرى.

وتحمل المواصفات التالية: الخطُّ: مغربي واضح. لون الحبر: بنِّيٌّ وأحمر أحيانًا. ليس فيها تاريخ النسخ ولا اسم الناسـخ. المقاس: 22 × 32 سم، فهي من الحجم الكبير في مجلَّد واحد يشمل 938 صفحة؛ عليها حواشٍ وزيادات بنفس الخطِّ؛ إلَّا أنَّها أقلُّ من الزيادات والحواشي التي في نسخة (ب).

وللمشـرفين على هذه المكتبات آيات الشـكر والثناء على ما أمدُّونا به، جزاهم الله خيرًا.

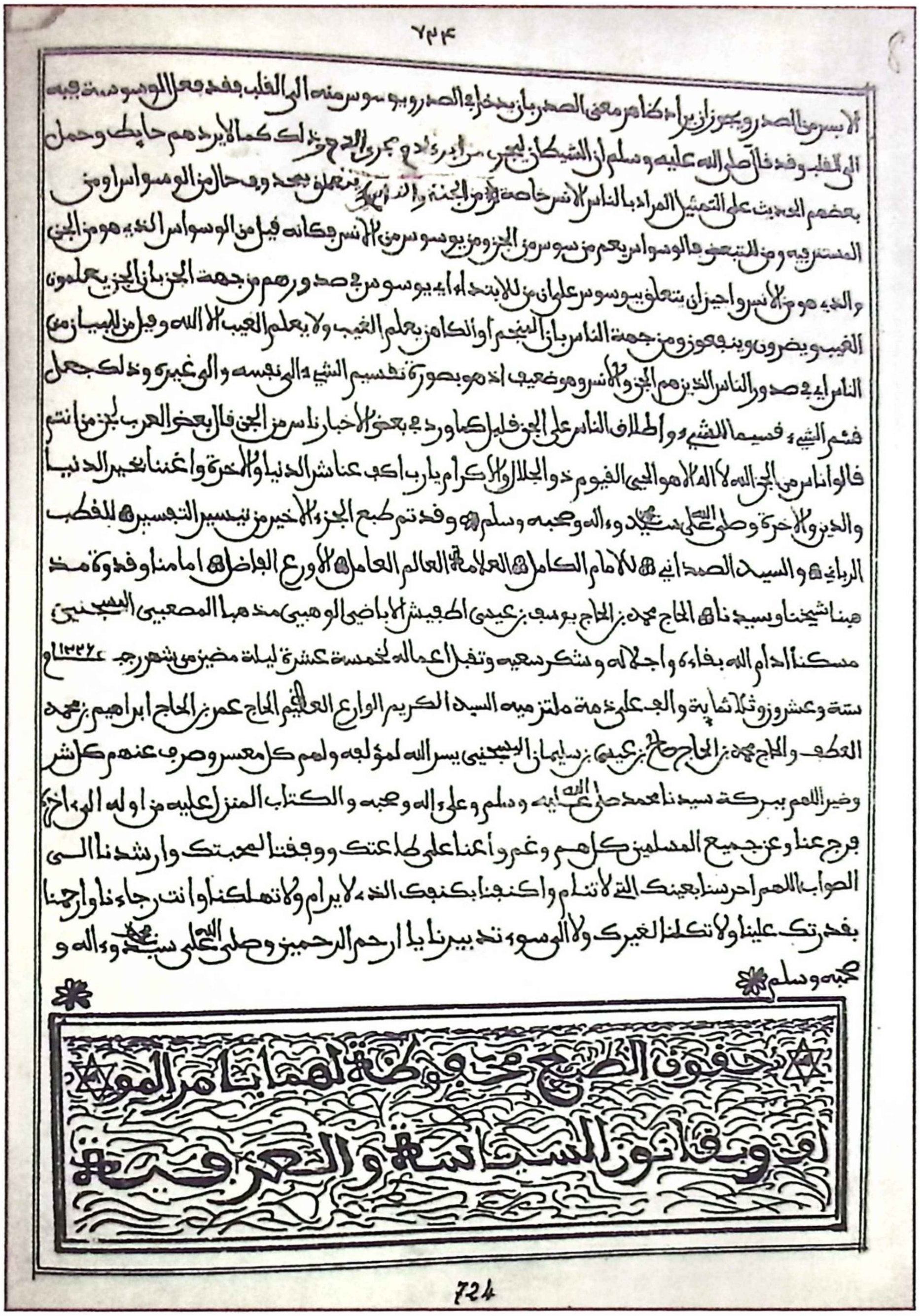
صور من النسخ المعتمدة
في التحقيق



هذا تفسير القران العظيم المسمى بتيسير التفسير تاليف الجهبذ
العالي فخر الموالي: من لم تسمح بامثاله العصر الخوالي: اكمل النبلاء: واوحد
الفضلاء: العالم العامل الاستاذ الكامل الجامع بين علمي الباطن
والظاهر: السائر ذكره الجميل في كل قطر مسير المثل السائر وصدر
الصدور: وقطب المعارف الذي عليه الفضائل تدور: من اذا ركب القلم
انامله: خضعت وذلت رقاب الانام له: صاحب الفضائل البديعة:
ونور الهداية وصدر الشريعة: من طلع في سماء العلوم الى اعلى المنازل
وورد من مياه الآداب اعذب المناهل: سيد السادات: ونور الكلمات:
نادرة الزمان: ونتيجة الاوان: مطلب الاحسان: ومعدن العرفان: الذي افتخرت
به الاواخر على الاوائل: واقرت بغزارة علمه وبلاغة فهمه اهل العلم
والفضائل: محرر القواعد: ومقرر الفوائد: الا وهو السيد الحاج امحمد بن
الحاج يوسف اطفيش نسبا الميزابي المصعبي اليسجني مسكنا الاباضي
الوهبي مذهبا حسنت مساعيه: ودامت معاليه: لا برح محفوفا
بالجلال: مرتديا باردية الكمال والجمال: جعله الله احسن خلف: عن
اشرف سلف: ولا زالت فضائله على مدى الايام تتجدد: ومعاليه
لذوي الشرف بحسن المقاصد تصعد: ادام الله سموه وتاييده وتمكينه
ونموه: وحقق من الخيرات مرجوه: وكبت حاسده وعدوه: واوضح بصفاء
خاطره غوامض الخفايا: كما شهره وبلغ علمه للمغارب والمشارق
حفظه الله بمنه وكرمه: واعطاه ما تمناه في الاخرة والاولى من
نعمه: وايده بالعز والنصر: وجعل من عاداه في الذل والخسر: متعنا الله
بحياته: ونفعنا بعلومه ويسر لنا كل معسر ببركاته: والاقامة في العافية
والهناء ببلدته: انه على ما يشاء قدير: وبالاجابة جدير: وصلى الله على سيدنا محمد

1

صورة الصفحة الأولى من النسخة (أ) طبعة حجريَّة صحَّحها القطب وأضاف فيها

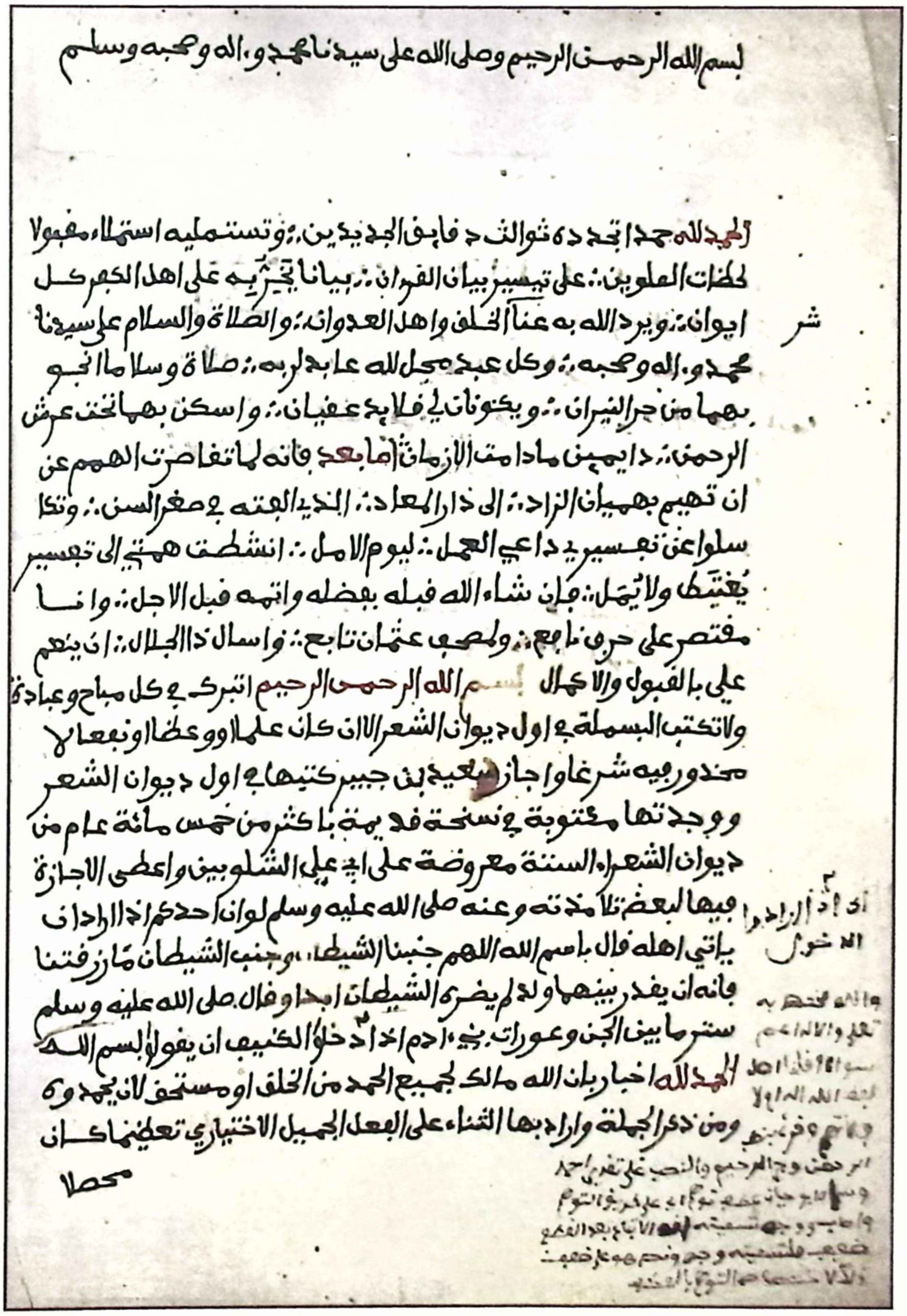

724

الا بسر من الصدر ويجوز ان يراد كاهر معنى الصدر بان يدخل في الصدر ويوسوس منه الى القلب فقد جعل الوسوسة فيه
الى القلب وقد قال صلى الله عليه وسلم ان الشيطان ليجري من ابن آدم مجرى الدم وذلك كما لا يرد هم حائط وحمل
بعضهم الحديث على التمثيل المراد بالناس الانس خاصة [ومن الجنة والناس] متعلق بيحد وفي حال من الوسواس او من
المستتر فيه ومن للتبعيض فالوسواس بعض من يوسوس من الجن ومن يوسوس من الانس فكانه قيل من الوسواس الذي هو من الجن
والذي هو من الانس واجيز ان تتعلق بيوسوس على ان من للابتداء اي يوسوس في صدورهم من جهة الجن بان الجن يعلمون
الغيب ويضرون وينفعون ومن جهة الناس بان المنجم او الكاهن يعلم الغيب ولا يعلم الغيب الا الله وقيل من للبيان من
الناس اي في صدور الناس الذين هم الجن والانس وهو ضعيف اذ هو بصورة تقسيم الشيء الى نفسه والى غيره وذلك جعل
قسم الشيء قسيما للشيء واطلاق الناس على الجن قليل كما ورد في بعض الاخبار ناس من الجن قال بعض العرب لجن من انتم
قالوا ناس من الجن الله لا اله الا هو الحي القيوم ذو الجلال والاكرام يا رب اكف عنا شر الدنيا والآخرة واغننا بخير الدنيا
والدين والآخرة وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم وقد تم طبع الجزء الاخير من تيسير التفسير للقطب
الرباني والسيد الصمداني الامام الكامل العلامة العالم العامل الاورع الفاضل امامنا وقدوتنا مقتدا
فينا شيخنا وسيدنا الحاج محمد بن الحاج يوسف بن عيسى اطفيش الاباضي الوهبي مذهبا المصعبي اليسجني
مسكنا ادام الله بقاءه واجلاله وشكر سعيه وتقبل اعماله لخمسة عشرة ليلة مضين من شهر رجب عام ١٣٢٦
ستة وعشرين وثلاثمائة والف على ذمة ملتزميه السيد الكريم الوارع العليم الحاج عمر بن الحاج ابراهيم بن محمد
العطف والحاج محمد بن الحاج صالح بن عيسى بن سليمان اليسجيني يسر الله لمؤلفه ولهم كل معسر وصرف عنهم كل شر
وضير اللهم ببركة سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم وعلى آله وصحبه والكتاب المنزل عليه من اوله الى آخره
فرج عنا وعن جميع المسلمين كلهم وغم واعنا على طاعتك ووفقنا لمحبتك وارشدنا الى
الصواب اللهم احرسنا بعينك التي لا تنام واكنفنا بكنفك الذي لا يرام ولا تهلكنا وانت رجاءنا وارحمنا
بقدرتك علينا ولا تكلنا لغيرك ولا الى سوء تدبيرنا يا ارحم الراحمين وصلى الله على سيدنا محمد وآله و
صحبه وسلم

حقوق الطبع محفوظة لهما بامر الموافق قانون السياسة والعرفية

724

صورة الصفحة الأخيرة من النسخة (أ)



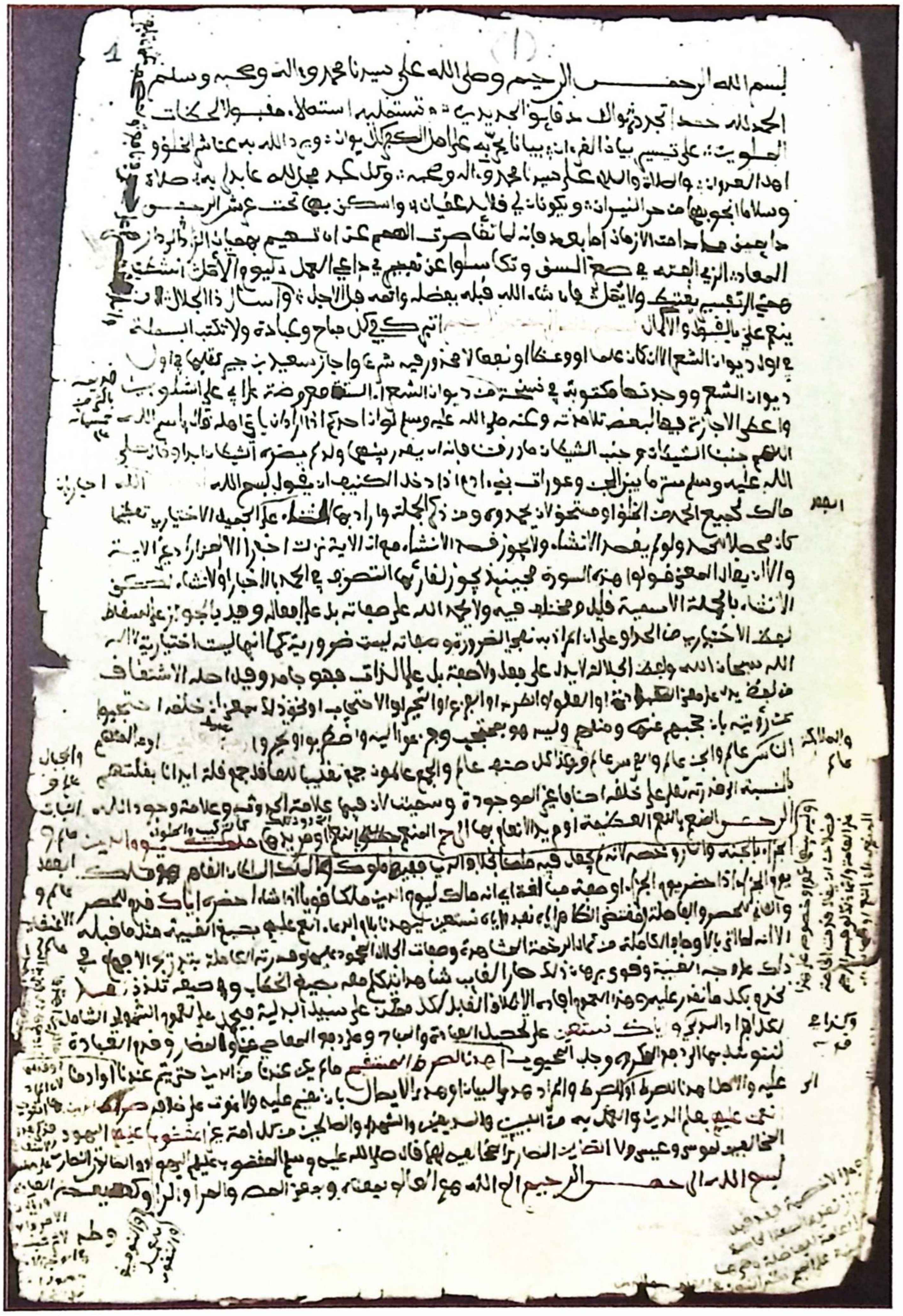
بسم الله الرحمن الرحيم وصلى الله على سيدنا محمد وءاله وصحبه وسلم

الحمد لله حمدا تجدده ثوالث دقايق الجديدين، وتستمليه استملاء مفهوما لحظات الملوين، على تيسير بيان القرءان، بيانا تجري به على اهل الكفر كل ايوان، ويرد الله به عنا الخلق واهل العدوان، والصلاة والسلام على سيدنا محمد وءاله وصحبه، وكل عبد محل لله عابد لربه، صلاة وسلاما ننجو بهما من جر النيران، ونكون بهما في قلايد عقيان، واسكن بهما تحت عرش الرحمن، دايمين ما دامت الازمان، اما بعد فانه لما تقاصرت الهمم عن ان تهيم بهميان الزاد، الى دار المعاد، الذي الفته في صغر السن، وتكاسلوا عن تفسيري داعي العمل، ليوم الامل، انشطت همتي الى تفسير يغنيك ولا يمل، وان شاء الله قبله بفضله واتمه قبل الاجل، وانا مقتصر على حرف نافع، ولمصحف عثمان تابع، واسال ذا الجلال، ان ينعم علي بالقبول والاكمال بسم الله الرحمن الرحيم اتبرك في كل مباح وعبادة ولا تكتب البسملة في اول ديوان الشعر الا ان كان علما او وعظا او نفعا لا محذور فيه شرعا واجاز سعيد بن جبير كتبها في اول ديوان الشعر ووجدتها مكتوبة في نسخة قديمة باكثر من خمس مائة عام من ديوان الشعراء الستة معروضة على ابي علي الشلوبين واعطى الاجازة فيها لبعض تلامذته وعنه صلى الله عليه وسلم لو ان احدكم اذا اراد ان ياتي اهله قال باسم الله اللهم جنبنا الشيطان وجنب الشيطان ما رزقتنا فانه ان يقدر بينهما ولد لم يضره الشيطان ابدا وقال صلى الله عليه وسلم ستر ما بين الجن وعورات بني ادم اذا دخل الكنيف ان يقول بسم الله الحمد لله اخبار بان الله مالك لجميع الحمد من الخلق او مستحق لان يحمد و... ومن ذكر الجملة واراد بها الثناء على الفعل الجميل الاختياري تعظيما كان محصلا

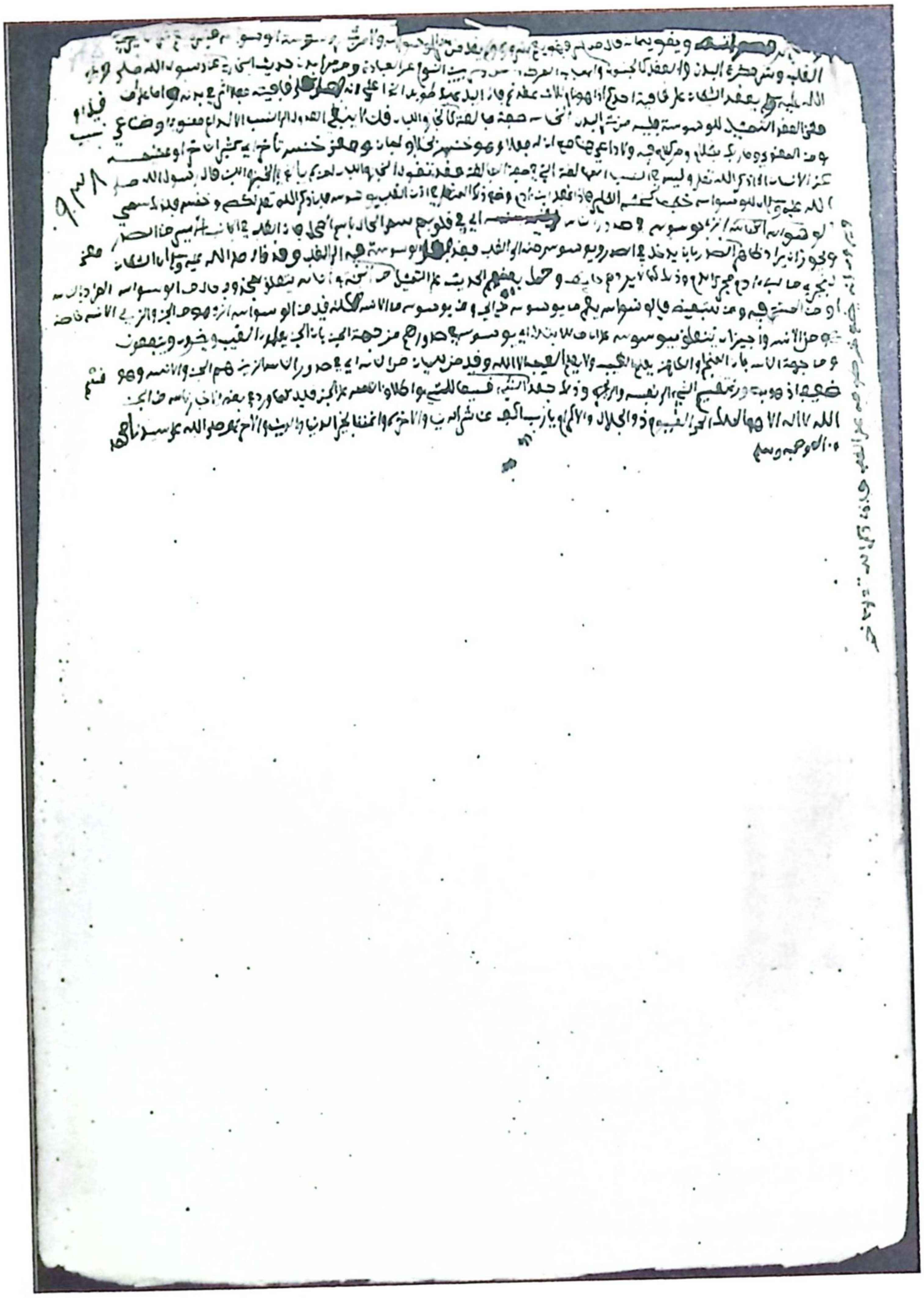
صورة الصفحة الأولى من النسخة (ب) وتظهر في الحاشية إحدى إضافات القطب بخطِّ يده

تقديم معمول المصدر الظرفي عليه ولو انحل إلى الفعل وحرف المصدر والالتحاد
الميل والانحراف وقد فسر الكلبي ملتحدا بمدخل في الأرض والسدي بالحرز
وهذا وما قبله بيان منه في عجزه عن أمر نفسه وقوله لا أملك بيان لعجزه
عن أمر غيره إلا بلاغا من الله ورسالاته استثناء متصل من قوله لا أملك
والفصل بما بينهما ولو طال لا يضر لأنه مناسب وتأكيد وإن فسرنا الضر
والرشاد بالغي والصلاح كان الاستثناء منقطعا أو من تأكيد المدح
بما يشبه الذم فيرجع إلى الاتصال كقوله :. ولا عيب فيهم غير أن سيوفهم
بهن فلول من قراع الكتائب :. وذلك بالنظر إلى ضرا في لا أملك لكم ضرا
إلا بلاغا الخ وإن استثني من ملتحدا كان منقطعا لأن البلاغ والرسالات
ليست من الملتحد وعن الحسن أن الاستثناء منقطع أي لن يجيرني أحد لكن
إن بلغت رحمني ربي وقيل المعنى لن أجد شيئا أعتصم به إلا أن أبلغ فهو
متصل ومن للابتداء أو بمعنى عن كما قال صلى الله عليه وسلم بلغوا عني
ولو آية وما تقدم أولى والمعنى لا أملك لكم إلا تبليغا منه أو عنه ورسالاته
التي أرسلني بها الله عز وجل وقيل رسالات معطوف على لفظ الجلالة
أي إلا أن أبلغ عن الله وعن رسالاته ومن يعص الله ورسوله بالإشراك
أو بالكبيرة مصرا عليها فإن له للعاصي واللام للاستحقاق نار جهنم
خالدين حال مقدرة من ضمير الاستقرار والجمع لمعنى من فيها أبدا بلا نهاية
حتى إذا رأوا ما يوعدون من الوعد لأنه يستعمل في الشر والخير أو من الوعيد
أو من الإيعاد والمراد عذاب جهنم وقيل يوم بدر ويدل للأول قوله قل
إن أدري أقريب الخ فإنه رد للمشركين في إنكار البعث فإن النضر بن الحرث
قال متى يكون يوم القيامة فأوحى الله عز وجل قل لهم هو واقع لا محالة
ولا أدري وقته كما في الآية بعد وحتى حرف ابتداء ولا تخلو عن غاية والتفريع
من وادي الغاية وكأنه قيل فإذا رأوا فالحاصل أنهم لا يزالون مكذبين
فإذا رأوا العذاب المعد لهم وقدر بعض دعهم حتى إذا الخ وهو ضعيف وأجاز
بعض أن يكون غاية لقوله يكونون عليه لبدا إن فسر بالتلبد على الكفر ولو
طال

صورة الصفحة الأخيرة من النسخة (ب)


بسم الله الرحمن الرحيم وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم

صورة الصفحة الأولى من النسخة (د) بخطِّ المؤلِّف



صورة الصفحة الأخيرة من النسخة (د) بخطّ المؤلّف

ترجمة المؤلف

قطب الأئمَّة الشيخ امحمَّد بن يوسف اطفيَّش، اليسجني

(1237 ـ 1332هـ/ 1818 ـ 1914م)

في مدينة غرداية العريقة[1]، بشمال صحراء الجزائر، ولد الشيخ امحمَّد بن يوسف بن عيسى بن صالح، اطفيَّش لقبًا[2]، وهو من عشيرة آل با امْحَمَّد ببني يزقن، وينتهي نسبه إلى الحفصيِّين بتونس[3].

والـده مـن أعيـان زمانه، مـارس التجـارة فـي شـمال الجـزائر ثـمَّ في ميزاب.

وأمُّه هي السيدة: مامه سَـتِّي بنت الحاج سعيد بن عدُّون، من عشيرة آل يدَّر ببني يزقن، وكانت من خيرة نساء زمانها.

توفِّي الوالد قبل أن يرى ابنَـهُ يدرج إلى حلقات العلم، وهو يتمنَّى أن يكون أحد علماء زمانه، إذ كثيرًا ما ذكر ذلك لأصدقائه، فشمَّرت الأمُّ عن ساعد الجدِّ لتربية ابنها وتحقيق الآمال المرجوَّة فيه.

---

(1) **نهضة الجزائر الحديثة**، لمحمَّد علي دبُوز، ج 1، ص 290.

(2) هذه الكلمة بربريَّة مركَّبـة تركيبا مزجيًّا معناها: (خُذْ ـ تَعَـالَ ـ كُلْ). **الأعلام** للزركلي، ج 8، ص 32.

(3) وينهي القطب نسـبه إلى عمر بن الخطَّاب العدويّ ﷺ في قصيدة له. ينظر: أبو إسحاق إبراهيم في تقديمه **للذهب الخالص**؛ ومحمَّد علي دبُوز في **النهضة**.

أسرتـه:

للقطب اطفيَّش ثلاثة إخوة ذكور: موسى وعيسى تاجران، وإبراهيم عالم وهو شيخه، وقد توفِّيت له شقيقتان في صغره، وذلك حين نشأته الأولى بغرداية[1].

وما لبثت أن عادت به الأمُّ بعد وفاة الأب إلى موطنه الأصليِّ بني يزقن، وقد حُظي بالرعاية الكافية والحنان طوال حياته مع أمِّه.

تعلُّمه:

في سنة 1224هـ/ 1823م ألحقته أمُّه بأحد الكتاتيب القرآنيَّة، فتخرَّج فيه حافظا لكتاب الله وَلَمَّا يبلغ التاسعة من عمره، فتكوَّنت لديه شهيَّة عجيبة للقراءة والكتابة، ورغبة ملحَّة في حضور مجالس العلماء، وغشيان حلقاتهم في دُور العلم وفي المساجد، وقد أتاح الله له الفرصة في أن يحضر كثيرا من حلقات العلم لمشايخ عصره في وادي مزاب منهم:

1 ـ أخوه الأكبر الشيخ إبراهيم بن يوسف[2]، وذلك أوان رجوعه من رحلته المباركة في طلب العلم بعُمان ومصر والمغرب، وقد أخذ عنه أكثر مبادئ العلوم التي نبغ فيها.

2 ـ الشيخ الحاج محمَّد بن عيسى ازْبَار[3]، بعدما رجع من عُمان، وقد حضر دروسه بمسجد بني يزقن.

---

(1) **السلاسل الذهبية** لإبراهيم بن أبي بكر حفَّار، ص18 ـ 19.

(2) هو **الشيخ إبراهيم بن يوسف بن عيسى بن صالح اطفيَّش** (ت: 1303هـ/1886م): عالم ومدرِّس بمسجد بلده، ترك مؤلَّفا عنوانه: مختصر المناسك للجيطالي.

(3) هو **الشيخ محمَّد بن عيسى ازبار** (ت: 1296هـ/1872م): عالم وموجِّه، وقد خلَّف مكتبة ثريَّة بنفيس المخطوطات.

3 ـ الشيخ الحاج سعيد يوسف وينتن[1]، ببني يزقن.

4 ـ الشيخ سليمان بن عيسى عدُّون[2]، حضر دروسه في مسجد بني يزقن.

5 ـ الشيخ بابا بن يونس[3]، في المسجد العتيق بغرداية، ويذاكر معه في غار بجبل موزْكي.

6 ـ الشيخ الحاج أحمد بن داود أمعيز[4].

وفي أوقات الفراغ كان يغشى المكتبات ويلتهمها التهاما، حتَّى إنَّه كان إذا بدأ في دراسة فنٍّ من العلم عند أحد المشايخ، أتمَّه وحده، وطلب الانتقال إلى كتاب أوسع في ذلك الفنِّ.

زواجه:

تزوَّج القطب[5] ثلاث نسوة وجمع بينهنَّ، وهو أب لتسعة أولاد، ويعتبر زواجه مدرسة من المدارس التي أسهمت في تكوينه، فثلاثتهن من بنات العلماء ذوات الصلة بالعلم والكتب، وما أعزَّها في ذلك الزمان.

---

(1) هو الشيخ سعيد بن يوسف بن عدّون وينتن اليسجني، المعروف بـ: الحاج سعيد انْ بافو (حيٌّ في 1296هـ/1879م).

(2) هو الشيخ سليمان بن عيسى اليسجني (1230 ـ 1265هـ/1814 ـ 1848م)، شيخ عالم، تولَّى إمامة الدفاع، ومشيخة بلدته وميزاب عامَّة.

(3) هو الشيخ بابا بن يونس الداوي (النصف الثاني ق 13هـ/19م): شيخ لغرداية، وأحد أساطين الإصلاح في زمانه.

(4) هو الشيخ الحاج أحمد بن داود امعيز (حي في: 1322هـ/1907م): من علماء مليكة، له باع في علم الفلك، وقد أخذ عنه القطب أسس هذا الفنِّ.

(5) أَختارُ لقب القطب للشيخ مثلما اختاره الأستاذ الباحث يحيى بوتردين، وأوَّل من لقَّبه بهذا اللقب صديقه العالم الشيخ نور الدين أبو محمَّد عبد الله بن حميد السالمي العُماني (ت: 1332هـ/1914م).

كفاحه في سبيل العلم وخدمة الشريعة:

لم يلبث القطب أن فتح خلال تكوينه العصاميِّ المتواصل جبهات متعدِّدة لإعلاء كلمة الله: من نشـر العلم وتعليمه، وخدمة الشريعة ونصرتها، ومحاربة البدع والرذائل، وذلك بكلِّ إخلاص وتفانٍ وثبات.

فنخصُّ بالذكر من بين آثاره العلميَّة والعمليَّة:

1 ـ التدريس ونشر العلم:

فتح القطب داره للتعليم وَلَمَّا يبلغ العشرين من عمره، واستمرَّ على ذلك إلى أن وافته المنيَّة، فتوالت على حلقاته العامرة طيلة حياته التعليميَّة حشـودٌ من الطلبة من جميع قرى وادي مزاب، ووارجلان، وجربة، وجبل نفوسة.

فكانت دروسه تستمرُّ طيلة أيَّام الأسبوع ما عدا يوم الجمعة.

وطريقته في ذلك هو أن يكلِّف لكلِّ فن من فنـون العلم طالبا يختصُّ به ليقرأ النصَّ ـ نـصَّ الكتاب المـدرَّس ـ أمامـه في حصَّة الدرس، فيشـرحه للحاضرين، يتولَّى الشيخ التعليق والشرح، وهو لا يملُّ من التكرار والتوضيح، حتَّى يفهم الطلَّاب. ويقول تلميذه الشيخ إبراهيم بن بكير: «إنَّه كان يجمع في النصف الأوَّل من النهار في المسـجد والمدرسـة بين عديد مـن الفنون في حصص»، وغالبا مـا يعتمد في التدريس الكتب التي ألَّفهـا، فإن لم تكن فإنَّه يقرِّر إحدى الكتب في ذلك الفنِّ أو يؤلِّف لهم.

فقد كان رَحِمَهُ اللهُ رجل علم وبحث وتحقيق وكتابة.

2 ـ الفتوى:

يخصِّص الشـيخ الفترة المسـائيَّة من كلِّ يوم للإجابة عن الأسـئلة الفقهـيَّة، والنوازل التي توجَّه إليـه من داخل مزاب وخارجه، ومن داخل

الجزائر وخارجها: كعُمان، وليبيا، وتونس، وزنجبار، وحتَّى من إسطنبول ومصر.

وعندما تقدَّم به السنُّ اتَّخذ كُتَّابا لتحرير الأجوبة، ومن هؤلاء نذكر: الشيخ الحاج سليمان مطهري(1)، والشيخ حمُّو بابه وموسى المتقدِّم ذكره رحمهم الله.

3 ـ الوعظ والإرشاد:

لقد انضمَّ القطب إلى حلقة العزَّابة بمسجد بني يزقن في زمن الشيخ الحاج سليمان بن عيسى عدُّون، فارتقى في مهامِّ الحلقة إلى أن تولىَّ مشيختها خلَفا لشيخه الحاج محمَّد أزبار المتوفَّى 1872م 1296هـ(2)؛ فأصبح يلقي دروسا في المسجد بعد صلاة الصبح إلى شروق الشمس حسب العادة المتَّبعة، يتعرَّض فيها لاستنهاض الهمم ونشر التعاليم الإسلاميَّة ومحاربة البدع والآفات الاجتماعيَّة، فتمكَّن بذلك من تقويم المجتمع ودفعه إلى جادَّة القرآن الكريم، والسنَّة النبويَّة، وسيرة السلف الصالح.

4 ـ التأليف:

أثناء هذا العمل الدؤوب كان القطب رَحِمَهُ اللَّهُ يخصِّص الحظَّ الأوفر من وقته للتأليف والكتابة، فهو فارس قلم وكتابة، كما كان رائد علم وتربية، لا يستريح من النظر إلَّا إلى التحقيق، ولا من البحث إلَّا إلى التأليف

---

(1) هو الشيخ سليمان بن أبي بكر بن الحاج أيُّوب المطهري المليكي (1862 ـ 1948م): عالم من مليكة، وأحد شيوخها، ترك مكتبة ثريَّة بنفيس المخطوطات، خاصَّة كتب شيخه قطب الأئمَّة. وقد لازمه مدَّة اثنين وعشرين سنة.

(2) يرى الأستاذ يوسف الحاج سعيد أنَّه خلَّف الشيخ الحاج محمَّد بن يحيى باحيُّو في المشيخة في نفس التاريخ. ينظر: **تاريخ بني مزاب**، ص 134.

والتعليق، فهو يعي الوعي كلَّه بأنَّه: «يذهب العقل ويبقى أثره، ويفنى العلم وتبقى كتبه» ـ كما قال الجاحظ ـ.

وقد كان يستغلُّ الفترة اللَّيلية لمهامِّ التأليف، عندما تهدأ الأصوات وتسكن الحركات.

ويقول أحد تلامذته، وهو الشيخ أبو اليقظان: «إنَّه لم يكن يؤلِّف كتابا بعد كتاب، بل كان يؤلِّف عدَّة كتب في فنون مختلفة في وقت واحد، حتَّى إذا ملَّ من فنٍّ روَّح عن نفسه في مؤلَّف آخر، وهكذا دواليك إلى أن ينتهي»[1].

وقد كان يؤلِّف في الحضَر والسفَر، في وقت الشدَّة والرخاء، حفاظا على وقته الثمين[2]، ولا يفوته مع هذا حضور الصلوات الخمس في المسجد مع الجماعة، ويحثُّ تلاميذه على ذلك.

أمَّا اليوم الأخير من الأسبوع ـ يوم الجمعة ـ فقد اتَّخذه راحة يقضي نهاره في بستانه أحيانا. وفي العشريَّة الأخيرة من عمره ألحق به يوم الخميس ليوفِّر للتأليف أوقاتا أكثر وجهدا أوفر[3].

5 ـ مكانته العلميَّة:

تمكَّن القطب بفضل عصاميَّته المتمكِّنة، وعزيمته الصادقة، وإخلاصه الشديد، وطموحه الواسع، من الوصول إلى درجة الاجتهاد ولم يتجاوز الستِّين من عمره.

---

(1) **ملحق السير لأبي اليقظان**، ص157.

(2) **نهضة الجزائر لمحمَّد علي دبُوز**، ج1، ص308.

(3) **السلاسل الذهبية لإبراهيم بن أبي بكر**، ص46.

وقد أشار في إحدى تآليفه إلى هذا المعنى، فقال: «وقد كنت أجتهد بالقياس على أصل أمامي، ولا أكاد أصيب إلَّا قولا يوافق ما قلت والحمد لله، ثمَّ انتقلت عن هذه الدرجة إلى ما فوقها والحمد لله»[1].

ويقول الشيخ أبو اليقظان: «ناقش علماء الحرم وتباحث معهم فشهدوا له بالتفوُّق العلمي»[2]. يعني بذلك: الشيخ زيني دحلان، والشيخ حسبي الله الشافعي، والشيخ إبراهيم حقِّي الحنفي، والشيخ عليش المالكي[3].

وقد عرف الشيخ محمَّد عبده المصري قدر القطب فعظَّمه واحترمه، وقد جاء ذلك في بعض مراسلات كانت بينهما[4].

6 ـ مراسلاته ورحلاته:

لم يخرج القطب من بلده ميزاب إلَّا عندما سافر إلى البقاع المقدَّسة لأداء فريضة الحجِّ، وقد كان ذلك مرَّتين، الأخيرة منهما في أوائل القرن، وقد زار في طريقه بعض الحواضر العلميَّة مثل: جامع الزيتونة بتونس، والجامع الأزهر بمصر؛ وألقى دروسا في الحرم المدني[5].

وكانت له زيارات محلِّيَّة يقوم بها في فصل الخريف والربيع إلى القرارة وبريان وورجلان لنشر العلم وترسيخ العقيدة في أوساط العموم لبعدهم عن الاتِّصال به، وعن مقرِّ عمله، مع نقص وسائل الاتِّصال وندرتها آنذاك[6].

---

(1) **شامل الأصل والفرع**، ج 1، ص 13.

(2) **ملحق السير**، ص 159.

(3) **رسالة الردِّ على العقبي للقطب**، ص 9 ـ 10.

(4) **السلاسل الذهبية لإبراهيم بن أبي بكر حفَّار**، ص 10.

(5) **نهضة الجزائر لدبُّوز**، ج 1، ص 352.

(6) **تاريخ بني مزاب للحاج سعيد**، ص 136.

وقد ولع بالمراسلات العلميّة مع علماء وملوك عصره، ومع أنصاره في الجزائر، وفرنسا، ولندن، ومصر، والحجاز، وزنجبار، وعُمان، والبحرين، وتركيا، وجبل نفوسة، وليبيا، وتونس، والمغرب الأقصى.

كما زاره بعض من أعيان زمانه مثل سليمان بن الناصر اللمكي أمير دار السلام بزنجبار سنة 1900م، والزعيم سليمان الباروني باشا، وكان قد تتلمذ على الشيخ في فتوّته.

7 ـ وفاته:

بعد هذا العمل الجبّار في الحقل العلميّ، والصراع المرير محاربة للجهل والرذيلة اختاره الله إلى جواره الكريم في فجر يوم السبت 23 ربيع الثاني 1332هـ/ 21 مارس 1914م عن عمر يناهز 96 عاما، بعد مرض خفيف وحمّى ألمّت به لبعض الأيّام، فبكاه القريب والبعيد، والعدوُّ والصديق، واهتزّ عرش العلم والدين لفقده وغيابه، وتنافس الخطباء والشعراء في ذكر مناقبه الجليلة، ومآثره العظيمة ولا يزالون.

وضريحه معروف في مقبرة بامحمد ببني يزقن.

تغمّده الله برحمته الواسعة، وأسكنه فسيح جنانه، ﴿مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللهُ عَلَيْهِم مِّنَ النَّبِيئِينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَآءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُوْلَئِكَ رَفِيقًا﴾ [سورة النساء: 69]. آمين.

8 ـ آثاره من بعده[1]:

من آثار القطب في مسيرته العلميَّة والعمليَّة المباركة نذكر ما يأتي:

أ) في التدريس:

تخرَّج فـي حلقاته العامـرة مشـايخ وأئمَّة، ودعـاة وأسـاتذة، وقضاة ومجاهـدون، فهؤلاء إمَّـا تلقَّوا عنه العلم مباشـرة أو بواسـطة تلامذته، من الجزائر وتونس وليبيا وعُمان وزنجبار، وقلَّ أن نجد من المشـايخ من تَهيَّأ له من الطلَّاب والعلماء الذين بلَّغـوا الأمانة وواصلوا المسـيرة العلميَّة بعدهم مثلما تهيَّأ للقطب رَحِمَهُ ٱللَّهُ[2].

ب) في التأليف:

ألَّف القطب في كثير من علوم الشريعة، وفي اللُّغة، والشعر، والتاريخ، والمنطق، والحسـاب، والفلسـفة، والفلـك، والأخلاق، بـل وحتَّى في الفلاحة، والطبِّ.

وقد عدَّ بعضهم مؤلفاتـه فوجدها تتجاوز ثلاثمائـة مؤلَّف ما بين صغير وكبير ومتوسِّط[3]، وهي في غالبها إمَّا شرح لمختصر، أو اختصار لموسَّع، أو حاشية على شرح سابق.

---

(1) للتوسُّع في آثار القطب العلميَّة، وفي شخصيته البارزة انظر الدراسات الأكاديمية التي أُلِّفت حوله، ومنها: **الفكر السياسي عند الإباضيَّة من خلال آراء الشيخ امحمَّد بن يوسف اطفيَّش** لجهلان عدون رَحِمَهُ ٱللَّهُ؛ **الشـيخ امحمَّد بن يوسف اطفيَّش ومذهبه في تفسـير القرآن الكريم (التيسير) مقارنة إلى تفسير أهل السـنَّة**؛ ليحيى بوتردين؛ **الشيخ اطفيَّش ومنهجه في تفسير القرآن الكريم (هميان الزاد)** لعكّي علواني؛ **آراء الشـيخ امحمَّد بن يوسف اطفيَّش العقديَّة** لمصطفى وينتن. وكلُّها رسائل ماجستير.

(2) عن أسماء هؤلاء العلماء راجع المصادر المعتمدة في هذه الترجمة.

(3) **ملحق السير** لأبي اليقظان. غير أنَّ الباحث مصطفى وينتن حقَّق أنَّ عدد مؤلَّفات القطب هو: 106 مؤلَّفا. إلى جانب المراسلات الكثيرة.

وأمَّا الرسائل والردود والأجوبة والفتاوى فهي تعدُّ بالمئات لو جمعت لتكوَّنت منها موسوعة علميَّة مفيدة، وقد وصل بها إلى جميع أصقاع العالم آنذاك.

وناهيك عن موسوعته الفقهيَّة الرائدة في الفقه المقارن: **شرح النيل وشفاء العليل**، التي تعتبر العمدة في الفقه الإباضيِّ، في جميع أنحاء العالم اليوم.

وأمَّا عناوين كتبه فمنها المعروف، ومنها المفقود، ومنها المطبوع ومنها المخطوط[1].

فتجمَّع لدى القطب خلال المدَّة الطويلة من مسيرته العلميَّة مما ألَّفه وممَّا وصل إليه من مختلف المصادر مكتبة زاخرة بالمراجع والمصادر المعتمدة في علوم الشريعة واللغة العربيَّة تشهد له بتمكُّنه العلميِّ، وتفتُّح ذهنه وسعة أُفقه[2].

9 ـ شخصيته:

لقد تضافرت صفات مختلفة في تمييز شخصيَّة القطب اطفيَّش نذكر منها على سبيل العدِّ فقط:

الذكاء الوقَّاد، وقوَّة الحافظة، والاستمراريَّة في العمل، والشجاعة، والإخلاص للعلم وخدمته طاعةً لله، والغيرة الشديدة على الإسلام، والكرم والسخاء.

ولا يسمح لنا المقام للتوسُّع في بيان هذه الخلال الحميدة، والاستدلال على تمكُّنها منه رَحِمَهُ اللَّهُ.

---

(1) عن عناوينها راجع **دليل مخطوطات وادي ميزاب** لجمعية التراث، جزء مكتبة القطب والأجزاء الأخرى، و**آراء الشيخ اطفيَّش العقديَّة**، لمصطفى وينتن، و**معجم أعلام الإباضيَّة** لجمعية التراث.

(2) عن بعض محتوى هذه المكتبة راجع **فهرس موضوعي لمخطوطات مكتبة القطب** ببني يزقن تأليف الأستاذ يحيى عاشور، بحث مقدَّم لنيل شهادة الليسانس في علم المكتبات 1987.

بطاقة تعريف عن تفاسير القطب[1]

إضافة إلى كون التفسير مادَّة رئيسة في حلقاته العلميَّة، كما هي الطريقة المتَّبعة لدى كثير من علماء السلف، **فقد ألَّف القطب اطفيَّش ثلاثة تفاسير** للقرآن الكريم في مراحل مختلفة من عمره الطويل، وإليك بيانها بالترتيب:

الأوَّل: هميان الزاد إلى دار المعاد

أتمَّ تأليفه سنة 1271هـ/1852م، أي عندما بلغ سنَّ الرابعة والثلاثين من عمره وقد طُبع مرَّتين:

- إحداهما في زنجبار على نفقة السلطان برغش في 14 جزءا من 1305هـ إلى 1314هـ.

- وثانيهما في سلطنة عُمان على نفقة وزارة التراث القومي والثقافة في 15 مجلدا من سنة 1991م.

الثاني: داعي العمل ليوم الأمل

ما يزال مخطوطا، ولا توجد منه نسخة كاملة حسب علمنا إن كان قد أكمله الشيخ، وتوجد نسخة من أجزائه الأخيرة في مكتبة المؤلِّف تنقصها كراريس.

ويقال: إنَّ القطب أتمَّ فيه تفسير القرآن الكريم كاملا خلافا لما هو مشهور من أنَّه أطنب فيه كثيرا، وبدأ من سورة الرحمن. ولم يذكر أيَّ تاريخ فيها ليعرف متى شرع فيه القطب[2].

---

(1) اختصرت هذه البطاقات من رسالة ماجستير حول **منهجية القطب في تفسير التيسير** للأستاذ يحيى صالح بوتردين، ص186 وما بعدها.
ومن محاضرة للشيخ إبراهيم محمَّد طلاي: **جهود القطب في تفسير القرآن، ألقاها في المهرجان الأوَّل للشيخ اطفيَّش 1981م.**

(2) هذا التفسير ضبط نصَّه كلٌّ من الأساتذة: باجو مصطفى، وباباعمي محمَّد، وشريفي =

الثالث: تيسير التفسير

أتمَّ فيه تفسير القرآن كاملا بعد أن تجاوز سنَّ الثمانين من عمره[1].

نسخة المخطوطة موجودة في مكتبة المؤلِّف، وبعض مكتبات تلاميذه.

وقد طبع الكتاب مرَّتين:

ـ **الأولى**: طبعة حجريَّة بالجزائر في سبعة مجلَّدات من سنة 1325هـ إلى سنة 1326.

ـ **الثانية**: طبعة جديدة بدون تحقيق في خمسة عشر مجلَّدا على نفقة وزارة التراث القومي والثقافة بسلطنة عُمان 1988م.

لقد تعرَّض بعض العلماء للحديث عن هذا التفسير بعبارات تبرز المكانة العلميَّة التي حُظي بها **هذا التفسير الذي نحن بصدد التقديم له وتحقيقه**، منهم المؤلِّف نفسه، إذ يقول عنه: «وذكرت ذلك في تفسيري المسمَّى بالتيسير وهو تفسير دقيق لا تطويل فيه»[2].

= مصطفى. وقد بدأه من سورة الرحمن، وما بقي منه إلى غاية آخر سورة المزمل. غير أنَّ القرائن ـ من داخل النص نفسه ـ تدلّ أنَّ الشيخ لم يفسّر فيه القرآن كاملا. والملاحظ أنَّ الناسخ كتب فوق جزء سورة الرحمن: الجزء التاسع والعشرون، وفوق جزء سورة الممتحنة: الجزء الثلاثون، وفوق جزء سورة القلم: الجزء الواحد والثلاثون، فيكون جزء عم بالتالي هو الجزء الثاني والثلاثون.

فنقول والله أعلم: إنَّ الشيخ رَحِمَهُ اللَّهُ قد قسَّم القرآن حسب الخروبات، وكلُّ خروبة إلى جزأين، فيكون بالتالي عدد الأجزاء: 32 جزءًا.

(1) أخذنا هذا التاريخ من رسالة **جواب عن أسئلة** وجَّهها إلى الشيخ عبد الله بن حميد السالمي، والشيخ عيسى بن صالح الحارثي تحدَّث فيها عن هذا التفسير وقال: «قرب كماله» وهي مؤرَّخة بـ7 رجب 1332. انظر كشف الكرب، ج 1، ص 96.

(2) مجموعة رسائل وأجوبة، ص 151.

ويقول تلميذه الشيخ أبو إسحاق إبراهيم اطفيَّش: «ومن وقف على تفسيره تيسير التفسير شاهد تبحُّره في علوم القرآن، وغزارة مادَّته، ومقدرته على إظهار حقائق التفسير»(1).

وعندما تحدَّث الشيخ إبراهيم بيوض رَحِمَهُ ٱللَّهُ عن مراجعه في التفسير قال: «إذا أردت أن أعرف أحيانا قول الإباضيَّة في بعض الأحكام الشرعيَّة الواردة في الآية فإنَّني أرجع إلى كتاب التيسير للشيخ الحاج امحمَّد اطفيَّش»(2).

ويقول الباحث عكِّي علواني: «إنَّ تفسيره (التيسير) يعتبر دائرة معارف لآراء أشهر المفسِّرين السابقين، الذي جمع فيه وجهات نظر معظم المدارس الإسلاميَّة، وكذا بعض الفِرَق، مع إبراز وجهة نظر الإباضيَّة، من هذا تظهر أهميَّته بين كتب التفاسير في العالم الإسلامي»(3).

وفي رسالة وجَّهها المؤلِّف إلى الشيخ عبد الله بن حميد السالمي والشيخ عيسى بن صالح الحارثي قال: «ولكما الآن ـ والحمد لله الرحمن الرحيم ـ من تفسير المذهب ما يغنيكم إن شاء الله عن تفسير غيره، فإن ذكرتُ مذهبهم فإمَّا لأردَّه، وإمَّا لأنَّه حقٌّ، وقد اعتقدناه قبل أن نراه لهم، ولستُ مقلِّدا لأحد، ولا سيما التيسير الذي قرب إن شاء الله الرحمن الرحيم كماله، وما ذكرته إلَّا لترغبوا فيه لأنَّه غير طويل بل متوسِّط، مع جمعه ما ليس في المطوَّلات، والحمد لله»(4).

---

(1) مقدِّمة كتاب **الذهب الخالص**.

(2) **أعلام الإصلاح** لمحمد علي دبُوز: ج 3، ص 126.

(3) **محمَّد بن يوسف اطفيَّش ومذهبه في تفسير القرآن**، رسالة ماجستير في العلوم الإسلاميَّة، 1991، ص 282 مرقونة.

(4) **كشف الكرب** للقطب، ج 1، ص 96.

مصادر ومراجع في ترجمة القطب:

- أبو اليقظان إبراهيم بن عيسى: ملحق السير (مخطوط).
- أعوشت بكير بن سعيد: قطب الأَئِمَّة، حياته وآثاره الفكريَّة، جهاده.
- بوتردين يحيى بن صالح: الشيخ محَمَّد بن يوسف اطفيَّش ومذهبه في تفسير القرآن الكريم مقارنة إلى تفسير أهل السنَّة، بحث مقدَّم لنيل الماجستير بجامعة عين شمس، القاهرة، 1410هـ/1989م، (مرقون).
- جمعيَّة البلابل الرستميَّة: أعمال المهرجان الثقافي لذكرى قطب الأئمَّة، بني يزقن، غرداية، الجزائر، 10 ـ 18 ذو القعدة 1401هـ/ 09 ـ 1981/09/17م، (مرقون).
- جمعية التراث (لجنة البحث العلمي): معجم أعلام الإِبَاضِيَّة من القرن 1هـ إلى 15هـ ـ قسم المغرب، المطبعة العَرَبِيَّة، غرداية، الجزائر، ط 1، 1420هـ/1999م.
- جهلان عدون بن ناصر: الفكر السِّيَاسِيُّ عند الإِبَاضِيَّة من خلال آراء الشيخ محَمَّد بن يوسف اطفيَّش، نشر جمعيَّة التراث، القرارة، د.ت.
- الحاج سعيد يوسف بن بكير: تاريخ بني مزاب، دراسة اجتماعيَّة واقتصاديَّة وسياسيَّة، المطبعة العربيَّة، غرداية، الجزائر، الطبعة الأولى، 1992م.
- حفَّار إبراهيم بن أبي بكر: السلاسل الذهبيَّة في الشمائل الطفيشيَّة (مخطوط).
- دبُوز محَمَّد علي: نهضة الجزائر الحديثة وثورتها المباركة، المطبعة التعاونيَّة، 1385هـ/1965م، ج 1.

- الزركلي خير الدين: الأعلام، قاموس تراجم لأشــهر الرجال والنساء من العرب والمستعربين والمستشــرقين، ط 7، دار العلم للملايين، بيروت، لبنان، 1406هـ/1986م.

- عكّي علواني: الشيخ اطفيّش ومنهجه في تفســير القرآن الكريم (هميان الزاد)، رسالة ماجستير، (مرقون).

- كنطابلي عبد الله: بطاقات تعريف لقطب الأَئِمَّة ومؤلّفاته (مخطوط).

- ـ معمَّر علي يحيى: الإِبَاضِيَّة في موكب التاريخ، الحلقة الرابعة: الإِبَاضِيَّة في الجزائر، صحَّحه: الأستاذ أحمد عمر أوبكّه، المطبعة العَرَبِيَّة، غرداية، 1985 ـ 1986م.

- وينتن مصطفى بن الناصر: آراء الشيخ امحَمَّد بن يوسف اطفيَّش العقديَّة (1332هـ/1914م)، جمعيَّة التراث، القرارة الجزائر، 1996م.

مقدِّمة المؤلِّف[1]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

وصلَّى الله على سيِّدنا محمَّد وآله وصحبه وسلَّم

الحمد لله حمدًا تجدِّده ثوالث دقائق الجديديْن، وتستمليه استملاءً مقبولا لحظاتُ الملويْن، على تيسير القرآن، بيانًا يخرُّ به على أهل الكفر كلُّ إيوان، ويردُّ الله به عنَّا شرَّ الخلق وأهل العدوان. والصلاة والسلام على سيِّدنا محمَّد وآله وصحبه، وكلِّ عبدٍ مُجِلٍّ لله عابدٍ لربِّه، صلاةً وسلامًا أنجو بهما من حرِّ النيران، ويكونان لي قلائد عِقْيَان[2]، وأسكنُ بهما تحت عرش الرحمن، دائمين ما دامت الأزمان.

أمَّا بعد، فإنَّه لَمَّا تقاصرت الهمم عن أنْ تهيم بـ«**هميان الزاد إلى دار المعاد**» الذي ألَّفته في صغر السنِّ، وتكاسلوا عن تفسيري: «**داعي العمل ليوم الأمل**»، أنشطتُ همَّتي إلى تفسير يُغتبَط ولا يُملُّ. فإنْ شاء الله قبِله بفضله وأَتَمَّه قبل الأجل.

وأنا مقتصر على حرف نافع، ولمصحف عثمان تابع، وأسأل ذا الجلال أنْ ينعم عليَّ بالقبول والإكمال. آمين.

---

(1) في الصفحة الأولى من الطبعة الحجريَّة إطراءات الناسخ للمؤلِّف لم نوردها.

(2) «العِقْيانُ: ذهبٌ ينبتُ نَباتًا وليس مما يُستَذابُ ويُحصَّلُ من الحجارة. وقيل: هو الذَّهبُ الخالصُ». ابن منظور: **لسان العرب**، ج 15، ص 79. مادَّة: «عقا».

1

تفسير سورة الفاتحة

مكّيَّة وآياتها 7 ـ نزلت بعد سورة المدثر

﴿ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ ﴿1﴾ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿2﴾ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ ﴿3﴾ مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ ﴿4﴾ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴿5﴾ اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ ﴿6﴾ صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ ﴿7﴾ ﴾

﴿ **بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ** ﴾ أتبرَّكُ في كلِّ مباحٍ وعبادَة. ولا تُكتَبُ البسملة في أوَّل ديوان الشعر، إلَّا إن كان عِلمًا، أو وعظًا، أو نفعًا لا محذور فيه شرعًا؛ وأجاز سعيد بن جبير كتابتها في أوَّل ديوان الشعر، ووجدتها مكتوبة في نسخة قديمة بأكثر من خمسمائة عام، من ديوان الشعراء الستَّة، معروضة على أبي عليِّ السَّلوثين[1]، وأعطى الإجازة فيها لبعض تلامذته.

وعنه ﷺ: «**لو أنَّ أحدَكم قبل أن يأتيَ أهله قال: بسم الله، اللهمَّ جنِّبنا الشيطانَ، وجنِّب الشيطانَ ما رَزَقْتَنا، فإنَّه إن يُقدَّرْ بينهما ولد لم يَضُرَّه الشيطانُ**

(1) أبو عليِّ السلوثين عمر بن محمَّد بن عمر الأزدي الإشبيلي الأندلسي (562 ـ 645هـ): إمام في النحو، الملقَّب بالسلوثين، أي الأبيض الأشقر، كان إماما لا يشقُّ له غبار في النحو، وله تصانيف مفيدة. **تهذيب سير أعلام النبلاء**، ج 3، ص 279.

أبدًا»[1]. وقال ﷺ: «**ستر ما بين الجنِّ وعورات بني آدم، إذا دخلوا الكنيف، أن يقولوا: بسم الله**»[2] أو إذا أرادوا الدخول.

و«الله» مختصٌّ به تعالى، و«الإله» أعمُّ، سواء أقلنا: أصل لفظ «الله» إله أم لا، فلا تَهِمْ. وقرئ بنصب «الرحمن» وجرِّ «الرحيم»، والنصب على تقدير: أَحمَدُ، وسمَّاه أبو حيَّان[3]: عطف توهُّم، أي على طريق التوهُّم وأصاب، ووجه توهُّمه أنَّ الإتباع بعد القطع ضعيفٌ، فلتسميته وجهٌ، ونصَّ هو على ضعف ذلك لاختصاص التوهُّم بالعطف.

﴿**الْحَمْدُ لِلَّهِ**﴾ إخبار بأنَّ الله تعالى مالك لجميع الحمد من الخلق، ومستحقٌّ لأن يحمدوه. ومَن ذَكَرَ جملةً وأراد بها الثناء على الفعل الجميل الاختياريِّ تعظيمًا كان محصِّلا للحمد ولو لم يقصد الإنشاء، ولا يجوز قصد الإنشاء، على أنَّ الآية نزلت إخبارًا إلَّا لمن أراد غير الآية، وإلَّا أن يقال: المعنى: قولوا هذه السورة، فحينئذٍ يجوز لقارئها التصرُّف في الحمد بالإخبار أو الإنشاء، لكنَّ الإنشاء بالجملة الاسميَّة قليل، ومختلف فيه.

[أصول الدين] ولا يُحمَد الله على صفاته بل على أفعاله، وقيل بالجواز على إسقاط لفظ «الاختياريِّ» من الحدِّ، أو على أنَّ المراد نفي الضرورة، وصفاته ليست ضروريَّة كما أنَّها ليست اختياريَّة، لا إله إلَّا الله، سبحان الله.

---

(1) رواه **البخاري** في بدء الخلق، باب صفة إبليس وجنوده، رقم: 119. ومسلم في النكاح، باب 18، رقم: 116 (1434)، من حديث ابن عبَّاس.

(2) رواه **ابن ماجه** في الطهارات، باب ما يقول الرجل إذا دخل الخلاء، رقم: 297. **والترمذي**، في الصلاة، من حديث عليِّ بن أبي طالب.

(3) محمَّد بن يوسف الغرناطي، أبو حيان (654 - 745هـ): عالم نحويٌّ لغويٌّ، ومفسِّر محدِّث مقرئ، ومؤرِّخ وأديب، درس بالأندلس وغيرها من بلاد الإسلام، ظاهريُّ المذهب، ثمَّ شافعيٌّ. ولد بمصر وتوفي بها، ومن تصانيفه «البحر المحيط» في تفسير القرآن. **معجم المفسِّرين**، ج 2، ص 654.

[أصول الدين] ولفظ الجلالة لا يدلُّ على فعل ولا صفة بل على الذات، فهو جامد، وقيل: أصله الاشتقاق من لفظ يدلُّ على معنى العبادة أو العلوِّ أو الطرب أو الفزع أو التحيُّر أو الاحتجاب أو نحو ذلك، بمعنى أنَّ خلقه احتجبوا عن رؤيته بأنْ حَجَبَهم عنها ومَنَعَهُم، وليس هو بمحتجب؛ وفزعوا إليه واضطربوا وتحيَّروا.

﴿**رَبِّ**﴾ سيِّد ﴿**الْعَالَمِينَ**﴾، أو مالِكِهم؛ الناسُ عالَم، والملائكة عالَم، والجنُّ عالَم، والحيوان عالم، والجبال عالم، والنبات عالم، والفعل عالم، والاعتقاد عالم، وهكذا... كلُّ صنف عالم، والجمع: عالَمون، جُمِع تغليبًا للعاقل جمع قلَّة إيذانًا بقلَّتهم بالنسبة إلى قدرته تعالى على خلقه أصنافًا غير الموجودة. وسمِّيت لأنَّ فيها علامة الحدوث كالتركيب والحلول، وعلامة وجود الله.

﴿**الرَّحْمَنِ**﴾ المنعِمِ بالنعم العظيمة، أو مريد الإنعام به، وليس معرَّبًا من رخمن بالخاء المعجمة كما قيل.

﴿**الرَّحِيمِ**﴾ المنعم بالنعم التي دون تلك، أو مريدها، وليس بينها عموم وخصوص على هذا، فضلاً عن أن يقال: قدِّمت الخاصَّة على العامَّة، وإنَّما ذلك لو فسِّر الرحيم بالمنعم بمطلق النعم. أو هما سواء كنديم وندمان جمعًا تأكيدًا، كما روي: «**رحمن الدنيا والآخرة ورحيمهما**»، وعلى الأخصِّيَّة فقد قيل بجواز تقديم الصفة الخاصَّة على العامَّة للفاصلة كما في قوله تعالى: ﴿رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [سورة التوبة: 117]، وقوله تعالى: ﴿رَسُولاً نَّبِيئًا﴾ [سورة مريم: 51]. وقيل: يا رحمن الدنيا لأنَّه يعمُّ المؤمن والكافر، ورحيم الآخرة لأنَّه يخصُّ المؤمن، وقيل: يا رحمن الدنيا والآخرة، ورحيم الدنيا؛ لأنَّ نعم الآخرة كلَّها عظام، وَأَمَّا نعم الدنيا فجليلة وحقيرة، وهي هنا مبنيَّة على الميم نظير النون في «العالَمين» و«الدين».

﴿مَلِكِ يَوْمِ الدِّينِ﴾ يوم الجزاء بالجنَّة والنـار، وخصَّه لأنَّه لم يَجعل فيه مِلكًا، بخـلاف الدنيا ففيها ملوك. والملِكُ: السـلطان القاهـر، هو مَلِك يوم الجزاء إذا حضر يـوم الجزاء، أو صفة مبالغة، أي أنَّـه مالك ليوم الدين ملكًا قويًّا إذا شـاء أحضره. ولك تقدير: ملك الأمور يوم الدين، كما كان ملكها في الدنيا، أو ملكها فيه وحده.

﴿إِيَّاكَ﴾ قدِّم للحصر، والثانـي للحصر والمفاضلة. ومقتضى الظاهر: إيَّاه نعبد وإيَّاه نستعين ليهدينا، بلام الدعاء، أنعم عليهم بصيغ الغيبة مثل ما قبله، إلَّا أنَّه لَمَّا أتـى بالأوصاف الكاملة مـن كمال الرحمة المشـاهدة، وصفات الجلال المحمود عليها، وقدرته الكاملة بتدريـج الأفهام في ذلك على وجه الغيبة، وقوي برهان ذلك، صار الغائب شـاهدًا، يتكلَّم معه بصيغ الخطاب، وفي صيغة تلذُّذ.

﴿نَعْبُدُ﴾ نخدم بكلِّ ما نقدر عليه، وهذا العموم أفاده الإطلاق القابل لكلِّ ممكن على سـبيل البدليَّة؛ فيحمل على العموم الشـموليِّ الشامل لكلِّ أفراد البدليِّ، وكذا فـي قوله: ﴿وَإِيَّاكَ نَسْـتَعِينُ﴾ على تحصيل العبـادة والمباح، وعلى دفع المعاصي عنَّا والمضار.

[فقه] وخدمتـه ـ تعالى ـ إمَّا للثواب والهروب مـن العقاب، وذلك زهد، وهي عبادة؛ وإمَّا للشرف بها والنسبةِ إليه تعالى وهي عبوديَّة؛ وإمَّا لإجلاله وهي عبوديَّة وهي أعلى. وقدَّم العبادة لنتوسَّل بها إلى دفع المكروه وجلب المحبوب، أو قدَّمها لأنَّ المراد بها التوحيد، فذكر بعدها الاستعانة على مُطلق العبادة، وأيًّا كان الأمر فالواو لا ترتِّب؛ وفي الوجه الأخير حصول التخلِّي قبل التحلِّي.

﴿اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْـتَقِيمَ﴾ ما لم يكن عندنا من الدين حتَّى يتمَّ عندنا، ﴿وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُـدًى وَءَاتَاهُمْ تَقْوَاهُمْ﴾ [سـورة محمَّد: 17]، ﴿وَيَزِيدُ اللَّهُ

الَّذِين اهْتَدَوْا هُدًى ﴾ [سورة مريم: 76]؛ أو أدِمْنا عليه. والأصل: اِهدنا للصراط، أو إلى الصراط؛ والمراد هدى البيان أو هدى الإيصال، بأن نقيم عليه ولا نموت على خلافه، أو التوفيق للعمل والتقوى.

﴿ صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ ﴾ بعلم الدين والعمل به من النبيئين والصدِّيقين والشهداء والصالحين من كلِّ أمَّة.

[نحو] ﴿ غَيْرِ ﴾ قال سيبويه: نعت «الذين»؛ لأنَّ «الذين» كالنكرة، لأنَّه جنس ولفظ غير نكرة ولو أضيف لمعرفة، ولا سيما أنَّه أضيف لمعرفة هي للجنس فهي كالنكرة، وعندي جواز إبدال المشتقِّ الوصف وما أُوِّل به.

﴿ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ ﴾ اليهود المخالِفين لموسى وعيسى ﴿ وَلَا الضَّالِّينَ ﴾ النصارى المخالفين لهما. قال ﷺ: «**المغضوب عليهم اليهود، والضالُّون النصارى**»، رواه أحمد وحسَّنه ابن حبَّان[1]. وقدَّم المغضوب عليهم لتقدُّمهم زمانًا، ولأنَّ الإنعام يقابَل بالانتقام، ولأنَّهم أشدُّ في الكفر والعناد والفساد، وأشدُّ عداوة للذين آمنوا، ولأنَّهم كفروا بنبيئَيْن عيسى ومحمَّد صلَّى الله عليهما وسلَّم، والنصارى بواحد وهو سيِّدنا محمَّد ﷺ. وروى ابن عديٍّ والديلميُّ والسلفيُّ عنه ﷺ: «**من لم يجد صدقة فليلعن اليهود**».

---

(1) ورواه **الترمذي** في كتاب التفسير، باب 2، ومن سورة فاتحة الكتاب، رقم: 2954. ورواه **أحمد** في مسنده، من حديث عديٍّ بن حاتم.

2

تفسير سورة البقرة

مدنيَّة وآياتها 286 - أول سورة مدنيَّة

﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ الٓمٓ ① ذَٰلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ②
الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ ③ وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا
أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ وَبِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ④ أُولَٰئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ وَأُولَٰئِكَ هُمُ
الْمُفْلِحُونَ ⑤﴾

صفات المؤمنين وجزاء المتَّقين

﴿الم﴾ الله هو العالم بمعناه، وبمعنى ﴿المص﴾، و﴿المر﴾، و﴿الر﴾، و﴿كهيعص﴾، و﴿طه﴾، و﴿طسم﴾، و﴿طس﴾، و﴿يس﴾، و﴿ص﴾، و﴿حم﴾، و﴿حم عسق﴾، و﴿ق﴾، و﴿ن﴾.

وأَذكُرُ بعض ما قيل: الهمزة: الله، واللام لطيف، قال الخليل: نحو بِهْ وكِهْ بالحركة وهاء السكت مسمَّيات، ونحو الباء والكاف اسم، قلت فمسمَّى الهمزة أهـ بالحركة بعدها هاء السكت، والاسم ءَاءْ بهمزتين بينهما ألف، **ولم ينطق غيري بهذا.**

﴿ذلك الكِتابُ﴾ القرآن الشبيه في علوٍّ شأنه بالعالي حِسًّا كالعرشِ، وأصل الإشارة أن تكونَ إلى محسوسٍ، فإذا أشير إلى غير محسوس لاستحالة

إحساســه، مثل: ﴿ذَالِكُمُ اللهُ رَبُّكُمْ﴾ [ســورة الأنعام: 102]، أو لعدم حضوره نحو: ﴿تِلْكَ الْجَنَّةُ﴾ [ســورة مريم: 63] فلِتحَقُّقِه كالمشاهَد. وعبارة البُعد للتعظيم، ولأنَّ كلَّ ما انقضى أو ليس في يدك فهو بعيد.

﴿لَا رَيْبَ فِيهِ﴾ ليس أهلا لأَن يَشــكَّ فيه عاقل لظهور براهينه، ومن شكَّ فيه أهو من الله فلِقصور نظره، أو عدم استعمال عقله. قيل: أو لا ريب فيه عند الله والمؤمنين والنبيء، ويضعف أن يكون المعنى: لا تشُــكُّوا فيه، لِما علمت من ضعف مجيء الجملة الاسميَّة للإنشاء.

﴿هُدًى﴾ من الشــرك والمعاصي. ﴿لِلْمُتَّقِينَ﴾ الذين قضى الله أن يرجعوا إلى التوحيد، والعبادة، وتــرك المعاصي، والحذر منها ومن العقاب عليها؛ أو ذلك ثابت لهم، أو زيادة، أو أراد للمتَّقين وغيرهم فَحُذِفَ، وهذا ضعيف؛ أو خصَّهم لأنَّهــم الفائزون كقولــه تعالى: ﴿إِنَّمَآ أَنتَ مُنــذِرُ مَنْ يَّخْشَــاهَا﴾ [سورة النازعات: 45]، وكذا على الحذف.

والتقوى: تقوى الشــرك وهي تقوى العوامِّ، ولا تنفع في الآخرة بلا أداء فرض واجتناب فســق؛ وتقوى الخواصِّ، وهي: تقوى الشرك والمعاصي مع أداء الواجب والســنن المؤكَّدة؛ وتقوى خَواصِّ الخواصِّ هي: تقوى ما يُشغِل عن الله ﷻ، ويسمِّيه بعض العلماء: ورع الصدِّيقين.

[نحو] و«هدًى»: خبر ثان لـ«ذلك»، أو «لا ريب» محذوف الخبر، و«فيه» خبر لـ«هدى».

﴿الَّذِينَ يُومِنُونَ﴾ في قلوبهم وألســنتهم لا فيها فقــط. ﴿بِالْغَيْبِ﴾ بذي الغيب، أو الغائب وهو الله ﷻ، وما أَخبَرَ عنه ممَّا سيكون في الدنيا أو الآخرة، أو كان ولم يشاهدوه، أو آمنوا بذلك وهم في غيب عنه.

﴿وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَاةَ﴾ يأتون بها في وقتها المختار لا الضروريّ ـ إلَّا لعذر ـ بطهارة، وخشوع، وإخلاص، وترك ما يكره؛ حتَّى كأنَّها كجسم مستقيم لا عِوَج فيه، أو كسوقٍ أقيمت ورُغِب فيها، وذلك مستتبع لإقامة صلاة النفل، إلَّا أنَّه لا عقاب عليها.

وقال الجمهور: المراد صلاة الفرض، وعليه ابن عبَّاس، ومثل هذا اللفظ حقيقة شرعيَّة عن معنى لغويّ مجازٌ لغويٌّ كما هو المشهور، وقال الباقلَّاني[1]: مجاز، وقال المعتزلة: حقيقة شرعيَّة مخترعة وليست منقولة عن معان لغويَّة.

﴿وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ﴾ طعاما، أو دراهم، أو ثيابا، أو دوابَّ، أو عقارًا، أو غير ذلك من الحلال، إذ لا مدح بإنفاق الحرام؛ لأنَّ التصرُّف فيه وإمساكه كفر نعمةٍ.

﴿يُنفِقُونَ﴾ في طاعة الله، كإنفاق مَن تجب نفقته مِن أهلٍ ورحمٍ، وتنجيةِ مضطرٍّ، وضيف، وإنفاق الزكاة، وكإنفاق تطوُّعٍ، وكإنفاق نفسه بنيَّة أن يتقوَّى على العبادة وأن ينفر عن مال الناس.

قيل: إن أُريدَ بالتقوى في قوله: ﴿للمتَّقينَ﴾ اتِّقاء الشرك فـ«الذين...» إلخ صفة مخصِّصة، أو تركَ المعاصي فكاشفة، أو تركَ ما لا بأس به مخافة أن يقع في البأس فمادحة؛ كما في حديث الترمذي عنه ﷺ: «**لا يبلغُ العبدُ أن يكونَ مِن المتَّقين حتَّى يَدَع ما لا بأسَ به حذرًا ممَّا فيه بأس**»[2].

---

(1) محمَّد بن الطيب بن محمَّد، أبو بكر الباقلاني (338 ـ 403هـ): فقيه، قاضٍ، من كبار علماء الكلام، انتهت إليه الرئاسة في مذهب الأشاعرة، ولد ونشأ بالبصرة وتعلَّم بها، واستدعاه عضد الدولة إلى بغداد، فولي القضاء فترة، وكانت وفاته ببغداد. **معجم المفسِّرين**، ص542.

(2) رواه **الترمذي**، كتاب صفة القيامة، باب 19، رقم: 2451. **والبيهقي في السنن الكبرى**، كتاب البيوع، ج5، ص546، رقم: 10820، من حديث عطية السعدي.

﴿**وَالَّذِينَ يُومِنُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ**﴾ القرآن وسائر الوحي ﴿**وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ**﴾ على الأنبياء من كتب وغيرها. ﴿**وَبِالَاخِرَةِ**﴾ البعث والموقف، والجنَّة والنار. قدِّم للاهتمام والفاصلة على قوله: ﴿**هُمْ يُوقِنُونَ**﴾. وذِكْرُ «الَّذِينَ يُومِنُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ» تخصيص بعد تعميم، وهو شامل لمن لم يكفر ـ من أهل الكتاب ـ بسيِّدنا موسى أو سيدنا عيسى عليهما السلام، وَلَمَّا بُعث سيِّدنا محمَّد ﷺ لم يَكفُرْ به ولكنَّه طَلبَ الدليلَ، فآمن به ﷺ كعبد الله بن سلَّام، وكعب الأحبار، ﴿**أُوْلَئِكَ يُوتَوْنَ أَجْرَهُم مَّرَّتَيْنِ**﴾ [سورة القصص: 54]، وقيل: هم المراد. وفي الآية ترغيب لأهل الكتاب في الإيمان.

[نحو] وعطف «الَّذِينَ» عطف صفة في وجه العموم، وإن أريدَ مؤمنو أهل الكتاب فمجرَّد عطف، أو مبتدأ خبره «أولئك...» إلخ.

﴿**أُوْلَئِكَ**﴾ الموصوفون بتلك الصفات، العالون شأنا ومرتبة، [قلت:] **وقس على ذلك سائر إشارات البعد في سائر القرآن، وما كان في السوء فإشارة البعد فيه للبعد عن مقام الخير.** ﴿**عَلَى هُدًى**﴾ متمكِّنون من الهدى تمكُّن الراكب من مركوبه القويِّ، المطاوع، الملجَم في يد المستولِي. ﴿**مِن رَّبِّهِمْ**﴾ آت من ربِّهم، أو ثابت منه دلالة وتوفيقا. ﴿**وَأُوْلَئِكَ**﴾ كرَّر الإشارة إذ لم يقل: وهم المفلحون، تنبيها على مزيد الاعتناء بشأنهم، وعلى أنَّ اتِّصافهم بتلك الصفات يقتضي أن يحصل لهم الكون على الهدى من ربِّهم، وكونهم مفلحين كما قال:

﴿**هُمُ الْمُفْلِحُونَ**﴾ الفائزون بالحظِّ الأكمل: النجاة من النار، ودخول الجنَّة؛ وهذا حصر، فمن ترك الصلاة أو الزكاة فليس مفلحا، فهو في النار مخلَّد؛ لأنَّ مقابل الإفلاح الخسارُ والهلاك.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ سَوَآءٌ عَلَيۡهِمۡ ءَأَنذَرۡتَهُمۡ أَمۡ لَمۡ تُنذِرۡهُمۡ لَا يُؤۡمِنُونَ ۝6 خَتَمَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ وَعَلَىٰ سَمۡعِهِمۡۖ وَعَلَىٰٓ أَبۡصَٰرِهِمۡ غِشَٰوَةٞۖ وَلَهُمۡ عَذَابٌ عَظِيمٞ ۝7﴾

صفات الكافرين

﴿**إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُواْ**﴾ من سبقت له الشقاوة كأبي جهل وأبي لهب، ممَّن نزل فيه الوحي أو لم ينزل. ﴿**سَوَآءٌ عَلَيْهِمْ ءَآنذَرْتَهُمْ**﴾ أعلَمْتهُم بما أنزل إليك من تخويف في وقت إمكان أن يتحرَّزوا بالإيمان عن الوعيد. ﴿**أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ**﴾ لسبق القضاء بأنَّهم ﴿**لَا يُؤمِنُونَ**﴾، أخبره الله بذلك، لئلَّا يتأسَّف على من أعلمه الله بشقاوته، وليقلَّ تأسُّفه على من أبى من الإيمان ولم يعلم أهو شقيٌّ، إذ يقول: لعلَّه شقيٌّ فكيف أُكثِرُ التأسُّف عليه، وعلى كلِّ حال لا يترك الإنذار والتبليغ إليه.

﴿**خَتَمَ اللهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ**﴾ لم يوفِّقهم، سُمِّيَ القلب قلبًا لتقلُّبه، روى البيهقي عن أبي عبيدة بن الجرَّاح عن رسول الله ﷺ: «**قلبُ ابن آدم مثلُ العصفور، يتقلَّب في اليوم سبع مرَّاتٍ**». وليس المعنى في الآية الإخبار ـ جلَّ الله ـ.

شبَّه الخِذلان بالربط أو الإغلاق على شيء حتَّى لا يدخله غيره، فقلوبهم ـ من حيث عدم نفوذ الحقِّ إليها واستقراره فيها ـ كالخابية والخريطة[1] المختوم عليهما؛ وهذا تصوير للمعقول بصورة المحسوس للإيضاح، وكذا الختم في

(1) الخريطة: هنة مثل كيس من خرق أو أدر، تشرج على ما فيها، ومنه خرائط كتب السلطان. **لسان العرب**، ج7، ص286. مادَّة: «خرط».

قوله: ﴿وَعَلَى سَمْعِهِمْ﴾ أي آلات سمعهم؛ فلذلك لا ينتفعون بما سمعوا من الحقِّ، قال ﷺ: «**إذا أذنب العبدُ ضُمَّ من قلبه هكذا ـ فضمَّ خنصره ـ؛ وإذا أَذْنب ضُمَّ من قلبه هكذا، فضَمَّ التي تليها، وهكذا إلى الإبهام**»[1].

والمراد بالقلوب هنا: الجسم اللطيف القائم بالقلب الكثيف الصنوبري الشكل، قيام العَرَض بالجسم، وقيام الحرارة في الوقود، والبرودة بالماء، وبهذا اللطيف يحصل الإدراك، وترتسم المعرفة، وكذا الأسماع يقوم بصماخها جسم لطيف يدرك الأصوات.

﴿وَعَلَى أَبْصَارِهِمْ غِشَاوَةٌ﴾ غطاء عظيم كأنَّهم لا يرون بها، فيستدلُّون بما يرَونَ على قدرة الله؛ لَمَّا لَمْ ينتفعوا في الدين بالنظر بها كانوا كمن جعل على بصره غشاوة.

[بلاغة] وفي «خَتَم» استعارة تصريحيَّة تبعيَّة، وفي «غشاوة» تصريحيَّة أصليَّة، أو الاستعارة تمثيليَّة، شبَّه قلوبَهم، وأسماعَهم، وأبصارَهم، وأحوالَهم المانعة من الانتفاع بأشياء معدَّة للانتفاع منع مانع من الانتفاع بها.

﴿وَلَهُمْ﴾ على كفرهم ﴿عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ عِظمَ شِدَّة وأنواع ودوام؛ ولم يعطف ﴿إنَّ الذين كفروا﴾ لأنَّ المراد ـ والله أعلم ـ استئناف بيان أنَّ عدم اهتداء الأشقياء لسبق شِقوتهم، وبيان مقابلتهم بإصرارهم لمن اتَّصف بالكمال ومضادَّتهم، لا لقصور في القرآن عن البيان فإنَّه غاية في البيان.

وإنَّما ضلُّوا باختيارهم للسوء، كما قال قائل:

والنجمُ تستصغِرُ الأبصارُ رؤيتَه والذَّنب للطَّرف لا للنَّجمِ في الصِّغَرِ

---

(1) رواه البيهقي في شعب الإيمان، والهندي في كنز العمال: ج 1، ص 242، رقم: 1213 من حديث أبي عبيدة بن الجرَّاح.

﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ وَمَا هُم بِمُؤْمِنِينَ ۝٨ يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَمَا يَخْدَعُونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ۝٩ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ ٱللَّهُ مَرَضًا ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌۢ بِمَا كَانُوا۟ يَكْذِبُونَ ۝١٠﴾

صفات المنافقين (1)

[لغة] ﴿وَمِنَ النَّاسِ﴾ أصله النَّوس، بفتح الواو، قلبت ألفًا لتحرُّكها بعد فتح؛ من ناس ينوس بمعنى: تحرَّك. ولا يخلو بنو آدم من تحرُّك، ووجه التسمية لا يوجبها، فلا يلزم أن يسمَّى «ناسًا» كلُّ ما يتحرَّك. أو أصله «أناس»، حذفت الهمزة وعوِّضت بـ«ال»، وهو من الأُنس ضدُّ الوحشة، فالألف زائدة، والناس يُستأنس بهم. قال بعض:

وما سُمِّي الإنسان إلَّا لأُنسه ولا القلب إلَّا أنَّه يتقلَّب

أو الأصل: نَيِسَ بكسر الياء، قلبت ألفًا لتحرُّكها بعد فتح، ووزنه على هذا: «فَلِعَ» من النسيان، إذ لا يخلو من نسيان، قال الله ﷻ في آدم: ﴿فَنَسِيَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْمًا﴾ [سورة طه: 115] ويطلق على الجنِّ مجازًا، وقيل: حقيقةً.

﴿مَنْ يَقُولُ ءَامَنَّا﴾ في قلوبنا وألسنتنا إيمانًا مستمرًّا ﴿بِاللَّهِ﴾ وجودًا وألوهيَّة، ومخالفة لصفات الخلق ﴿وبِالْيَوْمِ الْاخِرِ﴾ الوقت الآخر، وهو وقت البعث إلى ما لا نهاية له، والوقت الأوَّل وقت الدنيا؛ ولا يقال: الوقت الآخر وقت دخول الجنَّة والنار وقبله وقت، وهو البعث، وما بعده إلى الدخول؛ لأنَّ الإيمان بالبعث والموقف والحساب أيضًا واجب. ﴿وَمَا هُمْ بِمُومِنِينَ﴾

ذلك الإيمان الـذي ادَّعوه، بل الإيمان في ألسنتهم، والكفر في قلوبهم، والخروج عن مقتضاه في جوارحهم.

﴿يُخَادِعُونَ﴾ أي يخْدَعون بفتح الياء وإسكان الخاء، فالمفاعلة ليست على بابها، بل بمعنى الفعل، وهو إظهار ما يوهم السلامة، وإبطان ما يقتضي الإضرار بالغير، أو التخلُّص منه، أو هو أن توهم صاحبك خلاف ما تريد به من المكروه وتصيبه به، ودخل في المكروه جلب نفع منه لا يسمح به لك أو لغيرك. ﴿اللَّهَ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ يظهرون خلاف ما أبطنوا، ويظنُّون أنَّ الله لا يعلم ذلك منهم، فأخبرنا الله ﷻ أنَّهم عامَلوا الله والمؤمنين بالمكر، والله لا يخفى عليه شيء. أو يخادعون الله مخادعة مجاز، على أنَّهم معتقدون لكون الله عالمًا بما في قلوبهم، وذلك أنَّ تلفُّظَهم بالإيمان وإظهار مقتضياته، مع مخالفته في الأعمال والقلوب، شبيه بالخداع؛ ويقدَّر محذوف، أي: ويخادعون المؤمنين خداعًا حقيقيًّا، إذ يدفعون ـ بإظهار الإيمان وشأنه ـ القتلَ والسبي وما يُصنع بالمشركين، ويجلبون الإكرام والمعاملة بمعاملة المؤمنين، وإنَّما قدَّرتُ محذوفًا لئلَّا يكون لفظ «يخادع» في مجازه وحقيقته معًا.

أو أراد: يخادعون الذين آمنوا، وذُكِر الله معهم إكرامًا وتعظيمًا لهم بأنَّه من خانهم فقد خان الله، أو يخادعون نبيء الله، قال الله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللَّهَ﴾ [سورة الفتح: 10]، ﴿مَن يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ﴾ [سورة النساء: 80]. والحاصل أنَّ لفظ المفاعلة مبالغة، ويجوز إبقاؤُها على معناها مجازًا، وذلك أنَّهم أظهَروا الإيمان وهم كافرون، والله ﷻ أجرى عليهم أحكام المؤمنين، وهم عنده غير مؤمنين، ولهم عنده الدرك الأسفل من النار.

[بلاغة] وإجراء المؤمنين تلك الأحكام تشبه صورة المكر بهم، إذ ليس لهم ما لمن تحقَّق إيمانُه في الآخرة، وذلك استعارة تمثيليَّة في الكلام، أو مفردة تبعيَّة في «يخادعون» والله ﷻ لا يكون خادعًا إذ لا يَخاف أحدًا، ولا

ينقص فعلَه أحدٌ إذا أجهره، ولا مخدوعًا لأنَّه لا يخفى عليه شيء، ولا يناله مكروه، ولا ينتفع بشيء. وإذا قدَّرنا: «يخادعون نبيء الله» تقدير معنًى ففيه إيقاع الفعل على غير ما يوقع عليه للملابسة بينهما وهي الخلافة، وذلك مجاز عقليٌّ في النسبة الإيقاعيَّة لا الوقوعيَّة.

﴿وَمَا يُخَادِعُونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ﴾ ما يُعاملون بمضرَّة الخداع إلَّا أنفسهم وهي الافتضاح بإخبار الله ﷻ نبيه ﷺ بما أخفوه، والعقابُ في الآخرة ﴿وَمَا يَشْعُرُونَ﴾ لا يعلمون أنَّ وبال العقاب راجع إليهم. وإنَّما فسَّرتُ «يُخادِعُ» بـ«يخدع» لأنَّ الله والمؤمنين لا يخدعونهم.

﴿فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ﴾ كفر بالقرآن والنبيء ﷺ، وعداوته وعداوة المؤمنين وسوء الاعتقاد والجهل، وذلك شبيه بمرض الجسم في الإيصال إلى مطلق الضرِّ، فإنَّ المرض موجع وقاتل ومانع من التصرُّف في المصالح، وما في قلوبهم مؤدٍّ إلى النار مانع من التصرُّف بأعمال الإسلام.

[بلاغة] أو يُشَبَّهُ تألُّمُ قلوبهم بقوَّةِ الإسلام وانتظامِ أمرِهِ بتألُّمهم بمرض البدن، فسمَّى التألُّم مرضًا، وحقيقة المرض حالة خارجة عن الطبع ضارَّة بالفعل لا بالقوَّة خاصَّة، والقرينة المشروطة في المجاز تمنع الحقيقة، ولا يلزم أن تمنع احتمال مجاز آخر فلك حمل الآية على هذا التألُّم وعلى ما ذكرت قبل.

﴿فَزَادَهُمُ﴾ بسبب ذلك المرض ﴿اللَّهُ مَرَضًا﴾ بما أنزل من القرآن بعدما كفروا بما أُنزِل منه قبلُ، والله يجازي المذنبَ بالإيقاع في ذنب آخر، كما يجازي المطيعَ بالتوفيق إلى طاعة أخرى، وكلَّما نزلت آية أو وحيٌ كفروا به لأنَّه طُبِعَ على قلوبهم، وذلك زيادة مرض. ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ موجَع بفتح الجيم.

[بلاغة] والموجَـعُ ـ بفتحها ـ حقيقـةً هُمْ، لا العذاب، لكن أكّد شـدَّة العــذاب حتَّى كأنَّه معــذَّب بفتح الذال، وهــذا بليغ، ولا بلاغــة في قولك: «عذاب موجِع» بكسر الجيم، فـ«أليم»، فعيل، بمعنى مُفعَل، بضمِّ الميم وفتح العين، ولك إبقاؤه على ظاهره، أي متوجِّع بكسر الجيم، ففيه البلاغة.

﴿بِمَا كَانُوا يُكَذِّبُونَ﴾ أي بتكذيبهم النبيء ﷺ. و«ما» مصدريَّة، وجرت عادتهــم بالاكتفاء بالمصــدر من خبر كان الــذي بعدها، والأصــل أن يقال: بكونهــم يكذبون، ولا حاجــة إلى قولــك: بالتكذيب الذي كانــوا يكذبونه النبيء ﷺ، أو بتكذيــب يكذبونه النبيء ﷺ، على أنَّ «ما» اســم موصول أو نكرة موصوفة، والهاء مفعول مطلق.

﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ ﴿11﴾ أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ
الْمُفْسِدُونَ وَلَٰكِن لَّا يَشْعُرُونَ ﴿12﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ آمِنُوا كَمَا آمَنَ النَّاسُ قَالُوا أَنُؤْمِنُ
كَمَا آمَنَ السُّفَهَاءُ أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ السُّفَهَاءُ وَلَٰكِن لَّا يَعْلَمُونَ ﴿13﴾ ﴾

صفات المنافقين (2)

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ﴾ المعنى: مِن الناس مَن يقول: آمنَّا بالله وباليوم الآخر وهو كاذب، ويقول: إنَّما نحن مصلِحون إذا قيل لهم لا تفسدوا، ويقول: أنؤمن كما آمن السفهاء إذا قيل لهم: آمنوا، ويقول للمؤمنين: آمنَّا، ويقول لأصحابه: إنَّا كافرون. ﴿لَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ﴾ بالكفر وأعماله، والمعاصي، وبمنع الناس عن التوحيد وأعماله، **فإنَّ الإسلام صلاح للأرض والكفر فساد،** وليس من صفات الله ولا أفعاله، فإذا أزال الله الثمار أو نورَ البصر أو نحو ذلك فلا تقل: أفسدها. والأرض أرض المدينة، أو جنس الأرض، وليست للاستغراق. ﴿قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ﴾ للأرض من مكارم الأخلاق، كالصدقة وقِري الضيف.

وهذا جواب بالإعراض عمَّا نُهوا عنه من الكفر والمعاصي، والأَوْلى أن يكون الجواب له، فيكون المعنى: مصلحون الأرض بما نفعل من الكفر وأعماله، والمنعِ عن التوحيد، والإفسادُ هو ما عليه المؤمنون من التوحيدِ والدعاءِ إليه، والعملِ بمقتضاه. وعطف الجملة على «فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ» أو على «كَانُوا يُكَذِّبُونَ» فينسحب عليها معنى الباء، والأصل في التعليل أو السببيَّة في غير مقامِ مجرَّدِ الإخبارِ أن يكون بوصف معلوم عند المخاطب

ولو بالالتزام، وهذه الشرطيّة غير معلومة الانتساب، لكن لا مانع من التعليل أو التسبُّب بما ليس عنده إخبارا بالواقع، وأنَّه أحقُّ، ولو لم يعرف، وأنَّه كيف لا يعرف!.

﴿أَلَآ إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ﴾ انتبهوا أيُّها الناس، قد تأكَّد أنَّ هؤلاء مفسدون دون المؤمنين، فالحصر إضافيٌّ، وإن فسَّرنا الفساد بالنفاق كان حقيقيًّا؛ لأنَّه لا نفاق إلَّا فيهم، بخلاف مطلق الفساد ففي غيرهم من المشركين أيضًا، والوجهان في أنَّهم هم السفهاء. ﴿وَلَكِن لَّا يَشْعُرُونَ﴾ بأنَّهم المفسدون، أو بوبال كفرهم، أو لا شعور لهم البتَّة هكذا، ولو استعملوا عقولهم لشعروا.

ذكر هنا الشعور لأنَّ الفساد يُعرف بلا تأمُّل، والسَّفَه يُعرف بالتأمُّل، فذكر معه العلم، كما قيل:

يُقضَى على المرءِ في أيَّامِ مِحْنَتِهِ حتَّى يرَى حسنًا ما ليس بالحَسَنِ

ولم يَذكر «لَكِنْ» في المخادعة لأنَّه لم يتقدَّم عليها ما يُتوهَّم منه الشعور.

﴿وَإِذَا قِيلَ﴾ أي قال النبيء ﷺ أو بعضُ أصحابه ﴿لَهُمْ ءَامِنُوا﴾ بما يقول النبيء ﷺ ﴿كَمَآ ءَامَنَ النَّاسُ﴾ المعهودون الكاملون، أصحابُ النبيء ﷺ ومن آمن به ولم يَحْضُرْهُ بعدَ إيمانه، وهو من التابعين لا من الصحابة ولو كان في عصره. ﴿قَالُوٓاْ﴾ فيما بينهم، أو بحضرة من أمرهم بالإيمان بحيث يجدون السبيل إلى إنكار القول، أو عند المؤمنين بحيث لا يسمعون. قيل: أو عند من لم يُفشِ سرَّهم من المؤمنين لقرابة أو مصلحة، وهو قول ضعيف، والأصل أنَّ المؤمن لا يستر عليهم، وعلى كلٍّ كَشَفَهُم الله عز وجل، ولو جهروا مطلقًا لم يسمُّوا منافقين.

﴿أَنُؤمِنُ﴾ توبيخ لمن أمرهم بالإيمان ولو غاب، أو إنكار لأن يكون الإيمان حقًّا يؤمر به ﴿كَمَآ ءَامَنَ السُّفَهَآءُ﴾ الصحابة ومن آمن ولو لم يكن

صحابيًّا، نسبوا من آمن إلى السَّفَه، وهو الجهلُ ووضعُ الشيء في غير وجهه، ويطلق على نقصان العقل والرأي. أو أرادوا من يُحتَقَر من المسلمين لفقره أو ضعفه أو عبوديَّته كصهيب وبلال، وأكثر المسلمين فقراء. أو أرادوا بالسفه مطلق الخسَّة بالجهل أو الفقر أو غيره. **والحاصل** أنَّهم قالوا: لا نفعل فعل السفهاء وهو الإيمان. وذَكَر اللهُ ﷻ نهي الناهي لهم عن الفساد ثمَّ أمر الآمر لهم بالإيمان؛ لأنَّ التخلِّي قبل التحلِّي. ﴿**أَلَآ إِنَّهُمْ هُمُ السُّفَهَآءُ**﴾ الجهلاء المحتَقَرون لكفرهم، ردَّ عليهم بأنَّ السفه بالكفر ومساوئ الأخلاق لا بالفقر، فلا يلزم أن يكون هذا معيَّنًا للتفسير الأوَّل في السفهاء. ﴿**وَلَٰكِن لَّا يَعْلَمُونَ**﴾ مَنِ السفيه وما السفه.

ذكر هنا العلم وهناك الشعور لأنَّ الإفساد يدرك بأدنى تأمُّل، بخلاف السفه والأمر بالإيمان، وأيضًا السفه: خفَّةُ العقل والجهلُ بالأمور، فناسب نفيَ العلم أتمَّ مناسبة.

﴿ وَإِذَا لَقُوا۟ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوْا۟ إِلَىٰ شَيَٰطِينِهِمْ قَالُوٓا۟ إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا
نَحْنُ مُسْتَهْزِءُونَ ﴿14﴾ ٱللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ وَيَمُدُّهُمْ فِى طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿15﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ
ٱشْتَرَوُا۟ ٱلضَّلَٰلَةَ بِٱلْهُدَىٰ فَمَا رَبِحَت تِّجَٰرَتُهُمْ وَمَا كَانُوا۟ مُهْتَدِينَ ﴿16﴾ ﴾

صفات المنافقين (3)

﴿وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ ءَامَنُوا قَالُوا ءَامَنَّا﴾ أي ذَكروا ما يفيد أنَّهم آمنوا من سائر الأقوال والأفعال، وذلك أنَّ الإيمان قد علم منهم في الظاهر قبل ذلك، وذلك دفعٌ للمؤمنين عن أنفسهم واستهزاءٌ.

ولا يتكرَّر مع ما مرَّ لأنَّه إبداء لخبثهم وخوفهم، وادِّعاء أنَّهم أخلصوا الإيمان، ولأنَّه بيان لكونهم يقولون ذلك خداعًا واستهزاءً وأنَّهم يقولون ذلك عند الحاجة إليه فقط، وذلك عند لقاء المؤمنين. ﴿وَإِذَا خَلَوا﴾ عن المؤمنين راجعين ﴿إِلَى شَيَاطِينِهِمْ﴾ أو خلوا مع شياطينهم، يقال: خلوت إليه أي معه. وشياطينهم: رؤساؤهم، كعب بن الأشرف من اليهود في «المدينة»، وأبو بردة في «أسلم»، وعبد الدار في «جهينة»، وعوف بن عامر في «أسد»، وعبد الله بن الأسود في «الشام»، وغيرهم مِمَّن يخافونه من كبار المشركين والمنافقين، سمَّاهم شياطين تشبيهًا لمزيد فسادهم وإغوائهم.

وذكر بعضٌ أنَّ هؤلاء المذكورين كهنة. وقيل: الشيطان حقيقةٌ في كلِّ متمرِّد من الجنِّ أو من الإنس، وليس المراد الكهنة خلافًا للضحَّاك، ولو كان مع كلٍّ كاهن شيطان؛ لأنَّهم أهون من أن يتملَّقوا إليهم بقولهم: «إنَّا معكم»

كما قال الله عنهم: ﴿قَالُوٓاْ إِنَّا مَعَكُمۡ﴾ في الدين اليهوديِّ إن أُريدَ بشياطينهم اليهود، وإن أريد به مشركو العرب فالمراد: معكم في الإشراك. ﴿إِنَّمَا نَحۡنُ مُسۡتَهۡزِءُونَ﴾ بالمؤمنين في قولنا: آمنَّا لا مؤمنون حقيقة، بل قلنا ذلك لنكفَّ عنَّا القتل والشرَّ والسبي، ونجلب الخير كالأخذ من الصدقة والغنيمة مع الاحتقار والتهكُّم بهم، ولا تظنُّوا أنَّنا تبعناهم.

[لغة] والاستهزاء بمعنى الهزء كالاستعجاب بمعنى العُجب، وهو الاستخفاف والسخرية. وأصله: الخفَّة، يقال: هزأت به الناقة: أسرعت به.

روي أنَّ ابنَ أُبيٍّ عبدَ الله وأصحابَه جاءهم نفر من الصحابة لينصحوهم فقال لقومه: انظروا كيف أردُّ هؤلاء السفهاء عنكم، فأخذ بيد أبي بكر الصدِّيق فقال: مرحبًا بالصدِّيق وشيخ الإسلام، ثمَّ أخذ بيد عمر وقال: مرحبًا بالفاروق القويِّ في دينه، ثمَّ أخذ بيد عليٍّ وقال: مرحبًا بابن عمِّ رسول الله وسيِّد بني هاشم، فقال له: يا عبد الله اتَّق الله ولا تنافق، فقال له: مهلاً يا أبا الحسن، إنِّي لا أقول هذا والله إلَّا أنَّ إيماننا كإيمانكم، ثمَّ افترقوا، وقال لأصحابه: كيف رأيتموني فعلت؟ فإذا رأيتموهم فافعلوا مثل ما فعلت، فأثنوا عليه وقالوا: لا نزال بخير ما عشت فينا، وأخبر المسلمون النبيء بذلك ونزلت الآية، **وليس ذلك عين سبب النزول بل مناسبة؛** لأنَّ أُبيًّا قال لأصحابه: انظروا كيف أفعل.

[بلاغة] والجملة مستأنفة في كلامهم بلا تقدير سؤال هكذا: ما لكم توافقون المؤمنين؟ لقول عبد القاهر: موضوع «إنَّما» أن تجيء لخبر لا يجهله المخاطب ولا يدفع صحَّته، إلَّا أنَّه قد يصوِّر السؤال في صورة لا تحتاج إليه فيجوز التقدير المذكور؛ وقد لا نسلِّم قول عبد القاهر إلَّا إن ادَّعى أنَّ ذلك أصل «إنَّما» وأنَّ مدخولها معلوم، وجيء بها لإفادة الحصر، وليس كذلك أيضًا، فإنَّك تقول: إنَّما قام زيد، لمن لا شعور له بقيامه وحده لا مع غيره ولا بقيام غيره دونه.

﴿اللهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ﴾ يجازيهم على استهزائهم مرَّة بعد أخرى، فإنَّ نكاية الله فيهم متعدِّدة في الدنيا ولا تنقطع في الآخرة، فذلك استعارة تبعيَّة أو مجاز مرسل؛ لأنَّ بين الفعل وجزائه مشابهة في القدر ونوع تسبُّب مع وجود المشاكلة، أو يراد إنزال الحقارة من إطلاق السبب على المسبَّب.

ومن الاستهزاء بهم في الآخرة أنَّه يفتح باب إلى الجنَّة فيجيء في كربه حتَّى إذا وصله أغلق، أو يكرِّر له ذلك حتَّى يفتح له ولا يجيئه، كما ورد في الحديث. ﴿وَيَمُدُّهُمْ﴾ يطيل أعمارهم، أو يزيدهم طغيانًا ﴿فِي طُغْيَانِهِمْ﴾ مجاوزتهم الحدَّ بالكفر ﴿يَعْمَهُونَ﴾ يتردَّدون هل يبقون عليه أو يتركونه، أو هل يعكفون فيه ويلازمونه.

﴿أُوْلَئِكَ الَّذِينَ اَشْتَرَوُا الضَّلَالَةَ بِالْهُدَى﴾ تركوا الهدى الذي في وسعهم وطاقتهم، جعل الهدى الذي لم يوجد لهم كالموجود؛ لأنَّه في طاقتهم ويولدون عليه، ولظهور حججه حتَّى كأنَّهم قبلوه، وجعل الإعراض عنه والتلبُّس بضدِّه الذي لا يجتمع معه كالشراء فسمَّاه شراء.

الإشارة إلى المنافقين المذكورين في تلك الآيات بتلك الأوصاف لا إلى أهل الكتاب كما قيل، ولا إلى الكفَّار مطلقًا كما قيل؛ لأنَّ النزول في غيرهم لا فيهم، ولو وجد المعنى فيهم فضلاً عن أن تفسَّر بهم. ﴿فَمَا رَبِحَت تِّجَارَتُهُمْ﴾ انتفى عنهم الربح في تجارتهم المعهودة التي هي شراء الضلالة بالهدى، بل خسروا أبدانهم وأوقاتهم وأموالهم إذ لم ينالوا بها الجنَّة، وأضاعوا منازلهم وأزواجهم في الجنَّة، وصاروا للنار بتلك الضلالة.

والهدى هنا هو اسم مصدر بمعنى الاهتداء، أو اسم للمعنى الحاصل من الهداية، كأنَّه قيل: اشتروا الضلالة بالاستقامة، وإسناد الربح إلى التجارة إسناد إلى السبب أو الملزوم أو المحلِّ.

﴿وَمَا كَانُـوا مُهْتَدِينَ﴾ إلى طريق التجر والربـح، إذ أضاعوا رأس المال والربح. والآية كناية عن انتفاء مقصد التجر وهو الربح مع حصول ضدِّه وهو الخسارة، وذلك شـأن الدِّين إمَّا الربح أو الخسارة، بخلاف تجارة المال، فقد لا تربح ولا تخسـر. أو كناية عن إضاعة رأس المال، فـإنَّ من لم يهتد بطرق التجر تكثر الآفات على ماله. أو المراد أنَّهم لم يتَّجروا فلا ربح، كقوله:

على لَاحِبٍ لا يَهْتـدي بمنارةٍ

أي لا منار فيه.

﴿ مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ ٱلَّذِى ٱسْتَوْقَدَ نَارًا فَلَمَّآ أَضَآءَتْ مَا حَوْلَهُۥ ذَهَبَ ٱللَّهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ
فِى ظُلُمَٰتٍ لَّا يُبْصِرُونَ ﴿17﴾ صُمٌّۢ بُكْمٌ عُمْىٌ فَهُمْ لَا يَرْجِعُونَ ﴿18﴾ أَوْ كَصَيِّبٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فِيهِ
ظُلُمَٰتٌ وَرَعْدٌ وَبَرْقٌ يَجْعَلُونَ أَصَٰبِعَهُمْ فِىٓ ءَاذَانِهِم مِّنَ ٱلصَّوَٰعِقِ حَذَرَ ٱلْمَوْتِ وَٱللَّهُ مُحِيطٌۢ
بِٱلْكَٰفِرِينَ ﴿19﴾ يَكَادُ ٱلْبَرْقُ يَخْطَفُ أَبْصَٰرَهُمْ كُلَّمَآ أَضَآءَ لَهُم مَّشَوْا۟ فِيهِ وَإِذَآ أَظْلَمَ عَلَيْهِمْ
قَامُوا۟ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَذَهَبَ بِسَمْعِهِمْ وَأَبْصَٰرِهِمْ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿20﴾ ﴾

إيراد الأمثال للمنافقين

﴿مَثَلُهُمْ﴾ صفتهم الشبيهة في الغرابة عقلاً وشرعًا بما يضرب مثلاً لغرابته ﴿كَمَثَلِ﴾ كصفة ﴿الذِي﴾ الرجل الذي، ولا بأس بتشبيه الجماعة بالمفرد، والمراد الجنس، فضمير المفرد بعده لِلَفظِهِ، وضمير الجمع لمعنى الجنس. ويجوز أن يقدَّر: «الفريق الذي». والكلام في الضمائر كذلك.

﴿اسْتَوْقَدَ﴾ ليلاً ﴿نَارًا﴾ بالغ في إيقادها، وعالجه في ظلمته، وهذا لبقائه على الأصل أولى من تفسيره بـ«أوقد». ويجوز أن تكون النار تمثيلاً بنار لا يرضى الله إيقادها كنار الفتنة للإسلام، أو حقيقةً أوقدها الغواة للشرِّ فيليق بالحكيم إطفاؤها. ﴿فَلَمَّآ أَضَآءَتْ﴾ أنارت إنارة عظيمة ﴿مَا حَوْلَهُ﴾ في جهاته من الأرض، وتمكَّن مِمَّا أوقدها لأجله من الإبصار والاستدفاء، والأمن مِمَّا يخاف والطبخِ للأكل ونحو ذلك من المنافع ﴿ذَهَبَ اللهُ بِنُورِهِمْ﴾ أذهب الله نورهم بإطفائه فلا نور فضلاً عن الإضاءة.

والنور منشأ الضياء. ووردَا جميعًا في شأن سيِّدنا محمَّد وسيِّدنا موسى صلَّى الله وسلَّم عليهما؛ وقيل: الضياء أقوى من النور لقوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسَ ضِيَآءً وَالْقَمَرَ نُورًا﴾ [سورة يونس: 5]؛ وقيل: مترادفان، وقيل: الضياء ما للشيء مِن ذاته، والنور من غيره. ﴿وَتَرَكَهُمْ﴾ صيَّرهم ﴿فِي ظُلُمَاتٍ﴾ ظلمة واحدة كأنَّها ظلمات لشدَّتها، أو ظلمات متراكبة من الليل، أو ظلمة الليل وظلمة الغمام وظلمة انطفاء النار، وذلك من حال المستوقدين يُشبهُه من حال هؤلاء المنافقين مضرَّة الكفر ومضرَّة النفاق وظلمة يوم القيامة ﴿يَوْمَ تَرَى الْمُومِنِينَ وَالْمُومِنَاتِ يَسْعَى نُورُهُم بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِم﴾ [سورة الحديد: 12] ومضرَّة العقاب. ﴿لَا يُبْصِرُونَ﴾ ما حولهم من الطريق فضلا عن أن يستدفئوا، أو يطبخوا، أو يحصل لهم الأمن من مضارِّ الحفير والسبع والحيَّة ونحو ذلك، وهذا منهم يشبه حال المنافقين إذا ماتوا جاءهم الخوف والعذاب بعد أمنهم في الدنيا على أنفسهم وأموالهم وأولادهم بكلمة الشهادة في ألسنتهم.

﴿صُمٌّ﴾ أولئك المُشتَرو الضلالةِ صمٌّ، أوْ هُم صمٌّ ﴿بُكْمٌ عُمْيٌ﴾ شُبِّهوا في عدم قبول الحقِّ بمن لا يسمع ولا يتكلَّم ولا يبصر، فهم لا يعرفون الحقَّ كأنَّهم لم يسمعوه، ولا يتكلَّمون به ولا يبصرون طريق الهدى ﴿فَهُمْ لَا يَرْجِعُونَ﴾ إلى الحقِّ كما أنَّ الأصمَّ لا يسمع، والأخرس لا يتكلَّم، والأعمى لا يبصر، ﴿كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْقَدَ نَارًا...﴾ إلخ.

﴿أَوْ كَصَيِّبٍ﴾ وكمثل أهل صيِّب. أو: بل كمثل أهل صيِّب. أو يتنوَّع من ينظر إليهم في شأنهم بعقله إلى من يشبِّههم بالمستوقد المذكور، وإلى من يشبِّههم بأهل الصيِّب، أو يشكُّ الناظر في شأنهم أنَّهم كالمستوقد أو كالصيِّب، أو يباح للعاقل أن يشبِّههم بمن شاء منهما، أو يخيَّر أن يَقصُر التشبيه على أحدهما.

[لغة] والصيِّب: المطر المنحدر من السماء، والصوب الانحدار.

[صرف] والأصل: «صَيْوِبٌ» على الخلاف في باب «سيِّد» قلبت الواو ياءً وأدغمت فيها الياء، وهو وزن في مُعلِّ العين، وشذَّ في الصحيح كـ«صيقل»، وقيل: هو بوزن «طويل» فقلب، وشهر أنَّ لفظ «صيِّب» اسم، وقيل: وصف بمعنى نازل، وزعم بعض أنَّه بمعنى مُنْزَل، وبعض أنَّه اسم بمعنى السحاب.

﴿**مِنَ السَّمَآءِ**﴾ السحاب، أو من جهة السماء وجهتها السحاب، وذكر ذلك مع أنَّه لا يكون الصيِّب إلَّا من السحاب وجهةِ السماء تلويحًا إلى أنَّه من جميع آفاقها. ﴿**فِيهِ**﴾ في الصيِّب كما يتبادر، أو في السماء أي السحاب وهو أولى؛ لأنَّ الرعد ـ ملكًا كان أو صوته أو صوت ماء ـ هو في السحاب لا في المطر، ولو كان البرق يصل الأرض لأنَّه أوَّلاً يجيء من السحاب. ﴿**ظُلُمَاتٌ**﴾ متراكماتٌ، ظلمة السحاب ففيه ظلمة ولو في أجزائه، وظلمة المطر وظلمة الليل المدلول عليه بقوله: ﴿**كُلَّمَآ أَضَآءَ لَهُم مَّشَوْا فِيهِ**﴾.

يجوز كون «فيه» نعتًا لـ«صيِّبٍ»، أو حالاً و«ظلمات» فاعله. ﴿**وَرَعْدٌ**﴾ الرعد: ملَك سمِّيَ صوته باسمه، أو يقدَّر مضاف، أي: صوت رعد، أو اسم موضوع لصوت مَلَك السحاب، أو هو صوت تضارب الماء، وذلك الصوت مطلقًا صاعقة كما يأتي قريبًا، والمراد: أصوات، بدليل جمع الصواعق. ﴿**وَبَرْقٌ**﴾ قيل: ملك على هيئة النور، أو نور سوطه الذي يزجر به السحاب، لا كما قيل: إنَّه سوط من نار يزجر به السحاب. وأُفرِدَا لأنَّهما مصدران الآنَ، أو في الأصل. وزعم بعضٌ أنَّهما أفرِدا لأنَّ الرعد يسوق السحاب فلو كثر لتفرَّق السحابُ ولم يكن مطبقًا فتزول شدَّة الظلمة، ولو كثر البرق لم تطبق الظلمة، وبعض أنَّه لم يجمع النور في القرآن فلم يجمع البرق.

﴿**يَجْعَلُونَ**﴾ يجعل الناس الذين حضرهم الصيِّب، دلَّ عليهم أنَّ المقام لذكر ظلمات الصيِّب، والجعل لكونه أدلَّ على الإحاطة أبلغ من الإدخال.

[بلاغة] ﴿أَصَابِعَهُمْ﴾ أطراف أصابِعِهم على المجاز بالحذف، أو سمَّاها باسم الأصابع لأنَّها بعضها، والمجاز لغويٌّ، ونكتته التهويل بصورة جعل الأصابع إلى أصولها؛ أو لا مجاز؛ لأنَّ واضع طرف إصبعه على شيء يصدق عليه أنَّه وضع إصبعه عليه بلا قرينة ولا علاقة، كما أنَّ قولك: مسسته بيدي حقيقة، ولو كان اللمس ببعضها، وكما في قوله: ﴿فِي ءَاذَانِهِمْ﴾ فإنَّه حقيقة مع أنَّ الجعل ليس في كلِّ الأذن، وأطلق الأصابع مع أنَّ المعهود السبَّابة لدهشهم، حتَّى إنَّهم يدخلون أيَّ إصبع اتَّفقت؛ ويجوز أن يكون المجاز عقليًّا بإسناد الجعل للأصابع مع أنَّه للأنامل.

﴿مِنَ الصَّوَاعِقِ﴾ المعهودة بالمعنى في قوله: ﴿وَرَعدٌ﴾ لا باللفظ كقوله تعالى: ﴿وَلَيْسَ الذَّكَرُ كَالأُنثَى﴾ [سورة آل عمران: 36] فإنَّ قولها: ﴿مَا فِي بَطْنِي﴾ [سورة آل عمران: 35] أرادت به الذَّكَر. والمراد بها شدَّة الصوت.

والأكثر في الصاعقة صوت مع نار، أو نار بلا صوت، لا تمرُّ على شيء إلَّا أحرقته، وذلك من الجوِّ، وقد يكون معها حجر أو حديد. ويجوز حمل الآية على الصوت مع النار على أنَّهم توهَّموا أنَّ عدم سماع ذلك الصوت منجٍ لهم من أن تصيبهم نار، فيكون الكلام تمثيلاً بقوم شأنهم ذلك التوهُّمُ، فجعلوا أصابعهم في آذانهم لئلَّا يسمعوا، ولا يصحُّ ما قيل: إنَّ المشهور أنَّ الصاعقة الرعد الشديد معه قطعة نار، بل هي قطعة النار سواء مع صوت أو دونه.

[لغة] وهو في الأصل صفة من الصعق بمعنى الصراخ، وتاؤه للتأنيث صفة لمؤنَّث، أو للمبالغة كراوية لكثير رواية الشعر، وليس قولهم: للنقل من الوصفيَّة إلى الاسميَّة خارجًا عن ذلك؛ لأنَّ حاصله أنَّه كان وصفًا مؤنَّثًا بالتاء ثمَّ صار اسمًا؛ وقيل: مصدر كالعافية والعاقبة.

﴿حَذَرَ الْمَوْتِ﴾ لأجل حذر الموت بالسمع، وهو تعليل للعلّة الأولى التي هي قوله: ﴿مِنَ الصَّواعِقِ﴾ مع معلّله، وإنَّما الممنوع ترادف علل على معلول مجرَّد بلا تبعيَّة. أو يقدَّر: حاذرين من الموت. أو: ذي حذر من الموت. أو: يحذرونها حذر الموت.

[بلاغة] وحاصل الشبه بالصيِّب المذكور أنَّ القرآن شبيه بالمطر إذ هو سبب لحياة الدنيا، والقرآن سبب لحياة القلوب، وأنَّ الكفر شبيه بالظلمات في مطلق الإهلاك وعدم الاهتداء، وفي مطلق الحيرة، والوعيدُ عليه شبيه بالرعد في الإرهاب، والحججُ شبيهة بالبرق في الظهور والحسن، وسدُّ آذانهم عن سماع القرآن شبيه بسدِّها عن الصواعق، وتركُ دينهم شبيه بالموت عندهم، وذلك تشبيه مفردات بمفردات، وإن شئت فتشبيه مجموع بمجموع تمثيليّ.

﴿واللهُ مُحِيطُۢ بِالْكَافِرِينَ﴾ بأجسامهم واعتقادهم وأقوالهم وأفعالهم، ولا يخفى عنه ما يعاقبهم عليه، أو قلْ: وعقاب الله محيط بالكافرين؛ شبَّه قدرته بإحاطة المحيط بالشيء تشبيهَ الكامل بالناقص على الاستعارة الأصليَّة، واشتقَّ منه «محيط» على التبعيَّة، أو الاستعارة تمثيليَّة، أو الإحاطة الإهلاك، ومن معناه: ﴿بَلَىٰ مَن كَسَبَ سَيِّئَةً وَأَحَاطَتْ بِهِ خَطِيئَاتُهُ فَأُوْلَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ﴾ [سورة البقرة: 81]؛ أو عالِمٌ عِلْمَ مجازاةٍ. ومن معناه: ﴿لِيَعْلَمَ أَن قَدَ اَبْلَغُوا رِسَالَاتِ رَبِّهِمْ وَأَحَاطَ بِمَا لَدَيْهِمْ﴾ [سورة الجنّ: 28].

﴿يَكَادُ الْبَرْقُ﴾ المعهود في الآية قبلُ ﴿يَخْطَفُ أَبْصَارَهُمْ﴾ أبصار أهل الصيِّب، يقرب أن يأخذها بسرعة، وإسناد الخطف إلى البرق مجاز للسببيَّة.

[لغة] ونفي «كاد» نفيٌ، وإثباتها إثباتٌ كسائر الأفعال، وغير هذا تخليط، وإذا قلت: كاد يقوم، فمعناه: قرب، وإذا قلت: لم يكد يقوم مع أنَّه قام فمعناه: لم يقرب للقيام ثمَّ قرب وقام.

﴿كُلَّمَآ أَضَآءَ﴾ ظهر البرق، أو أظهر البرقُ الطريقَ ﴿لَهُم مَّشَوْا فِيهِ﴾ يمشون في ضوئه كلَّ إضاءة، أي كلَّ وقت إضاءة، أو في الطريق المدلول عليه بالمشي، كما قدَّر بعض: كلَّما أضاء لهم مَمْشًى مشوا فيه، وذلك أنَّ المشي في مطرح البرق لا في البرق، والهاء للبرق، و«كُلَّ» ظرفٌ لإضافته إلى المصدر المنسبك بـ«مَا» المصدريَّة المستعمل ظرفًا كجئت طلوعَ الشمس؛ ويجوز أن يكون لازمًا بمعنى: وقعوا، كما فسَّرتُه أوَّلاً: كلَّما لمع مشوا في مطرح ضوئه.

﴿وَإِذَآ أَظْلَمَ﴾ الطريق المدلول عليه، أو أظلم البرق أي زال، أو الجوُّ ﴿عَلَيْهِمْ قَامُوا﴾ أمسكوا عن المشي ﴿وَلَوْ شَآءَ اللَّهُ﴾ أي لو شاء إذهاب سمعهم وأبصارهم ﴿لَذَهَبَ بِسَمْعِهِمْ﴾ أي سمع المنافقين، الإضافة للحقيقة أو الاستغراق، وكأنَّه قيل: بأسماعهم كما قال: ﴿وَأَبْصَارِهِمْ﴾ عيون المنافقين الظاهرة كما ذهب ببصائر قلوبهم الباطنة فلا تقبل الحقَّ. ويجوز عود الهاءين لأصحاب الصيِّب؛ لأنَّ بصائرهم ولو كانت لا تعمى بالظلمات لكن المراد التقوية للصيِّب وشأنه، المشبَّه بهما حال المنافقين فإنَّ تقويتهما تقوية لحالهم في الهول فيكون شبَّههم بالمستوقد ثمَّ الصيِّب الموصوف بما ذكر، وبأنَّه لولا أنَّ الله حفظ سمع أهله وأبصارهم لذهبت بالبرق والرعد.

ومشيهم في البرق تشبيه لميلهم إلى بلاغة القرآن وصدقه ووعده بالخير، وإمساكهم عن المشي عند ذهاب البرق تشبيه لوقوفهم عمَّا يكرهون من تسفيه دينهم ورفض آلهتهم. والمشيئة والإرادة بمعنًى، ولا يصحُّ ما قيل: إنَّ أصل المشيئة الإيجاد واستعمل بمعنى الإرادة.

والباء للتعدية، أي: أذهب أسماعهم، وقيل: ذهبت بكذا، وذهبت معه، وإذا لم يذهب فللتعدية، أو مجاز في المعيَّة. ﴿إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ أي على كلِّ شيء ممكن.

[أصول الدين] وَأَمَّا المســتحيل في حقِّه كاتِّخـاذ الصاحبة والولد، فلا تقـل: هو قادر عليــه؛ لأنَّ الاتِّصاف بالقــدرة عليه اتِّصــاف بجوازه. ولا غير قادر عليه؛ لأنَّ هذه صيغة عجزٍ تعالى عنها، ولأنَّه فرع عن تقرُّره هكذا في الجملة وهو غير متقرِّر تعالى عنه.

أو المعنى: كلُّ شيء شــاءه، أي لا يردُّه رادٌّ عمَّا أراد وقوعه، مع ذلك هو قادر على إيقاع ما لم يسبق قضاؤه بوقوعه من الممكنات إجماعًا. وما لم يكن ولا يكون لا يسمَّى شيئًا، ونسبه بعضٌ لأصحابنا. وقيل: شيءٌ، **وهو الصحيح عندي**، وَأَمَّا المســتحيل فلا يسمَّى شــيئًا. والآية ونحوها من الآي والحديث تدلُّ على جوازه في كلِّ معدوم ممكن، ويطلق على المحال بمعنى ملاحظته. ولا يقال: قادر عليه ولا غير قادر، ومعنى ﴿هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِن قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْئًا﴾ [سورة مريم: 9]: لم تكن شيئًا موجودًا بل شيئًا معدومًا.

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعۡبُدُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِي خَلَقَكُمۡ وَٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ ٢١ ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُمُ ٱلۡأَرۡضَ فِرَٰشٗا وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءٗ وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ فَأَخۡرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزۡقٗا لَّكُمۡۖ فَلَا تَجۡعَلُواْ لِلَّهِ أَندَادٗا وَأَنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ٢٢ ﴾

الأمر بعبادة الله وحده والأسباب الموجبة لها

﴿يَآ أَيُّهَا النَّاسُ﴾ لم يقع النداء في القرآن بغير «يا»، وهي الأصل، فما حذف منه حرف النداء مثل: ﴿رَبَّنَا لَا تُوَاخِذْنَآ﴾ [سورة البقرة: 286] و﴿أَيُّهَ الْمُومِنُونَ﴾ [سورة النور: 31] قُدِّر فيه «يا» لِذكرها في غيره ولأصالتها. و﴿يَآ أَيُّهَا النَّاسُ﴾ مكِّيّ، وقَلَّ مدنيًا كما في هذه السورة و«النساء» و«الحجرات» فإنَّهنَّ مدنيّات.

[بلاغة] والنداء هنا وفي ﴿يَآ أَيُّهَا الإِنسَانُ﴾ ونحوها للتنبيه على ما يصلح. ويأتي للمدح نحو: ﴿يَآ أَيُّهَا الرَّسُولُ﴾، ﴿يَآ أَيُّهَا النَّبِيءُ﴾، ﴿يَآ أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾. وللذمِّ نحو: ﴿قُلْ يَآ أَيُّهَا الْكَافِرُونَ﴾. وليس منه: ﴿يَآ أَيُّهَا الَّذِينَ هَادُوا﴾ إلَّا المعنى الذي ادَّعوا أنَّهم تابوا إلى الله، إلَّا أن يُدَّعى خروجه عن معناه الأصليّ إلى معنى الذين بقوا على اليهوديَّة مع بعثة محمَّد ﷺ. ويكون للعتاب كقوله تعالى: ﴿يَآ أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ﴾، و﴿يَآ أَيُّهَا الْمُزَّمِّلُ﴾ والآيتان للإنشاط والإراحة من ضيق، كالمفاكِهِ لغيره، ويكون لغير ذلك.

والخطاب في مثل هذه الآية للموجودين المكلَّفين والآتين بعدُ إلى قيام الساعة، ولو مجانين أو صبيانًا بقيد الإفاقة والبلوغ، وذلك تغليب؛ وقيل:

للمكلَّفين الموجودين في مهبط الوحي، وَأَمَّا غيرهم فبالنصِّ أو القياس، أو الإجماع، لا بصيغة النداء ونحوها، وعلى الأوَّل خوطبوا إذا بلغوا أو أفاقوا من زمان الوحي.

قال بعضهم: الأصحُّ أنَّ نحو ﴿يَآ أَيُّهَا النَّاسُ﴾ يشمل الرسول ﷺ ولو قرن بـ«قُلْ»، أو اكتبْ إليهم، أو بلِّغهم، أو نحو ذلك. وقيل: لا يشمله؛ لأنَّه ورد على لسانه للتبليغ لغيره؛ لأنَّه إن كان آمرًا أو مبلِّغًا فلا يكون مأمورًا؛ لأنَّ الواحد بالخطاب الواحد لا يكون آمرًا ومأمورًا أو مبلِّغًا ومُبلَّغًا إليه للضرورة؛ ولأنَّ الآمر أو المبلِّغ طالب والمأمور أو المبلَّغ إليه مطلوب. وإن قيل: قد يكون آمرًا مأمورًا مبلِّغًا مبلَّغًا إليه من جهتين قلت: الآمر أعلى رتبة من المأمور، ولا بدَّ من المغايرة، إلَّا أنَّه لا يشترط أن يكون المبلِّغ أعلى رتبة من المبلَّغ إليه، لكنَّ الخطاب يصل المبلِّغ قبلُ. وقيل: إن قرن بنحو «قُلْ» لم يشمله ﷺ لظهوره في التبليغ، وإلَّا شمله.

والأصحُّ أنَّ نحو ﴿يَآ أَيُّهَا النَّاسُ﴾ يشمل العبد المكلَّف شرعًا كما يشمله لغة، وعليه الأكثر؛ وقيل: لا يشمله لصرف من معه إلى سيِّده في غير أوقات ضيق العبادات. وشمل الكافر أيضًا؛ لأنَّه مخاطب بفروع الشريعة على الصحيح. وشمل الموجودين وقت النزول. وقيل: يتناول من سيوجد أيضًا، وفيه أنَّه لا يظهر أن يقال للمعدوم: يا فلان، أو نحو ذلك.

﴿**اعْبُدُوا رَبكُم**﴾ وحِّدوه، لا تجعلوا له شريكًا، أو اعملوا الصالحات واجتنبوا المحرَّمات له، ومن ذلك ترك الأصنام والهوى ﴿**الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ**﴾ وتعليق الحكم بالمشتقِّ أو بما بمعناه يؤذن بكونه علَّة، أي اعبدوا الذي هو سيِّدكم أو مربِّيكم، وخَلَقَكم وخَلَق الذين مِن قبلكم، أي اعبدوه لسيادته وملكه وخلقه لكم، فما ليس سيِّدًا لكم ولا مالكًا ولا خالقًا لا يستحقُّ أن يُعبد.

﴿لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ قال سيبويه: «عسى» في كلامه تعالى للتحقيق، ولا يشكل عليه قوله تعالى: ﴿عَسَىٰ رَبُّهُۥٓ إِن طَلَّقَكُنَّ أَن يُبْدِلَهُۥٓ أَزْوَٰجًا خَيْرًا مِّنكُنَّ﴾ [سورة التحريم: 5]؛ لأنَّ تحقيقَه تبديلَ أزواجٍ خيرٍ معلَّقٌ بالتطليق، والتطليقُ غير واقع. و«لعلَّ» مثل «عسى». فمعنى الآية: تحقُّق حصول الوقاية عن عقاب الله بالعبادة أو اعبدوه راجين حصول الوقاية، فقد لا تكون العبادة وقاية لخللها أو إبطالها برياء أو ردَّة أو نحوهما؛ أو اعبدوا لتحصِّلوا الوقاية.

[بلاغة] أو شبَّه طلب التقوى منهم بعد اجتماع أسبابها ودواعيها بالترجِّي في أنَّ متعلَّق كلٍّ منهما مخيَّر بين أن يفعل وأن لا يفعل مع رجحان ما بجانب الفعل فينتقل ذلك إلى كلمة «لعلَّ»، فتكون استعارة تبعيَّة. أو تشبَّه ذواتهم بمن يرجى منه التقوى فيثبت له بعض لوازمه وهو الرجاء، فتكون الاستعارة بالكناية.

﴿الَّذِي جَعَلَ لَكُم﴾ في جملة مَن سِوَاكم ﴿الْأَرْضَ فِرَاشًا﴾ بساطًا خارجًا عن الماء مع ثقلها ينتفع به، لا صلبًا ضارًّا، ولا رخوًا مغرقًا، وسمَّاها بساطًا ولو قيل: إنَّها كريَّة الشكل؛ لأنَّ الكرة إذا عظمت كان كلُّ قطعة سطحًا، وكانت قبل خلق السماء كريَّة وبعد خلق السماء دُحِيَت أي بُسطت.

﴿والسَّمَآءَ بِنَآءً﴾ من فوقكم كالسقف، كما جاء في آية أخرى أنَّها كسقف للأرض، أو كقبَّة مضروبة على الأرض، والمراد مبنيَّة. وأفردها لإفراد الأرض ولو أريد بها الجنس، وقدَّم الأرض لتقدُّم خلقها، ولأنَّهم فيها، ولأنَّ انتفاعهم بها أكثر، ولأنَّها ما يحتاج إليه بعد الوجود إذ لا بدَّ من مكان يستقرُّ فيه، أو لأنَّها أفضل من السماء لأنَّ الأنبياء منها وفيها، وهذا قول.

﴿وَأَنزَلَ مِنَ السَّمَآءِ﴾ أي من جهته، أو من السحاب سمَّاه سماء ﴿مَآءً﴾ والله قادر على أن ينزِّل من السماء إحدى السبع ماء في سرعة ﴿فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ﴾ أخرج به ﴿رِزْقًا﴾ من الثمرات ﴿لَّكُمْ﴾ تأكلونه وتعلفون دوابَّكم، وتلبسونه كالقطن والكتَّان؛ وما لدوابِّ الناس هو لهم.

[نحو] «من الثمرات» حال من «رزقًا». و«مِن» للتبعيض أو للبيان، و«رزقًا» مفعول به؛ أو «مِن» اسمٌ بمعنى بعض مفعول به، و«رزقًا» حال من «مِن».

والثمرات: جميع ما تخرج الأرض، حتَّى الحشيش أو الثمار، ونواها داخل فيها علف. وذلك أسبَابُ أن لا تجعلوا له أندادًا كما قال: ﴿فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَندَادًا﴾ شركاء في العبادة مقاومين لله، تعالى عن ذلك، فإنَّ كلَّ ما سواه عاجز ذليلٌ خَلَقَه الله ومَلَكَه، وذلك أنَّ ما يصنعونه بأصنامهم وما يعبدونه في صورة المقاومة، قالوا بها أو لم يقولوا.

[لغة] والنِّدُّ: المقاوِم، مثَلاً أو خلافًا أو ضدًّا. وهم لا يقولون بالمنادَّة. أو النِّدُّ: الكفؤُ أو المثلُ. وإذا جُمع مع غيره كالكفؤِ والضدِّ والمثلِ والشبيهِ كان كلٌّ بمعناه على حدة. والنِّدُّ: مثل الشيء الذي يضادُّه ويخالفه في أموره وينافره، من نَدَا البعيرُ إذا نفر. وقيل: النِّدُّ: المشارك في الجوهريَّة، والشَّكلُ: المشارك في القدر والمساحة، والشِّبْه: المشارك في الكيفيَّة، والمُساوي: [المشارك] في الكمِّيَّة، والمِثْل عامٌّ.

[بلاغة] وفي تسمية الأصنام أندادًا استعارة تهكُّميَّة؛ لأنَّهم علموا أنَّها عاجزة لا فعل لها، ولا تشارك الله تعالى في شيء، كما يستعار أسدٌ للجبان، والتبشير للوعيد. وحكمة ذلك الإشارة إلى أنَّ عليهم ذنب من اعتقدها مشاركة له في صفاته وأفعاله.

﴿وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ أنَّه ليس في كتاب من كتب الله تعالى ثبوت النِّدِّ له تعالى، وتعلمون أنَّه الخالق وغيره ليس خالقًا، فكيف يصحُّ لكم جعل ما لا يخلق شيئًا إلهًا مع ما تشاهدون من حدوث غيره وعجز غيره؟ ﴿هَلْ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَفْعَلُ مِن ذَٰلِكُم مِّن شَيْءٍ﴾ [سورة الروم: 40]؟ أو تعلمون عن أهل التوراة والإنجيل أنَّه ليس فيهما جواز اتِّخاذ الأنداد، بل النهي.

﴿وَإِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُم مِّن دُونِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿23﴾ فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا وَلَن تَفْعَلُوا فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ ﴿24﴾﴾

تحدِّي الجاحدين بالإتيان بمثل أقصر سورة من القرآن

﴿**وإن كُنتُمْ**﴾ عبَّر بـ«إنْ» مع تحقُّق ارتيابهم إشارةً إلى أنَّه بعيد جدًّا، حتَّى إنَّه يشكُّ في وقوعه، وذلك توبيخ؛ أو لأنَّ فيهم من لم يتحقَّق ارتيابُه فغُلِّب على غيره مِمَّن تحقَّق ارتيابه، أو لَمَّا اختلفوا جُعلوا كأنَّه لا قطع بارتيابهم. ﴿**فِي رَيْبٍ**﴾ شكٍّ ﴿**مِمَّا نَزَّلْنَا عَلَى عَبْدِنَا**﴾ محمَّد ﷺ من القرآن أهو من الله أو من عنده أو غيره من الناس، ومقتضى الظاهر الغيبة: «في ريب مِمَّا نزَّل على عبده»، ولكن عدل إلى التكلُّم تفخيمًا للقرآن ورسول الله ﷺ.

قالوا: ما يقول محمَّد لا يشبه الوحي وإنَّا لفي شكٍّ منه، فنزلت الآية: ﴿**فَأتُوا بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِ**﴾ أي بسورة هي مثل ما أنزلنا في البلاغة وحسن التأليف، والإخبار بالغيب مع الصدق، أو فأتوا بسورة صدرت أو كانت من مثل عبدنا من فصحاء العرب وبلغائها، ولو كان يقرأ الكتب والأخبار ويسمعها، وكيف تأتون بها من أمِّيٍّ مثله لا يقرأ ولا يكتب ولا يسمع الأخبار؟!. ويدلُّ للأوَّل قوله: ﴿وادْعُوا...﴾ إلخ وقوله تعالى في سورة أخرى: ﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَاتُوا بِسُورَةٍ مِّثْلِهِ﴾ [سورة يونس: 38] وقوله تعالى: ﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَاتُوا بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِ مُفْتَرَيَاتٍ﴾ [سورة هود: 13] فإنَّه لا يصحُّ فيهما عود الضمير إليه ﷺ.

وأقلُّ السور ما فيه ثلاث آيات كسورة الكوثر، وسورة والعصر، وسورة قريش، إلَّا أن يعدَّ ﴿لإيلافِ قريشٍ﴾ آية، وكسورة الفتح إن عدَّ ﴿إِذَا جَآءَ نَصْرُ اللهِ وَالْفَتْحُ﴾ آية وهو المكتوب، والواضح أنَّها آيتان آخِر الأولى: ﴿أفواجًا﴾، وآخر الثانية: ﴿توَّابًا﴾، فأقلُّ السور آيتان، إلَّا إن جاء حديث في أنَّ آخر الأولى: ﴿وَالْفَتْحُ﴾.

﴿وَادْعُواْ﴾ نادوا واطلبوا ﴿شُهَدَآءَكُم﴾ جمع شهيد أو شاهد لتعينكم آلهتُكم التي تشهد لكم على زعمكم أنَّكم عبدتموها وتقرِّبكم إلى الله زلفى، أو تنصركم أو تحضركم للنفع، أو تكون إمامًا لكم، فإنَّ الشهادة تكون من تلك المعاني. ﴿مِّن دُونِ اللهِ﴾ غير الله.

[لغة] أصل «دون»: التفاوت والانحطاط في الحسِّ كقرب مكان، وكقولك: عمْرو دون زيد في القامة، وتستعمل في غير الحسِّ نحو: عمرو دون زيد شرفًا، ثمَّ شاع استعماله في كلِّ تفاوت، وكأنَّها أداة استثناء.

﴿إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ في أنَّ القرآن من غير الله.

[نحو] ﴿فَإِن لَّمْ﴾ مجزوم «إِنْ» [هو] «لَمْ» ومجزومُها، أو «لَمْ» والجملة بعدها، فهي من الجمل التي لها محلٌّ، كما قيل بأنَّ محلَّ جملة الشرط إذا سُبقت بمبتدإ في محلِّ رفعٍ خبرٌ له، نحو: ﴿مَنْ يَّعْمَلْ سُوءًا يُجْزَ بِهِ﴾ [سورة النساء: 123] وهو قول بعض.

﴿تَفْعَلُوا﴾ إتيانًا بالمثل لعجزكم ﴿وَلَن تَفْعَلُواْ﴾ إتيانًا بالمثل لظهور إعجازه وعجزكم، والحال أنَّكم مقدَّرون أن لا تفعلوا أبدًا. ولا يضرُّ تصدير جملة الحال بأداة الاستقبال إذا كانت الحال مقدَّرة. ولا يصحُّ العطف؛ لأنَّ أداة الشرط لا تليها «لن».

﴿فَاتقُوا النَّارَ﴾ بالإيمان بالقرآن من الله ﷻ، فإنَّ إنكاره موجب لها، أو

فاتَّقوها مع بقائكم على الكفر إن وجدتم وقايــة، ولكن لا تجدونها. وعرَّف النار عهدًا من تنكيرها[1] في آية التحريم النازلة في مكَّة، وأوَّل التحريم إليها مدنيٌّ. ﴿الَّتِي وَقُودُهَا﴾ أي الجسم الذي توقد به ﴿النَّاسُ﴾ الكفرة، قدَّم الناس لأنَّهم المعذَّبون، ولأنَّ لحومهم وشــحومهم أليـق بالنار تــزداد بها وقودًا، والمراد ما يشــمل الجنَّ أو لم يرادوا فــي الآية؛ لأنَّ الســياق لكفَّار قريش، وذكروا في غير هذه الآية ﴿وَالْحِجَارَةُ﴾ المعبودة، ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنتُمْ لَهَا وَارِدُونَ﴾ [سورة الأنبياء: 98] وما شــاء الله من الحجارة لتعذيب الكفرة مطلقًا، ولمزيد التحسُّــر إذا رأوا أنَّهم عذِّبــوا بما عَبَدوا ولم يَدفع عذابَهم فضلا عن أن ينفعهم.

وهي نار تتَّقد بالحجارة لشــدَّة حرارتها، لا كنار الدنيا تتَّقد بالحيل أو بالحطب، ويوقى عنهــا الناس. وقيل: حجارة الكبريت لشــدَّة حرِّها وكثرة الالتهاب وســرعة الإيقاد، ومزيد الالتصاق بالأبدان، ونتــن الريح، وكثرة الدخان، وقيل: الذهب والفضَّة لأنَّهما يســمَّيان حجرًا، ولا يتبادر. ولا مانع من أن يراد ذلك كلُّه.

﴿أُعِدَّتْ﴾ هيَّأها الله وأوجدها ووكَّل عليها ملائكــة قبل يوم القيامة، ولا تفنى، وإن فنيت أعادها. وحكمة إيجادها قبله الإخبار بأحوالها الواقعة للزجر، وهو أقوى من الإخبار أنَّها لم تكن وأنَّها ســتكون بوصف كذا. وإن لم تكن الآن فكأنَّها كانت لتحقُّق الوقوع، فعبَّر بـ«أُعِدَّت» والمراد: ستُعدُّ. ﴿لِلْكَافِرِينَ﴾ يعذَّبون بهــا، أو الكافرون: كفَّار قريش ونحوهم، عدل عــن الإضمار مع تقدُّم ذكرهم إلى ذكرهم باسم الكفر الموجب للنار المذكور. أو جنس الكفَّار فيدخل هؤلاء أوَّلاً وبالذات.

---

(1) المقصود أنَّه تعالى عرَّف النار هنا بـ«ال» العهديَّة، ونكَّرهــا في آية التحريم في قوله: ﴿قُوا أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا...﴾ (الآية: 6).

﴿وَبَشِّرِ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ كُلَّمَا رُزِقُوا مِنْهَا مِن ثَمَرَةٍ رِّزْقًا قَالُوا هَذَا الَّذِي رُزِقْنَا مِن قَبْلُ وَأُتُوا بِهِ مُتَشَابِهًا وَلَهُمْ فِيهَا أَزْوَاجٌ مُّطَهَّرَةٌ وَهُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿25﴾﴾

جزاء المؤمنين العاملين

﴿وَبَشِّرِ الذِين ءَامَنُوا﴾ بالله وأنَّ القرآن منه ﷻ، أخبرْهم إخبارًا يُظهر الفرح بها على أبشارهم أي جلودهم، والتبشير أخصُّ من الإخبار؛ لأنَّه أوَّلاً بالخير، والإخبار أوَّلا وغير أوَّل وبالخير وغيره ﴿وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ من الفرائض ولا بدَّ، أو مع النفل إن كان. ومن العمل الصالح ترك المعاصي؛ لأنَّ تركها جَبْذٌ للنفس عنها، وهو عمل، ولا سيما إن قارن جبذها عمل الجارحة، وذلك الترك تقوًى، ومن التقوى أداء الفرض.

و«ال» في «الصالحات» للجنس فتصدق بعملين وبعمل واحد في شأن من لم يدرك من حين كلِّف إلَّا ذلك، كمن بلغ ومات عن قريب، أو أسلم كذلك، أو مات قبل نزول سائر الفرائض، ومن عمل قليلاً فجنَّ. ولا يخفى أنَّه من مات قبل أن يعمل شيئًا ما من الأعمال لسرعة موته أو نحوه يدخل الجنَّة.

﴿أَنَّ لَهُمْ﴾ أي بأنَّ لهم، أو ضمَّنَ «بشِّرْ» معنى الإعلام ﴿جَنَّاتٍ﴾ حدائق فيها كلُّ صنف من الثمار حتَّى ما لا يؤكل كالحنظل يحلو فيها، وفيها مساكن وقصور ﴿تَجْرِي مِن تَحْتِهَا﴾ تحت أشجارها ومساكنها. والجنَّة الأرض كما رأيت بتقدير مضاف، وإن شئت فلا تقدِّر بل اردد الضمير إلى الأرض،

والمراد به الأشجار استخدامًا، وإن أريد الأرض والشجر فالضمير عائد إليها باعتبار جزئها، أو تحتَها جانبها ﴿الْأَنْهَارُ﴾ تنبع من تحتها ولم تجئ من محلٍّ آخر، أو جاءت من بحر غائرة في الأرض حتَّى إذا وصلت الجنَّات نبعت ظاهرة، وجرت على وجه الأرض في غير أخدود. وحصباؤها دُرٌّ وياقوت. أو بعض تجري من بعيد تحتها، وبعض تنبع تحتها.

[لغة] والنهر والبحر أرض؛ ذلك لأنَّ الماء ينهره أي يوسِّعه، والجري للماء، وأسنده لمحلِّه، والنهر مجمع الماء الذي يجري الماء منه إلى غيره، وإن قلنا: النهر الماء الجاري في متَّسع فلا مجاز، و«ال» للحقيقة أو للعهد في قوله: ﴿فِيهَآ أَنْهَارٌ﴾ [سورة محمَّد: 15] أو نابت عن الضمير.

﴿**كُلَّمَا رُزِقُوا مِنْهَا**﴾ من الجنَّات ﴿**مِن ثَمَرَةٍ**﴾ حال من قوله: ﴿**رِّزْقًا**﴾ أي شيئًا مرزوقًا.

[نحو] و«رزقًا» مفعول ثان، و«مِنْ» للبيان أي رزقًا هو ثمرة، لا بدل بعضٍ لأدائه إلى حذف الرابط، ولإفرادها، ولا يرزق من الثمرة، ولأدائه إلى استعمال النكرة في الإثبات للعموم الشموليِّ مع وجود التخلُّص من ذلك، ولا بدل اشتمال؛ لأنَّ الثمرة بعض الجنَّة لا شيء غيرها ملابس لها، ولأدائه إلى استعمال النكرة في الإثبات للشمول، ولو قيل به في ﴿عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّآ أَحْضَرَتْ﴾ [سورة التكوير: 14]. والثمرة: الأفراد أو الأنواع. و«ما» مصدريَّة و«كُلَّ» ظرفٌ لإضافته للمصدر النائب عن الزمان، أي: كلُّ رَزْقٍ منها (بفتح الراء) على المعنى المصدريِّ متعلِّق بقوله:

﴿**قَالُوا**﴾ أي يقولون كلَّ وقت رَزْقٍ منها: ﴿**هَذَا الَّذِي رُزِقْنَا مِن قَبْلُ**﴾ في الدنيا أو في الآخرة، ولا يزالون يقولون: «هذا الذي...» إلخ، أي مثل الذي رزقناه من قبله في ظنِّهم بحسب اللون والصورة، وإذا أكلوه وجدوا طعمه غير

طعم الأوَّل وأحلى، وكلُّ طعام أفضل مِمَّا قبله أبـدًا، فإذا رُزقوا الرزق الأوَّل في الجنَّة قالوا: هذا الـذي رزقنا في الدنيا، وإذا رزقوا ثانيًـا قالوا: هذا الذي رزقنا في الجنَّة قبلُ، وهكذا إلى ما لا نهاية له. وقيل: كلُّ ذلك في الآخرة لم يدخل فيه ما في الدنيا. ولا دليل على أنَّ المراد: ما رزقنا من قبلُ: هو الأعمال الصالحة في الدنيا تسميةً للمسبَّب باسم السبب.

﴿وَأُتُوا بِـهِ﴾ أي أتاهم الملائكة به أو الوِلْدان، كقولـه تعالى: ﴿وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُّخَلَّدُونَ﴾... إلخ [سورة الإنسان: 19] أو تارة الملائكة وتارة الولدان ﴿مُتَشَـابِهًا﴾ يشـبه بعضه بعضًا لونًا ويختلف طعمًا. أخبرنا الله بتشابه اللون تلذيذًا لنا بغرابة تشابه اللون واختلاف الطعم، وذلك مدح للجنَّة. أو متشابهًا لونًا وطعمًا إلَّا أنَّ الطعم متفاوت فضلاً.

قال الحسن: إنَّ أحدهم يؤتى بالصحفة فيأكل منها ثمَّ يؤتى بأخرى فيراها مثل الأولى فيقول: هذا الـذي رزقنا من قبل، فتقول الملائكـة: اللون واحد والطعم مختلف. وعنه ﷺ: «**والذي نفس محمَّد بيده، إنَّ الرجل من أهل الجنَّة ليتناول الثمرة ليأكلها فما هي واصلـة إلى فيه حتَّى يبدل الله مكانها مثلها**»[1]، فيجوز أن يحمل للتشابه، و﴿هَذَا الَّذِي رُزِقْنَا مِن قَبْلُ﴾ على هذا.

﴿وَلَهُمْ فِيهَآ أَزْوَاجٌ﴾ حور عين وآدميَّات أفضل منهنَّ. وللجنِّ جنِّـيَّات وحور.

[لغة] وجمـع «الأزواج» للقلَّة والمراد الكثـرة، والمفرد «زوج» بلا تاء، وَأَمَّا «زوجة» بالتاء في المؤنَّث فشاذٌّ أو خطأ. وقيل: لغة تميم وكثير من قيس، قال الفرزدق:

إنَّ الذي يسـعى لِيُفسِد زوجَتي ... كَسَاعٍ إلى أُسْدِ الشَّرى يَسْتَمِيلُها

---

(1) أورده **الآلوسي البغدادي** في تفسيره لهذه الآية دون ذكر السند.

﴿مُّطَهَّرَةٌ﴾ منزَّهة عن أن يكون فيهنَّ الحيض أو شعر الإبط أو شعر العانة أو نتن أو بلل مستقذر أو بول أو غائط أو سـوء خلق، كما هم طُهِّروا كذلك. والمطهِّر لهنَّ الله تعالى، وليس ذلك جمعًا بين الحقيقة والمجاز إذ كان التطهير في الآدميَّـات والجنيَّات إذهاب نحو الحيض عنهنَّ بعـد إذ كان، أو تأهَّلن له ولم يكن، وفي الحور من أوَّل الأمر؛ لأنَّ المراد تحصيلهنَّ وهنَّ طواهر هكذا، وليس في ذكر الزوجـات ما يدلُّ على الولادة في الجنَّـة، فقيل: لا ولادة فيها وهو المشـهور، وقيل: بها. ﴿وَهُمْ فِيهَـا خَالِدُونَ﴾ لا يخرجـون ولا يموتون ولا تزول بعض حواسِّهم وأجسادهم، ولا بعض قواهم، ولا تصيبهم آفة.

[أصول الدين] ولا تفنـى الجنَّة والنـار وأهلهما كما زعمـت الجهميَّة قبَّحهـم الله ﷻ؛ لأنَّه ليس في دوامهما اشـتراك مع الله فيـه؛ لأنَّ دوامه غير دوامهم، فإنَّه بالذات ودوامهم بإدامته. وأنفاس أهلهما مع دوامهم فيها معلومة له، بل قيل: يقال إنَّ معلوماته محصورة عنده مـع أنَّها لا تنقضي، وذلك من كمال قدرته ومخالفته للخلق؛ فلا يلزم الجهل لـه تعالى بدوام أنفاس أهلها، والنصوص دلَّت على ذلك، ولو كان لأهل الجنَّة فنـاء لاغتمُّوا ولم تتخلَّص لذَّاتهم، ولَفرِح أهل النار وليس لهم فرح.

[سبب النزول] روي عن ابن عبَّاس وابن مسعود أنَّ رجلين من المنافقين من أهل المدينة هربًا من رسـول الله ﷺ إلى المشـركين فأصابهما هذا المطر الذي ذكر الله فيه رعد وبرق وصواعق، فجعـلا كلَّما أصابهما الصواعق جعلا أصابعهما في آذانهما من الفرق أن تدخل الصواعق في مسـامعهما فتقتلهما، وإذا لمع البرق مشـيا إلى ضوئه، وإذا لم يلمع لم يبصرَا لزما مكانهما فجعلا يقولان: ليتنـا قد أصبحنا فنأتي محمَّـدا فنضع أيدينا في يده، فأتياه فأسـلما ووضعا أيديهما في يده وحسـن إسـلامهما، فضرب الله شـأن الرجلين مثلاً للمنافقين الذين بالمدينة.

وكان المنافقون إذا حضروا مجلس النبيء ﷺ جعلوا أصابعهم في آذانهم فرقًا من كلام النبيء ﷺ أن ينزل فيهم شـــيء، أو يُذكروا بشـــيء فيُقتلوا، كما يجعل الرجلان أيديهمـــا في آذانهما، وإذا أضاء لهم مشـــوا فيه، أي إذا كثرت أموالهـــم وأصابـــوا غنيمة وفتحًا مشـــوا فيه، وقالـــوا: إنَّ ديـــن محمَّد صدق واستقاموا كما يمشـــي الرجلان في البرق، ﴿وَإِذَآ أَظۡلَمَ عَلَيۡهِمۡ قَامُوا﴾ أي: إذا هلكت أموالهم وأولادهم وأصابهم البلاء قالوا: هذا لِدين محمَّد، وكفروا كما يمسك الرجلان عن المشي إذا زال البرق.

قيل: لَمَّا مثَّل الله حال المنافقين بالذي استوقد نارًا أو بالصيِّب من السماء قال المنافقون: الله أجلُّ وأعلى من أن يضرب هذه الأمثال، فأنزل الله ﷻ:

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَسْتَحْيِۦٓ أَن يَضْرِبَ مَثَلًا مَّا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا ۚ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ ۖ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَيَقُولُونَ مَاذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِهَٰذَا مَثَلًا ۘ يُضِلُّ بِهِۦ كَثِيرًا وَيَهْدِى بِهِۦ كَثِيرًا ۚ وَمَا يُضِلُّ بِهِۦٓ إِلَّا ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿26﴾ ٱلَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهْدَ ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مِيثَٰقِهِۦ وَيَقْطَعُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿27﴾ ﴾

فائدة ضرب الأمثال للناس في القرآن الكريم

﴿ إِنَّ اللهَ لَا يَسْتَحْيِي أَنْ يَّضْرِبَ مَثَلاً مَّا بَعُوضَةً ﴾

[نحو] «ما» نعت لـ«مثلا» ولو كان جامدًا؛ لأنَّ معناه: حقير، أو كائن ما كان، وهو مشهور بذلك مستعمل فيه كثيرًا، بخلاف «بعوضة» فلا يكون نعتًا لأنَّه جامد ولو قصد به الوصف؛ لأنَّه لم يشـهر أو لم يَرِدْ، لا يقـال: جاء رجل بعوضة. بل «بعوضةً» مفعول أوَّل لِـ«ضَـرَبَ»، و«مثلاً» مفعول ثانٍ له؛ لأنَّه بمعنى صيَّر؛ وإن عُدِّي لواحد فـ«مثلاً» مفعولٌ، و«بعوضةً» بدلٌ، أو مفعول، و«مثلاً» حال.

﴿ فَمَا فَوْقَهَا ﴾ إلى قوله: **﴿ هُمُ الْخَاسِـرُونَ ﴾** للدنيا وأهلها، فإنَّ البعوضة تَحيَى ما جاعت، وإذا امتلأت ماتت، ومن امتـلأ من الدنيا هلك، أو لأعمال العباد، يجازى عن القليل منها.

[سبب النزول] والصحيح ما ذكر عن ابن عبَّاس رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا أنَّه ذكر الله سبحانه أصنام المشركين فقال: ﴿ وَإِنْ يَّسْلُبْهُمُ الذُّبَابُ شَيْـًٔا لَّا يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُ ﴾ [سورة الحج: 73]،

وذكر كيدها وجعله كَبَيْت العنكبُــوتِ: ﴿وَإِنَّ أَوْهَنَ الْبُيُوتِ لَبَيْتُ الْعَنكَبُوتِ﴾ [ســورة العنكبوت: 41]، فقالوا: كيف ينزل الله ذكر الذبــاب والعنكبوت؟! فنزلت الآية: ﴿إِنَّ اللهَ لَا يَسْتَحْيِي...﴾. وعن الحسن: لَمَّا نزل: ﴿يَآ أَيُّهَا النَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ...﴾ [سورة الحج: 73]، قال المشــركون: ما هذا من الأمثال؟! فنزل: ﴿إِنَّ اللهَ لَا يَسْــتَحْيِي...﴾ وفيه أنَّ ذكر المشــركين لا يلائم كون الآية مدنيَّة، ويجاب بأنَّهم منافقون في المدينة يقولون ذلك فيما بينهم وهم مشــركون في قلوبهم. وعن ابن عبَّاس لَمَّا ضرب المثل بالذباب والعنكبوت ـ قيل: ومستوقد النار ـ قال اليهــود: مــا أراد الله بذكر هذه الأشــياء الخسيســة! فنــزل: ﴿إِنَّ اللهَ لَا يَسْتَحْيِي...﴾ إلخ، أي لا يترك لقول اليهود والمشــركين تصيير البعوضة فما فوقها في الصغر كجناحها مثلاً أو في الكِبَر كائنًا ما كان، أو يصير المثل شيئًا ما بعوضة فما فوقهــا؛ وإذا ضرب ما زاد على البعوضة فــي الصغر فأولى أن يضربه لما فوقها في الكبر كالذباب والعنكبوت.

[أصول الدين] والحياء: انكســار وانقباض عن عيب، والله منزَّه عن ذلك فيحمل في حقِّه على لازم ذلك وهو الترك، فالاســتحياء من الله الترك، تعبيرًا باللازم؛ لأنَّ حقيقته يُنزَّه الله عنها، وهي انكسار يعتري الإنسان لخوفه من أن يعاب بما فعل، أو أراد فعله، وهو مشتقٌّ من معنى الحياة؛ لأنَّه يؤثِّر في القوَّة، ولا يحســن أن يبقى على ظاهره، ويــوكل أمره إلــى الله ﷻ ـ ألهمنا تأويلاً صحيحًا بلا تكلُّــف ـ ولا أن يقال: هو بظاهره بلا كيــف لأنَّه كفر. والخجل حيرة النفس لشدَّة الحياء، وقيل: قبلَ الفعلِ والخجل بعده.

﴿**فَأَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُــوا فَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ**﴾ أي المثل، هــذا أولى؛ لأنَّه أقرب. أو الضرب؛ لأنَّه مصدر لفعل مقرون بـ«أن»، وليس من باب: ﴿**اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى...**﴾ [ســورة المائدة: 8]. ويبعــد عوده لترك الاســتحياء، وأبعد منه عوده للقرآن. ﴿**الْحَقُّ**﴾ الثابت، أو خلاف الباطل حال كونه ﴿**مِن رَّبِّهِمْ**﴾، أو الحقُّ

الصادر من ربِّهم، ﴿وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ يهود وغيرهم، ﴿فَيَقُولُونَ مَاذَآ أَرَادَ اللَّهُ بِهَٰذَا مَثَلاً﴾ من حيث التمثيل، إنكارًا وتعجُّبًا من صحَّته مثلاً، وهذا برهان على أنَّهم لا يعلمون، إذ لا يقوله من يعلم، فهو أبلغ من قولك: وَأَمَّا الذين كفروا فلا يعلمونه حقًّا، وأجابهم الله ﷻ. ونصب «مثلاً» على التمييز، كما رأيت من اسم الإشارة لجواز تمييزه وتمييز الضمير إذا كانا مبهمين أو حال منه. ﴿يُضِلُّ بِهِ﴾ بالمثل ﴿كَثِيرًا﴾ من الناس، يصيِّرهم ضالِّين لكفرهم به ﴿وَيَهْدِي بِهِ كَثِيرًا﴾ لتصديقهم، فإنَّ التصديق هداية من الله ﷻ. ﴿وَمَا يُضِلُّ بِهِ إِلَّا الْفَاسِقِينَ﴾ من سبق القضاء عليه بأن يموت على فسقه الذي هو شرك.

[أصول الدين] ومن لم يؤمن به وسيؤمن فإنكاره فسقٌ يتوب منه. والسعيد في حال فسقه فاسق عند الله ﷻ بما فعل لكنَّه في ولاية الله ﷻ بما علم أنَّه يتوب؛ فهو فاسق في الحال بفعله، ومسلم في الأزل وما بعده لسعادته. وليس المراد أنَّه مسلم كافر عند الله باعتبار واحد؛ لأنَّه اجتمع فيه إيمان وكفر في حال واحد. ولا تقدر أن تقول: هو في حال فعله للكبيرة أنَّ فعله هذا مباح، ولا أنَّه طاعة ولا غير ذنب ولا غير فسق ولا غير كفر، وكلُّ خروج عن الشيء فهو فسق، إلَّا أنَّه لا يطلق حيث يُوهِم. والهداية والإضلال يتجدَّدان ويزدادان، فإن شئت فقل: يزيد به هدًى وإضلالاً، وقدَّمه لأنَّ الكلام في الردِّ على الضالِّين، وقولهم: ﴿مَاذَآ أَرَادَ اللَّهُ﴾ ناشئ عن الضلال، وما في القرآن سبب له؛ ولذلك أكَّده بقوله: ﴿وَمَا يُضِلُّ بِهِ إِلَّا الْفَاسِقِينَ﴾ فيكون بدأ به وختم به.

﴿الذِينَ يَنقُضُونَ عَهْدَ اللهِ﴾ يُبطِلون ـ إبطالاً شبيهًا بفكِّ طاقات الحبل ـ العهدَ الشبيه بالحبل في التوصُّل به إلى المراد، من نجاة من مكروه وفوز بما يحبُّ، وهو ما أنزل الله ﷻ في كتبه ـ القرآن وما قبله ـ من الإيمان به ﷺ فإنَّ ذلك كالمعلوم، ولو لم يُعلم لقوَّة حُجَجِه كأنَّه معلوم ولو لمن لم يعلمه. وزاد

أهل الكتاب بما في كتبهم من أخذ الميثاق عليهم وعلى أنبيائهم وأمَمهم أن يؤمنوا بمحمَّد ﷺ.

وقد أخذ الله العهد بالإيمان على بني آدم يوم ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ﴾ [سورة الأعراف: 172]، وأخذ الله العهد على الأنبياء أن يقيموا الدين، ويؤمنوا بمحمَّد ﷺ، وأخذوا العهد على أنفسهم أن يؤمنوا به، وأخذ العهد على العلماء وعلى من علم أن يبيِّنوا الحقَّ، والآية في الكفَّار عمومًا.

[بلاغة] شبَّه العهد ـ وهو ما عهد الله ﷻ إلى الخلق من الدين ـ بالحبل لجامع التوصُّل إلى المقصود والارتباط، ولم يذكره، ودلَّ له بذكر مناسِبِهِ وهو النقض، فالحبل استعارة بالكناية، وقرينتها تصريحيَّة تبعيَّة وهي «ينقض»، فهنا استعارة مكنيَّة قرينتها استعارة تحقيقيَّة لا تخييليَّة، شبَّه إبطال العهد بقطع الحبل أو فكِّ طاقاته فسمِّي الإبطال نقضًا، واشتقَّ منه «ينقض».

﴿مِنۢ بَعْدِ مِيثَاقِهِ﴾ تأكيد الله وإبرامه للعهد بالأدلَّة العقليَّة والنقليَّة كالكتب من الله؛ فالهاء للمضاف إليه وهو «الله»، ولا إشكال فيه إذا كانت الإضافة لفظيَّة، كالإضافة إلى الفاعل كما رأيت، أو المفعول كما ستراه إن شاء الله، فإنَّها في منزلة عدم الإضافة. أو من بعد ميثاق العهد، أي: إبرامه كذلك، أو تأكُّده وتقوِّيه من الله، أو منهم بالقبول والالتزام، فالهاء للعهد.

والميثاق: التوثُّق أو التوثيق، أو آلة؛ أي ما وثَّق الله تعالى به عهده من الآيات. ﴿وَيَقْطَعُونَ مَآ أَمَرَ اللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ﴾ أي بأن يوصل، أي: بوصله، وهو الإيمان بالنبيء ﷺ والأنبياء، وعدم التفرقة بين رسول وآخر، وكتاب وآخر، والرحمِ والمؤمنين والجهاد وسائر الدين.

وما ذكر من العموم أولى من تفسير ما أمر الله به بمحمَّد ﷺ وإطلاق ما عليه، ومن تفسيره بالقرآن أو بالرَّحِمِ، ومن تفسيره بوصل القول بالعمل، ومن

تفسيره بالأنبياء. و«أَنْ يُوصَلَ» بدل اشتمال من الهاء كما رأيت. والأمر: طلب الفعل جزمًا ولو ندبًا، أو بشرط العلوّ ولو ادِّعاءً، أو بشرط تحقُّق العلوِّ.

﴿وَيُفْسِدُونَ فِي الأَرْضِ﴾ بالمعاصي مطلقًا أو بالمنع عن الإسلام وقطع الطريق عمَّن يهاجر وهو أولى، ﴿أُوْلَئِكَ﴾ البعداء عن مقام الخير بصفاتهم الخبيثة ﴿هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾ المبطلون لمصالح أنفسهم، إذ صاروا للنار إذ لم ينتفعوا للآخرة بعقولهم وأموالهم وأبدانهم وأولادهم وجاههم، وأبطلوا نساءهم في الجنَّة ومنازلهم فيها فلا رأس مال ولا ربح.

﴿كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَكُنتُمْ أَمْوَاتًا فَأَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿28﴾ هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُم مَّا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ اسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ فَسَوَّاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿29﴾﴾

مظاهر قدرة الله بخلق الإنسان وإماتته وخلق الأرض والسماء

﴿**كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ**﴾ وبَّخهم الله على ما مضى من كفر واستمراره، وأنكر عليهم لياقته بحال صحَّة ومرض، ويسر وعسر، وعزٍّ وذلٍّ، وغير ذلك من الأحوال، أو ذلك تعجيب، وذلك لقيام البرهان.

والخطاب لأهل مكَّة، ونزلت الآيتان فيها، وجعلتا هنا على ترتيب اللوح، أو خطاب لهم من المدينة بعد غيبة تأكيدًا عليهم، كما يغتاب ثمَّ يخاطب مخافة ألَّا يصل الكلام، حاشا لله ﷻ، أو خطاب لكلٍّ من كفر، كيف يكفر كافر والحال أنَّه غير موجود ثمَّ وجد كما قال: ﴿**وَكُنتُمْ أَمْوَاتًا**﴾ المراد بالموت نفي الحياة، بقطع النظر عن أن تكون قد تقدَّمت، لا نفيها بعد أن كانت؛ لأنَّ الإنسان لم يكن حيًّا ثمَّ مات. أو أراد أنَّهم كانوا نطفًا والنطفة كانت حيَّة في الإنسان وماتت بالانفصال وحييت في الرحم، أو كنتم كأموات، وعلى كلِّ حال لا يشكل أنَّهم في الجماد لا يوصفون بموت ولا حياة. ﴿**فَأَحْيَاكُمْ**﴾ في الأرحام ﴿**ثُمَّ يُمِيتُكُمْ**﴾ لآجالكم ﴿**ثُمَّ يُحْيِيكُمْ**﴾ في قبوركم ويخرجكم ﴿**ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ**﴾ للجزاء.

﴿**هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُم**﴾ أي: لأجلكم، أو ملَّك لكم ﴿**مَّا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا**﴾ حتَّى العقارب والحيَّات والسباع، فإنَّكم تنتفعون بها اعتبارًا أو

انزجارًا عن عقاب الله، كما تنتفعــون بالثمار والمعادن والماء والحيوان، وما في السمِّ نفع لقتل المؤذيات.

[فقه] ولا ينتفع بسـمِّ الميتة ولا يباع ولا يشـترى بل بسمِّ غيرها وسمِّ المعدن. أو أراد بالأرض ما في جهة السـفل، فيشمل الأرض نفسها وما فيها. استدلَّ المعتزلة والفخر بالآية على أنَّ الأشياء قبل ورود الشرع على الحلِّ إن كانت نافعــة، وعليه كثير من الشـافعيَّة والحنفيَّة، ولا تحتمـل الآية أنَّ اللام للضرر مثل: ﴿وَإِنۡ أَسَـٰٔتُمۡ فَلَهَا﴾ [سورة الإسـراء: 7]. ولا دليـل على أنَّ المراد بالآية الإباحة على شرط نزول الوحي بها. وقيل: إنَّها قبل الشرع على الحظر، وقيل بالوقف، **والأوَّل أولى**.

﴿ثُمَّ اسۡتَوَىٰٓ﴾ بعد خلق الأرض المدلول عليه بخلق ما في الأرض.

[أصول الدين] واستواؤه هنا توجُّه إرادته. واختارَ الجهلَ على العلم مَن وكِل أمرَه إلى الله وقد وجد له تأويلاً[1]. وهلك من قال: إنَّه على ظاهره ولكن بلا كيف. ولا يتمُّ هنا تفسـير «اسـتوى» بِمَلَـكَ لقوله: ﴿إِلَـى...﴾ وقوله: ﴿ثُـمَّ...﴾ إلَّا بتكلُّـف أنَّ «إلـى» بمعنـى «على»، وقـد ملكهـا قبل. ولا بـ«اسـتولى» لتكلُّف توجيه الغلبة على الجماد. و«ثـمَّ» لتراخي الوقت، وإن قلنا: للرتبة فلا نقض بها.

والصحيح أنَّ السـماء أفضل من الأرض من حيث إنَّها محلُّ الطاعة التي لا معصية معها، والأرض أفضـل من حيث إنَّها للأنبياء والرسـل، والمؤمن أفضل من الملائكة. والأرض أسـبق خلقًا على الصحيح. **﴿إِلَى السَّمَآءِ﴾** أي: إلى إيجادها كما أوجد الأرض. وخلقُ ما في الأرض متأخِّر عن خلق السـماء تشخيصًا، لكنَّه متقدِّم ضمنًا بخلق ما يخلق منه الحيوانات ـ مثلاً ـ خَلْقٌ لها،

(1) أي أمر الاستواء مِمَّن يقولون: «الاستواء معلوم، والكيف مجهول...».

فإنَّ الله جلَّ وعلا خلق الأرض بلا بسـط في يومين وخلق السماوات وبسطها في يومين، وبسـط الأرض وخلق ما فيها في يومين، ﴿فَسَوَّاهُنَّ﴾ أي: صيَّر السماء، أتى بضمير الجماعة لإرادة الجنس ولتعدُّد ما بعده في قوله: ﴿سَبْعَ سَمَاوَاتٍ﴾ كقوله تعالى: ﴿فَإِن كُنَّ نِسَآءً﴾ [سورة النساء: 11]، فمقتضى الظاهر: «وإن كانت»، أي: الأولاد، ولكن قال: ﴿كُنَّ﴾ لقوله: ﴿نِسَآءً﴾.

وقدَّم هنا وفي «حم السجدة»[1] ما أخَّر في «النازعات»[2]؛ لأنَّ المقام فيهما للامتنان على المخاطبين، وفي النازعات للقدرة.

ومعنى تسويتهنَّ سبعًا: خلقهنَّ من أوَّلٍ مستوياتٍ، كقولك: وسِّع الدار، أي: ابنِها واسعة. و«سَبْعَ» بدل من الهاء عائدة إلى «السَّمَاءِ» أو إلى مبهم مفسَّر به، أو مفعول ثان، لتضمُّن [سَوَّى] معنى صيَّر، وهو ضعيف، أو حال مقدَّرة. ﴿وَهُوَ بِكلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ إجمالاً وتفصيلاً وذواتًا وأحوالاً؛ فمَن قدرتُه وعلمُه ذلك كيف يُجحَدُ؟ أو كيف يُنسب إليه العجز عن إعادة الخلق مع أنَّه خلق السماوات الأرض، وخلق الدخان من الماء قبل الأرض؟.

وَلَمَّا خلق الأرض استوى إلى السماء وهي دخان وسوَّاها سبعًا، ثمَّ بسط الأرض وفتقها سبعا، وكان بسطها وفتقها في الأحد والاثنين، وهنَّ بعض فوق بعض كالسماوات، وقيل: بعض بجنب بعض يفصل بينهنَّ البحار وتظِلُّ السماء عليهنَّ.

---

(1) في سورة فصِّلت بدأ بالأرض أوَّلًا ثمَّ ذكر السماء إذ قال: ﴿قُلَ اَيِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالذِي خَلَقَ اَلَارْضَ فِي يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُۥٓ أَندَادًا ذَٰلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ مِن فَوْقِهَا وَبَارَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَآ أَقْوَاتَهَا فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَآءً لِلسَّآئِلِينَ ثُمَّ اسْتَوَىٰٓ إِلَى السَّمَآءِ...﴾ إلخ (الآيات: 9 ـ 12).

(2) في سورة النازعات بدأ بالسماء أوَّلا ثمَّ ذكر الأرض فقال: ﴿ءَآنتُمُۥٓ أَشَدُّ خَلْقًا اَمِ السَّمَآءُ بَنَاهَا رَفَعَ سَمْكَهَا فَسَوَّاهَا وَأَغْطَشَ لَيْلَهَا وَأَخْرَجَ ضُحَاهَا وَالَارْضَ بَعْدَ ذَٰلِكَ دَحَاهَآ...﴾ إلخ (الآيات: 27 ـ 33).

﴿ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَـٰٓئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً ۖ قَالُوٓا۟ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن
يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ ۖ قَالَ إِنِّيٓ أَعْلَمُ مَا
لَا تَعْلَمُونَ ۝30 وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى ٱلْمَلَـٰٓئِكَةِ فَقَالَ أَنۢبِـُٔونِى
بِأَسْمَآءِ هَـٰٓؤُلَآءِ إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ ۝31 قَالُوا۟ سُبْحَـٰنَكَ لَا عِلْمَ لَنَآ إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ
ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ ۝32 قَالَ يَـٰٓـَٔادَمُ أَنۢبِئْهُم بِأَسْمَآئِهِمْ ۖ فَلَمَّآ أَنۢبَأَهُم بِأَسْمَآئِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ
إِنِّيٓ أَعْلَمُ غَيْبَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ ۝33 ﴾

استخلاف الإنسان في الأرض وتعليمه اللغات

﴿ **وَإِذْ قَالَ** ﴾ واذكر إذ قال، وقيل: ظرف لـ«قالوا». ﴿ **رَبُّكَ لِلْمَلَـٰٓئِكَةِ** ﴾ كلِّهم. وقيل: لطائفة هم خُزَّان الجنان يسمَّون الجانَّ، أرسلهم إلى الأرض ليطردوا الجنَّ منها، إلى البحار والجزائر والجبال، ولا يصحُّ هذا. ولا يصحّ أنَّ إبليس مَلَكٌ منهم، وأقرب من هذا أنَّه ولد من الجنِّ قبله، وليسوا ملائكة، قاتلهم الملائكة وأسروه، فتعبَّد مع الملائكة. والمشهور أنَّه أوَّل الجنِّ. وقيل: ملائكة الأرض؛ لأنَّ الكلام في خلافة الأرض.

[لغة] والمفرد: «مَلأَكٌ» ـ بهمزة مفتوحة بعد اللَّام ـ وهو مقلوب «مَأْلَك» ـ بهمزة ساكنة قبل اللام ـ من الألوكة وهي الرسالة، وهم رسل الله إلى الأنبياء وإلى ما شاء الله.

[أصول الدين] وأخطأ من قال: إنَّ ملائكة الأرض يعصون كبني آدم. **والملائكة أجسام نورانيَّة قادرة على التشكُّل بأشكال مختلفة، وعلى الظهور.**

﴿**إِنِّي جَاعِلٌ فِي الأَرْضِ خَلِيفَةً**﴾ ينفِّذ الأحكام عنِّي وهو آدم، إذ لا يقدر أهل الأرض على تلقِّي الأحكام عن الله ولا عن الملائكة.

﴿**قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا**﴾ بالذنوب الكبار والصغار، والمكروهات، كالعُجْب، والكِبْر، والبغي، والحسد. ﴿**وَيَسْفِكُ الدِّمَآءَ**﴾ يريقها، كناية عن القتل ولو بلا إراقة دم، فلعلَّهم علموا ذلك من فِعْلِ الجنِّ الذين سكنوا الأرض قبل آدم ـ في القول به ـ وقاسوا عليه آدم وأولادَه، أو علموا ذلك من اللوح، أو بإخبار الله لهم، كما روي أنَّهم قالوا: «يا ربَّنا، ما تفعل ذرِّية هذا الخليفة؟» فقال: «يفسدون فيها ويسفكون الدماء»، أو بإلهام، أو لفهمهم أنَّ من خالف الخلقة الملَكيَّة لا يخلو عن ذلك. وقولهم ذلك تعجُّبٌ وطلبٌ للعلم بحكمة اقتضت جعل الخليفة، مع أنَّه يحصل الفساد والسفك، ولعلَّهم بالغوا في التعجُّب والطلب، فعاقبهم بقطع الوحي عنهم، إلى أن أوحى إليهم: ﴿**إِنِّيَ أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ**﴾ [سورة البقرة: 30]. وقيل: استفهام حقيقيٌّ، أي: أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء أم من يُصلح؟.

﴿**وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ**﴾ نسبِّحك مصاحبين بحمدك، نقول: «سبحان الله والحمد لله»، أو «سبحان الله وبحمده»، أي: وبحمده نسبِّح.

سئل رسول الله ﷺ: أيُّ الكلام أفضل؟ قال: «**ما اصطفى الله تعالى لملائكته، سبحان الله وبحمده**»[1]. ويقال: تسبيح الملائكة: «**سبحان ذي الملك والملكوت، سبحان ذي العظمة والجبروت، سبحان الحيِّ الذي لا يموت**». أو: «نسبِّحك مثْنين عليك وشاكرين لك على توفيقك لنا للحمد». أو كقولك: كان كذا بحمد الله، أي: بفضله وإذنه.

---

(1) رواه مسلم في كتاب الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار، باب فضل سبحان الله وبحمده رقم: 2731. ورواه أحمد في مسند الأنصار، رقم: 20813. من حديث أبي ذر.

﴿وَنُقَدِّسُ لَكَ﴾ نطهِّرك عن صفات النقص، أي: نعتقد خلوَّك عنها، وجاز هذا لأنَّ التسبيح المذكور مراد به لفظ «سـبحان»، وإذا كان ذلك حالنا فنحن أحقُّ بالاسـتخلاف لأنَّا أحفظ لعهدك، ولا ندري ما الحكمة في العدول عنَّا إلى مَن ذلك صفتُه، وذلك عجيب عندنا متعجِّبون نحن منه! فأخبرنا بها.

[لغة] يقال: قدَّس اللهَ وقدَّس للهِ، وشكر اللهَ وشـكر للهِ، وسبَّح اللهَ وسبَّح للهِ، ونصح اللهَ ونصح للهِ. أو نذكر ألفاظ التقديس لأجلك. أو التسبيح: التنزيه عمَّا لا يليق به، فالتقديس تنزيه ذاته عمَّا لا يراه لائقا به. أو نقدِّس لك: نطهِّر أنفسنا عمَّا لا يجوز من الأدناس والمعاصي فلا نماثلهم.

﴿قَالَ إِنِّـيَ أَعْلَمُ مَا﴾ تبدون ومـا تكتمون وأعلم مـا ﴿لَا تَعْلَمُونَ﴾ من غيوب السماوات والأرض، ومن إرادتي إظهار حكمتي وقدرتي، وأنَّ المطيع الواحد منهم أفضل من الملائكة، وأنَّهم أشـدُّ عبادة وأشـقُّ؛ لأنِّي أخلق لهم موانع كالنفوس والهوى والشياطين منهم ومن الجنِّ، والشهوات، ولهم جهادٌ وقراءةٌ لَيْسَـا لكم، وصلاتهم تشـمل عبادتَكم، وعباداتٌ لهم ليسـت لكم، كالصوم والصدقة. وأُظهِرُ العدلَ فيهم ولا أبالـي، وأدخل العاصي منهم النار عـدلاً ولا أبالي. ويُحيون من الدين مـا لا تُحيون بالتعلُّـم والتعليم، والأمرِ والنهي. عَلِمَ الله ذلك، ولم يعلمه الملائكة. وقالوا سـرًّا فيما بينهم: لن يخلق الله خلقًا أكرم عليه منَّا، ولا أعلمَ، لتقدُّمنا ورؤيتنا بعض ما في اللوح، وأنَّ آدم يطيع وإبليس يعصي وأنَّ منهم أنبياء ورسلاً.

[نحو] و«أَعْلَمُ» مضارع، لا اسم تفضيل؛ لأنَّه لا يضاف للمفعول.

﴿وَعَلَّـمَ ءَادَمَ الَاسْـمَآءَ﴾ ألقاها في قلبه مـرَّة لا بتعليم ملَـك كما قيل ﴿كُلَّهَا﴾ من جميع اللغات، وهي الحروف والأفعال والأسماء، وواضع اللغة الله، فالمراد بالأسـماء الألفاظ الدوالُّ على المعاني، فشملت الحرف والفعل

إفرادًا وتركيبًا، حقيقة ومجازًا، ودخلت أسماء الله كلُّها. بل قيل: أراد أيضًا ما يدلُّ بلا لفظ، كالنُّصُب والعُقَد والإشارة بالجارحة وحال الشيء.

والمراد: الأنواع، كالإنسان والفرس والجبل والنخلة، لا الأفراد كزيد وشدقم وهيلة. وكلُّ أهل لغة من أولاده وأولاد أولاده حَفِظَ لغةً ونسي غيرها، وكلُّها موجودة في أهل سفينة نوح، أو أوقد عليها في ألواح ودفنت وأخرجت بعد الطوفان، أو أوحى ما اندرس منها إلى نوح أو هود.

[لغة] و«آدم» بوزن أحمر من الأُدْمة بمعنى السمرة، ولا بأس بها في الجنَّة؛ لأنَّه لم يدخلها جزاءً، أو سَمُر بعد الخروج، وفسَّر بعضهم الأدمة بالبياض، أو من الأَدَمة بفتح الهمزة والدال، وهو القدوة، أو من أديم الأرض، أي: من جلدها، أي: ظاهرها، ومن الأدم أو الأدمة بمعنى الألفة، وألفه عن همزة، وقيل: عجميٌّ بوزن شالخ وآزر فألفه أصل.

وذلك في الجنَّة، أو خُلِق في الدنيا ورفعته الملائكة إلى الجنَّة وعاش بعد خروجه منها ألف عام أو تسعمائة.

﴿**ثُمَّ عَرَضَهُمْ**﴾ أي: الأسماء بمعنى المسمَّيات، ذكر الأسماء مرادًا بها الدوالُّ، وردَّ الضمير إليها مرادًا به المدلول على الاستخدام. وضمير الذكور العقلاء تغليب على الإناث وغير العقلاء ﴿**عَلَى الْمَلاَئِكَةِ**﴾ القائلين: ﴿**أَتَجْعَلُ فِيهَا...**﴾؟. ﴿**فَقَالَ أَنبِئُونِي بِأَسْمَآءِ**﴾ بألفاظ ﴿**هَـٰؤُلَآءِ**﴾ الأنواع المعروضة، أحضَر كلَّ نوع فقال: ما اسم هذا؟ جسمًا أو عرضًا، مثل أن يلهمهم في قلوبهم الفرح ما اسمه؟ والنفل ما اسمه؟ كما يقول: لهم: ما اسم هذا مشيرًا للحجر؟.

وقد عرفوا بعض الأسماء والأفعال والحروف بلغة من اللغات كما هو نصُّ الآية، وإنَّما خصَّ آدم بجمعه ما لم يعلموا إلى ما علموا، وذلك تعجيز لهم لا تكليف بما لا يطاق. ﴿**إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ**﴾ إن كنتم صادقين في دعوى

أنَّكم أحقُّ بالخلافة والاقتصار عليكم عمَّا يفسد ويسفك، وأنَّكم أعلم، وقد قالوا: لن يخلق الله تعالى خلقًا أعلم منَّا ولا أكرم، وكأنَّه قيل: فما قالوا؟ فقال: ﴿قَالُوا سُبْحَانَكَ﴾ عن أن نكون في قولنا: ﴿أَتَجْعَلُ...﴾ الآية، معترضين، ﴿لَا عِلْمَ لَنَآ﴾ بتلك المسمَّيات وغيرها، ﴿إِلَّا مَا﴾ أي: إلَّا عِلْمُ ما ﴿عَلَّمْتَنَآ﴾ إيَّاه، ولا معلوم لنا إلَّا ما علَّمتناه، هذا اعتراف بالعجز، وشكر على إظهار الحكمة في الخليفة لهم، ﴿إِنَّكَ أَنتَ الْعَلِيمُ﴾ بكلِّ شيء ﴿الْحَكِيمُ﴾ في جميع ما فعل، وما قال، وما يقول، وما يفعل. لا يكون منه سفه، أو لا يخرج الأمر عمَّا أراد. يقال: أراد فلان إحكام شيء ـ أي إتقانه ـ فأتقنه، أي: لم يخرج عمَّا أراد.

وقدَّم العلم على الحكمة لأنَّ المقام له، ولقوله: ﴿وَعَلَّمَ﴾، وقوله: ﴿لَا عِلْمَ﴾؛ ولأنَّ الحكمة تنشأ عن علم، وأثرٌ له، ولا حكمة بلا علم، ولأنَّ العلم لا يكون إلَّا صفة ذات، والحكمة تكون صفة ذات بمعنى أنَّه أهل لأن لا يكون منه إلَّا الصواب وإلَّا الإتقان؛ وتكون فعلاً بمعنى إتقان الأمر والإتيان به صوابًا.

﴿قَالَ يَآ ءَادَمُ﴾ شرَّفه بالنداء كما قال: ﴿يَآ أَيُّهَا الرَّسُولُ﴾ [سورة المائدة: 41، 67] ﴿يَا مُوسَى﴾ [سورة الأعراف: 144 وغيرها]، وبأنَّه حقيق أن يعلِّم غيره، وبِمنَّة التعليم والإفادة على الملائكة. وفي ندائه نفي استيلاء الهيبة عليه ﴿أَنبِئْهُمْ﴾ أي: الملائكة ﴿بِأَسْمَآئِهِمْ﴾ بأسماء المسمَّين، وقد علمت أنَّ المراد العقلاء وغيرهم، وغلَّب العقلاء، أي: أُذكر لهم الألفاظ الدالَّة عليهم. وفي ضمن ذلك ذكر حكمة المسمَّى.

وللملائكة بعض لغة يفهمون بها ما يخاطبهم آدم به، أو يفهمون بإشارته، أو بإلهام الله سبحانه لهم إلى الفهم عند خطابه، مثل أن يقول: لعلَّ للترجِّي، والإنسان أنا وولدي، والجبل ذلك الجسم الصلب، والأرض لهذه السطيحة، والقصعة وعاء لوضع الطعام، وقام بمعنى تمدَّد جسده من هذه البسيطة.

[لغة] و«آدم» اسم عجميٌّ لا دلالة له على معنى سوى ذاته، كما هو الأصحُ، أو أصله من الأدمة، وهو لون إلى سواد، أي: سيكون كذلك إذا خرج

إلى الدنيا، أو هو كذلك، حتَّـى إذا أُدخِلها جزاءً كان أبيـض، أو «أَفْعَل» من أديم الأرض، وهو عربيٌّ على الوجهين، ومرَّ ذلك.

﴿**فَلَمَّآ أَنبَأَهُم بِأَسْمَآئِهِمْ**﴾ العطف على محذوف، أي: فأنبأهم فلمَّا أنبأهم. ﴿**قَالَ أَلَمَ اَقُلْ لَّكُمُوٓ إِنِّيَ أَعْلَمُ غَيْبَ السَّـمَاوَاتِ وَالَارْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ**﴾ أي: قولوا: قد قلت لكم إنِّي أعلم.

لَمَّا عجزوا بـادر لهم بالأمر وبالإقرار بالعجـز، أو وبَّخهم على عجلتهم إلى الاسـتفهام، وكان الأولى لهم أن يترقَّبوا ظهور الحكمة بلا سـؤال، ولا سيما أنَّ سؤالهم على صورة الاعتراض لفعل الله، والقدح في بني آدم، بل في آدم أيضًا وذرِّيَّته بصورة العموم، ولو لم يقصـدوا الاعتراض والقدح إجمالاً. **والآية موجبة لمجانبة لفظ ما يوهم ما لا يجوز، ولو لم يُقصَد ما لا يجوز.**

وغيب السـماوات والأرض: ما غاب فيهما. ولم يضمر للأسماء تعظيمًا لها. والأصل: غيب السـماوات والأرض وشـهادتهما؛ لأنَّه يلـزم من العلم بغيبهما العلم بشـهادتهما، وذلك على العموم. وقيل: المراد بغيب السماوات أكل آدم وحوَّاء من الشـجرة، وبغيب الأرض قتل قابيـل هابيل. وقيل: غيب السماوات ما قضاه، وغيب الأرض ما يفعلونه. وقيل: الأوَّل أسرار الملكوت، والثاني ما أغابه عن أصفيائه.

﴿وَمَا تُبْدُونَ﴾: ما تظهرون من قولكم: ﴿أَتَجْعَلُ فِيهَا...﴾ إلخ ﴿وَمَا كُنتُم تَكْتُمُونَ﴾ من قولكم: لن يخلق الله أكرم منَّا ولا أعلم. والإبداء والكتم باعتبار ما بين الخلق، ولا يخفى على الله شيء.

وأدخل «كان» للإعلام بأنَّه عالم بما استمرُّوا علـى كتمانه في الماضي، ولا تقـل: إنَّها زائـدة، ولا إنَّها للاسـتمرار؛ لأنَّ **الأصل عدم الزيـادة**، ولأنَّ «تَكْتُمُونَ» أدلُّ على الاستمرار وحده منها.

﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰ وَٱسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿34﴾﴾

التكريم السامي لآدم بسجود الملائكة له

﴿وَإِذْ قُلْنَا﴾ اذكر وقت قولنا لنفس القول لا لنفس الوقت، **وهكذا في القرآن كلِّه اللفظ ذكر الوقت والمراد ذكر ما فيه**، أو اذكر الحادث (إذ قلنا كذا...) أو اذكر وقت قلنا، أو أطاعوا إذ قلنا ﴿لِلْمَلَآئِكَةِ﴾ كلِّهم كما قال: ﴿فَسَجَدَ الْمَلَآئِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ﴾ [سورة الحجر: 30].

وتخصيص الآية بالمأمورين بالنزول إلى قتال الجنِّ في الأرض خروج عن الظاهر بلا دليل، وكذا في الأعراف والحجر والإسراء والكهف وطه و«ص»، وذلك سبع سور ذكر فيها: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَآئِكَةِ﴾[1] تسلية للنبيء ﷺ آخر الأنبياء عن إيذاء قومه له، كما أنَّ أوَّلهم آدم في محنة عظيمة للخلق، أي: لا تطمع يا محمَّد أن يتَّفق الناس على الإيمان بك إذ لم يتَّفق من آمن وَعَبَدَ اللهَ آلاف السنين، وشَاهَدَ ما لم يشاهد الناس إذ خرج عنهم إبليس وكفر، فكيف قومك وسائر الناس!.

---

(1) صيغة: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَآئِكَةِ﴾ وردت أربع مرَّات: في سورة البقرة: 34. وسورة الإسراء: 61. وسورة الكهف: 50. وسورة طه: 116. وأمَّا صيغة: ﴿ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَآئِكَةِ﴾ فوردت في سورة الأعراف: 11. وصيغة: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَآئِكَةِ﴾ في سورة البقرة: 30، وسورة الحجر: 28. وصيغة: ﴿إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَآئِكَةِ﴾ في سورة ص 71.

﴿اسْجُدُوا﴾ لي ﴿لِآدَمَ﴾ قبل رفعه من الأرض للسماء، أي: إلى جهة آدم إعظامًا له كالكعبة، وسببًا لوجود السجود، وذلك سجود على السماء والأرض وما شاء الله كسجود الصلاة، وهو لله عَجَلَك، أو المراد بالسجود مطلق الخضوع، أو مع انحناء دون سجود الصلاة، وهو لآدم ونُسِخَ. وإبليس يحسده على الانقياد له وعلى جعله قبلة، وعلى كلِّ خيرٍ حتَّى الجعل له سببًا.

ونافق من جعل السجود كسجود الصلاة، وأنَّه لآدم تحقيقًا، ولو كان عبادة لله؛ **لأنَّ السجود كذلك عبادة يختصُّ به الله في كلِّ زمان.** وفي جعلِهِ قبلةً تعظيمُ حقِّ المعلِّم على من يتعلَّم.

﴿فَسَجَدُوا﴾ كلُّهم أجمعون: أهل السماء وأهل الأرض منهم، كلٌّ سجد حيث هو، شرعَ في السجود أوَّلاً جبريل، فميكائيل، فإسرافيل، فعزرائيل، فالملائكة المقرَّبون، يوم الجمعة من وقت الزوال إلى العصر، ويقال: بقوا في السجود مائة سنة، ويقال: خمسمائة، وهذه الأقوال في قول تفسير السجود بسجود كسجود الصلاة؛ وفي قول تفسيره بالانحناء. ﴿إِلَّآ إِبْلِيسَ﴾ بمنع الصرف للعلَميَّة والعجمة.

[لغة] وعلى أنَّ «إبليس» عربيٌّ من معنى الإيَّاس من الخير أو الإبعاد عنه فللعلميَّة، وكونه لا نظير له في الأسماء، ويردُّه وجود إحليل وإكليل ونحوهما ولو غير أعلام، وهو ردٌّ صحيح لا نظر فيه؛ لأنَّ وجود وزن العَلَم في اسم الجنس كاف في انتفاء المنع لوزنه.

أبا الجنِّ على الصحيح أو مولود منهم، الاستثناء منقطع[1]، وفيه مناسبة للاتِّصال إذ عبدَ اللهَ مع الملائكة وكان فيهم كواحد منهم.

---

(1) كذا في الأصل، ولعلَّ صواب العبارة: «وعلى كونه أبا الجنِّ على الصحيح أو مولود منهم، فالاستثناء منقطع».

[قصص] حتَّى إنَّه قيل: كان خازنَ الجنَّة أربعين ألف سنة يعبد الله، ومع الملائكة ثمانين ألف سنة، ووعظ الملائكة عشرين ألف سنة، وساد الكروبيِّين ثلاثين ألف سنة، والروحانيِّين ألف سنة، وطاف حول العرش أربعة عشر ألف سنة، وجاهد في الأرض أربعين ألف سنة، ولم يترك موضعًا في الجنَّة إلَّا سجد فيه، وأحبط الله عمله كلَّه بتركه السجود لآدم.

[أصول الدين] وكُفرُه شركٌ؛ لأنَّه أُمِر مُعيَّنًا فخالف مواجهةً، فلا يختصُّ كفره بمذهب الخوارج. وعصيانه دليل على أنَّه ليس ملَكًا، وكذا كونه من نار، وقوله: ﴿كَانَ مِنَ الْجِنِّ فَفَسَقَ عَنَ اَمْرِ رَبِّهِ﴾ [سورة الكهف: 50]. ودعوى أنَّ من الملائكة من ليس معصومًا تكلُّف لا دليل له، وكون نوع من الملائكة غير معصوم لا يوجب أنَّه من ذلك الجنّ، فلعلَّه من جنِّ الشياطين المشهورين بهذا، وقد جعل الله كونه من الجنِّ سببًا لفسقه، وكونه ملَكا انسلخ عن الملكيَّة فعصى دعوًى، وهو مغمور في الملائكة بإيهام أنَّه منهم لا باحتقار، فلا ينافي رئاسته.

﴿أَبَى﴾ امتنع من السجود **﴿وَاسْتَكْبَرَ﴾** الاستفعال هنا للمبالغة، أي: تقرَّر فيه كِبْر عظيم، وهو أصل الإباء، أو مع الأنَفة، إلَّا أنَّه قدَّم الإباء لأنَّه مِمَّا يَظهر، والاستكبار قلبيٌّ إنَّما يَظهَرُ بأثره. وذُكرا جميعًا لبيان أنَّ إباءه لا يزول لأنَّه لِكبْرٍ راسخٍ فيه. **﴿وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ﴾** في علم الله تعالى وقضائه الأزليِّ، أو من الكافرين الذين في الأرض من الجنِّ قبل خلق آدم وفي اللوح المحفوظ، أو كان كافرًا لترك السجود طبق شقوته الأزليَّة.

[فقه] والآية دليل على أنَّ الأمر للوجوب، إذ قطع عذره بمخالفة قوله: ﴿اسْجُدُوا﴾ دون أن يقول: أوجبتُ عليكم أو نحو ذلك، وأمر الله رسولَه ﷺ بذكر وقت قوله لآدم: ﴿اسْكُن...﴾ إلخ إذ قال:

﴿وَقُلْنَا يَا آدَمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ
الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ (35) فَأَزَلَّهُمَا الشَّيْطَانُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ وَقُلْنَا
اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَى حِينٍ (36) فَتَلَقَّى آدَمُ مِنْ رَبِّهِ
كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ (37) قُلْنَا اهْبِطُوا مِنْهَا جَمِيعًا فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي
هُدًى فَمَنْ تَبِعَ هُدَايَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ (38) وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا
أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (39)﴾

آدم وحوَّاء في الجنَّة وموقف الشيطان منهما

﴿وَقُلْنَا يَا آدَمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ﴾ لم يقل: اسكنا لأنَّه المقصود بالذات وهي تبع له في جميع الأحكام والأمور. والأمر لهما أمر وجوب كما هو الظاهر وكما هو الأصل لا أمر إباحة، وهي جنَّة بين فارس وكرمان، أو في عدن، أو فلسطين، **والصحيح أنَّها دار السعداء**، وقيل: جنَّة في السماء غيرها، ولا دليل عليها، ولا نعرف في السماء جنَّة. ولا يلزم من كونها دار السعداء أن يذكر الله ﷻ الرفع إليها وأنَّ ذكره أولى. وأيضًا قال: ﴿اهْبِطُوا﴾ والأصل في الهبوط النزول من عال، ولو يطلق على الخروج من موضع ودخوله.

حملته الملائكة من الدنيا أو من باب الجنَّة على القول بأنَّه خلق عند بابها من تراب الأرض وأدخلوه الجنَّة؛ وقال له الله جلَّ وعلا: اسكنها أنت وزوجك حوَّاء.

ولا يمنع مانع من دخول إبليس مسارقة أو في فم الحيَّة كما كان يدخل السماوات، وليس تكليف آدم بالترك للأكل من الشجرة مناقضًا لما ثبت من أنَّه لا تكليف في الجنَّة؛ لأنَّه لا تكليف فيها على من يدخلها ثوابًا لعمله. ولَغْوُ إبليسَ وكذبه عصيانٌ فيها كعصيانه أوَّلاً، وكأكل آدم من الشجرة، فلا يُنافي ذلك قوله تعالى: ﴿لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا تَاثِيمًا﴾ [سورة الواقعة: 25]؛ وأيضًا هذه الآية لأهلها الداخلين فيها للجزاء الذي لا يشوبه شيء، وقد قيل: وسوس إليهما من باب الجنَّة، وبعد أن استقرَّ فيها خلق الله زوجه حوَّاء من ضلعه القصرى اليسرى وهو نائم ولم يحسَّ ألمًا، فيقال: «لو أحسَّ الألم كان الرجل لا يعطف على المرأة»، وخلق الله في موضع الضلع لحمًا، وذلك النوم ألقاه الله عليه إذ لا تعب فيها، أو من تعبِ فكرٍ أو بدنٍ في أمر قضاه الله عَزَّ وَجَلَّ؛ لأنَّه دخلها غير جزاء له، ومن دخلها غير جزاء له جاز له عليه فيها ما يجوز عليه في غيرها مِمَّا شاء الله من نوم وتعب وحزن وخروج، وإذا دخلها بعد ذلك جزاءً لم يَجُزْ عليه ذلك. وبسطتُ عدد الأضلاع فيها واختلاف القول فيها في «**وفاء الضمانة بأداء الأمانة**»[1]، ومنها ما قيل: أضلاع اليسرى سبعة عشر واليمنى ثمانية عشر.

﴿وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا﴾ أكْلَ رغدٍ، أو أكلاً راغِدًا، أو ذا رغدٍ، أو نفس الرغدِ مبالغةً وهو الوسع. ﴿حَيْثُ شِئْتُمَا﴾ من حيث شئتما من أشجارها، وفي أيِّ موضع من مواضعها مع سعتها، فلا داعي لكما إلى تناول شجرة واحدة غير متعدِّدة أنهاكم عنها. ﴿وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ﴾ الواحدة شجرة الحنطة أو العنب أو النخلة أو الحمص أو الأترجَّة، أو التين، أو الحنظل حلوةً فيها، أو الكافور. وتطلق الشجرة ولو على ما ليس له ساق، كقوله تعالى: ﴿وَأَنبَتْنَا عَلَيْهِ شَجَرَةً مِّنْ يَقْطِينٍ﴾ [سورة الصافات: 146] أو غير ذلك.

---

(1) وفاء الضمانة بأداء الأمانة: كتاب في فنِّ الحديث، ط. مطابع سجل العرب، نشر وزارة التراث القومي والثقافة، سلطنة عُمان، 1982م. وانظر: وينتن مصطفى: آراء الشيخ امحمَّد بن يوسف اطفيَّش العقدية، ص392، 414.

والأصل: ولا تأكلا من هذه الشجرة، إلَّا أنَّه نُهيَ عن القرب مبالغة، وأيضًا الأكل منها مسبَّب. أو أراد حقيقة القرب؛ لأنَّ القرب إليها يؤمِّلهما فيها لاطِّلاعهما على شأنها، مع وسوسة الشيطان.

﴿فَتَكُونَا﴾ يقول: لا تقربا فلا تكونا، فهو مجزوم على العطف، أو لا يكن منكما قربُ هذه الشجرة فَكَوْنَكُمَا[1]، فهو منصوب في جواب النفي. ﴿مِنَ الظَّالِمِينَ﴾ المضرِّين لأنفسهم، أو الواضعين الشيء في غير موضعه، أو الناقصين لحظِّهم ولحظِّ الحقِّ. ﴿فَأَزَلَّهُمَا﴾ أخرجهما إخراجًا شبيهًا بالإزلال، أي: بالإزلاق، فذلك استعارة أصليَّة اشتقَّ منها تبعيَّة في «أزلَّ»، أو حملهما على الزلَّة وهي الذنب، وهو راجع إلى ذلك؛ لأنَّه شبَّه الذنب بالزلق، ﴿الشَّيْطَانُ﴾ إبليس بقوله: ﴿هَلَ اَدُلُّكَ عَلَىٰ شَجَرَةِ الْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَّا يَبْلَى﴾... إلخ [سورة طه: 120]، وقوله: ﴿مَا نَهَاكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَذِهِ الشَّجَرَةِ إِلَّآ أَن تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ الْخَالِدِينَ﴾... إلخ [سورة الأعراف: 20].

[قصص] أو مقاسمته لهما بعد إخراجه من الجنَّة لإبائه وتكبُّره اتَّصلت إليهما وسوسته من حيث هو من الدنيا أو من سماء لخلق الله ﷻ له قوَّة على ذلك. أو ذهبا في الجنَّة تمتُّعًا حتَّى وصلا بابها فأسمعهما من خارج الباب. أو دخل الجنَّة متصوِّرًا في صورة دابَّة من دوابِّ الجنَّة ولم تعرفه الملائكة. أو دخل في فم الحيَّة فمنه سمُّها، وكانت بقوائم على طولها من أحسن الدوابِّ فعوقبت بسلب القوائم، وقيل: تسوَّرت عن الحائط. وقيل: وقف طاوس على الجدار فذهب إليه آدم وحوَّاء فوسوس منهما إليه، وقد جاء إلى قرب الحائط، وقيل: وسوس إليهما من وراء الجدار.

---

(1) «كَوْنَكُمَا»: مصدر مؤوَّل من أنْ والفعل، وتوضيح العبارة عند الطبريِّ: «وقال بعض نحويِّي أهل البصرة: تأويل ذلك: لا يكن منكما قُرْبُ هذه الشجرة فأن تكونا من الظالمين...» إلخ التفاصيل، ينظر: تفسيره، ج 1، ص 522.

﴿عَنْهَا﴾ أي: عن الجنَّة، أو أزلَّهما عن الجنَّة عنها، أي: بالشجرة إذ أمرهما بالأكل منها ﴿فَأَخْرَجَهُمَا﴾ أي: الشيطان بسبب الأكل الذي وسوس به، أسند الإخراج إلى السبب ﴿مِمَّا كَانَا فِيهِ﴾ من النِّعم واللباس والجنَّة وهذا في ضمن الإخراج المذكور بقوله: ﴿أَزَلَّهُمَا﴾، كرَّره تفصيلاً، أو زيادة زجر لغيرهما.

وطاوعه آدم وحوَّاء نسيانًا لنهي الله ﷻ، أو توهُّمًا من أوَّل الأمر أنَّ النهي للتنزيه عن أمرٍ سَهْلٍ يتحمَّلانه من الأكل ولا يضرُّهما. أو توهَّما التنزيه أو النسخ من قوله: ﴿مَا نَهَاكُمَا﴾، وقوله: ﴿هَلَ اَدُلُّكَ﴾، ودعواه النصح مع القَسَم احترامًا لحقِّ الله أن يُكذب عنه ويخالَف. وعدَّ ذلك ذنبًا في حقِّهما لعلوِّ مرتبتهما وعظم النعمة عليهما، فلا يرد أنَّ الأنبياء لا يعصون قبل النبوءة ولو صغيرة؛ ولا يستحضر في قصَّة آدم ما يقال: «حسنات الأبرار سيِّئات المقرَّبين»؛ إذ لم يفعل آدم شيئًا مِمَّا عوتب عليه يدَّعيه حسنة بل يستحضر أنَّه يعدُّ في حقِّ عالي الرتبة ذنبًا ما ليس ذنبًا في حقِّ غيره.

﴿وَقُلْنَا اهْبِطُوا﴾ أنت وحوَّاء، عبَّر عنهما بصيغة الجمع كما قال: ﴿اهْبِطُواْ مِنْهَا جَمِيعًا﴾ [سورة البقرة: 38] إلى الأرض، أنتما ومن فيكما من الذرِّيَّة، وفيه خطاب المعدوم.

[قصص] أو أنتما وإبليس والحيَّة، قيل: والطاوس. قيل: فنزل آدم بسرنديب من الهند على جبل يسمَّى «نودَا» وحوَّاء بجُدَّة - بضمِّ الجيم - في مدَّة أربعين عامًا فيما قيل، والله قادر على أقلَّ، كما ينزل جبريل وغيره في لحظة، وإبليس بالأُبُلَّة من أعمال البصرة، وزوجه بأصبهان أو سجستان، أو نصِّيبين، والحيَّة بأصبهان، والطاوس بالشام. أنتما لأَكْلِكما من الشجرة، وإبليس لإبائه، والحيَّة لحملها إبليس، والطاوس لإبلاغ أمر إبليس إليها،

وليس قولا بمرَّة، بل أُهبط إبليس ثمَّ الحيَّة فالطاوس ثمَّ آدم وحوَّاء، وللحيَّة والطاوس في الجنَّة عقل فعوقبا بالإخراج، أو ليس عقابًا[1].

﴿بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ﴾ يطلق على الواحد فصاعدًا؛ **لأنَّه بوزن المصدر** كـ«القبول». كما أنَّه يطلق «فعيلٌ» لوصفٍ كذلك لشبهه بالمصدر كالدبيب والصرير. وذلك مجموع لا جميع، فإنَّ العداوة بين آدم وحوَّاء فريقًا، وبين إبليس والحيَّة فريقًا، لا بين آدم وحـوَّاء، ولا بين إبليس والحيَّة، ولا بينهم وبين الطاوس. وقيل: **الخطاب للذرِّيَّـة في ضمن أبويهما آدم وحوَّاء وذلك ظلم بعض لبعض.**

﴿وَلَكُمْ فِي الاَرْضِ﴾ متعلِّق بـ«لَكُمْ» لنيابته عن ثبت أو ثابت. ﴿مُسْتَقَرٌّ﴾ استـقرارٌ، أو موضعه، والأوَّل أولـى، وليس المراد الموضـع الذي نزلوا فيه ﴿وَمَتَاعٌ﴾ تمتُّعٌ، أو ما يُتمتَّع به ﴿اِلَى حِينٍ﴾ إلـى آخر أعماركم، وقيل: قيام الساعة؛ لأنَّ المراد هم وذرِّيَّاتهم، تَنَازَعَهُ «مستقرٌّ» و«متاع».

﴿فَتَلَقَّـى ءَادَمُ﴾ وحوَّاء لقولـه تعالى: ﴿قَـالَا رَبَّنَا...﴾ إلـخ ﴿مِن رَّبِّهِ كَلِمَاتٍ﴾ دعوا بهنَّ: ﴿رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ [سـورة الأعراف: 23] على الأصحِّ، وقيل: «سبحانك اللهمَّ وبحمدكَ، تبارك اسـمك، وتعالى جدُّك، ولا إله إلَّا أنت، ظلمت نفسـي فاغفر لي، إنَّه لا يغفر الذنوب إلَّا أنت».

---

(1) هذه تفاصيل لا فائدة منها، والأولى الاسـتغناء عنها وعن أمثالها ممَّا سـيرد بعد، **وهي من رسوبات الأقدمين من الأمم السـابقة**، والشـيخ رَحِمَهُ اللَّهُ إنَّما يوردها حبًّا منه للمعرفة والرواية فقـط. وقد ذكـر القطب رَحِمَهُ اللَّهُ فـي كتابه **الذخر الأسـنى في شـرح أسـماء الله الحسـنى** (ص 39 ـ 40)، ما يفيد هذا المعنى، فقال: «وقد كنتُ ممارسـا لعلـم التصوُّف، ولا يخفى عليَّ مقاصدهم، والحمد لله تعالى، وأجيب عمَّا أشكل، وكرهته لأنَّه يوهم تفسير القرآن بما هو خطأ، وكذا تفسـير الحديث، والحقُّ علـم الظاهر مع مراعاة العمـل... ومع ذلك أذكر أقوالا لأهل التصوُّف في تفسير الأسماء الحسنى إيناسا للطلبة ولنفسي...».

وأخرج الحاكم في المستدرك عنه ﷺ من طريق ابن عبَّاس أنَّه قال: «يا ربِّ ألم تخلقني بيدك؟» قال: «بلى»، قال: «يا ربِّ ألم تنفخ فيَ الروح من روحك؟» قال: «بلى»، قال: «يا ربِّ ألم تسبق رحمتك غضبَك؟» قال: «بلى»، قال: «يا ربِّ ألم تسكنِّي جنَّتك؟» قال: «بلى»، قال: «يا ربِّ إن تبتُ وأصلحتُ أراجعي أنت إلى الجنَّة؟» قال: «نعم».

وتلقِّي الكلمات: التوجُّهُ إليهنَّ بقبولهنَّ، والدعاء بهنَّ إذ ألهمه الرحمن الرحيم إياهنَّ. وقيل: هنَّ توسُّله بمحمَّد ﷺ حين رآه مكتوبًا على ساق العرش، وقد علَّمه الله الكتابة. ﴿فَتَابَ عَلَيْهِ﴾ رجع إليه بعد الإعراض عنه.

[أصول الدين] وولايته وعداوته لا تتقلَّبان، لكنَّه شبَّه كراهتَهُ أكلَهُما بالإعراض، ورضاه بندمهما بالرجوع، والله منزَّه عن الجهات والأمكنة والتنقُّل، أو قَبِل توبته أو وفَّقه للتوبة، **وهكذا توبة الله حيث ذُكِرت.** وبعدما تاب الله عليه بقي ثلاثمائة سنة لا يرفع رأسه إلى السماء حياء من الله ﷻ. ﴿إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ﴾ كثير الرجوع وعظيمه على عباده بالإنعام وقبول التوبة ﴿الرَّحِيمُ﴾ للعاصي والمطيع، إلَّا من أصرَّ من العصاة فله في الدنيا فقط.

[أصول الدين] ولا يقال: الله تائب، لعدم وروده في القرآن بالإجماع، وأسماء الله توقيفيَّة. وقيل: تقاس فيما ورد فيه لفظ الفعل أو غيره مسندًا فتقول: الله تائب على عباده، لورود: ﴿فَتَابَ عَلَيْهِ﴾ [سورة البقرة: 37] و﴿تَابَ عَلَيْهِم﴾ [سورة التوبة: 117 ـ 118] وباني السماء، وداحي الأرض.

[أصول الدين] واعلم أنَّ [نطق] لفظ الشرك حرام باتِّفاق الأمَّة ولو لم ينوِ به الشرك إلَّا حكاية أو اضطرارًا لأنَّه موهم، وذلك من الإلحاد في أسمائه كما قال بعض العلماء: إنَّ الله حكم بشرك من قال: ﴿عُزَيْرٌ ابْنُ اللهِ﴾ [سورة التوبة: 30]

أو قال: ﴿الْمَسِيحُ ابْنُ اللهِ﴾ [سورة التوبة: 30] ولو لم ينو حقيقة البنوَّة، وذلك بناء منهم على أنَّ لفظ الإشراك شرك ولو لم ينوِ، كما أنَّ نيته شرك بلا لفظ أوْ مع لفظ، حتَّى إنَّ من العلماء من لا يجيز للمضطرِّ أن يلفظ بشرك ولو اطمأنَّ قلبه بالإيمان إلَّا بتأويل لفظه، أو بمعرضة، أو إسرار شيء يخالفه وينقضه، أو عناية ما مِمَّا ينقض اللفظ زيادة على اطمئنان قلبه، وإنَّما منعوا ما يوهم الشرك ولو لم يقصده حسمًا لمادَّة الشرك، كما نصَّ عليه بعض محشِّي البيضاوي.

[أصول الدين] وقد اختلفوا في أسماء الله أتوقيفيَّة أم قياسيَّة فيما ورد فيه معنى المادَّة بشرط الإضافة على الكيفيَّة الواردة مثل أن يقال: فارش الأرض، وداحي الأرض، لقوله تعالى: ﴿وَالَارْضَ فَرَشْنَاهَا فَنِعْمَ الْمَاهِدُونَ﴾ [سورة الذاريات: 48]، ﴿وَالَارْضَ بَعْدَ ذَالِكَ دَحَاهَآ﴾ [سورة النازعات: 30].

[أصول الدين] واتَّفقوا أنَّه لا يجوز تسميته بما يوهم شركًا أو نُقصًا ولو مجازًا بقرينة واضحة وعلاقة، مثل أن يقال لله: «بَابَ»[1]، فإنَّه لا يجوز إجماعًا من الأمَّة، مع أنَّ قائله لم يقصد حقيقة البنوَّة والأبوَّة، وإنَّما اختلفوا: هل يشرك من لم يقصد حقيقة البنوَّة والأبوَّة؟ فقيل: يُشرك، وقيل: لا. وَأمَّا أن يقول قائل بجواز أن يقال لله: «بَابَ» فلا، بل اتَّفقوا أنَّه لا يجوز أن يقال ذلك، ولو بلا قصد لحقيقة البنوَّة والأبوَّة. واتَّفقوا أنَّه لا يجوز أن يُترَك إنسانٌ يقوله، وقد قال بعض في برابرة المغرب:

إذا كُنتَ في الفردَوسِ جارًا لبربر فيلزمكَ الرحيلُ منها إلى سقر
يقولون للرحمن: بَابَ، بجهلهم ومن قال للرحمن: بَابَ، فقد كفر

---

(1) يبدو أنَّ الشيخ رَحِمَهُ اللَّهُ يشير إلى تصحيح ما درجَ عليه بعض عوامِّ الناس من البربر في وادي مزاب، أن يضيفوا كلمة «بَابَا» عند ذكر كلمة الربِّ، تعظيما له عَزَّ وَجَلَّ. وفي القرارة ـ بوادي مزاب إلى اليوم ـ هضبة يسمُّونها «طَالَمْتْ أَنْ بَابَا رَبِّي»، أي: «ناقة الله».

وقد أصاب في قوله: «كَفَر» إن أراد أنَّه تلفَّظ بلفظ الشرك، وإن أراد أنَّه أشرك، ولو لم يقصد الشرك فهو قول للعلماء كما رأيت، وهو ضعيف؛ وأخطأ في قوله: «إذا كنت في الفردوس...» البيت، وأجابه بعض المغاربة بقوله:

كفى بك جهلاً أن تحنَّ إلى سقر بديلاً من الفردوس في خير مستقر
فـإنَّ أبا الإنسـان يدعـون أنَّه كفيـل وقيِّـم رحيـم بـه وَبَرّ
ومن قال للرحمن: «بَابَ» وقدعنى به ذلك المعنى مجازًا فما كفر

وهذا المجيب أصاب، وجرى على الواضح، إلَّا أنَّه إن أراد أنَّه يجوز إبقاء البربريِّ أو غيره على ذلك القول لعنايته الرحمة فقد أخطأ، فينبغي أن يُفصِحَ بأنَّه لم يشرك، وأنَّه لا يجوز له قول ذلك، ولا يجوز إبقاؤه بلا نهي عن ذلك.

﴿قُلْنَا اهْبِطُوا مِنْهَا جَمِيعًا﴾ أي: من الجنَّة، وهذا يقوِّي رجوع الضمير في ﴿عَنْهَا﴾[1] إلى الجنَّة، وكرَّر قول: ﴿اهْبِطُوا﴾ لأنَّ الأوَّل مذكور برسم العقاب بالهبوط وفَوْتِ نعيم الجنَّة التي لا أجل لهـا، ومضارِّ الهبوط من العداوة إلى دار مؤجَّلة، وبرسم التوبة، والثاني مذكور على رسم التكليف، كما قال: ﴿فَإِمَّا...﴾ إلخ، أي: إنْ مـا، و«ما» تأكيد لعموم الإتيان. وهـذا يقوِّي أنَّ الخطاب للذرِّيَّة في الأوَّل أيضًا؛ لأنَّ الحيَّة والطاوس لا تكليف عليهما. وقد يقال: الأوَّل لهما ولآدم وحـوَّاء وإبليس، والثاني للذرِّيَّـة، أو ذكره أوَّلاً بليَّة وثانيًا نعمة، إذ رتَّب عليه التكليف المؤدِّي إلـى الرجوع إلى الجنَّة مع ما لا يحصى من ولده؛ كما روي أنَّه رقَّ قلب جبريـل على آدم وحوَّاء، فأوحى الله إليه: دعهما فإنَّهما سيعودان إليها مع ما لا يحصى من ذرِّيَّتهما ويخلدون أبدًا.

وقد يقال: كِلَا الخطابين كلٌّ لا كُلِّيَّـة. وقد يقال: هبوطان: الأوَّل إلى السـماء الدنيا، وخصَّ السـماء الدنيا لقربها من الأرض، ولا ضعف في

---

(1) في قوله تعالى: ﴿فَأَزَلَّهُمَا الشَّيْطَانُ عَنْهَا﴾ الآية: 36.

قولنا: اهبطوا إلى السـماء الدنيا مقدِّرين الاسـتقرار والتمتُّع في الأرض، والثاني إلى الأرض.

﴿فَإِمَّا يَاتِيَنَّكُم﴾ فـي الأرض ﴿مِّنِّي هُدًى﴾ وحيٌ أو رسـول، ومقتضى الظاهر: «فـإذا أتاكم منِّي هـدًى» لتحقُّق الإتيان، لكن لَمَّـا كان بعث الأنبياء والوحي إليهم من الجائز لا الواجـب ـ ولا واجب على الله ﷻ ـ ذكر بصيغة الشـكِّ المعتبرة بالمخاطبة؛ لأنَّ العقل لا يوجبه، ولو كانـت الحكمة أن لا يهمل العاقل. وفي صيغة الشـكِّ أيضًا تدريج، وفيه تخفيف، أو لتنزيل العالِم منزلة الجاهل الشاكِّ، إذا لم يجر على مقتضى علمه.

﴿فَمَن تَبِعَ هُدَايَ﴾ مقتضى الظاهر: «فمن تبعه»، لكن أظهر وأضاف للياء تعظيمًا، وقيل: لأنَّه لعموم ما يُعقل بالاستدلال.

[أصول الدين] واتِّباع الهدى: الإيمان والعمل والتقوى، ومن آمن ومات أو تاب ومات قبل وجوب الواجبات فهو من هذا القسم، ومن أصرَّ ففي النار. ولم يذكر في هذه الآية إلَّا بمفهوم الشرط، إذ شـرط باتِّباع الهدى فلا خوف عليهم، والجملة جواب، وقيل: محذوف، أي: اتَّبِعوه. ﴿فَـلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ﴾ في آخر موتهم ولا في القبر ولا عند البعـث، ويصيبهم الخوف في الدنيا من مضارِّهـا، ولا من سـوء الخاتمة، ولا مـن العقاب، ولا فـي بعض مواطن الموقف ﴿وَلَا هُـم يَحْزَنُونَ﴾ فـي الآخرة من ترك الإيمـان والتقوى، إذ لم يتركوها فاستحقُّوا الجنَّة.

[لغة] والخوف: غمٌّ لتوقُّع مكروه. والحزن غمٌّ لفوت مهمٍّ.

ويجب التحفُّظ عن المعاصي، قال بعض:

يـا ناظِـرًا يرنـو بِعَيْنَـيْ راقد ومُشَـاهِدٍ للأمـرِ غيرَ مُشَـاهِدِ
منَّيتَ نفسَـك ضِلَّـةً وأبَحْتَها طرُقَ الرجاء وهـنَّ غيرُ قواصد

تَصِلُ الذنوبَ إلى الذنوب وترتجي دُرَج الجنـانِ بها وفـوزَ العابد
ونسـيتَ أنَّ الله أخـرج آدمًـا منها إلـى الدنيا بذنـب واحد

﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا﴾ في قلوبهم، أي: بها، أي: بآياتنا ﴿وَكَذَّبُوا بِـَٔايَٰتِنَآ﴾ في ألسنتهم وهي القرآن وسـائر كتب الله العظيم، وهي آيات، أي: علامات على وجود الله وكمال قدرته وصدق الأنبياء، ويدخل بالأولى من أنكر الله.

[لغة] وسـمِّيت الآية لأنَّها علامة على معناهـا، أو لأنَّها جماعة حروف وكلمات، يقال: خـرج القوم بآيتهـم، أي: بجماعتهـم، أو لأنَّها علامة على الانقطاع عمَّا قبلها وعمَّا بعدها باعتبـار التمام لا باعتبار المعنى؛ لأنَّ المعنى كثيرًا ما يتمُّ بآيتين أو آيات، أو لأنَّها يُتعجَّب من إعجازها، يقال: فلان آية من الآيات!.

﴿أُولَـٰٓئِكَ أَصْحَابُ ٱلنَّارِ﴾ ملابسـوها ﴿هُمْ فِيهَا خَـٰلِدُونَ﴾ لا تفنى ولا يفنـون ولا يخرجون. خاطب الله مشـركي العـرب ومنافقيهـم، وقد يكون الخطاب على عموم الناس. ثمَّ خاطب اليهود خصوصًا فقال:

﴿يَٰبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتِيَ ٱلَّتِيٓ أَنۡعَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ وَأَوۡفُواْ بِعَهۡدِيٓ أُوفِ بِعَهۡدِكُمۡ وَإِيَّٰيَ
فَٱرۡهَبُونِ ﴿40﴾ وَءَامِنُواْ بِمَآ أَنزَلۡتُ مُصَدِّقٗا لِّمَا مَعَكُمۡ وَلَا تَكُونُوٓاْ أَوَّلَ كَافِرِۢ بِهِۦۖ وَلَا تَشۡتَرُواْ
بِـَٔايَٰتِي ثَمَنٗا قَلِيلٗا وَإِيَّٰيَ فَٱتَّقُونِ ﴿41﴾ وَلَا تَلۡبِسُواْ ٱلۡحَقَّ بِٱلۡبَٰطِلِ وَتَكۡتُمُواْ ٱلۡحَقَّ وَأَنتُمۡ
تَعۡلَمُونَ ﴿42﴾ وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱرۡكَعُواْ مَعَ ٱلرَّٰكِعِينَ ﴿43﴾﴾

ما طُلب من بني إسرائيل

﴿**يَابَنِي إِسْرَآئِيلَ**﴾ عبد الله يعقوب.

[لغة] واللفظان عبريَّان. أو أسر: القوة، أي: قوَّة الله، أو أسرى ليلاً مهاجرًا إلى الله. أو أسِـرَ جنِّيًا لوجه الله كان يطفئ سراج بيت المقدس، وعلى الثلاثة «إيل» لفظ عبريٌّ معنـاه «الله»، وما قبلـه عربيٌّ. كما قيل في «تلمسـان» تلمُّ بمعنى تجمـع عربيٌّ، و«سـان» اثنان بلغـة البربر، أي: جمعت حسـن البرِّ والبحر، أو اتَّفقت اللغتان العربيَّة والعبريَّة، وقيل: «أسـر» صفوة أو إنسان، أو مهاجر، والمراد بنو إسرائيل الموجودون حال نزول الآية.

﴿**اذْكُـرُوا نِعْمَتِي**﴾ اذكروها فـي قلوبكم لتشـكروها بتعظيم القلب، ومدح اللسـان، وعمل الجوارح، ولا تكتفوا بمجـرَّد حضورها في القلب واللسـان ﴿**الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ**﴾ أنعمتها، أي: أنعمت بها، أو ضُمِّن معنى أثبت. وقد أجيز حذف الرابط بلا شرط إذا علم، وهي التنجيةُ من فرعون، وفـرق البحر، والإحياء بعـد موت، وتظليـل الغمام، والمنُّ والسـلوى، والعفـو، وغفران الخطايـا، والتـوراة، والماء من الحجـر، والصحف...

مجموعهنَّ نعمة تتضمَّن نعمًا. أو الإضافة للحقيقة. أو النعمة اسم مصدر، أي: اذكروا إنعامي بذلك، وذلك لآبائهم، وما كان فخرًا لآبائهم فهو فخر لهم، كما أنَّه نسب إليهم ما فعل آباؤهم من السوء لرضاهم عنهم مع السوء من قولهم: ﴿سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا﴾ [سورة البقرة: 93] و﴿أَرِنَا اللَّهَ جَهْرَةً﴾ [سورة النساء: 153] و﴿لَن نَّصْبِرَ عَلَىٰ طَعَامٍ وَاحِدٍ﴾ [سورة البقرة: 61]، واتِّخاذ العجل، وتبديل الذين ظلموا، وتحريف الكَلِم، والتولِّي بعد ذلك، وقسوة القلب، والكفر بالآيات، وقتل الأنبياء.

﴿وَأَوْفُوا بِعَهْدِي﴾ بما عهدتُ إليكم من الإيمان بمحمَّد ﷺ، أخذْتُه من موسى وأخذه موسى عليكم، قال الله جلَّ وعلا: ﴿وَلَقَدْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ...﴾ إلخ [سورة المائدة: 12]. والعهد: إنزال نبوءته ورسالته ﷺ في التوراة.

﴿أُوفِ بِعَهْدِكُمْ﴾ بما عهدته لكم من الجنَّة على الوفاء بعهدي ﴿وَإِيَّايَ﴾ ارهبوا، يقدَّر العامل هكذا مؤخَّرا للحصر، أي: خافوني وحدي على ترك الإيفاء بعهدي، والشاغل الياء المحذوفة في قوله: ﴿فَارْهَبُونِ﴾ في جميع أحوالكم، وفي نقض العهد، وفي أن تنزل نقمة عليكم كآبائكم، وكأنَّها مذكورة إذ وجدت نون الوقاية المكسورة لها، والفاء صلة للتأكيد، أو يقدَّر: إيَّاي فارهبوا، تنبَّهوا فارهبون؛ وعليه فحذف «ارهبوا» للدلالة عليه لا على رسم الاشتغال. والرهبة: الخوف، أو مع التحرُّز.

﴿وَءَامِنُوا﴾ يا بني إسرائيل، وقيل: المراد العلماء والرؤساء منهم، ككعب بن الأشرف. ﴿بِمَا أَنزَلْتُ﴾ على محمَّد ﷺ من القرآن وسائر الوحي ﴿مُصَدِّقًا﴾ أنا، فهو حال من التاء، والأَولى أنَّه حال من الهاء المحذوفة، أي: أنزلته أو من «ما». ﴿لِّمَا مَعَكُمْ﴾ من التوراة والإنجيل، أي: صدَّقته بما أنزلته، أو مصدِّقًا ما أنزلت؛ لأنَّ القرآن جاء مطابقًا لما في التوراة والإنجيل فيما ذكر الله فيهما من نبوءة سيِّدنا محمَّد ﷺ ورسالته وسيرته، ومن وصف القرآن

والقصص والمواعيد والتوحيد والدعاء إليه، والعبادة والنهي عن المنكر، حتَّى إنَّ اتِّباعهما موجب للإيمان به وبما جاء به.

﴿وَلَا تَكُونُوا أَوَّلَ﴾ أي: مِثْلَ أوَّلِ ﴿كَافِرِۭ بِهِۦ﴾ أوَّل فريق كافر، أو لا يكن واحد منكم أوَّل إنسان كافر به من أهل الكتاب فيتبعكم مَن بعدَكم ومن معكم، فيكون عليكم إثم كُفرِكم، ومثل إثم مَن تبعكم، وقد سبقكم في الكفر به قريش وسائر العرب، ولا تكونوا مثلهم فإنَّكم أحقُّ وأوَّل من يؤمن، لِما تتلون في التوراة والإنجيل من الإخبار به.

والهاء لِـ«مَا مَعَكُمْ»، فكفركم بالقرآن كفر بما معكم من التوراة والإنجيل، والعرب لم تسبقكم بالكفر بهما، بل بالكفر بالقرآن.

[لغة] والواو الثانية مِن «أَوَّلَ» عن همزة من «وَأَلَ» إذا نَجَا. وفيه معنى السبق والتبادر. وقيل: من «آل» بمعنى: رجع. وقيل: أصل شاذٌّ لا فعل له، إذ لا توجد كلمة فاؤها وعينها واو. وما قيل من أنَّ فعله «وَوَلَ» بيانٌ لا سماع. وقيل: وزنه «فوعل»، ويردُّه منع صرفه.

﴿وَلَا تَشْتَرُوا﴾ ضدُّ البيع، استعارة عن تستبدلوا ﴿بِـَٔايَاتِي﴾ الآيات التي في التوراة والإنجيل الدالَّات على ما أنزلتُ على محمَّد، بأن تخفوها أو تمحوها أو تبدلوها، أو تفسِّروها بغير تأويلها ﴿ثَمَنًا﴾ مثمنًا ﴿قَلِيلاً﴾ هو ما تعطيكم سفَلَتُكُمْ مَبنيًا على ذلك التغيير وعلى رئاستكم به، وفي الموسم وأزمان الثمار. فتركُ الآيات بتلك الأوجه ثمن اشتروا به مثمنًا هو ما يعطون، أو ثمنًا بمعنى عوضًا، وكلٌّ من الثمن والمثمن ثمن ومثمن من حيث إنَّ كلًّا عوض.

أو تشتروا: تستبدلوا، من حيث إنَّ الاستبدال أعمُّ من الشراء؛ فذلك مجاز مرسل للإطلاق والتقييد، وما يأخذونه كثير لكنَّه بالنسبة لما تركوا من الدنيا قليل.

وبَّخ الله اليهود المعاصرين لرسول الله ﷺ بالكتم، وبيع الدِّين، والتحريف، وقولهم: ﴿هَذَا مِنْ عِندِ اللَّهِ﴾ [سورة البقرة: 79]، و﴿نَحْنُ أَبْنَآؤُاْ اللَّهِ﴾ [سورة المائدة: 18]، و﴿يَدُ اللَّهِ مَغْلُولَةٌ﴾ [سورة المائدة: 64]، وقتل أنفسهم، وإخراج فريق منهم من ديارهم، والحرص على الحياة، وعداوة جبريل، واتِّباع السحر.

﴿وَإِيَّايَ فَاتَّقُونِ﴾ مثل ﴿وَإِيَّايَ فَارْهَبُونِ﴾. ﴿وَلَا تَلْبِسُوا الْحَقَّ﴾ لا تخلطوه، وهو ما في التوراة والإنجيل ﴿بِالْبَاطِلِ﴾ هو خلاف الحقّ من أنفسهم، خلطوه بالحقّ تفسيرًا وكتابة، فهو بعد كلام حقّ؛ وقيل: كلام آخر حقّ، سواء زادوه بينهما فقط، أو أسقطوا كلامًا بينهما وجعلوا مكانه باطلاً ﴿وَتَكْتُمُوا﴾ أي: ولا تكتموا، أو مع أن تكتموا، جزمًا بالعطف أو نصبًا في جواب النهي ﴿الْحَقَّ﴾ كصفة محمَّد ﷺ، ورجم المحصن إذا سئلوا أنكروا وجود ذلك في التوراة. وكرَّر «الحقّ» للتأكيد إذ لم يضمر له. أو لأنَّ المراد بالأوَّل غير صفته ﷺ ورجم المحصن.

﴿وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ أنَّه حقٌّ، أو تعلمون أنَّه موجود في التوراة، أو البعثُ، أو الجزاءُ، أو أنَّكم لابسون كاتمون وتقولون: لا يوجد، وذلك قبيح ولو لم تعلموا، فكيف وقد علمتم، أو أنتم من ذوي العلم هكذا، فلا يقدَّر له عملٌ في محذوف.

﴿وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَءَاتُوا الزَّكَاةَ﴾ المنزَّلتين في القرآن، لوجوب الإيمان به واتِّباعه عليكم ﴿وَارْكَعُوا مَعَ الرَّاكِعِينَ﴾ محمَّد وأصحابه جماعةً، أو الجنس.

[فقه] فالكفَّار مخاطَبون بفروع الشريعة كما خوطبوا بالتوحيد، وتأويل الآية ونحوها بـ«آمِنُوا بوجوب إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة ليكون من الأصول» دعوًى بلا دليل، وتكلُّفٌ. والحقُّ جواز الأمر بالشيء قبل بيانه، فليس ذلك من تأخير البيان عن وقت الحاجة، كما تقول لعبدك: «خِطْ هذا الثوب» فيقول: لا أعرف، فتقول: سأعلِّمك، وأنت حين أمرتَه عارف بأنَّه لا يعرف.

وقدَّم الصلاة تدريجًا؛ لأنَّها أسهل على النفس من المال؛ ولأنَّها أفضل العبادات بعد التوحيد. وقرنها بالزكاة لأنَّها تطهِّر النفس من البخل، وتُورثها فضيلة الكرم، كما أنَّها تنمِّي المال وتطهِّره من البخل، فإنَّ الزكاة لغةً: النموُّ والطهارة.

وفيه تلويح بزجرهم عمَّا هم عليه قبلُ من الصلاة فرادى بلا ركوع. أو المراد بالركوع: الانقيادُ لأمر الشرع وترك التكبُّر.

كانت اليهود تأمر سرًّا من أحبُّوه من أقربائهم ومن حلفائهم من الأوس والخزرج وأصهارهم ومراضعيهم ومَن سَألَهم من قريش وغيرهم من العرب باتِّباع محمَّد ﷺ، ويقولون لهم: إنَّه رسول الله وهم لا يؤمنون فنزل:

﴿ أَتَأْمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلْبِرِّ وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ وَأَنتُمْ تَتْلُونَ ٱلْكِتَٰبَ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿44﴾
وَٱسْتَعِينُوا۟ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِ ۚ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى ٱلْخَٰشِعِينَ ﴿45﴾ ٱلَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَٰقُوا۟
رَبِّهِمْ وَأَنَّهُمْ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ ﴿46﴾ يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتِىَ ٱلَّتِىٓ أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَنِّى فَضَّلْتُكُمْ
عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿47﴾ وَٱتَّقُوا۟ يَوْمًا لَّا تَجْزِى نَفْسٌ عَن نَّفْسٍ شَيْـًٔا وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَٰعَةٌ وَلَا يُؤْخَذُ
مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴿48﴾ ﴾

نماذج من سوء أخلاق اليهود

﴿ أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ ﴾ أنواع الخير والطاعات وترك المحرَّمات والمكاره، والمراد: الإيمان بمحمَّد ﷺ؛ لأنَّه جامع لذلك، وللتوسُّع في الخير مع الله والأقارب والأجانب، كما هو أصل البِرِّ المأخوذ من البَرِّ ـ بالفتح ـ للفضاء الواسع ﴿ وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ ﴾ تتركونها عمدًا من البرِّ فلا تأمرونها به، والاستفهام توبيخ لهم أو إنكار لأن يصحَّ ذلك عقلاً أو شرعًا، ومحطُّه قوله: ﴿ وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ ﴾.

﴿ وَأَنتُمْ تَتْلُونَ الْكِتَابَ ﴾ التوراةَ، وفيها النهي عن مخالفة القول العمل، فإنَّها صورة الجاهل بالشرع والخالي عن العقل إذ كان يعظ ولا يتَّعظ، وليس عدم العمل مسقطًا لفرض الأمر والنهي، فإن لم يعمل ولم يأمر ولم ينه فقد ترك فروضًا، وإن عمل ولم يأمر ولم ينه، أو أمر ونهى وترك العمل فقد ترك بعضها.

[لغة] والنسيان مشترك بين الزوال عن الحافظة والترك عمدًا. وقيل: مجاز في الترك لأنَّه لازم ومسبَّب عن الزوال عنها. ونكتة التعبيرِ به التلويحُ إلى أنَّه لا يليق أن يصدر ذلك إلَّا لزوال عن الحافظة.

يطَّلع ناس من أهل الجنَّة على ناس في النار فيقولون لهم: «كنتم تأمروننا بأعمال دخلنا بها الجنَّة» فيقولون: «كنَّا نخالف إلى غيرها».

﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ أي: فألا تعقلون قُبْحَ ذلك؟! قدِّمت الهمزة على العاطف لتمام صدارتها، أو دخلت على معطوف عليه محذوف، **وهكذا في جميع القرآن**، أي: أتغفلون فلا تعقلون؟! ﴿وَاسْتَعِينُوا﴾ خطاب للمؤمنين لا لليهود؛ لأنَّه يليق بمن أذعن فيستكمل به، لا للشارد، ولا ينتفع الباقي على كفره بالصبر والصلاة، إلَّا أنَّه لا مانع من الخطاب لهم مراعاةً لقوله: ﴿أَوْفُوا﴾ و﴿ءَامِنُوا﴾ و﴿اتَّقُونِ﴾ ﴿وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَءَاتُوا الزَّكَاةَ وَارْكَعُوا﴾، ولا سيما أنَّ ما قبلُ وما بعدُ فيهم. والمراد: اطلبوا المعونة على عبادتكم ومباحكم ﴿بِالصَّبْرِ﴾ حبس النفس على الاجتهاد في العبادة، وعمَّا تشتهي من توسيع اللذَّات، وعلى المعاصي والمكاره، وعلى المصيبة.

ويقال: من صبر على الطاعة فله ثلاثمائة درجة، أو عن المعصية فستُّمائة درجة، أو على المصيبة فتسعمائة، بين الدرجتين ما بين الأرض والسماء. ويقال: الصبر على الطاعة أعظم ثوابًا من الصبر على المصيبة، وعلى المعصية أعظم منهما.

ولفظ ابن أبي الدنيا وأبي الشيخ عن عليٍّ: «الصبر ثلاثة: فصبر على المصيبة، وصبر على الطاعة، وصبر عن المعصية؛ فمن صبر على المصيبة حتَّى يردَّها بحسن عزائها كتب الله له ثلاثمائة درجة، ما بين الدرجتين كما بين السماء والأرض؛ ومن صبر على الطاعة كتب الله له ستَّمائة درجة، ما بين الدرجتين كما بين تخوم الأرض العليا إلى منتهى الأرضين؛ ومن صبر عن المعصية كتب الله له تسعمائة درجة، ما بين الدرجتين كما بين تخوم الأرضين إلى منتهى العرش مرَّتين».

﴿وَالصَّلَاةِ﴾ قدَّم الصبر عليها لأنَّها لا تكون إلَّا بالصبر عن الكسل والملاذ الصارفة عنها وعلى وظائفها من الطهارة من الأنجاس، ورفع الأحداث

والخشوع وإحضار القلب وسائر شروطها وشطورها؛ وأفردها بالذكر لأنَّها تنهى عن الفحشاء والمنكر إذا أُتي بها كما أمر به.

وكان ﷺ إذا اشتدَّ عليه أمر بادر إليها، والآية أنسب باليهود، فهم داخلون بالمعنى ولو على القول بأنَّ الخطاب لغيرهم؛ لأنَّهم منعهم عن الإيمان حبُّ الرئاسة والشهوات فأُمروا بالصبر، ومنه الصوم. أو المراد به الصوم، وهو ضعيف، وبالصلاة لأنَّها تنهى عن الفحشاء والمنكر وتورث الخشوع ﴿وَإِنَّهَا﴾ أي: الصلاة؛ لأنَّها أقرب مذكور. إنَّ الاستعانة بالصبر والصلاة كقوله: ﴿اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى﴾ [سورة المائدة: 8]، وقوله تعالى: ﴿وَإِن تَشْكُرُوا يَرْضَهُ لَكُمْ﴾ [سورة الزمر: 7]، أي: يرضى الشكر. أوْ إنَّ الأمور من قوله: ﴿اذْكُرُوا﴾ إلى قوله: ﴿وَاسْتَعِينُوا﴾، والراجح الأوَّل. ﴿لَكَبِيرَةٌ﴾ شاقَّة، كقوله تعالى: ﴿كَبُرَ عَلَى الْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ﴾ [سورة الشورى: 13]، أي: شقَّ عليهم.

﴿إِلَّا عَلَى الْخَاشِعِينَ﴾ الساكِني الجوارح، الحاضِري القلوب، ميلاً إلى الطاعة، فلا تثقل عليهم، وإن ثقُلت فأقلُّ من ثقلها على غيرهم، لاعتيادهم أمثال ذلك، ورجائهم من الثواب ما يستحقر له مشاقَّهم، حتى إنَّه ﷺ قال: «**جُعِلتْ قرَّةُ عيني في الصلاةِ**»[1]، ويقول: «**أرِحنَا يا بِلالُ بالصلاة**»[2].

وصحَّ التفريغ لأنَّ «كبيرة» بمعنى لا تسهل، كما جاء بعد «أَبَى» بمعنى لم يُرد. أو هو منقطع، أي: لكن الخاشعون لا تكبر عليهم.

---

(1) أوَّل الحديث قوله ﷺ: «حُبِّب إليَّ من دنياكم ثلاثٌ: النساء، والطِّيب، وجُعلت قرَّة عيني في الصلاة». رواه النسائي في كتاب عِشرة النساء، باب حبِّ النساء، رقم: 3949. ورواه البيهقي، في السنن الكبرى، باب الرغبة في النكاح، ج7، ص125، رقم: 13454، من حديث أنس بن مالك. ورواه أحمد كذلك.

(2) رواه أبو داود في سننه، كتاب الأدب، باب في صلاة العتمة، ج4، 296، رقم: 4985، وأوَّل الحديث: «يَا بِلَالُ أَقِمِ الصَّلَاةَ أَرِحْنَا بِهَا».

﴿الَّذِينَ يَظُنُّونَ﴾ يعلمون، كما استعمل العلم بمعنى الظنِّ في قوله تعالى: ﴿فَإِنْ عَلِمْتُمُوهُنَّ مُؤمِنَاتٍ فَلَا تَرْجِعُوهُنَّ إِلَى الْكُفَّارِ﴾ [سورة الممتحنة: 10]، ﴿أَنَّهُم مُّلَاقُوا رَبِّهِمْ﴾ ملاقو حسابه بعد البعث أو ثوابه، وذلك حذف. أو ملاقوه بالحساب أو الثواب، فشبَّه المعاملة بالحساب أو الثواب بالحضور، وتعالى الله عن الحلول والجهات. ﴿وَأَنَّهُمْ إِلَيْهِ رَاجِعُونَ﴾ للجزاء، أو هذا مطلق رجوع لمطلق الحساب. وملاقاتهم هي على ثواب الصبر والصلاة فلا تكرير، فالظنُّ على ظاهره إذ لا يجزمون بالسعادة.

﴿يَابَنِي إِسْرَآئِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ﴾ كرَّره للتأكيد والإيذان بكمال غفلتهم، وليبني عليه قوله: ﴿وَأَنِّي فَضَّلْتُكُمْ﴾ أي: بنعمتي، وتفضيلكم هذا عطف خاصٍّ على عامٍّ. ﴿عَلَى الْعَالَمِينَ﴾ عالمي زمانكم من الناس، إذ جعلتُ فيكم النبوءة والرسالة، والمعجزات والكرامات وخرق العادات، كما فسّر في قوله تعالى: ﴿يَا قَوْمِ اذْكُرُواْ نِعْمَةَ اللهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَعَلَ فِيكُمْ أَنبِيَآءَ وَجَعَلَكُم مُّلُوكًا وَءَاتَاكُم مَّا لَمْ يُوتِ أَحَدًا مِّنَ الْعَالَمِينَ﴾ [سورة المائدة: 20]، كالمنِّ والسلوى، وفلق البحر؛ أمَّا غير الناس من الجمادات والحيوان فلا اعتداد به، وَأَمَّا الجنُّ فتبع للناس، أو يرادوا في «الْعَالَمِينَ». وَأَمَّا الملائكة فليسوا في الآية؛ لأنَّها فيمن تُمكِنُ فيهم النبوءة وما يتبعها، ولو قلنا: إنَّ الإنسان المؤمن أفضل من الملائكة.

وخرج بعالمي زمانهم نبيئُنا محمَّد ﷺ وأمَّته، فإنَّهم أفضل الخلق على الإطلاق، والدليل قوله تعالى: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ...﴾ الآية [سورة آل عمران: 110]، وحديث: «**أنا سيِّد ولدِ آدم**»[1]. بل لا ينافي ذلك أنَّهم

---

(1) رواه أحمد في مسنده، ج4، ص6، رقم: 10987، عن أبي سعيد. والترمذي في المناقب (1)، باب في فضل النبيء ﷺ، ص3615، من حديث ابن عبَّاس. ومسلم في كتاب الفضائل (2)، باب تفضيل نبيئنا ﷺ على الخلائق (3)، رقم: 2278 من حديث ابن عبَّاس كذلك.

فُضِّلوا علينـا، أي: زادوا علينا بكثرة الأنبياء وما ذُكر، لأنَّـا أفضل منهم فردًا فردًا بالذات، بحيث إنَّ ثوابنا أكبر من ثوابهم، وسومح لنا ما لم يسامح لهم.

﴿**وَاتَّقُوا يَوْمًا**﴾ يوم القيامة، احذروا هوله وعذابه بالإيمان وأداء الفرائض واجتناب الحرام، و«يَوْمًا» مفعول به كما رأيت على حذف مضاف، ويجوز أنَّه ظرف لمفعول به محذوفٍ، أي: العذاب في يومٍ.

﴿**لَّا تَجْزِي**﴾ فيه ﴿**نَفْسٌ عَن نَّفْسٍ شَيْئًا**﴾ لا تغني عنها في شيء إغناء ما، أو لا تدفع عنها شـيئا بقوَّتها، أو بأعوان لها لو كانوا ﴿**وَلَا يُقْبَلُ**﴾ فيه ﴿**مِنْهَا شَـفَاعَةٌ**﴾ أي: لا شـفاعة للنفس الأولى في الثانية، فضلا عن أن تُقبل منها. والجملة السـالبة تصـدق بنفي الموضـوع، قال جلَّ وعـلا: ﴿فَمَـا لَنَا مِن شَافِعِينَ﴾ [سورة الشعراء: 100].

﴿**وَلَا يُوخَذُ مِنْهَا**﴾ من النفس الثانية ﴿**عَدْلٌ**﴾ فداء، أو لا تقبل من الأولى الجازية شـفاعة لعدم الشـفاعة، ولا يؤخذ منها عدل؛ أو لا يقبـل من الثانية شفاعة ولا يؤخذ منها عدل؛ لا تشفع مؤمنة في كافرة، ولا يقبل منها عدل فيها ولا في غيرها، وكذا كافرة لقرابة أو محبَّةٍ.

﴿**وَلَا هُمْ**﴾ أي: النفس لتنكيرها بعد السـلب ﴿**يُنصَرُونَ**﴾ يدفع عنهم العذاب بالمقاومة والغلبة.

[أصول الدين] والآية دليل لنا وللمعتزلة على أن لا شفاعة لأهل الكبائر؛ لأنَّ الآية ولو كانت في المشركين، لكنَّها في وصف يوم من شأنه أنَّه لا شفاعة فيه بدفع العذاب عن مستحقِّه، ولا مقام أو زمان من مقامات الموقف وأزمنته نصَّ على ثبوتها للفسَّاق ولا لشخص مُصِرٍّ.

﴿ وَإِذْ نَجَّيْنَٰكُم مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ يُذَبِّحُونَ أَبْنَآءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ
نِسَآءَكُمْ ۚ وَفِى ذَٰلِكُم بَلَآءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ ﴿49﴾ وَإِذْ فَرَقْنَا بِكُمُ ٱلْبَحْرَ فَأَنجَيْنَٰكُمْ
وَأَغْرَقْنَآ ءَالَ فِرْعَوْنَ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ ﴿50﴾ وَإِذْ وَٰعَدْنَا مُوسَىٰٓ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً ثُمَّ ٱتَّخَذْتُمُ ٱلْعِجْلَ
مِنۢ بَعْدِهِۦ وَأَنتُمْ ظَٰلِمُونَ ﴿51﴾ ثُمَّ عَفَوْنَا عَنكُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿52﴾
وَإِذْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْفُرْقَانَ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿53﴾ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ يَٰقَوْمِ
إِنَّكُمْ ظَلَمْتُمْ أَنفُسَكُم بِٱتِّخَاذِكُمُ ٱلْعِجْلَ فَتُوبُوٓا۟ إِلَىٰ بَارِئِكُمْ فَٱقْتُلُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ ذَٰلِكُمْ
خَيْرٌ لَّكُمْ عِندَ بَارِئِكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿54﴾ ﴾

نِعم الله تعالى العشر على اليهود

﴿وَإِذْ نَجَّيْنَاكُم﴾ واذكُروا إذ نجَّيناكم بإنجاء آبائكم، واذكُروا نعمتي وتفضيلي، ووقتَ إنجاء آبائكم ﴿مِّنَ ـ الِ فِرْعَوْنَ﴾ أتباع فرعون في دينه. وهو الوليد بن مصعب بن ريان، عُمِّر أكثر من أربعمائة، ولقبه فرعون.

[لغة] والفَرْعَنَةُ: الدهاء والمكر، كذا قيل، ولعلَّه تصرَّف بالعربيَّة من لفظ عجميٍّ لا عربيٍّ، بدليل منعه من الصرف، فإنَّه لا علَّة فيه مع العَلَميَّة سوى العجمة التي ندَّعيها.

وهو من ذرية عمليق بن لاود بن إرم بن سام بن نوح.

[لغة] وألف «ءال» عن هاء «أهل»، والمعنى واحد، فيصغر على «أهيل». وقيل عن همزة مبدلة عن هاء، والمعنى واحد أيضا. وقيل: عن واوٍ من

«آلَ يؤول» بمعنى رجع إليك في قرابة أو رأيٍ أو نحوهما، فيصغر على «أُوَيْلٍ»، ونقله الكسائيُ نصًا عن العرب. وعن أبي عمرو غلام ثعلب: الأهل القرابة ولو بلا تابع، والآل بتابع.

﴿يَسُومُونَكُمْ﴾ يولونكم على الاستمرار ﴿سُوٓءَ الْعَذَابِ﴾ ضرَّ العذاب ومرارته، أو العذابُ السوءُ: الأشدُّ. صنفٌ يقطع الحجارة من الجبل وهم أقواهم، وصنفٌ ينقلها والطينَ للبناء، وصنفٌ يضرب اللَّبِن ويطبخ الآجُر، وصنف للنجارة (بالنون)، وصنف للحدادة، وصنف لضرب الجزية، وهم الضعفاء، كلّ يوم مَن غربت عليه الشمس ولم يؤدِّها غُلَّت يده لعنقه شهرا؛ وصنفٌ لغزل الكتَّان ونسجه وهم النساء.

ومن سوء العذاب: تذبيح الأبناء، كما قال تعالى: ﴿يُذَبِّحُونَ أَبْنَآءَكُمْ﴾ وقد ذكر أنواع السوء إجمالا مع الذبح في قوله تعالى: ﴿وَيُذَبِّحُونَ﴾ [سورة إبراهيم: 6] (بالواو)، وَأَمَّا هنا فالمراد ذلك، والمراد بسوء العذاب خصوص التذبيح، ولا منافاة؛ لأنَّه لم يحصره في الذبح، بل ذكر في موضع الامتنان ما هو أشدُّ، مع أنَّه لا مانع من إرادة العموم هنا أيضا بسوء العذاب، إلَّا أنَّه ميَّز بعضا فقط؛ كأنَّه قيل: منه تذبيح الأبناء. ذبح اثني عشر ألف ابن أو سبعين ألفا، غير ما يسبِّب لإسقاط أمِّه، فإن أسقطت ذكرًا ذبحه.

والتحقيق أنَّ سوء العذاب أعمُّ، فذِكْرُ التذبيحِ تخصيصٌ بعد تعميم. أو المراد ما عدا التذبيح، وجملة «يُذَبِّحُونَ» حال، وعلى أنَّ المراد بسوء العذاب التذبيح تكون مفسِّرة.

﴿وَيَسْتَحْيُونَ نِسَآءَكُمْ﴾ يُبْقونهنَّ حيَّات، أو يعالجون حياتهنَّ إذا أسقطنهنَّ، أو النساء البنات الصغار يبقونهنَّ بلا قتل، وإن كان السقط بنتا عالجوا حياتها، أو المراد عموم ذلك كلِّه.

﴿وَفِي ذَٰلِكُم﴾ المذكور من سوء العذاب إجمالا ﴿بَلَآءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ﴾ امتحان، أو في ذلكم الإنجاء إنعام، أو في ذلك الإنجاء وسوء العذاب والذبح ابتلاء، أتصبرون وتشكرون أم تجزعون؟ والله عالم. قال الله تعالى: ﴿وَنَبْلُوكُم بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ﴾ [سورة الأنبياء: 35]، ﴿فَأَمَّا الإِنسَانُ إِذَا مَا ابْتَلَاهُ رَبُّهُ فَأَكْرَمَهُ وَنَعَّمَهُ فَيَقُولُ رَبِّـيَ أَكْرَمَنِي وَأَمَّآ إِذَا مَا ابْتَلَاهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُ فَيَقُولُ رَبِّـيَ أَهَانَنِي﴾ [سورة الفجر: 15 ـ 17].

[قصص] رأى فرعون في النوم نارا أقبلت من بيت المقدس، وأحاطت بمصر، وأحرقت كلَّ قبطيٍّ بها، ولم تتعرَّض لبني إسرائيل، فشقَّ ذلك عليه وسأل الكهنة؛ فقالوا له: يولد في بني إسرائيل مَن يكون سببا في ذهاب ملكك؛ فأمرَ بقتل كلِّ غلام يولد فيهم، وأسرع الموت في شيوخهم، فجاء رؤساء القبط وقالوا: أنت تذبح صغارهم ويموت كبارهم، ويوشك أن يقع العمل علينا، فأمر بالذبح سنة والترك أخرى، فوُلد هارون سنة ترك الذبح، وموسى سنة الذبح.

﴿وَإِذْ فَرَقْنَا بِكُم﴾ لأجلكم يا بني إسرائيل، أو بسببكم، أو شبَّه سلوكهم بالآلة في كونه واسطة في حصول الفرق، فكانت الباء، ففي ذلك استعارة تبعيَّة، والفرق مقدَّم على السلوك فيه، لقوله تعالى: ﴿فَانفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَالطَّوْدِ الْعَظِيمِ﴾ [سورة الشعراء: 63]، وما قيل من أنَّه فرق شيئا فشيئا بسلوكهم لا يصحُّ.

﴿الْبَحْرَ﴾ لتسلكوه وتنجوا من عدوِّكم، بحر القَلْزَم، فرقًا مستديرا راجعا إلى جهة المدخل، وكان عرضه في ذلك المحلِّ أربعة فراسخ، فيستبعد السلوك فيه على ذلك الطول بلا تقويس، فيحتاجون إلى رجوع في سفن مع كثرتهم، وقيل: النيل فُرقَ على سمت، ويسهل رجوعهم في سفن، أو على استدارة وتقويس إلى جهة المدخل، وهو أولى، ويُهلكَ عدوَّكم.

﴿فَأَنجَيْنَاكُمْ﴾ من عدوِّكم ومن الغـرَق ﴿وَأَغْرَقْنَا ءَالَ فِرْعَوْنَ﴾ المراد فرعون وآله.

[لغة] هذا الجنس الشامل لفرعون وآله، كقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِيٓ ءَادَمَ﴾ [سورة الإسراء: 70]، أي: جنس البشر الشامل لآدم وذرِّيَّته، أو آل فرعون هو فرعون وَأَمَّا قومـه فأتباعٌ له، وذُكِـرَ بالغرق في آيٍ أُخَـر، وذلك كقوله ﷺ: «**مزامير آل داود**»[1]، أي: مزامير داود. وكان الحسن البصريُّ يقول: «اللهمَّ صلِّ على آل محمَّد» بدل: «اللهمَّ صلِّ على محمَّد»، وذلك أنَّ ما للإنسـان يكون لأهله تحقيقا أو فخرًا، وأيضًا إذا غرق أهله فهو أولى؛ لأنَّه رأسهم وبه ضلُّوا.

وناسـب نجاة موسـى من الغرق نجاته منه حين ألقي فيه طفلا، **وللأمَّة نصيبٌ ممَّا لنبيئها**، وفرعون غرق بالماء إذ فاخر به فـي قوله: ﴿وَهَٰذِهِ الْأَنْهَارُ تَجْرِي مِن تَحْتِيٓ﴾ [سورة الزخرف: 51] ولقومه نصيب ممَّا له، وكما عَجَّل الموتَ بإنْهَارِ الدم عُجِّل موتُه بالغرق، والموت به شديد؛ ولذلك كان الغريق شهيدا.

﴿وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ﴾ بعـد خروج آخركم منه، أو انطبـاق البحر عليهم بعد دخول آخرهم وبعد خروج أوَّلهم.

[قصص] وبنو إسرائيل يومئذ ستُّمائة وعشرون ألفا، ليس فيهم ابن عشرين لصغره، ولا ابن ستِّين لكبره، وإنَّهم بقوا في مصر، وكانوا يوم دخلوا مصر مع يعقـوب عليه السلام اثنين وسـبعين إنسـانا ما بيـن رجل وامـرأة، وبيـن يعقوب وموسى عليهما السلام ألف سنة، وقيل: أربعمائة، بارك الله في ذلك النسل، وهم مَن عدَا مَن مات ومن ذُبـح؛ وآل فرعون ألف ألفٍ وسـبعمائة ألف، وفيهـم من دُهْمِ الخيل سبعون ألفا.

---

(1) وأوَّل الحديث أنَّ النبيء ﷺ سمع قراءة أبي موسـى فقال: «لقد أوتي أبو موسى مزمارًا من مزامير آل داود». رواه **البخاري**، كتـاب فضائل القرآن، رقم: 1823، فـي المختصر. ورواه **النسائي**، كتاب الافتتاح، باب تزيين القرآن بالصوت، رقم: 1018، من حديث عائشة.

وإســناد النظر إذا كان بمعنى النظر بالعين إنَّما هــو للمجموع؛ لأنَّه إنَّما يُرَى الغرق، أو أخَّر بني إســرائيل الذين يقربون من البحر. وإن فسَّرناه بالعلم فهو لكلٍّ واحد، وفي المشــاهدة نعمة زائدة، وإن فسَّرنا النظر بنظر بعض إلى بعض من الكُوى حين استوحشــوا، فأشــار بالعصا فكانــت الكُوى، فالأمر ظاهر، لكن على هذا تتعلَّق الجملة بـ«أَنجَيْنَاكُم» أو بـ«فَرَقْنَا» لا بـ«أَغْرَقْنَا».

﴿وَإِذْ وَاعَدْنَا مُوسَى﴾ المفاعلة للمبالغة؛ لأنَّ من شأن المتفاعلَيْن جِدُّ كلٍّ واحد ليَغلِب الآخَرَ. وعلى بابهــا إذ وعده الله إنزال التوراة، ووعدَ اللهَ المجيءَ إلى الطور للعبــادة. أو يكفــي فيها فعلٌ من طــرفٍ وقبولٌ من طــرفٍ آخَر، كعالجتُ المريض. أو الطلــب طرف وامتناع القبول طــرف. ﴿أَرْبَعِينَ لَيْلَةً﴾ تمام أربعين يوما بلياليها: ذا القعدة وعشــرة من ذي الحجَّــة، أو ذي الحجَّة وعشــرة من المحرَّم، يصوم الأيَّام في الطور بوصال، ويقــوم الليالي ويتعبَّد، جَعلتُ له ذلك لأُنزِلَ عليه التــوراة بعد تمامها فتعملوا بها، وأخبره الله بذلك. وعبَّرنا بالليالي لأنَّها أوَّل اليوم، والشــهور والأعــوام فإنَّها بالهلال، والهلال بالليل؛ ولأنَّ الظلمة أقدم من الضوء: ﴿وَءَايَةٌ لَّهُمُ الَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ النَّهَارَ فَإِذَا هُم مُّظْلِمُونَ﴾ [سورة يس: 37].

[قصص] اســتخلف هارونَ على بني إســرائيل، فذهب إلــى الطور فتعبَّد أربعين، وأُنزل عليه بعد تمامها ـ أو في العشــرة الأخيرة، وفي الأربعين كلِّها أو في أوَّلها، أقوالٌ ـ التوراة سبعين ســفرا، وقلَّما توجد كلُّها عند إنسان واحد على عهد موســى أو ما يليه، وذلــك بعدما ذهب منهــا بإلقائه الألــواح الزبرجديَّة المكتوبة هي فيها، فيحتاج إنسان إلى مسألة، فيقال: هي في سفر كذا وكذا، عند فلان في موضع كذا، فتلاشت ولم يبق منها إلَّا قليل، ثمَّ وقع التحريف أيضا.

ومواعدة الأربعين إخبــار بما في نفس الأمر عنــد الله، إذ كان في الغيب عند الله أن يتعبَّد ثلاثين أمره بها، ثمَّ يزيد عليه عشرة.

[نحو] والنَّصْب على المفعوليَّة، أي: واعدنا موسى إعطاء أربعين يتعبَّد فيها. أو على الظرفيَّة، أي: أمرا واقعا فيها أو بعدها، أو مفعول مطلق في مواعدة أربعين.

﴿**ثُمَّ اتَّخَذْتُمُ**﴾ اتَّخذ آباؤكم الباقون في مصر ومَن معهم، إلَّا اثني عشر ألف رجل مع هارون، وقيل: اتَّخذه ثمانية آلاف ﴿**الْعِجْلَ**﴾ الذي صاغه موسى السامريُّ المنافق إلها يعبدونه، فالمفعول الثاني «إلهًا»، أو لا ثاني له كقولك: اتَّخذت سيفا صنعته. ﴿**مِنۢ بَعْدِهِ**﴾ بعد ذهاب موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ إلى ميقات الأربعين. ﴿**وَأَنتُمْ ظَالِمُونَ**﴾ باتِّخاذه لأنفسكم، ولدين الله، ولمن يقتدي بكم، وزمانِكم، ومكانِكم.

[فقه] وكلُّ من عصى الله فقد ظلم وقته ومكانه، والظلم: الضرُّ، ونقصُ حقِّ الشيء، ووضع الشيء في غير موضعه، **فاحفظ ذلك لغير هذا الموضع واعتبره**، وقد وضعوا العبادة واسم الألوهيَّة في غير موضعهما.

وذلك العجل لحم ودم بإذن الله على الصحيح. وقيل: صورة، فنسبة الخوار إليه على التجوُّز، ونُسب للجمهور.

﴿**ثُمَّ عَفَوْنَا عَنكُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ**﴾ الاتِّخاذِ، قبِلنا توبة عَبَدةِ العجل بعدما قتلوا منهم سبعين ألفا، ورفع الله عنهم السيف، وصحَّ إطلاق العفو مع عقابهم بالقتل لأنَّه عفو عن مزيد العقاب، بخلاف الغفران فلا يكون مع العقاب، كذا قيل، والصحيح أنَّه يُستعمل كالعفو بلا عقاب ومع عقاب.

﴿**لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ**﴾ تستعملون قلوبكم وألسنتكم وجوارحكم في العبادة لمقابلة نعمة العفو، أي: عاملناكم معاملة من يرجو الشكر على ما أُنعم عليه به لتشكروا.

والشكر استشعار العجز عن الوفاء بحقِّ النعم عند «الجُنَيْد»، والتواضع

عند حضور النعمة في القلب عند «الشبلي»، والطاعة لمن فوقك لنعمه، ولنظيرك بالمكافأة، ولمن دونك بالإحسان.

﴿وَإِذَ ـ اتَيْنَا﴾ هي «إِذْ» الساكنة، فتحت بالنقل، ومُدَّت بألف «آتَيْنَا» بعد حذف همزة [عند ورش].

﴿مُوسَى﴾ منع الصرف للعَلَمِيَّة والعُجمة، مركَّب من ماء وشجر، فـ«مو» ماء، و«سى» شجر، أُبدلت الشين سينًا وزاد الألف؛ لأنَّه وُجد بين ماء وشجر في بِركة فرعون من النيل. وقيل: عربيٌّ «مُفْعَلٌ»، وقيل «فُعلى»، من ماسَ يميسُ، أُبدلت الياء واوا، كـ«طوبى» مِن طَابَ يطيب، والألف للتأنيث وهو ضعيف؛ لأنَّ زيادة الميم أوَّلاً أولى من زيادة الألف.

﴿الكِتَابَ﴾ الصحف، و﴿والفُرْقَانَ﴾ التوراة الفارقة بين الحقِّ والباطل، والحلال والحرام؛ أو الكتاب التوراة، والفرقان المعجزات، كالعصا واليد أو كلاهما التوراة، وعُطِفَ تَنزيلاً لتغَايُر الصفات منزِلةَ تغايُر الذات، أي: آتينا موسى كلاما جامعا بين كونه مكتوبا من الله في الألواح وفي اللوح المحفوظ، وكونه مفرقا بين ذلك.

[لغة] والفرقان أيضا مكتوب في اللوح المحفوظ، وفي صحف الملائكة، والفرقان: النصر الفارق بين العدوِّ والوليِّ، كما قيل: سمِّي يومُ بدر «يوم الفرقان» لذلك. وذلك كما تقول: جاء زيد العالِم والشجاع والكريم، تريد جاء زيد المتَّصف بالعلم والشجاعة والكرم. ويدلُّ لذلك قوله تعالى: ﴿وَلَقَدَ ـ اتَيْنَا مُوسَىٰ وَهَارُونَ الْفُرْقَانَ وَضِيَآءً وَذِكْرًا لِّلْمُتَّقِينَ﴾ [سورة الأنبياء: 48].

﴿لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ من الضلال بهما، أو به إذا قلنا هما واحدٌ، أي: لتهتدوا، أو عاملناكم معاملة الراجي، أو أرجو الاهتداء، **وكذا حيث تكون «لَعَلَّ» من الله ولو لم أذكرْ ذلك.**

﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ﴾ مَن عَبَدَ العجلَ من الرجال والنساء، فإنَّ لفظ «قوم» يستعمل عاما للنساء مع الرجال تبعا على المشهور، ولو كان لا يستعمل فيهنَّ وحدهنَّ؛ لأنَّهم القائمون بهنَّ: ﴿الرِّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَآءِ﴾ [سورة النساء: 34]، وقيل: يجوز إطلاق القوم عليهنَّ حقيقة، أو مع الرجال كذلك.

﴿يَاقَوْمِ إِنَّكُمْ ظَلَمْتُمْ أَنفُسَكُم بِاتِّخَاذِكُمُ العِجْلَ﴾ إلها ﴿فَتُوبُواْ﴾ من عبادة العجل، وتسميتِه إلَها، والدعاء إليه، والرضا بتصويره، مع أنَّه لا يقدر على فعل شيءٍ فضلا عن أن يكون خالقا.

﴿إِلَى بَارِئِكُمْ﴾ خالِقكم بُرَءَاءَ من التفاوت، كيَدٍ في غاية القصر والرقة وأخرى طويلة غليظةٍ، أو يدٍ سوداء ووجه أبيض، وهو أخصُّ من الخلق. أو مخرجكم من العدم، والخلقُ: النقلُ من حال لأخرى، والتقديرُ [للشيء].

﴿فَاقْتُلُواْ أَنفُسَكُمْ﴾ ليس هذا من التوبة تفسيرًا لها، بل هي في قوله: ﴿فَتُوبُواْ﴾، وهذا عقاب تصحُّ به توبتهم وتقبل.

[فقه] كمن فعل ذنبا ممَّا بينه وبين الله، فاستقبحه وندم، عزم على عدم العود وأمر بكفَّارة، **فالتحقيق أنَّ الكفَّارة ليست من حدِّ التوبة**، ولو كانت قد تؤخذ في تعريفها، بخلاف ردِّ المظلمة فمن حدِّها.

ومعنى ﴿فَاقْتُلُواْ أَنفُسَكُمْ﴾: ليقتلْ بعضكم بعضا أنفسكم، أو نزَّلهم منزلة شيء واحدٍ، وذلك أنَّهم لم يؤمر كلُّ واحد أن يقتل نفسه، بلا أمر من لم يعبد العجل ـ وهم اثنا عشر ألفا ـ أن يقتل مَن عَبَدَهُ، والقاتل والمقتول كنفس واحدة نسَبًا ودينًا، والخطاب لمن لم يعبده في «اقتلوا»، أو اقتلوا يا عابدي العجل بعضكم بعضا، أو أسلموا أنفسكم للقتل، فالخطاب للعابدين.

قالوا: «نصبر للقتل طاعة لله ليقبَلَ توبتَنا»، وعلى أنَّ القاتلين من لم يعبد العجل.

[قصص] فالعابدون جلسوا مُحْتَبِينَ، وقال لهم موسى: «من حَلَّ حِبْوَتَهُ[1]، أو مدَّ طرفه إلى قاتله، أو اتَّقاه بيد أو رجل، فهو ملعون مردود التوبة»، فأُخرجت الخناجر والسيوف، وأقبلوا عليهم للقتل، فكان الرجلُ يرى أباه وابنه، وأخاه وقرينه، وصديقه وجاره، فيرقُّ له ولا يمكنه أن يقتله؛ فقالوا: «يا موسى كيف نفعل؟»، فأرسل الله عليهم سحابة سوداء تغشى الأرض كالدخان، لئلَّا يعرف القاتلُ المقتولَ، فشرعوا يقتلون من الغداة إلى العشيِّ، حتَّى قتلوا سبعين ألفا، واشتدَّ الكرب، فبكى موسى وهارون، وتضرَّعا إلى الله فانكشفت السحابة، وسقطت الشفار من أيديهم، ونزلت التوبة، فأوحى الله إلى موسى: «أما يرضيك أن أدخل القاتلَ والمقتولَ الجنَّة؟»، فكان من قتل منهم شهيدا، ومن بقي منهم مغفورا له خطيئته من غير قتل، وذلك حكمة من الله عَزَّوَجَلَّ[2]، وله أن يفعل ما يشاء، أبدل لهم عن الحياة الدنيا حياة سرمديَّة بهيجة، وقيل: **القتل إذلال النفوس بالطاعة، وترك المعصية.**

﴿**ذَلِكُمْ**﴾ أي: القتل، ﴿**خَيْرٌ**﴾ منفعة، أو اسم تفضيل خارج عنه، وإن لم يخرج فباعتبار لذَّة المعصية في النفوس، أو من باب: العسل أحلى من الخلِّ ﴿**لَّكُمْ عِندَ بَارِئِكُمْ**﴾ الخطاب للذين لم يعبدوا العجل والذين عبدوه.

أَذْعن العُبَّاد للقتل، وامتثل غير العابدين قتل العابدين، مع أنَّهم نسبهم، وقرابتهم، وأصدقاؤهم، وأصهارهم، وجيرانهم. وكرَّر لفظ «بارئ»، ولم يقل

---

(1) قال الجوهري: «احْتَبى الرجل: إذا جمع ظهره وساقيه بعمامته، وقد يَحْتَبي بيديه. والاسم: الحِبْوَةُ والحُبْوَةُ والحُبْيَةُ. يقال: حَلَّ حِبْوَتَهُ وحُبْوَتَهُ». الصحاح، مادة: «حبا».

(2) سبحانه الحكيم العليم، أورد هذه الأخبار ابن كثير نقلا عن الطبري والسُّدِّيّ وسعيد بن جبير وغيرهم، وقالَ ابن كثير: «هذا قطعة من حديث الفتون» وقد ذكره كاملا في تفسير سورة طه. ابن كثير: تفسير، ج 1، ص 98.

خير لكم عنده، ليُشعر بأنَّ من هو بارئ حقيق بأن يُمتثل له أمرُه ونهيُه. ﴿فَتَابَ﴾ الله، ومقتضى الظاهر: فتُبتُ، ﴿عَلَيْكُم﴾ قبل توبتكم، مَن قَتلَ ومَن لم يَقتُل لإذعانه للقتل، ﴿إِنَّهُ هُوَ﴾ مقتضى الظاهر: إنِّي أنا، ﴿التَّوَّابُ﴾ على كلٍّ من تاب من خلقه، ﴿الرَّحِيمُ﴾ المنعم على من تاب، أو أنَّه هو الذي عهدتم يا بني إسرائيل قبل ذلك توبته عليكم ورحمته لكم.

﴿وَإِذْ قُلْتُمْ يَٰمُوسَىٰ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَى ٱللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْكُمُ ٱلصَّٰعِقَةُ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ ﴿55﴾ ثُمَّ بَعَثْنَٰكُم مِّنۢ بَعْدِ مَوْتِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿56﴾ وَظَلَّلْنَا عَلَيْكُمُ ٱلْغَمَامَ وَأَنزَلْنَا عَلَيْكُمُ ٱلْمَنَّ وَٱلسَّلْوَىٰ ۖ كُلُوا۟ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقْنَٰكُمْ ۖ وَمَا ظَلَمُونَا وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿57﴾ وَإِذْ قُلْنَا ٱدْخُلُوا۟ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةَ فَكُلُوا۟ مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ رَغَدًا وَٱدْخُلُوا۟ ٱلْبَابَ سُجَّدًا وَقُولُوا۟ حِطَّةٌ نَّغْفِرْ لَكُمْ خَطَٰيَٰكُمْ ۚ وَسَنَزِيدُ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿58﴾ فَبَدَّلَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ قَوْلًا غَيْرَ ٱلَّذِى قِيلَ لَهُمْ فَأَنزَلْنَا عَلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ رِجْزًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ بِمَا كَانُوا۟ يَفْسُقُونَ ﴿59﴾ وَإِذِ ٱسْتَسْقَىٰ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ فَقُلْنَا ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْحَجَرَ ۖ فَٱنفَجَرَتْ مِنْهُ ٱثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا ۖ قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرَبَهُمْ ۖ كُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ مِن رِّزْقِ ٱللَّهِ وَلَا تَعْثَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿60﴾﴾

تتمَّة النعم العشر على بني إسرائيل

﴿**وَإِذْ قُلْتُمْ**﴾ نسب القول إليهم لأنَّه لآبائهم، وذلك القول ارتداد منهم. وقيل: المراد: لم يكمل إيماننا بك حتَّى نرى الله ﷻ، كقوله ﷺ: «**لا يُؤمن أحدُكم حتَّى يُحِبَّ لأخيهِ ما يحبُّ لنفسِه**»[1]، أي: لن يكمل إيمانه. ﴿**يَامُوسَى لَن نُّومِنَ لَكَ**﴾ بنبوَّتك مطلقًا، أو لن نذعن لك، أو لن نؤمن لأجل قولك أو

(1) رواه البخاري في كتاب الإيمان، باب: حبُّ الرسول من الإيمان، رقم: 14. ورواه مسلم، في كتاب الإيمان، باب الدليل على أنَّ من خصال الإيمان أنْ تحبَّ... رقم: 71 (45)، من حديث أنس بن مالك. ورواه أحمد وغيرهم.

بك فيما تقول مـن أنَّ التوراة من الله، أو مـن أنَّ لله ألزمنا قتل عابدي العجل كفَّارةً لهم، أو من أنَّ هذا الذي سمعنا كلام الله، والقائلون هم السبعون الذين اختارهم موسى من قومه الذين لم يعبدوا العجل لميقات وقِّت لهم من خيارهم، أمره لله أن يأتي بهم إلى طور سيناء ليعتذروا ويطلبوا العفو عن عُبَّاد العجل، فأتى بهم وأمرهم أن يتطهَّروا ويطهِّروا ثيابهم ويصوموا، وقالوا له: ادع الله أن يُسمعنا كلامه، فأسمعهم: «إنَّني أنا اللهَ لا إله إلَّا أنا، أخرجتكم من أرض مصر بيدٍ سديدةٍ، فاعبُدوني ولا تعبدوا غيري» سمعوا كلام الله بأن خلق صوتًا في أبدانهم أو في الهواء أو حيث شاء، أو في أبدانهم أو أسماعهم.

وقيل: القائلون هم السبعون الذين اختارهم موسى لميقات التوراة، قالوا بعد الرجوع وقتله عبدة العجل وتحريقه، وقيل: عشرة آلاف من قومه، وعلى كلِّ حال لم يقنعوا بذلك وسألوا الرؤية جهارًا كما قال: ﴿**حَتَّى نَرَى اللَّهَ جَهْرَةً**﴾ عيانًا، أي: رؤيةً جهرةً بحاسَّة العين لا منامًا وقلبًا، أو ذوي جهرة، أو مجاهرين أو مبالغة، أو قولاً ذا جهرة، أو قول جهرة، أو قولاً جاهرًا أو مبالغة.

﴿**فَأَخَذَتْكُمُ الصَّاعِقَةُ**﴾ النار مع صوت شديد من السماء لطلبكم ما لا يجوز، ويُلزِم التشبيه، ولتوقُّفكم عن الإيمان حتَّى شرطتم له. ﴿**وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ**﴾ يرى بعضكم بعضًا كيف يموت، أو ترون أثر الموت في أنفسكم، إذ يُحيَى كلُّ واحد منكم عضوًا عضوًا، أو يُرى بعضُكم يُحيَى من موت.

وقيل: الموت هنا غشيان كما قال الله ﷻ: ﴿وَيَاتِيهِ الْمَوْتُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَمَا هُوَ بِمَيِّتٍ﴾ [سورة إبراهيم: 17]، كذا قيل، ولعلَّه تمثيل، وإلَّا فغشيان أهل النار إراحة لهم لو كان، لكن لا يكون.

﴿**ثُمَّ بَعَثْنَاكُم مِّنۢ بَعْدِ مَوْتِكُمْ**﴾ بيومين من حيث موتكم، يرى بعضكم بعضًا كيف يحيى لِدعاءِ موسى عليه السلام وتضرُّعه إلى ربِّه أن يحييهم، ويقول:

يا ربِّ خرجوا معي أحياء ويقول قومُهم: قتلتُهم أنا، ﴿لَوْ شِئْتَ أَهْلَكْتَهُم مِّن قَبْلُ وَإِيَّايَ﴾ [سورة الأعراف: 155].

﴿لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ نعمة الإحياء بعد الموت، ولله أن يميت الإنسان مرَّتين أو ما شاء.

[أصول الدين] والآية دليل على كفر مجيز الرؤية دنيًا أو أخرًى، وذلك لأنَّ إجازتها ـ ولو في القلب ـ إجازة لتكييفه، وتكييفه ممتنع؛ لأنَّ فيه تشبيهًا، وإدراكه بالقلب تكييف لا يُتصوَّر بدونه؛ فلا يصحُّ قولهم: بلا كيف، وتكييفه في القلب بلا تقدير أنْ يكيِّفه لغيره هو من نفس المحذور، فبطل قول طوائف من المبتدعة: إنَّ الصاعقة ليست لمجرَّد الطلب بل لعنادهم واشتراطهم؛ وإذا كان المنع للتشبيه لم يضرَّنا أنَّها نزلت لطالبها في الدنيا.

﴿وَظَلَّلْنَا عَلَيْكُمُ الْغَمَامَ﴾ أي: جعلناه ظُلَّة عليكم من حرِّ الشمس، وهو السحاب الرقيق يسير بسيرهم في التيه.

أمرهم الله بقتال الجبَّارين فقالوا: ﴿فَاذْهَبَ اَنتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلَآ إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ﴾ [سورة المائدة: 24] فحبسهم الله في التيه، وكانوا يسيرون ليلاً ونهارًا، وينزل عليهم عمود من نور يسيرون في ضوئه، وثيابهم لا تتَّسخ ولا تبلى، وذلك من الله لا كما قيل: لا تبلى لعدم الحرارة ولا تتَّسخ لعدم الدخان.

والتيه: واد بين الشام ومصر، فيه طرق لا رمل فيها بين جبال من رمل يمشي فيها الركب المصريُّ والمغربيُّ والشاميُّ، عرضه تسعة فراسخ في ثلاثين فرسخًا، وقيل: ستَّة فراسخ في اثني عشر فرسخًا؛ وقيل: خرجوا من التيه فوقعوا في صحراء، واشتكوا الحرَّ فظلَّلهم الله ﷻ بالغمام؛ وقيل: من عبد الله منهم ثلاثين سنة ولم يعص فيها أظلَّه الغمام، فكان ذلك لجماعة منهم.

﴿**وَأَنزَلْنَا عَلَيْكُم**﴾ في التيــه ﴿**الْمَنَّ**﴾ الترنجبين بالمثنَّــاة الفوقيَّة والراء المهملة والجيــم والموحَّدة والمثنَّــاة التحتيَّة والنون: لفظ يونانيٌّ تســتعمله الأطبَّاء، ويقال: معرَّب «ترتكبين» وهو شــيء يشــبه الصمــغ حلو مع بعض حموضة كالزنجبيل، ينزل عليهم مثل الثلج من الفجر إلى طلوع الشمس لكلِّ إنسان صاع، وينزل على الأشــجار قليلا إلى الآن في بوادي «تركستان»، وهو مشــهور في بلدة «آمد» وحواليها، شــهر فيهم بحلوة القدرة[1]، وقد أُمروا في التيه أن لا يأخذوا أكثر من صاعٍ كلَّ يــوم، ولا يدَّخروا الزيادة إلَّا يوم الجمعة فيأخذون فيه صاعين ليدَّخروا ليوم السبت، فإنَّه لا ينزل يوم السبت.

﴿**وَالسَّلْوَى**﴾ طائر يشبه السُّــمَانَى، أو هو السُّــمَانَى، وألِفه ليست للتأنيث لورود سُــلواة قلبت هذه التاء للوحــدة لا للتأنيث، وقيل: هــو واحد والجمع ســلاوة، وقيل: هو للواحد فصاعدًا. تبعثه عليهم ريح الجنوب فيذبح الرجل ما يكفيه على حدِّ ما مرَّ في المنِّ، ويطير الباقي، وذلك بكرة وعشيًّا أو متى شاءوا، وادَّخروا من المنِّ والســلوى فأصاب النتن ما ادَّخروا. وفي البخاري ومسلم عن أبي هريرة عنه ﷺ: «**لَوْلَا بَنُو إِسرائِيل لَم يَخْنَزِ اللَّحمُ...**»[2] الحديث.

ويروى أنَّ السلوى تجيئهم مطبوخة أو مشــويَّة، قيل: ويناسبه الحديث المذكور؛ لأنَّ التغيير أنســب بالمطبوخ، وهو أعظم معجزة، **قلت**: كما يخنز المطبوخ يخنز غير المطبوخ، **ولا تثبــت المعجزة بلا دليل قويٍّ**. وقدَّم المنَّ مع أنَّه حلوى على السلوى مع أنَّها غذاء لأنَّ نزوله من السماء خارق للعادة بخلاف الطير.

---

(1) لعلَّ المراد أنَّها حلوى من الله تعالى، فهو المانُّ بها.

(2) رواه **البخاري** في كتاب الأنبياء 2، باب قوله تعالى: ﴿وإذ قال ربُّك للملائكة﴾، رقم: 3152. ومســلم في كتاب الرضاع 19، باب لولا حواء لــم تخن أنثى زوجها، رقــم: 65 (1468). وأحمد في مسنده، ج 3، ص 169، رقم: 8038 من حديث أبي هريرة.

قائلين لكم: ﴿كُلُواْ مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ﴾ المنُّ والسلوى طيِّبان: طيب لذَّة، وطيب حلال، وطيب مجيء بلا كسب، فكفروا النعمة وادَّخروا، فقطعا عن حالهما، فصارا يدوِّدان ويخنزان ولو بلا ادِّخار، وعاشوا بهما كذلك، ظلموا أنفسهم بذلك.

[فقه] وإذا وضع الطعام بين يديك فقيل: لا تأكل حتَّى يقول حامله إليك: كُلْ، لمناسبة الآية. وقيل: لك الأكل بلا انتظارٍ لقوله: كُلْ، وهو أولى إن اطمأنَّت النفس لذلك.

﴿وَمَا ظَلَمُونَا﴾ أشار به إلى أنَّهم ظلموا أنفسهم بالكفر والمخالفة، وصرَّح به في قوله: ﴿وَلَكِن كَانُواْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ تكرَّر الظلم منهم واعتادوه، وكانوا ستَّمائة ألفٍ في التيه، وفيه مات هارون وموسى، وماتوا كلُّهم فيه إلَّا من لم يبلغ العشرين.

[قصص] ذهب موسى وهارون إلى غار فمات هارون فدفنه موسى، فقالوا: قتلته لِحُبِّنا إيَّاه، فتضرَّع إلى الله فأوحى إليه أن اسرِ بهم، فناداه: يا هارون، فخرج ينفض رأسه، فقال: أنا قتلتك؟ قال: لا ولكن متُّ، قال: فعدْ كما كنتَ في قبرك. وعاش موسى سنة، ومرَّ في حاجة له بملائكة يحفرون قبرًا لم ير أحسن منه بهجة وخضرة ونضرة، فقال: يا ملائكة الله لمن تحفرون هذا القبر؟ فقالوا: لعبدٍ كريم على ربِّه، فقال: إنَّ هذا العبد من الله بمنزلة! فقالوا: يا صفيَّ الله، أتحبُّ أن يكون لك؟ قال: نعم، قالوا: فانزل فاضطجع فيه وتوجَّه إلى ربِّك، ففعل، وتنفَّس أسهل تنفُّس ومات، وسوَّوا عليه التراب. وقيل: أتاه ملك بتفاحة من الجنَّة فشمَّها فمات، وليس كما قيل: إنَّه مات في جبل أحد، لقوله ﷺ: «**لو أنِّي عنده لأريتكم قبره إلى جانب الطريق عند الكثيب الأحمر**» لعدم صحَّة هذا الحديث عنه ﷺ.

﴿وَإِذْ قُلْنَا﴾ لمن بقي من أهل التيه حيًّا بعد خروجهم **﴿ادْخُلُواْ هَذِهِ الْقَرْيَةَ﴾** «أَرِيحَا» بفتح الهمزة وكسر الراء وإسكان المثنَّاة التحتيَّة بعدها حاء مهملة، قرية في الغور قريبة من بيت المقدس، في مكان منخفض بين القدس وحوران مسيرة ثلاثة أيَّام في عرض فرسخين، وهي قرية الجبَّارين، فيها قوم من بقيَّة عاد، يقال لهم: العمالقة. ولم تصحَّ قصص «عِوَج» ولا أنَّه رأس هؤلاء الجبَّارين، والقائل بإذن الله هو يوشع بن نون نبَّأه في آخر عمر موسى، وربَّما قال له موسى: بِمَ أوحى الله إليك؟ فيقول: لم أكن أسألك عن ذلك.

[قصص] ويروى أنَّه لَمَّا احتُضر في التيه أخبرهم بأنَّ يوشع بعده نبيء، وأنَّ الله ﷻ أمر يوشع بقتل الجبَّارين فقاتلهم وفَتَح أريحا. قيل: يروى عن رسول الله ﷺ أنَّ الله تعالى أرسل ملك الموت إلى موسى فلطمه موسى وفقأ عينه، فقال: يا ربِّ أرسلتني إلى عبد كره الموت، ففقأ عيني، فردَّ الله عليه عينه، وقال: اِرجع إلى عبدي وقل له: إن شئت أحياك الله عدد ما تقع عليه يدك من شعر متن الثور سنين، فقال له موسى: ثمَّ ماذا؟ قال: ثمَّ تموت، قال: «الآن من قريب، ربِّ أدنِني من الأرض المقدَّسة رمية حجر» وقبره في التيه بجانب الطريق عند جبل رمل.

ولا يصحُّ عنه ﷺ أنَّ موسى عليه السلام فقأ عين ملك الموت، ولا ضرَّ به لأنَّه ظلم لملك الموت، وسخط لقضاء الله، وردٌّ له، اللهمَّ إلَّا إن جاءه في صورة لصٍّ أو قاطع، ولم يعلمه ملكَ الموتِ، وعينه جسم نورانيٌّ.

وقيل: القرية بيت المقدس على يد يوشع، وقيل: على يد موسى، وإنَّه خرج من التيه بعد أربعين سنة مع قومه، وعلى مقدِّمته يوشع، وفتحها وأقام ما شاء الله ثمَّ مات. وسمِّيت القرية قرية من قَرَى (بالألف) بمعنى جمع، وهي جامعة للناس.

﴿فَكُلُواْ مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ رَغَدًا﴾ لا منع عليكم منِّي ولا من أحد ولا من قلَّة أو جدب، فهذا مستثنًى من كون الأمم السابقة لا يأكلون الغنيمة، فإنَّ لداخلي القرية المذكورة أكل ما فيها من مال العمالقة وأخذه ونقله إلى حيث شاءوا.

﴿وَادْخُلُواْ الْبَابَ﴾ باب أريحا، أراد الحقيقة، فإنَّ لها سبعة أبواب أو ثمانية يدخلون من أيِّها شاءوا ﴿سُجَّدًا﴾ منحنين تواضعًا، وقيل: على الأرض.

وقيل: القرية قرية بيت المقدس، والباب بابها المَقُول له باب حطَّة، والقائل ادخلوا موسى عليه السلام، قال لهم في التيه: «إذا مضت أربعون سنة وخرجتم من التيه فادخلوا بيت المقدس»، وقيل: خرج موسى من التيه حيًّا بعد الأربعين بمن بقي منهم ففتح أريحا ومات.

﴿وَقُولُوا حِطَّةٌ﴾ مسألتنا حطَّة، أو شأنك حطَّة، أي: أن تحطَّ عنَّا ذنوبنا؛ وقيل: لفظ تعبُّدٍ عبرانيٌّ لا يُدرَى ما هو، وقيل: تواضعٌ لله، أي: أمرنا تواضُعٌ لله.

﴿يُغْفَرْ لَكُمْ خَطَايَاكُمْ﴾ ذنوبكم.

[صرف] والأصل: خطائي بياء بعد الألف زائدة هي ياء خطيئة أبدلت همزة فاجتمعت همزتان قلبت الثانية، وهي لام الكلمة ياء، ثمَّ قلبت الياء ألفًا فكانت الهمزة بين ألفين فقلبت ياء، وإنَّما أبدلوا الياء ألفًا لفتح الهمزة قبلها مع تحرُّكها في النصب لفظًا، وفي الجرِّ والرفع حكمًا، وقال الخليل: الهمزة على الياء التي بعد الألف، وفُعِل ما ذُكر.

﴿وَسَنَزِيدُ الْمُحْسِنِينَ﴾ ثوابًا لإحسانهم بالطاعة، عطفت الجملة على «قُولُوا حِطَّةٌ» ﴿فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُواْ﴾ بالقول الذي قيل لهم منهم ﴿قَوْلاً غَيْرَ الَّذِي قِيلَ لَهُمْ﴾ أي: جعلوا قولاً مكانه، كقولك: بدَّل بخوفه أمنًا، أو صيَّرُوا القول الذي أمروا به قولاً آخر، وبدَّلوا فعلا إذ لم يدخلوا سجَّدًا بل

يزحفون على أَسْتَاههم، وقالوا حبَّة في شـعرة، أو في شعيرة أو حنطة في شعيرة، أو حطا سمقاثًا، أي: حنطة حمراء، ولعلَّ بعضًا قال كذا وبعضًا قال كذا. وذلك استهزاء.

﴿فَأَنزَلْنَا عَلَى الَّذِينَ ظَلَمُواْ﴾ بتبديـل القول والفعل لسـبب التبديل، ومقتضى الظاهـر: «فأنزلنا عليهم» لكن أعاد ذكر ظلمهـم للمبالغة في تقبيح شأنهم، وللتصريح بموجب العقاب ﴿رِجْزًا﴾ طاعونًا، أو صاعقة، أو ظلمة، أو ثلجًا، وأوَّل الطاعون في بني إسـرائيل ﴿مِّنَ السَّـمَآءِ﴾ ولو كان الطاعون من الجنِّ؛ لأنَّ قضاءه من الله، وبأسباب سـماويَّة فقال لذلك: ﴿مِنَ السَّمَآءِ﴾ مع أنَّه أرضيٌّ ﴿بِمَا كَانُواْ﴾ بكونهم ﴿يَفْسُـقُونَ﴾ يظلمـون الظلم المذكور وهو خروج عن السجود وقول حطَّة، وسمَّاه في «الأعراف» ظلمًا[1]، أو أراد بالفسق مطلق معصيتهم. ومات بهـذا الرجز في هذه القرية التـي أمروا بدخولها في ساعة سبعون ألفًا أو أربعة وعشرون ألفًا.

﴿وَإِذِ اسْتَسْـقَى مُوسَـى لِقَوْمِهِ﴾ طلبَ لهم موسـى من الله السقيَ حين عطشـوا في التيه، طلبوا الطعام فأُعطوا المنَّ والسلوى والماء، فاستسقى لهم موسى فأعطوه، واشتكوا الحرَّ فأظلَّهم الله بالغمام. ذكر الله ﷻ كلَّ واحد على حدة في معرض أمر مستقلٍّ موجب للتذكُّر، اسـتأنف لذلك ذكرًا بعد فصل عن قصَّة التيه مبالغة في بيان أنَّ السـقي نعمة عظيمة ولو ذكرها عقب قصَّة التيه، ولو مع «إِذْ» هذه لكان بما يتوهَّم متوهـِّـم أنَّ الكلَّ نعمة واحدة. وقال أبو مسلم: ليس هذا في التيه.

[قصص] ﴿فَقُلْنَا اضْرِب بِّعَصَـاكَ الْحَجَرَ﴾ الذي فـرَّ بثوبك لتتبعه من مغسـلك عاريًا، ليرى بنو إسـرائيل أنَّك ما بك أُدْرَة، كانوا يغتسـلون عراةً،

---

(1) قال تعالى: ﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِجْزًا مِّنَ السَّمَآءِ بِمَا كَانُوا يَظْلِمُونَ﴾ (الآية: 162).

وموســى في خلوة فاتَّهموه بانتفاخ بيضته. وهو ذراع في ذراع له أربعة أوجه، وقيل: كرأس الرجل من رخام، وقيل: خفيف، ومن قال مســدَّس اعتبر ما يلي الأرض وما يلي الســماء؛ لأنَّه لا انفجار منهما. أوحــى الله إليه مع جبريل أن يحمله إذا احتاجوا ماء ضربه فســال، وإذا اكتفوا ضربه فأمسك، وهذا معجزة أخرى إذ كان فعل واحد وهو الضرب سببًا للماء وكفِّه، وكلَّما ضُرب خلق الله الماء، وكلَّما ضرب آل أو جمع الله الميــاه الكثيرة في الحجر الصغير، وخلق فيها خفَّة. ﴿فَانفَجَرَتْ﴾ فضربه بعصا فانفجرت.

[قصص] وقال وهب: ما هو حجر معيَّن، بل يضــرب بها أيَّ حجر أراد فيســيل ماءً، فيضرب أقرب حجر إليه ولو صغيرًا. وقيــل: حجر كان عند آدم وصل مع العصا إلى شــعيب فأعطاهما موســى. وقيل: حجر خفيف من قعر البحر يشبه رأس الآدميِّ يحمله في مخلاته. ويقال: حجر مربَّع يخرج من كلِّ وجه ثلاثة أعين لكلِّ ســبط عين[1]. وكانت العصا من آس الجنَّة طولها عشرة أذرع على طول موسى، لها شــعبتان تتَّقدان في الظلمة نورًا حيثما كان، وَأَمَّا هُم في التيــه فلهم عمود من نور ليــلاً، حملها معه آدم مــن الجنَّة، وتوارثها الأنبياء إلى شعيب فأعطاها موسى.

والانفجار: الســيلان بوســع بعد انشــقاق، وهو الانبجاس في الســورة الأخرى[2]، أو هو الرشح بقليل والانفجار بعده بوسع.

﴿مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا﴾ وقيل: خرج آدم بها وبالحجر من الجنَّة فتوارثهما الأنبياء كذلك إلى موســى، لكلِّ ســبط عين، وهم اثنا عشــر ســبطًا، وكان ليعقوب اثنا عشر ولدًا، لكلِّ ولد ذرِّيَّة هي سبط.

---

(1) أورد هذه الأوجه وغيرَها ابنُ كثير في تفسيره لهذه الآية، وذكر عن الزمخشريِّ والحسن أنَّ الله لم يأمره أنْ يضرب حجرًا بعينه، و«ال» فيه للجنس، وهذا أنسب وأقوى في المعجزة.

(2) في قوله تعالى: ﴿فَانبَجَسَتْ مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا﴾ سورة الأعراف: 160.

﴿قَدْ عَلِمَ﴾ عرف ﴿كُلُّ أُنَاسٍ﴾ أي: قوم هم سبط ﴿مَشْرَبَهُمْ﴾ موضع شربهم من الإثنتي عشرة.

[قصص] لا يشاركون غيرهم، ولا يشاركهم غيرهم، من كلِّ وجه من وجوه الحجر الأربعة ثلاثة أعين، كلُّ واحدة تسيل في جدول، وسعتها اثنا عشر فرسخًا أو ميلاً وهو أولى، وعددهم كما مرَّ ستُّمائة ألف.

[نحو] والجملة نعت «اثْنَتَا عَشْرَةَ»، والرابط محذوف، أي: مشربهم منها أو مستأنفة. أو حال بتقدير الرابط العائد إلى صاحب الحال، أي: منها كما في النعت، والمسوِّغ لمجيء الحال من النكرة تخصيصًا بالتمييز.

قلنا لهم: ﴿كُلُواْ وَاشْرَبُواْ مِن رِّزْقِ اللهِ﴾ المنِّ والسلوى وماء العيون، أضيف لله لأنَّه بلا عمل منهم، وقدَّم الأكل لأنَّه العدَّة، وبه قوام الجسد، والاحتياج إلى الماء حاصل عنه، ولأنَّه مركِّب للطعام. والرزق بمعنى المرزوق وهو الطعام يحمله الماء إلى العروق.

[أصول الدين] ولا دليل للمعتزلة في الآية على أنَّ الحرام غير رزق فإنَّه رزق يؤاخذ عليه متعمِّده، وكذا جاهله إذا كان مِمَّا يدرك بالعلم، وليس في الآية سوى أنَّه أمرهم بالأكل والشرب من ذلك، واتَّفق أنَّه حلال والله عالم بأنَّه حلال، وإن أريد بالرزق العموم فالحلال قيد من خارج لا من لفظ الرزق.

﴿وَلَا تَعْثَوْاْ﴾ تفسدوا ﴿فِي الْأَرْضِ﴾ أرض التيه وغيرها مِمَّا قدروا أن يصلوا إليه، وما يخرجون إليه إذا أخرجهم الله منه ﴿مُفْسِدِينَ﴾ تأكيد في المعنى لـ«تعثوا» باعتبار النهي، أي: نهيتهم نهيًا شديدًا عن الإفساد، وإنْ جعلنا العثيَّ بمعنى الاعتداء المطلق، أو بالشرك والإفساد بالمعاصي فلا تأكيد.

﴿وَإِذْ قُلْتُمْ يَٰمُوسَىٰ لَن نَّصْبِرَ عَلَىٰ طَعَامٍ وَٰحِدٍ فَادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُخْرِجْ لَنَا مِمَّا تُنۢبِتُ الْأَرْضُ مِنۢ بَقْلِهَا وَقِثَّآئِهَا وَفُومِهَا وَعَدَسِهَا وَبَصَلِهَا قَالَ أَتَسْتَبْدِلُونَ الَّذِى هُوَ أَدْنَىٰ بِالَّذِى هُوَ خَيْرٌ اهْبِطُوا۟ مِصْرًا فَإِنَّ لَكُم مَّا سَأَلْتُمْ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ وَالْمَسْكَنَةُ وَبَآءُو بِغَضَبٍ مِّنَ اللَّهِ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا۟ يَكْفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّۦنَ بِغَيْرِ الْحَقِّ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوا۟ وَّكَانُوا۟ يَعْتَدُونَ ﴿61﴾﴾

مطامع اليهود وبعض جرائمهم وعقوباتهم

﴿**وَإِذْ قُلْتُمْ**﴾ في التيه ﴿**يَامُوسَى لَن نَّصْبِرَ عَلَى طَعَامٍ وَاحِدٍ**﴾ المنِّ والسلوى، سمَّاهما واحدًا باعتبار أنَّهما طعام لكلِّ يوم لا ينقص أحدهما ولا يزاد عليهما ولا يبدَّلان، هما أو أحدهما، أو باعتبار أنَّهما جَمَعَهُمَا الاستلذاذُ الشديد ﴿**فَادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُخْرِجْ لَنَا مِمَّا تُنبِتُ الَارْضُ**﴾ ما نأكله فإنَّا سئمنا المنَّ والسلوى، أي: بعض ما تنبته الأرض، وبيَّنه بقوله: ﴿**مِن بَقْلِهَا...**﴾ إلى آخره، أي: هي بقلها أو بعض بقلها، وهو ما تنبته الأرض ولا ساق له، والمراد: ما يؤكل منه، يكون حارًّا وباردًا، ورطبًا ويابسًا ﴿**وَقِثَّآئِهَا**﴾ ما يؤكل بطِّيخًا إذا أينع، أو الخيار، كلاهما بارد رطب. ﴿**وَفُومِهَا**﴾ بُرِّها، بل كلُّ ما يُخبز فوم، أو ثومها، وهو حارٌّ يابس، وعليه فهو لغة، أو أبدلت الثاء المثلَّثة فاء كجدفٍ في جَدَثٍ، وفُمَّ في ثُمَّ، وهو مسموع لا مقيس. ﴿**وَعَدَسِهَا**﴾ بارد يابس. ﴿**وَبَصَلِهَا**﴾ وهو حارٌّ رطب، وإن طُبخ كان باردًا رطبًا.

﴿قَالَ﴾ موسى، أو اللهُ: ﴿أَتَسْتَبْدِلُونَ﴾ إنكار لأن يليق ذلك شرعًا أو عقلاً أو توبيخ ﴿الَّـذِي هُوَ أَدْنَى﴾ أقـرب وجودًا وتحصيلا لقلَّـة قيمته، أو «أدنأ» بالهمزة كما قرئ بها قلبت ألفًا من الدناءة وهو الخسَّة، أو أدون، أي: دون كذا في الرتبة، أخِّرت الواو وقلبت ألفًا. والأدنى على الأوجُه البقل والقثَّاء والفوم والعدس والبصل، وأُفرِدن هنا بالذكر باعتبـار أنَّهنَّ كواحد إذ هنَّ نوع خالف المنَّ والسـلوى، وبدل منهما ﴿بِالَّذِي هُوَ خَيْرٌ﴾ أفضل، وهو المنُّ والسلوى أفردهما لِما مرَّ، **والذي يظهر لي** أنَّه تعالى ما عاب عليهم هذا الاستدلال، إلَّا لأنَّه خلق فيهم عدَم سـآمتهم للمنِّ والسـلوى، وإلَّا فقد خلـق الله تعالى في الطباع سـآمة الإنسـان ما دام عليه من طعام مثلاً، ولا سـيما أنَّه لا يخلط به غيره، ولا سيما مع طول المدَّة، فما ذكر عنهم من السآمة غير ثابت عنهم، أو ادَّعوهـا مع عدمها، واسـتمرُّوا على طلـب البدل، فقال الله ﷻ على لسـان موسى عليه السلام بعد دعائه الله فيما سألوا:

﴿اِهْبِطُواْ مِصْـرًا﴾ إن قدرتم على الخروج من التيه، وليسـوا بقادرين، والأمر للتعجيز، كقولـه تعالى: ﴿كُونُوا حِجَـارَةً...﴾ [سورة الإسـراء: 50]، أو للإطلاق بعـد الحصر، على أن يكـون ذلك عند قرب موت موسـى عليه السلام وقرب الخروج من التيه، أو على أنَّ موسـى لم يمـت فيه بل خرج معهم، ويبعد أن يكون قائل: ﴿أَتَسْتَبْدِلُونَ﴾ الله على لسان يوشع حين نُبِّئ في التيه عند حضور الخروج.

[لغة] والمـراد مصرٌ مَّا من الأمصـار، أو القاهـرة[1] أو أعمالها، وعلى الأخيرين، نُوِّن مع أنَّه عَلَم على القاهرة أو أعمالها؛ لأنَّه ثلاثيٌّ ساكن الوسط كهِند، أو بتأويل البلد أو المحلِّ، ويدلُّ لهما قراءة عدم التنوين.

---

(1) لعلَّه يعني موضع ومكان القاهـرة، أو المراد عاصمة مصر آنذاك، وهي الإسـكندريَّة، وإلَّا فالقاهرة حديثة النشأة بالنسبة لعهد سيِّدنا موسى عليه السلام.

ومعنى هبوط مصر نزوله، والهبوط دناءة الرتبة فإنَّ طعام التيه أفضل من طعام مصر، أو حسِّـيٌّ بأن تكون أرض المصر الذي يخرجون إليه أسفل من أرض التيه.

﴿فَإِنَّ لَكُم﴾ في المصر ﴿مَّا سَأَلْتُمْ﴾ من البقل وما بعده، إلَّا أنَّه إذا فسَّرنا الفوم بالثوم كان الكلُّ بقلاً وجنسه، وكلامهم إنَّما هو على الطعام، فالمناسب أنَّه البُرُّ ومـا يخبز طعامًا لكنَّ أفضله البرُّ، وذكـر أوَّلاً ما يؤكل بلا علاج نار، وذكر بعده ما يعالج بها، مع تقديم الأشرف فالأشرف.

﴿وَضُرِبَـتْ عَلَيْهِمُ﴾ جُعلت علـى فروعهم، لفعلهم مثـل أفعال آبائهم ورضاهم عنهم، ولا سيما بعد ذهابهم إلى قتل عيسى عَلَيْهِ السَّلَامُ. جُعلا شبيهًا بنقش الدراهم في لزوم الأثر واستمراره، ففي «ضُرِبَ» استعارة تحقيقيَّة تبعيَّة.

﴿الذِّلَّةُ﴾ ضعف القلب، أو الخوف مِمَّا لا يُخاف منه، ولا سيما ما يخاف منه. أو هي الجزية، أخبر الله جَلَّ جَلَالُهُ أنَّها ستكون عليهم إذا بعث محمَّد ﷺ فهذه معجزة، وإن لم يقل: هذا ممَّا لم يوح به قبل القرآن فواضح أيضًا، أي: قضيت عليهم أنَّها ستكون.

﴿وَالْمَسْـكَنَةُ﴾ أثر الفقر الظاهر على البدن ولو كانـوا أغنياء، ولا يوجد يهوديٌّ غنيُّ النفس.

﴿وَبَآءُواْ بِغَضَبٍ مِّنَ اللهِ﴾ رجعوا، أو احتملوا، أو اسـتحقُّوا، أو أقرُّوا أو لازموا حال كونهم ملازمين لغضب الله، وهو قضاؤه الأزليُّ عليهم بالشـقوة وتوابعها، أو هو ذمُّه إيَّاهم في الدنيا وعقابه في الآخرة ﴿ذَٰلِكَ﴾ المذكور من الغضب وضرب الذلَّة والمسـكنة. وصيغةُ البُعد لبعد ما قبل البوء بغضب، أو لبعد ذلك عن منصـب من أكرمه الله بنعـم الدين والدنيا وأنـزل عليه كتابًا، لِفَظاعتها أو لبعدهم عنها.

﴿بِأَنَّهُمْ﴾ أي: سبب ذلك أنَّهم ﴿كَانُواْ يَكْفُرُونَ﴾ يؤوَّل المصدر من كان، أي: بكونهم يكفرون، وكثير يأتون به من خبرها، مثل أن يقال هنا: بكفرهم، وكأنَّهم يقولون: لا تدلُّ [«كان»] على الحدث، والتحقيق أنَّها تدلُّ عليه.

﴿بِـَٔايَاتِ اللهِ﴾ التي أنزلت في التوراة ممَّا يكرهونه، والتي في الإنجيل مطلقًا لكفرهم بعيسى عليه السلام، أو بما خالف منه التوراة، وبما أنزل من صفات رسول الله ﷺ وكتابه، وذلك قبل أهل عصره ﷺ، كراهة لأن تخرج النبوءة من ولد هارون عليه السلام، وقد أنكروا الرجم أيضًا قبله ﷺ.

﴿وَيَقْتُلُونَ النَّبِيئِينَ﴾ مجموع ذلك لمن بعد موسى، وَأَمَّا من في زمانه فلا إلَّا الذلَّة.

روي أنَّهم قتلوا بعده سبعين نبيئًا أوَّل النهار، ولم يشغلهم ذلك حتَّى إنَّه قام سوق البقل آخر النهار، وقتلوا زكرياء وأشعياء، وعملوا في قتل عيسى. وَأَمَّا قوله تعالى: ﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ ءَامَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ [سورة غافر: 51] فإنَّما هو بالحجَّة وبأخذ الثأر بعدُ، فذلك لا يتخلَّف، كما روي عن ابن عبَّاس رضي الله عنهما: «إنَّ الله عز وجل قدَر بأن يقتل بكلِّ نبيء سبعين ألفًا، كما كان بعد قتل يحيى، وبكلِّ خليفة خمسة وثلاثين ألفًا»؛ والمراد بـ«النبيئين» ما شمل الرسل لقوله تعالى: ﴿أَفَكُلَّمَا جَآءَكُمْ رَسُولٌ بِمَا لَا تَهْوَى أَنفُسُكُمُ اسْتَكْبَرْتُمْ...﴾ الآية [سورة البقرة: 87].

﴿بِغَيْرِ الْحَقِّ﴾ عندهم، فإنَّهم يقتلونهم تشهِّيًا وحبًّا للدنيا، ولا يعتقدون أنَّ قتلهم حقٌّ، فليس المراد أنَّه قد يكون قتل الأنبياء حقًّا إذ لا يفعلون موجب قتل، ولا يبيح الله ذمَّهم بلا موجب، **ووجه آخر أنَّ المراد بيان الواقع كالصفة الكاشفة تأكيدًا لذمِّهم وفضيحة**، أو يعتبر أنَّه لو شاء الله لأباحه كما أباح لملك الموت، وكما أمر إبراهيم بذبح إسماعيل. وقيل: قتلوا في بيت المقدس في يوم واحد ثلاثمائة نبيء!.

﴿ذَٰلِكَ﴾ المذكـور البعيد من الغضـب وضرب الذلَّة والمسـكنة، كرِّر للتأكيد، أو ذلك المذكـور من الكفر وقتـل الأنبياء. ﴿بِمَا عَصَـواْ وَّكَانُواْ﴾ بعصيانهم وكونهم ﴿يَعْتَدُونَ﴾ ينهمكون في المعاصي.

ولا تنس أنَّ المعصية توجـب العقاب بالإيقاع في معصيـة أعظم منها، وذلك بعصيان منهم في قتلهم لا باعتقاد حلٍّ.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَادُواْ وَٱلنَّصَٰرَىٰ وَٱلصَّٰبِـِٔينَ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ۝62﴾

عاقبة المؤمنين بنحوٍ عام

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ قبل بعثة سيِّدنا محمَّد ﷺ من لدن آدم أو بعدها بالأنبياء والوحي والكتب، كتُبَّع، وزيد بن عمرو بن نفيل، وقسّ بن ساعدة، وورقة بن نوفل، وقيل: المنافقون بإضمار الشرك، وقيل: مؤمنو هذه الأمَّة، فمعنى ﴿مَنْ ـ ءَامَنَ﴾ على هذا القول والأوَّل: من آمن من اليهود والنصارى والصابئين، وَأَمَّا على غيرهما فالمعنى: من تاب من نفاقه، ويهوديَّته، ونصرانيَّته، وصابئيَّته، وآمن بمحمَّد ﷺ.

﴿وَٱلَّذِينَ هَادُواْ﴾ دخلوا في اليهوديَّة.

[لغة] واليهوديَّة مِن هاد، بمعنى: تاب من عبادة العجل، أو سكن، ومنه الهوادة؛ أو معرَّب «يهوذا» ـ بذال معجمة بعدها ألف ـ عُرِّب بإهمال الذال وإسقاط الألف، سُمُّوا باسم ولد يعقوب «يهوذا» وهو أكبر ولده، ولا يلزم أن يكون هذا الاسم قبل موسى، مع أنَّهم في زمانه وما بعده فقط، ولا أن يكونوا كلُّهم عبدوا العجل؛ لأنَّ التسمية تحدث ولو بعد زمان مَن سمُّوا به، ولأنَّ وجه التسمية في بعض الأفراد كاف.

[لغة] ﴿وَٱلنَّصَٰرَىٰ﴾ جمع نَصرانٍ، كالندامى، والياء في «نصراني» للمبالغة، كقوله: «والدهر بالإنسان دوَّاريٌّ»، أي: دوَّار، ورجل أحمريٌّ، أي:

أحمر، وقيل: للوحدة، كزنجيّ من زنج، وروميّ من روم؛ وقيل: جمع نصري كمهريّ ومهارى حذفت إحدى ياءيه، وفتحت الراء، وقلبت الياء الباقية ألفًا.

سمُّوا لأنَّهم نصروا المسيح، أو لأنَّهم كانوا معه في قرية يقال لها نصران عند الجوهريِّ، أو نصرانة أو نصرانيا، أو نصرى أو ناصرة، كان عيسى ينزلها سمُّوا باسمها، أو باسم مؤسِّسها كما سمِّيت قسطنطينة المغرب والعظمى باسم من بناها.

﴿**وَالصَّابِينَ**﴾ طائفة من اليهود أو من النصارى، عبدوا الملائكة أو الكواكب، أو بين اليهود والمجوس؛ أو تعبد الكواكب في الباطن، وتنتسب إلى النصارى في الظاهر؛ أو لفَّقوا دينا من التوراة والإنجيل، وَلَمَّا جاء القرآن أخذوا منه بعضًا كالصلاة إلى الكعبة والوضوء؛ أقوال.

ويدَّعون أنَّهم على دين صابئ بن شيت بن آدم؛ وقيل: منهم من يعبدون الكواكب الثوابت وهم صابئة هند، ومنهم من يعبدون السيَّارة وهم صابئة الروم، ومنهم من يفزع إلى الجمادات، ومنهم من يصلِّي إلى الجنوب، ومنهم من يعبد الملائكة. مِن صبا يصبو بلا همز، أو صبأ يصبأ بالهمزة قلبت ياء وحذفت، كما حذفت في الأوَّل الياء التي هي عن واو.

﴿**مَنَ ـ امَنَ**﴾ من اليهود والنصارى والصابئين، وترَك الإشراك بالله. ﴿**بِاللهِ**﴾ ورسله وأنبيائه وكتبه، ولم ينكر نبيئًا أو كتابًا. ﴿**وَالْيَوْمِ الَاخِرِ**﴾ يوم البعث والجزاء، ولم يذكر المجوس لأنَّه ليس منهم من لو تبع كتابًا لنجا، إذ كتابهم أضاعوه سرعة. ﴿**وَعَمِلَ صَالِحًا**﴾ ولم يفرِّق بين أحد من رسله قبل بعثة نبيئنا ﷺ، أو بعدها فآمن به واتَّبع القرآن.

[أصول الدين] ومن لم يؤمن به وبالقرآن لم ينتفع بعمله فهو مشرك في النار، وهو غير متَّبع للتوراة والإنجيل بل كافر بهما أيضًا؛ لأنَّ فيهما الأمر

باتِّباعــه ﷺ؛ وكذا مــن كفر مــن اليهود والنصــارى قبل ســيِّدنا محمَّد ﷺ لا يدخلون في الآية، كمن قال: عيسى إله، ومريم إله، أو عيسى ابن الله.

﴿فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ﴾ أجرة عملهم للطاعات وتركهم للمعاصي والمكروهات. ﴿عِندَ رَبِّهِمْ﴾ حفظه الله لهم لا يَضيع، كما يحفظ الشــيء بحضرة الملك في خزانته. ﴿وَلَا خَـوْفٌ عَلَيْهِمْ﴾ من العقاب لانتفائــه ﴿وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ على تضييع العمر، وفوت الأجر والفضل، لعدم تضييعهم وعدم الفوت.

والمراد: نفي الخوف والحزن فــي الآخرة قبل الجنَّــة، وَأَمَّا في الدنيا فَيَقَعانِ للجهل بالخاتمة، ويكونان أيضًا في الآخرة لعظم الهول حتَّى ينسوا؛ أو المراد الخوف والحزن الدائمان، فإنَّ الشــقيَّ فــي الآخرة لا يزول خوفه وحزنه حتَّى يدخــل النار، بل يخاف فيها أيضًا؛ لأنَّــه يخاف في كلِّ عقاب عقابًا بعده، ويحزن لذلك.

[سبب النزول] ويدخل في الآية أهل الفترة الذيــن آمنوا وأدركوا البعثة كأبي ذرٍّ وسلمان ﵄، أو لم يدركها كقسِّ بن ســاعدة، قيل: وورقة بن نوفل وبحيرى الراهب. روي أنَّ سلمان قال لرســول الله ﷺ: ما تقول في أهل دين كنتُ معهم؟ ـ وذكر صلاتهم وعبادتهم ـ فقال: «**هم في النار**»، فأظلمت عليَّ الأرض، فنزلت: ﴿إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُواْ...﴾ الآية، فكأنَّما كشف عنِّي جبل.

﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ ٱلطُّورَ خُذُوا۟ مَآ ءَاتَيْنَٰكُم بِقُوَّةٍ وَٱذْكُرُوا۟ مَا فِيهِ
لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿63﴾ ثُمَّ تَوَلَّيْتُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ فَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ لَكُنتُم
مِّنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿64﴾ وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ ٱلَّذِينَ ٱعْتَدَوْا۟ مِنكُمْ فِى ٱلسَّبْتِ فَقُلْنَا لَهُمْ كُونُوا۟ قِرَدَةً
خَٰسِـِٔينَ ﴿65﴾ فَجَعَلْنَٰهَا نَكَٰلًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهَا وَمَا خَلْفَهَا وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ ﴿66﴾﴾

بعض جرائم اليهود وعقابهم

﴿وَإِذَ أَخَذْنَـا مِيثَاقَكُمْ﴾ وُثوقكم، كالميعاد بمعنى الوعد، وأفرد الميثاق لأنَّ ما أخذ على كلٍّ واحد أخذ على غيره، فكان ميثاقًا واحدًا، والمراد عهدهم بالإيمان بالتوراة كلِّها، والعمل بما فيها. أعطيتم الميثاق على ذلك ثمَّ أبيتم. وقيل: أخذ الميثاق قبل نزولها على أن يعملوا بما ينزل عليهم من الكتاب، وَلَمَّا نزلت التوراة نقضوا لِمَا فيها من المشاق.

﴿وَرَفَعْنَا فَوْقَكُم﴾ حين نقضتم ﴿الطُّورَ﴾ الجبل، وكلُّ جبلٍ طورٌ، وقيل: إن كان فيه نبات. وهو عربيٌّ، أو سريانيٌّ معرَّب.

وقيل: المراد جبل المناجاة، حمل إليهم، اقتلعه جبريل من أصله وحمله في الهواء، بينهم وبينه قدر قامة أحدهم، وهو فرسخ في فرسخ على قدر عسكرهم، قيل: والنار قدَّامهم والبحر المالح خلفهم، فقيل لهم: إن لم تقبلوا رضختكم به، فسجدوا للقبول على أنصاف وجوههم، ناظرين بالعين اليمنى إليه خوفًا، فكان أفضل سجود اليهود بعد ذلك ما كان على الشقِّ الأيسر والنظر باليمنى إلى جهة السماء، قائلين: ﴿خُذُواْ﴾ اِقْبَلُوا ﴿مَآ ءَاتَيْنَاكُم﴾ وهو

التوراة، ﴿بِقُوَّةٍ﴾ باجتهاد. وقيل: لا يقدَّر القول هنا؛ لأنَّ الميثاق قول. ولا دليل في الآية لمن قال: الاستطاعة قبل الفعل، إذ لا يقال: خذ هذا بقوَّة إلَّا والقوَّة فيه؛ لأنَّ الاستطاعة بهذا المعنى لا تنكر صحَّة تقدُّمها على الفعل.

﴿وَاذْكُرُوا مَا فِيهِ﴾ تعاهدوه بالمطالعة والدرس، والتفهُّم لمعانيه والعمل به ﴿لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ عقاب الله أو المعاصي. وتقدَّمت أوجه «لعلَّ» في كلام الله، وقِسْ عليها في جميع القرآن.

[فقه] وليس رفع الجبل فوقهم إجبارًا على الدين، فلا يقال: كيف تقبل الطاعة؟ لأنَّ الإجبار ما فيه سلب الاختيار، بل الآية كمحاربة العدوِّ، إن أسلم رفع عنه السيف، وإن أخذوا زال الجبل. وَأَمَّا الإكراه في الدين ففي مخلوق لآخر، أن يحبسه حتَّى يؤمن، أو يمنع عنه الطعام حتَّى يؤمن، أو نحو ذلك لا يجوز. ولو فسِّر ﴿لَآ إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ﴾ [سورة البقرة: 256] بالنهي عن القتال حتَّى يؤمر به، وَأَمَّا الله فله فعل ما شاء.

[فقه] قيل: ولا يقال: الإيمان بالإجبار يجزي في الأمم السابقة أو بعضها فتكون منه هذه القصَّة؛ لأنَّ هذا مِمَّا لا تختلف الشرائع فيه، وقد قال الله تعالى: ﴿فَلَوْلَا كَانَتْ قَرْيَةٌ ـ امَنَتْ فَنَفَعَهَآ إِيمَانُهَآ...﴾ الآية [سورة يونس: 98 ـ 109]، ﴿فَلَمْ يَكُ يَنفَعُهُمْ إِيمَانُهُمْ لَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا سُنَّةَ اللهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ فِي عِبَادِهِ﴾ الآية [سورة غافر: 85]؛ **قلت:** الآيتان غير ما في هذه الآية؛ لأنَّ هذه الآية جاءت في القهر على الفعل، والآيتان فيمن أَغلَقَ عنه اللهُ بابَ الفعل بتوجيه الموت إليه. ووجهٌ آخر: لا يقبلُ ما عن إجبار إذا استمرَّت الكراهة، أمَّا إذا كان بعده الفعل بالاختيار فيقبل كلّ ما باختيار.

فأخذوه بقوَّة ثمَّ تركوه كما قال: ﴿ثُمَّ تَوَلَّيْتُم﴾ أعرضتم بعدم القبول، وأصله: الإعراض بالجسد. ﴿مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ﴾ العهدِ الذي أعطيتم وعملتم به

مدَّة، أو من بعد ذلك العمل المعلوم من المقام، أو من بعد الأخذ بقوَّة، إذ لو لم يمتثلوا بل استمرُّوا على العصيان، لم يقل: ثمَّ تولَّيتم؛ وقيل: بعد رفع الطور فوقكم وإيتاء التوراة، فطوى عن ذكر امتثالهم.

﴿فَلَوْلَا فَضْلُ اللهِ﴾ بتوفيقكم للتوبة ﴿عَلَيْكُمْ﴾ الخطاب باعتبار الآباء. ﴿وَرَحْمَتُهُ﴾ لكم بالتوبة أو بقبولها. قيل: أو الخطاب للأبناء، فالفضل والرحمة بإرسال الرسول ﷺ.

[لغة] «لو» لنفي تاليها، وإذا زيدت «لا» النافية ثبت ما نفي، هذا قول الكوفيِّين بتركيب «لولا» من «لَوْ» و«لَا»، والبصريُّون على أنَّها بسيطة.

﴿لَكُنتُم مِّنَ الْخَاسِرِينَ﴾ كمن ذهب رأس ماله أو بعضه. هذا عندي يعيِّن الخطاب للآباء؛ لأنَّ يهود عصر رسول الله ﷺ خاسرون، إلَّا ما شذَّ، بخلاف من تقدَّم ففيهم الخاسر والرابح.

[أصول الدين] ﴿وَلَقَدْ عَلِمْتُم﴾ عرفتم، والمعرفة: إدراك نفس الشيء حسًّا كان أو عَرَضًا، والعلم: إدراكه على صفة كذا. ولا يقال: الله عارف أو عرف أو يَعرِف (بالبناء للفاعل)، فقيل: لأنَّ المعرفة تقتضي تقدُّم الجهل؛ وقيل: لعدم التوقيف، وقد يستعمل. وقيل بالجواز ولم يتقدَّم جهل تعالى الله.

﴿الَّذِينَ اعْتَدَوْا﴾ جاوزوا الحدَّ. وقدَّر بعضهم مضافًا، أي: ولقد علمتم اعتداء الذين اعتدوا ﴿مِنكُمْ﴾ بصيد السمك ﴿فِي السَّبْتِ﴾ وقدَّر بعضهم مضافًا، أي: في حكم السبت، وهو يوم أو مصدر. والخطاب في ﴿مِنكُمْ﴾ و﴿عَلِمْتُمْ﴾ لمن في زمانه ﷺ من بني إسرائيل، وهم عارفون بقوم مُسِخوا في زمان داود، ولا يشترط العلم بالكُنْهِ في لفظ المعرفة.

وقوم داود سبعون ألفًا في أرض «أَبْلَةَ» ـ بفتح الهمزة وإسكان الباء ـ قرية على الساحل بين المدينة والطور: صنفٌ أمْسَك ونهى، وصنفٌ أمسك ولم

ينه، وصنف اصطاد، وهم اثنا عشر ألفًا، شرعوا حياضًا ينزل الحوت فيها ولا يقدر على الخروج، ويصطادون ما فيها يوم الأحد، فعلوا ذلك زمانًا، فقالوا: قد حلَّ السبت فكانوا يصطادون فيه جهرًا، ويبيعون في الأسواق، وقد نهى الله عن الاصطياد في اليوم الذي بعد يوم الجمعة، أمروا بالتجرُّد للعبادة في يوم، فاختار موسى يوم الجمعة. وقيل: أمروا بذلك وخالفوه للسبت؛ لأنَّه يوم تمَّ فيه الخلق، فألزمهم الله إيَّاه.

[لغة] والسبت في الأصل عن السبوت، وهو الراحة، أو من السبت وهو القطع، قَطَع الله فيه الخلق وتمَّ، وأيضًا أمر الله اليهود بقطع الأشغال فيه والتفرُّغ للعبادة. ولا يبعد تسميته بالسبت في زمان موسى عليه السلام لذلك، ولو كان تبديل أسماء الأسبوع بما هي عليه الآن واقع من العرب بعد عيسى عليه السلام.

﴿فَقُلْنَا لَهُمْ كُونُواْ قِرَدَةً خَاسِئِينَ﴾ أذلَّاء خاضعين، ونجَا الناهون والساكتون على الأصحِّ؛ لأنَّ الساكتين أنكروا بقلوبهم فقط لوجود من ادَّى فرض النهي، وَأَمَّا الممسوخون خنازير فأصحاب المائدة؛ وقيل: مسخت شبَّانهم قردة، وشيوخهم خنازير، إلَّا أنَّه لم يذكر هنا الخنازير، فهم يتعاوون كالقردة بأذناب كأذنابها، ويعرفون قرابتهم، ويحتكُّون إليهم، عاشوا ثلاثة أيَّام، وقيل: سبعة، وقيل: ثمانية؛ وماتوا ولم يأكلوا ولم يشربوا في الأيَّام الثلاثة، وقد كان قبلهم القردة والخنازير. والممسوخ لا نسل له، كما روي عنه ﷺ[1].

---

(1) لعلَّه إشارة إلى الحديث الذي رواه مسلم عن ابن مسعود أنَّ رسول الله ﷺ قال لمن سأله عن القردة والخنازير: أهي ممَّا مسخ؟ فقال: «إنَّ الله تعالى لم يهلك قومًا ـ أو يعذِّب قوما ـ فيجعل لهم نسلا، وإنَّ القردة والخنازير كانوا قبل ذلك». انتهى. وانظر: الآلوسي: روح المعاني، ج 1، 283.

والأمر للتسخير، إذ لا طاقة لهم أن يتحوَّلوا قردة، ولا يؤمر بما لا يطاق، ولكنَّه مجاز عن تكوينهم قردة، أو تمثيل بأمر من يطاع فورًا، فهو أمر إيجاد لا أمر إيجاب، كقوله تعالى: ﴿كُن فَيَكُونُ﴾. وجمع السلامة لكونهم عقلاء قبل المسخ بل وبعده، فإنَّهم يعرفون قرابتهم ويحتكُّون إليهم، فيقولون: ألم ننهكم؟ فيجيبون برؤوسهم: بلى، وتدمع عيونهم بكاءً، وإنَّما بدِّلت الصورة لا العقل، فلا حاجة إلى ما قيل: الجمع بذلك تشبيه بالعقلاء.

وهم بعد المسخ مكلَّفون عند مجاهد، وقيل: لا.

﴿فَجَعَلْنَاهَا﴾ أي: المسخة المعلومة، أو العقوبة، أو القرية، أو كينونتهم قردة ﴿نَكَالاً﴾ ردعًا ومنعًا عن أن يصطاد مثلهم يوم السبت الحوت، وعن أن يخالف أمر الله مطلقًا، ولو بغير الصيد؛ أو ﴿نَكَالاً﴾: اسم للِجام الحديد، شبَّه العقوبة به في المنع. ﴿لِمَا بَيْنَ يَدَيْهَا﴾ في زمانها من الناس. وذكرهم بـ«ما» إشارة للأنواع من الناس؛ أو «ما» عبارة عن القرى الحاضرة لها، والمراد أهلها. وكذا في قوله: ﴿وَمَا خَلْفَهَا﴾ من الناس إلى يوم القيامة، والآية مقوِّية لتفسير «خلفهم» في الآيات غير هذه بِمَا بَعْدُ؛ لأنَّ هذه لا يصلح فيها مَن مَضَى؛ إذ لا تكون المسخة نكالاً لمن مات قبلها.

﴿وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ﴾ منهم أو من غيرهم، وقيل: من هذه الأمَّة عن أن يقصِّروا أو لغيرهم، وخصَّهم لأنَّهم المنتفعون. أو لأنَّ المراد بالموعظة حصول أثرها، كقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا تُنذِرُ مَنِ اتَّبَعَ الذِّكْرَ﴾ [سورة يس: 11]، أي: يحصل أثر إنذارك.

قلت: قوله: ﴿فَجَعَلْنَاهَا نَكَالاً...﴾ إلخ ردٌّ لقول مجاهد: إنَّهم لم يمسخوا صورة ولكن قلوبًا، ومثِّلوا بقردة، إذ تحويل قلوبهم لا يظهر لكلِّ أحد حتَّى يكون رادعًا وموعظة، ولو ظهر لم يتبيَّن قبحه لجمهور الناس، بخلاف مسخ صورهم فإنَّه يظهر قبحها للموحِّد والمشرك، والمطيع والعاصي.

﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦٓ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تَذْبَحُوا۟ بَقَرَةًۭ ۖ قَالُوٓا۟ أَتَتَّخِذُنَا هُزُوًۭا ۖ قَالَ
أَعُوذُ بِٱللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ ۝67 قَالُوا۟ ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا هِىَ ۚ قَالَ إِنَّهُۥ يَقُولُ
إِنَّهَا بَقَرَةٌۭ لَّا فَارِضٌۭ وَلَا بِكْرٌ عَوَانٌۢ بَيْنَ ذَٰلِكَ ۖ فَٱفْعَلُوا۟ مَا تُؤْمَرُونَ ۝68 قَالُوا۟ ٱدْعُ
لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا لَوْنُهَا ۚ قَالَ إِنَّهُۥ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌۭ صَفْرَآءُ فَاقِعٌۭ لَّوْنُهَا تَسُرُّ
ٱلنَّٰظِرِينَ ۝69 قَالُوا۟ ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا هِىَ إِنَّ ٱلْبَقَرَ تَشَٰبَهَ عَلَيْنَا وَإِنَّآ إِن شَآءَ
ٱللَّهُ لَمُهْتَدُونَ ۝70 قَالَ إِنَّهُۥ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌۭ لَّا ذَلُولٌۭ تُثِيرُ ٱلْأَرْضَ وَلَا تَسْقِى ٱلْحَرْثَ مُسَلَّمَةٌۭ
لَّا شِيَةَ فِيهَا ۚ قَالُوا۟ ٱلْـَٰٔنَ جِئْتَ بِٱلْحَقِّ ۚ فَذَبَحُوهَا وَمَا كَادُوا۟ يَفْعَلُونَ ۝71 وَإِذْ قَتَلْتُمْ
نَفْسًۭا فَٱدَّٰرَٰٔتُمْ فِيهَا ۖ وَٱللَّهُ مُخْرِجٌۭ مَّا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ ۝72 فَقُلْنَا ٱضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَا ۚ كَذَٰلِكَ يُحْىِ
ٱللَّهُ ٱلْمَوْتَىٰ وَيُرِيكُمْ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ۝73﴾

قصّة ذبح البقرة

﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ﴾ وقد قُتل لهم قتيل لا يدرَى قاتله، اسمه عاميل، وسألوا موسى أن يدعو الله أن يبيِّنه لهم، والقتيل ذو مال قتله بنو عمِّه؛ وقيل: أبناء عمِّه اثنان؛ وقيل: إخوة؛ وقيل: ابن أخيه، وهم فقراء ليرثوه، وحملوه إلى باب قرية وألقوه فيه، فطلبوا ثأرهـم، وادَّعوا القتل على رجال جاءوا بهم إلى موسى عليه السلام. وروي أنَّه قتله قريب له ليتزوَّج زوجه؛ وقيل: ليتزوَّج بنته وقد أبى. **ذكر الله تعالى قصَّتهم ذمًّا لهم بالتعاصي، أو برفع التشاجر بينهم، وبيانًا لمعجزة من معجزات موسى عليه السلام.**

﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تَذْبَحُواْ بَقَرَةً﴾ أوَّل القصَّة هو قوله تعالى: ﴿وإِذْ قَتَلْتُمْ نَفْسًا﴾ ولكن أخَّره ليتَّصل توبيخهم على عيوبهم بالعيوب المتقدِّمة، إذ وبَّخهم على قولهم لنبيء الله ﷺ: ﴿أَتَتَّخِذُنَا هُزُؤًا﴾ وليس من شأنه أن يعبث معهم بذبح البقرة، وينسب الأمر لله بذبحها، مع أنَّه لم يأمرهم، وما قال عن الله إلَّا الحقَّ، وبَّخهم على تعنُّتهم في البقرة: ما هي؟ ما لونها؟ وما هي بعد لونها؟ مع أنَّه لو ذبحوا بقرةً مَّا لَكفى، إذ لم يؤمروا بمعيَّنة، ولو كان الأمر الغائب المقضيُّ عند الله يؤول إلى معيَّنة لا محيد عنها، وكذا لو عمدوا إلى بقرة عوانٍ ما بعد سؤالهم الثاني لكفى ذبحها، ولو عمدوا إلى عوانٍ صفراء لاشية فيها بعد سؤالهم الثالث لكفى.

﴿قَالُواْ أَتَتَّخِذُنَا هُزُؤًا﴾ أتتَّخذ أمرنا هزؤًا؟! أو تتَّخذنا ذوي هزؤ؟! أو موضع هزؤ، أو مهزوءًا بنا، أو لنفس الهزؤ مبالغة لبعد ما بين ذبح البقرة وأمر القتيل، ولو عقلوا لامتثلوا فتظهر لهم الحكمة أن يضرب ببعضها فيُحيَى، مع أنَّهم لم يجرِّبوا منه العبث قطُّ، ونسبتهم الهزؤ إليه شرك؛ لأنَّهم لم ينسبوه إليه على وجه مزاح جائز، بل على وجه الكذب عن الله؛ لأنَّه نسب الأمر بالذبح إلى الله. وإن جعلوا محطَّ الاستهزاء أنَّ الله لا يقدر على إحياء الميِّت فأشدُّ كفرًا، **ويحتمل أنَّ ذلك من غلظ الطبع والجفاء لا إشراك**، أو الاستفهام استرشاد لا إنكار.

﴿قَالَ أَعُوذُ بِاللَّهِ أَنَ اَكُونَ﴾ من أن أكون ﴿مِنَ الْجَاهِلِينَ﴾ أي: في سلك من اتَّصفوا بالجهل لبرهان على جهلهم، فذلك أبلغ من أن يقول: «أن أكون جاهلاً»، واختار الأبلغ لأنَّه أليق بما وصفوه به، فإنَّ من يكذب على الله، ويقول: أمرَ بكذا، ولم يأمر به من أهل الجهل البيِّن كظلمة الليل.

والجهل: عدم العلم، أو اعتقاد الشيء على خلاف ما هو به، **أو فعل الشيء بخلاف ما حقُّه أن يُفعل**، وهذا الأخير هو المراد هنا. وَلَمَّا علموا أنَّ

ذلك أمر من الله ﷻ، لقوله: ﴿أَعُوذُ بِاللهِ...﴾ إلخ، قالوا ما ذكر الله عنهم بقوله: ﴿قَالُواْ ادْعُ لَنَا﴾ اللام للنفع أو للتعليل. ﴿رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا هِيَ﴾ أي: ما وصفها معها، فإنَّ «ما» سؤال عن الوصف هنا، فكأنَّه قيل: ما سنُّها فأجيب عليه وعن الجنس أو الحقيقة، وليس مرادًا هنا، إذ لا يسألون عن جنس البقرة أو حقيقتها لعلمهم بها، ومن السؤال عن الوصف نحو: ما عمرو؟ تريد: أخياط أم حدَّاد؟ أو أَمُسِنٌّ أم شابٌّ؟ وما زيد؟ أفاضل أم كريم؟ والكثير في «ما» الجنس أو الحقيقة نحو: ما العنقاء؟ وما الحركة؟

﴿قَالَ﴾ أي: موسى ﴿إِنَّهُ﴾ أي: الله ﴿يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَّا﴾ هي ﴿فَارِضٌ وَلَا﴾ هي ﴿بِكْرٌ﴾ أو «لا» صلة بين النعت والمنعوت، أو منزلة مع ما بعدها منزلة اسم، فظهر الإعراب فيما بعدها كقوله تعالى: ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ اِلَّا اللهُ لَفَسَدَتَا﴾ [سورة الأنبياء: 22]. أي: غير فارض وغير بكر، وغير الله[1].

[لغة] ولم يقرنهما بالتاء لأنَّهما لا يطلقان على المذكَّر، فهما كحائض لا يطلق إلَّا على المؤنَّث. ويقال في غير البقرة ـ جمل أو غيره ـ: بَكْر، والمؤنَّث بَكْرة بالتاء. والفرض: القطع، أي: لم تقطع أسنانها لكبرها بالانكسار، أو باستفراغ سنيها المعتبرة في الأسنان، كالثنيِّ والجَذَع والرباع؛ أو انقطاع ولادتها. والبكر الشابَّة الصغيرة بحيث لا تلد؛ وقيل: التي ولدت ولدًا واحدًا ﴿عَوَانٌۢ﴾ أي: نَصَفٌ.

﴿بَيْنَ ذَٰلِكَ﴾ بين ما ذكر من الفارض والبكر؛ وقيل: ولدت مرَّة أو مرَّتين ﴿فَافْعَلُواْ مَا تُومَرُونَ﴾ به من ذبحها على هذا الوصف بلا توقُّف وطلب استفسار، فتكلَّفوا سؤالاً هم في غنًى عنه، وهذا من كلام الله، أو من كلام موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ.

---

(1) يريد الشيخ رَحِمَهُ اللَّهُ لفظ الجلالة المأخوذ من الآية الكريمة: ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ اِلَّا اللهُ لَفَسَدَتَا﴾.

﴿قَالُواْ ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا لَوْنُهَا﴾ كأنَّهم استعظموا ذبح بقرة في ميِّت لا يعرف قاتله، فهُوِّل الأمر عليهم، ولم تكتفِ قلوبهم ببقرةٍ ما فأكثروا السؤال. ﴿قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا﴾ أي: البقرة العوان ﴿بَقَرَةٌ صَفْرَآءُ فَاقِعٌ لَّوْنُهَا﴾ أي: لونها خالص الصفرة.

[لغة] أصفر فاقع كما يقال: أبيض يقَق، وأبيض ناصع، وأسود حالك، وأحمر قانٍ، أي: شديد اللون. ولا يخفى أنَّ الأصل في الصفرة بقاؤها على ظاهرها من لون بين بياض وحمرة، ولا حاجة إلى تفسيرها بالسواد، ولوْ وَرَدَ مثله لعدم القرينة هنا عليه، فلا مجاز، ولو كان مشتركًا لحملته على الأظهر، وناقلو اللغة عن العرب مشافهة كالجوهريِّ وأبي عبيد وأبي عبيدة والأصمعيِّ لم يثبتوا الفقوع إلَّا في الصفرة، لا يقال: أسود فاقع ولو أثبته في القاموس، وهو مقبول إلَّا أنَّ الجمهور على خلافه.

﴿تَسُرُّ النَّاظِرِينَ﴾ تلذُّ قلوب الناظرين إليها بحسنها، ومادَّة السرور لذلك، فمنه السرير لأولي النعمة، وسرير الميِّت تفاؤلاً. وعن عليٍّ من هذه الآية: «كلُّ أصفر يسرُّ كالنعل الأصفر، وأنَّ الأسود يحزن» فهو مفسِّر للصفرة بظاهرها. ﴿قَالُواْ ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا هِيَ﴾ أي: ما الوصف الآخر المبيِّن لهذه البقرة العوان الصفراء الفاقع؟ أو أرادوا مطلق البقرة التي أمروا بذبحها، إلغاءً للبيان المتقدِّم، وإعراضًا عنه بسوء أدبهم؛ وعلى كلِّ حال أجابهم عن الله مع إثبات الأوصاف السابقة بأنَّها غير مذلَّلة بالعمل، وأنَّها كلُّها على لون واحد. ﴿إِنَّ الْبَقَرَ﴾ الموصوف بتلك الصفات ﴿تَشَابَهَ عَلَيْنَا﴾ لكثرته.

﴿وَإِنَّآ إِن شَآءَ اللهُ لَمُهْتَدُونَ﴾ إليها بوصفٍ تصفها به بعدُ. قال ﷺ: «**لو لم يستثنوا** ـ أي: لم يقولوا إن شاء الله ـ **لما بُيِّنت لهم آخر الأبد**». وليس قولهم: ما هي؟ تكريرًا للأوَّل؛ لأنَّهم قالوا أوَّلا ما هي؟ فبيَّن لهم بأنَّها عوان، وزادوا سؤالاً: ما هي بعدما وصفتَها لنا بأنَّها صفراء عوان؟ وهذا يكفي، وهو الأصل،

ولا تحتاج إلى ما قيل: إنَّ المراد آخرًا بقولهم: ما هي؟ أسائمة أو عاملة، إذ لا دليل عليه إلَّا قوله: ﴿لَا ذَلُولٌ﴾ و﴿لَا تَسْـقِي﴾ فيبقى على هذا ﴿مُسَلَّمَةٌ لَّا شِيَةَ فِيهَا﴾ فالأولى تفويضهم له في ازدياد بيان، فأجابهم بما أقنعهم.

﴿قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَـا بَقَرَةٌ لَّا﴾ هي ﴿ذَلُولٌ تُثِيرُ الْاَرْضَ﴾ وهذه الإشـارة سبب الذلِّ. ﴿وَلَا﴾ هي ﴿تَسْقِي الْحَرْثَ﴾ أو «لَا» صلة بين النعت والمنعوت، أو منزَّلة مع مدخولها منزِلة اسم كما مرَّ.

[لغة] والذلول: التي ذُلَّت. وإثارة الأرض: قلبها وشقُّها للزرع. والحرثُ: الأرض المشـقوقة للزراعة، أو ما وضع فيها من البذر، والمراد أنَّها ليسـت يُحرث بها فتذلَّ، كما أنَّها ليست تسـقي الحرثَ فتذلَّ فتثير، في حيِّز النفي. وقيل: هي تثير الأرض بأظلافها لقوَّتها وبطرها ومرحها، فالإثارة صفة أخرى لها في الإثبات. وقيل: هي وحشيَّة إذ كانت لا تثير ولا تسقي. وقيل: هي من السماء، والقولان ضعيفان.

﴿مُسَـلَّمَةٌ﴾ من العيوب كالعور والعرج وانكسـار القرن، ومن كلِّ عيب كهزالٍ لِكثرة الحمل عليها. ﴿لَا شِـيَةَ فِيهَا﴾ لا شـيء من اللون فيها يخالف لونها، حتَّى قيل: ظلفها وقرنها وأهداب عينها صُفْر، وهذا تشديد على أنفسهم أورثهم تشـديدًا فـي ثمنها عليهـم. وقال ﷺ: «**لـو ذبحوا أي بقـرة كانت لأجزأتهم، ولكن شدَّدوا على أنفسهم فشـدَّد الله عليهم**»[1]. والصحيح أنَّ هذا موقوف على ابـن عبَّاس لا مرفوع. ومرادهم طلب البيان لاسـتبعادهم إحياء ميِّت ببقرة ميِّتة، ظنُّوا أنَّها ليسـت من سـائر البقر، وهي منهـا في قدرة الله، وتعيَّنت هذه في قضائه تعالى.

---

(1) هذا الأثر جزء ممَّا تقدَّم منسوبا إلى رسول الله ﷺ: «لو لم يستثنوا لَمَا بيَّنت لهم آخر الأبد» أورده ابن كثير من حديث أبي رافع عن أبي هريرة عن الرسول ﷺ.
وقالَ ابن كثير: هذا حديث غريب من هذا الوجه، وأحسن أحواله أنْ يكون من كلام أبي هريرة.

[فقه] وتأخير البيان ممنوع عن وقت التكليف لا عن وقت الخطاب.

﴿قَالُوا الْآنَ﴾ لا قبله ﴿جِئْتَ بِالْحَقِّ﴾ البيِّن[1] التامِّ، وهو الوصف الأخير، إذ قال: ﴿لَا ذَلُولٌ...﴾ إلخ، ومن قبلُ جئت بحقٍّ لم نفهمه باتِّضاح. وعرفوا أنَّه الحقُّ البيِّن التامُّ؛ لأنَّهم ما وجدوا على هذا الوصف إلَّا واحدة، فزال بها تشابه البقر عليهم.

وجدوها عند فتًى بارٍّ بأمِّه، وقال له مَلَك: اذهب إلى أمِّك وقل لها: أمسكي هذه البقرة فإنَّ موسى بن عمران يشتريها منْك بملء مسكها[2] ذهبًا، ويروى أنَّ ملَكًا قال: شاور أمَّك ولا تبعها إلَّا بمشورة؛ فلم يشر بالبيع حتَّى سيمت بملئه ذهبًا، وكانت البقرة في ذلك الوقت بثلاثة دنانير. وهي من بقر الأرض لا كما قيل: نزلت من السماء لأنَّه لا دليل له؛ قيل: ﴿الْآنَ جِئْتَ بِالْحَقِّ﴾ يناسب أنَّهم يبحثون عنها في بقر الأرض، وإلَّا قالوا: لا نقدر عليها؛ قلت: لا يلزم هذا. وفرَّقوا ثمنها على بني إسرائيل، فأصاب كلَّ فريق ديناران.

﴿فَذَبَحُوهَا وَمَا كَادُواْ يَفْعَلُونَ﴾ ذبْحَها، أي: ذبحوها بعد ما اتَّصفوا بالبعد عنه، تباعدوا عن ذبحها جدًّا ولم يقربوا منه، ومع ذلك اتَّصلوا بها بعد ذلك وملكوها وذبحوها.

[لغة] ونفي «كاد» نفيٌ، وإثباتها إثبات كسائر الأفعال، وأخطأ من قال غير ذلك.

وذلك أنَّه طال الوقت لكثرة مراجعتهم لموسى في بيانها، وطول زمان التفتيش عنها، وتوقُّف أمِّ الفتى في بيعها لأجل الزيادة الخارجة عن العادة

---

(1) في النسخة الحجريَّة: «البيان التام».

(2) المِسْك والمسَك: جلود دابَّة بحرية، ويطلق على الجلد مطلقا. ابن منظور: لسان العرب.

في ثمنها، ولخوف فضيحة القاتل. ويبعد ما قيل إنَّهم طلبوا البقرة الموصوفة أربعين سنة.

[نحو] ومن خطإ المحدِّثين أنَّهم لا يكادون ينطقون بخبر كاد غير مقرون بأنْ، مع أنَّ قرنه قليل، وأنَّهم دائمًا يقولون: مثنى مثنى، ولا يقتصرون على مرَّة، حاشاه ﷺ عن ذلك.

﴿وَإِذْ قَتَلْتُمْ نَفْسًا﴾ هذا القتل أوَّل الأمر، وأخَّره ليبيِّن لهم شأنه وقت الإحياء، ونَسَبَ القتلَ إليهم لأنَّ القاتل من جملتهم، أو قتله جماعة منهم، ولأنَّ الحرص على المال فاشٍ فيهم كلِّهم، والقاتل حريص؛ وكذا الحرص على ما يحبُّون كجمال المرأة. **﴿فَادَّارَأْتُمْ فِيهَا﴾** تدافعتم في قتلها كلٌّ ينفيه عن نفسه ويحيله على خصمه.

[صرف] والأصل: «تدارأتم»، أبدلت التاء دالاً وأدغمت، فكانت همزة الوصل لسكون الأوَّل، وحذفت الهمزة بعد الراء في المصحف.

﴿وَاللَّهُ مُخْرِجٌ﴾ مُظهِرٌ **﴿مَّا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ﴾** كان فيهم من يحبُّ أن لا يظهر القاتل، كالقاتلين ومن يليهم مِمَّن عرفهم، وغير ذلك مِمَّن لم يناسبه الظهور. **﴿فَقُلْنَا اضْرِبُوهُ﴾** أي: القتيل في بدنه قبل أن يدفن، وقيل: على قبره، **﴿بِبَعْضِهَا﴾** أيِّ بعضٍ كان، فاتَّفق أنَّهم ضربوه بلسانها أو بذنَبها أو قلبها أو بفخذها اليمنى أو بالأذن، أو بعجب الذنب أو ببضعة بين الكتفين، أو بعظم أو بالغضروف، فيُحيَى، **ولو ضربوه بغير ذلك منها لحيي كذلك.** وَلَمَّا حييَ وأوداجه تشخب دمًا قال: قتلني فلان وفلان لابني عمِّه، أو ابني أخيه، أو فلان ابن أخي، ومات، وحُرِمَا الميراثَ وقُتلَا. قال ﷺ: «**ما ورِثَ قاتلٌ قتيلَهُ مِن عَهْدِ أصحابِ البقرةِ**»[1].

---

(1) لم نقف على نصِّ الحديث.

وخصَّ البقر لأنَّهم كانــوا يعبدونها، فيذبحون ما حبِّـب إليهم فيذبحون النفوس الأمَّارة بالسوء، ولأنَّهم عبدوا العجل، وأشـربوا في قلوبهم العجل. وخصَّ الضرب بالميِّت لئلَّا يتوهَّم أنَّ الحياة انتقلت إليه من الحيِّ.

﴿كَذَٰلِكَ﴾ كمـا أحيى الله هذا القتيـل ﴿يُحْيِي اللهُ الْمَوْتَـى﴾ كلَّهم يوم القيامة بلا ضرب، وبنو إسـرائيل لا ينكرون البعث، ولكـن وعظهم بالبعث ليسـتعدُّوا، ويَذَّكَّرَ منكرو البعث من العرب. والـكاف لمن يصلح للخطاب، فيدخلـون بالأولى، أو لـكلٍّ واحد، فوافـق قوله: ﴿وَيُرِيكُـمُ﴾ عطف على «يُحْيِي». ﴿ءَايَاتِهِ﴾ دلائل قدرته، أو ما اشـتمل عليه هذا الإحياء من الآيات، أو كلام الميِّـت، أو كلِّ ما مرَّ من المسـخ، ورفع الجبـل، وانبجاس الماء، والإحياء. والخطاب لبني إسرائيل مع غيرهم كالعرب، أو لهم فقط، وكذا في قوله: ﴿لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ تسـتعملون فكركم فتذكـروا أنَّ الله قادر على إحياء غيره كما قدر على إحيائه، وكما أنشأهم.

ويجوز أن يكون الخطاب في ﴿كَذَٰلِكَ يُحْيِـي اللهُ الْمَوْتَى وَيُرِيكُمُۥ ءَايَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ للعرب المنكرين للبعث، اعترض به في قصَّة بني إسـرائيل، ويختصُّ ببني إسرائيل الخطابُ في قوله:

﴿ثُمَّ قَسَتۡ قُلُوبُكُم مِّنۢ بَعۡدِ ذَٰلِكَ فَهِيَ كَٱلۡحِجَارَةِ أَوۡ أَشَدُّ قَسۡوَةٗۚ وَإِنَّ مِنَ ٱلۡحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنۡهُ ٱلۡأَنۡهَٰرُۚ وَإِنَّ مِنۡهَا لَمَا يَشَّقَّقُ فَيَخۡرُجُ مِنۡهُ ٱلۡمَآءُۚ وَإِنَّ مِنۡهَا لَمَا يَهۡبِطُ مِنۡ خَشۡيَةِ ٱللَّهِۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعۡمَلُونَ ٧٤﴾

قسوة قلوب اليهود

﴿ثُمَّ قَسَتْ﴾ انتفت عن الاتِّعاظ بالمعجزات واللين لها، وأشبهت في ذلك الجسم الصلب الذي لا يتأثَّر بانغماز، ففيه استعارة تبعيَّة، أو في الكلام استعارة تمثيليَّة. ﴿قُلُوبُكُمْ﴾ في الحال وما قبلها قسوة بعيدة عن شأن من شاهد من المعجزات ما شاهدتم بُعدًا، تشبيهًا في الامتداد بتراخي الزمان، أو بعد مدَّة من الزمان زادت قسوة، ﴿وَلَا يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلَّا خَسَارًا﴾ [سورة الإسراء: 82]، وقد زادوا سوءًا بعد نزول الآيات، وأكَّد البعد بقوله: ﴿مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ﴾ بعد ما ذكر من الآيات كإحياء القتيل. ﴿فَهِيَ كَالْحِجَارَةِ﴾ في عدم الانفعال كما لا يطاوعك الحجر في الانغماز والتثنِّي، لا تتأثَّر قلوبهم في الوعظ بما شاهدوا من الآيات. ﴿أَوَ اَشَدُّ قَسْوَةً﴾ من الحجارة، أي: بل أشدُّ قسوة، كقوله: ﴿إِنْ هُمُۥٓ إِلَّا كَالَانْعَامِ بَلْ هُمُۥٓ أَضَلُّ سَبِيلاً﴾ [سورة الفرقان: 44]، أو يشكُّ الناظر أهي كالحجارة أم أشدُّ، أو يخيَّر بين أن تشبه بها وأن يقال: أشدُّ، على جواز التخيير بـ«أَوْ» في غير الأمر والنهي؛ أو نوَّعهم إلى قلوب كالحجارة وقلوب أشدَّ.

والحديد ولو كان أقوى من الحجر لكن قد يلين بالنار، وقد وقع لينه لداود عليه السلام خارجًا بلا نار، وأيضًا الحديد لا يخرج منه الماء فلا يناسب ذكر

خروج الماء من الحجر وهبوطه من الخشـية بعده، ولا سيما أنَّ الحديد إنَّما قد يلين بانضمام النار لا بمجرَّده، ولينه لداود معجزة لا مسـيس لها هنا. ولم يقل: أو أقسى لأنَّه يدلُّ على حصول الشـدَّة لا على زيادتها؛ وأشدُّ قسوة يدلُّ على زيادتها فهو أبلغ. ﴿**وَإِنَّ مِنَ الْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ**﴾ ينبع نبعًا واسـعًا ﴿**مِنْهُ الْأَنْهَارُ**﴾ المياه، سـمَّاها أنهارًا تسـميةً للحالِّ باسـم المحلِّ، والكلام تعليل جمليٌّ لـ«أَشَدُّ قَسْوَةً».

[لغة] وزعم بعض وتبعهم الشيخ عمرو التلاتي[1] أنَّ الواو تكون للتعليل ولا يصحُّ، ولو صـحَّ لحملنا عليه الآية، أي: لأنَّ من الحجـارة ما يتفجَّر منه الأنهار، وهو مطلق الحجارة. وزعم بعض أنَّه أراد حجر موسى الذي انفجرت منه اثنتا عشـرة عينًا، والأوَّل أصحُّ للإطلاق، ولأنَّ حجر موسى حجر خارق للعادة معجزة.

﴿**وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشَّـقَّقُ**﴾ بعد أن لم يكن منشقًّا، أصله يتشقَّق أبدلت التاء شـينًا وأدغمت. ﴿**فَيَخْرُجُ مِنْهُ الْمَاءُ**﴾ قليـلا دون الانفجـار، ﴿**وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ**﴾ يسقط من الجبل على الاستقلال ﴿**مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ**﴾ لا بحيوان أو مطر أو صاعقة أو رعد أو نحو ذلك.

خلق الله فيه التمييز والعقل، فيخشع فيسقط، ومن خلْق العقل في الحجر قوله ﷺ: «**إنِّي لأعرف حجرًا كان يسـلِّم عليَّ قبل أن أبعث**»[2]. وأنَّه ﷺ بعد

---

(1) عمرو بن رمضان الجربي التلاتـي (ت: 1187هـ/1773م): عالم من علمـاء جربة، ولد في حومـة «تْلَاتْ» بجربة، أخذ عـن أبي الربيع سـليمان الحيلاتي، له العديد من الحواشـي والمختصـرات، منها «اللآلـئ الميمونيَّة على المنظومـة النونيَّة»، و«عمـدة المريد لنكتة التوحيد» وغيرها. جمعيَّة التراث: **معجم أعلام الإباضيَّة**، ج 4، ص 556. (ط.م).

(2) رواه **أحمد** في مسـنده، ج 7، ص 410، رقم: 20867. ورواه **مسلم**، في كتاب الفضائل، باب فضل نسـب النبيء ﷺ، رقم: 2، 2277. **والترمذي**، في المناقـب، رقم: 3624، من حديث جابر بن سمرة.

مبعثه ما مرَّ بحجر أو مدر إلَّا سلَّم عليه، وأنَّ الحصى سبَّح في كفِّه وكفِّ بعض الصحابة، وأنَّ الحجر الأسود يشهد لمن استلمه. وليس المراد هنا الانقياد لما يريد الله فإنَّ الخلق كلَّه كذلك، حتَّى قلوب الكفرة، فإنَّها منقادة لما يريد الله منها من هزال وسمن وصحَّة ومرض وزوال وبقاء وفرح وحزن وغير ذلك... ﴿**وَمَا اللهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ**﴾ فهو عالم بما تعملون فيعاقبكم على مساوئكم المحبطة لمحاسنكم في الآخرة.

﴿أَفَتَطْمَعُونَ أَن يُؤْمِنُوا۟ لَكُمْ وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلَـٰمَ ٱللَّهِ ثُمَّ
يُحَرِّفُونَهُۥ مِنۢ بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿75﴾ وَإِذَا لَقُوا۟ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا
وَإِذَا خَلَا بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ قَالُوٓا۟ أَتُحَدِّثُونَهُم بِمَا فَتَحَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمْ لِيُحَآجُّوكُم بِهِۦ
عِندَ رَبِّكُمْ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿76﴾ أَوَلَا يَعْلَمُونَ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ ﴿77﴾
وَمِنْهُمْ أُمِّيُّونَ لَا يَعْلَمُونَ ٱلْكِتَـٰبَ إِلَّآ أَمَانِىَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ ﴿78﴾﴾

استبعاد إيمان اليهود

﴿أَفَتَطْمَعُونَ﴾ إنكار للياقة الطمع، العطف على قست والهمزة من جملة المعطوف، أو على مقدّر بعد الهمزة، والخطاب للمؤمنين، قيل: وللنبيء أيضًا، أي: أتحسبون أنَّ قلوبهم صالحة للإيمان فتطمعون؛ وقيل: للأنصار. وفي ذلك تشديد العتاب. ويقال: الخطاب للنبيء ﷺ والمؤمنين لأنَّهم يطمعون فلا حاجة، ولا دليل على أنَّ الخطاب للنبيء ﷺ بصيغة الجمع تعظيمًا كما هو قول ابن عبّاس. ﴿أَن يُؤْمِنُوا۟﴾ أي: في أن يؤمن اليهود، أي: ينقادون ﴿لَكُمْ﴾ أو يؤمنوا لأجلكم؛ والواو لليهود في المدينة وما قرب منها. كيف تطمعون في إيمانهم مع ما فيهم من موانع الإيمان: تحريف الحقِّ مع العلم به في طائفة من الأحبار، ونفاقهم إليكم بظاهر الإيمان، وإخلاص الكفر إذا خلا بعضهم ببعض في طائفة، وتحذير بعض بعضًا عن التحدُّث برسالة سيِّدنا محمَّد ﷺ المذكورة في التوراة في طائفة، واعتقاد الباطل توراةً في طائفة، وكتابة كلام يقولون: إنَّه من التوراة وليس منها في طائفة. وأشار إلى

ذلك كلِّه بقوله: ﴿وَقَدْ كَانَ﴾ إلى قوله: ﴿إِلَّا يَظُنُّونَ﴾ [الآية: 78] أي: طمعكم في إيمانهم بعيد والحال أنَّه قد كان ﴿فَرِيقٌ﴾ أحبار تفرَّقوا طوائف، ﴿مِّنْهُمْ﴾ مِمَّن حضروا وأسلافهم، ﴿يَسْمَعُونَ كَلَامَ اللهِ﴾ في التوراة مِمَّن قرأ من كتاب الله، أو رآه بعينه، وفهمه أو لم يفهمه، والمراد هنا الفهم فقد سمعه ولو لم يسمعه بأذنه من غيرهم، أو من لسان نفسه. وقيل: المراد القرآن. ﴿ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُ﴾ يردُّونه في طرف غير ما هو فيه، بمحوه أو إسقاط بعضه، أو زيادة ما يفسد به، أو تفسيره بخلاف ما هو عليه.

﴿مِنۢ بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ﴾ فهموه ﴿وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ أنَّه حقٌّ وأنَّهم مبطلون، وأنَّه من الله. ولا حاجة إلى جعلها تأكيدًا في المعنى لقوله: ﴿عَقَلُوهُ﴾.

ومن ذلك تبديل ما في التوراة من الرجم بالتسخيم وتسويد الوجه، وما فيها من أنَّه ﷺ أبيض ربعة بأنَّه أسمر طويل، وأنَّهم طلبوا أن يسمعوا كلام الله تعالى كموسى فأمرهم أن يتطهَّروا ويلبسوا ثيابًا نظيفة، فأسمعهم، فزادوا أنَّه قال لهم: إن شئتم فلا تفعلوا؛ وهم السبعون الذين اختارهم.

﴿وَإِذَا لَقُواْ﴾ أي: اليهود، إذ القائل منهم لا كلُّ فردٍ، أو إذا لقي منافقوهم، والمراد: أشرار علمائهم ومن معهم من العرب، كعبد الله بن أبي ﴿الَّذِينَ ءَامَنُواْ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا﴾ بمحمَّد رسولا مبشَّرًا به في التوراة، وأنَّكم على الحقِّ في اتِّباعه، وهذا إلى قوله: ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ داخل في توبيخ المؤمنين على الطمع في إيمانهم، أتطمعون أن يؤمنوا مع أنَّهم ﴿إِذَا لَقُوا الَّذِينَ ءَامَنُوا قَالُوا...﴾ إلخ. وإنَّما وبَّخهم على ذلك الطمع لأنَّ الطمع هو تعلُّق النفس بإدراك المطلوب تعلُّقًا قويًّا، وهو أشدُّ من الرجاء، فشدَّد عليهم فيه؛ لأنَّه ربَّما يؤدِّي إلى ملاينة لا تجوز.

﴿وَإِذَا خَلَا بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ قَالُوٓاْ﴾ أي: رؤساؤهم الذين يصرِّحون بالكفر ولم ينافقوا، أي: قالوا لمن نافق منهم.

قام النبـيء ﷺ يوم قريظة تحت حصونهم، فقـال: «**يا إخـوان القردة، ويا إخـوان الخنازير، ويا عبدة الطاغوت**»، فقالوا: مـا أخبر بذلك محمَّدا إلّا أحد منكـم، أتحدِّثونهـم... إلخ[1]، كمـا قـال: ﴿**أَتُحَدِّثُونَهُـمْ**﴾ أتحدِّثون المؤمنين؟ وهذا توبيخ على ماضٍ مستمرٍّ، فهو موجود في الحال إذا اعتقدوا أنَّ منافقيهم لـم يقطعـوا نياتهم عن التحديـث؛ والتوبيخ يقـع على ماض وحاضر، أو صـوَّروا حالهم الماضية مـن التحديث بصورة الحاضر. ﴿**بِمَا فَتَحَ**﴾ به ﴿**اللَّهُ عَلَيْكُـمْ**﴾ أنعم به عليكم من العلم برسـالة محمَّد في التوراة وصفاته، والإيجـاب على الأنبياء أن يؤمنوا به، أو قضـى عليكم به، أو أنزله عليكم بوساطة موسـى، أو بيَّنه لكم، كما يقال: فتح على الإمام إذا ذكر له ما توقَّف عنه، وذلك أنَّ الأمر قبل بيانه كالشيء المغلق عليه، وبعد بيانه كالشيء المفتوح، وذلك إقرار منهم بأنَّ الله قضى عليهم أن يؤمنوا بمحمَّد ﷺ، وأنزل عليهم رسالته؛ وتفسيره بالإنزال معنويٌّ.

﴿**لِيُحَاجُّوكُمْ**﴾ حجًّا عظيمًا. والمفاعلة مبالغة لا على بابها ـ من أنَّها تفيد المشاركة ـ ﴿**بِهِ**﴾ بما فتح الله عليكم فيغلبوكم، واللام لام العاقبة مجاز على التعليل، أي: فيكـون المآل أن يخاصموكم به ﴿**عِنـدَ رَبِّكُمْ**﴾ في الآخرة بأن يشـهدوا عليكم بإقراركم بـأنَّ الله حكم علينا، أي: قضى بـأن نؤمن بمحمَّد وكتابه، فتقـام عليكم الحجَّة بتـرك اتِّباعه مع إقراركم بصدقـه، وهو متعلَّق «لِيُحَاجُّوا». ﴿**أَفَلَا تَعْقِلُونَ**﴾ عطف على ﴿**أَتُحَدِّثُونَهُمْ**﴾.

أو يقدَّر: ألا تتأمَّلون فلا تعقلون أنَّكم يحاجُّونكم يوم القيامة بأنَّ محمَّدا رسول الله في التوراة، وذلك من جهلهم فإنَّهم يوم القيامة محجوجون بما في التوراة، حدَّثـوا المؤمنين به أم لم يحدِّثوا؛ وإن رجعنـا هاء «به» للتحديث، أي: ليحاجُّوكم بتحديثكم بأنْ يقـول المؤمنون: ألم تقولوا لنـا بأنَّ محمَّدا

---

(1) أورده ابن كثير نقلا عن القاسم عن برزة عن مجاهد.

رسول الله في التوراة؟ كأنَّ المعنى أنَّه اشتدَّ عليهم أن يحاجُوكم بالتحديث، ولو كانوا لا ينجون من قطع العذر، ولو لم يحدِّثوهم، إلَّا أنَّه يضعف ردُّ الهاء للتحديث بقوله: ﴿أَوَلَا يَعْلَمُونَ﴾ عطف على ما قبل، أو يقدَّر: أيلومونكم ولا يعلمون ﴿أَنَّ اللهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ﴾ مطلقًا، ومنه إسرارهم الكفر ﴿وَمَا يُعْلِنُونَ﴾ مطلقًا، ومنه إظهارهم الإيمان، فإنَّه أنسب بردِّ «مَا» إلى «مَا فَتَحَ اللهُ». وأيضًا قد يمكنهم إنكار التحديث لا ما فتح عليهم؛ والمشركون قد يخفون ما علموا أنَّ الله عالم به لفرط دهشهم، وذلك في الآخرة، كقوله تعالى: ﴿وَاللهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ﴾ [سورة الأنعام: 23] وقوله: ﴿رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا مِنْهَا فَإِنْ عُدْنَا فَإِنَّا ظَالِمُونَ﴾ [سورة المؤمنون: 107] وقد علموا أنَّهم لا يخرجون، فينكرون التحديث، ولو علموا أنَّ الله عالم به.

ويجوز أن يكون ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ من كلام الله للمؤمنين، لا من كلام اليهود، كما أنَّ ﴿أَوَلَا يَعْلَمُونَ﴾ من كلام الله، أي: أفلا تعقلون أن لا مطمع في إيمانهم، وممَّا أسرُّوه من صفات رسول الله ﷺ.

﴿وَمِنْهُمْ﴾ من اليهود ﴿أُمِّيُّونَ﴾ لا يكتبون ولا يقرؤون الكتابة، كأنَّهم في حينهم ولدتهم أمَّهاتهم، وأنَّهم باقون على أصل خلقتهم، أو من العرب الذين لا يكتبون ولا يقرؤون المكتوب، أو من أمِّ القرى مكَّة وأهلها لا يقرؤون الكتابة ولا يكتبون ﴿لَا يَعْلَمُونَ﴾ لا يعرفون ﴿الْكِتَابَ﴾ التوراة أو الكتابة، فهم عوامٌّ رسخ التقليد في قلوبهم، فكيف تطمعون أن يؤمنوا؟ ﴿إِلَّآ أَمَانِيَّ﴾ أي: لكن يعتقدون أماني، أي: أكاذيب، فالاستثناء منقطع؛ أولا يعلمون المكتوب إلَّا مكتوبًا مكذوبًا فيه، أو إلَّا مكتوبًا يقرؤونه بلا معرفة معنًى؛ لأنَّ الأماني ـ بالشدِّ والتخفيف ـ بمعنى ما يُقَدَّر في النفس ولو كذبًا، بمعنى ما يُتمنَّى، وبمعنى ما يُقرأ، فالاستثناء متَّصل. وذلك أنَّهم تلقَّوا من رؤسائهم المحرِّفين أكاذيب أو كتبًا كتبوها لهم مكذوبًا فيها، مثل أنَّ النبيء محمَّدا

الموعود به أسود أحول قَطَط الشعر قصير أو طويل بدل ربعة، وغير ذلك مِمَّا هو ضدّ صفته ﷺ، وأنَّ الجنَّة لا يدخلها إلَّا من كان هودًا، وأنَّ النار لا تمسُّهم إلَّا أيَّامًا معدودة، ونحن أبناء الله وأحبَّاؤه.

﴿وَإِنْ هُمْ﴾ ما هم ﴿إِلَّا يَظُنُّونَ﴾ في جحود محمَّد ﷺ وصفاته وكتابه.

والمـراد بالظنِّ خلاف العلـم، فتناوَلَ الاعتقـاد الجازمَ غيـر المطابق، لا الظنَّ المشـهور الذي هو الاعتقاد الراجح مع تجويز النقيض، طابق الواقع أو لم يطابق؛ لأنَّ بعضهم جازمون بالاعتقاد الفاسـد، وجاهلون جهلا مركَّبًا، وبعضهم جاهل أمِّيٌّ مقلِّـد للجاهل جهـلاً مركَّبًا، فالضمير لليهـود مطلقًا، والقسم الثالث العارف بالحقِّ داخل في ذلك؛ لأنَّ لفظه لفظ الجازم بالإنكار، وهو ظانٌّ، أي: غير قائل بالعلم، ويجوز عوده للأمِّيِّين.

﴿ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ يَكْتُبُونَ ٱلْكِتَٰبَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَٰذَا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ لِيَشْتَرُوا۟
بِهِۦ ثَمَنًا قَلِيلًا ۖ فَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا يَكْسِبُونَ ﴿79﴾ وَقَالُوا۟
لَن تَمَسَّنَا ٱلنَّارُ إِلَّآ أَيَّامًا مَّعْدُودَةً ۚ قُلْ أَتَّخَذْتُمْ عِندَ ٱللَّهِ عَهْدًا فَلَن يُخْلِفَ ٱللَّهُ
عَهْدَهُۥٓ ۖ أَمْ تَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿80﴾ بَلَىٰ مَن كَسَبَ سَيِّئَةً وَأَحَٰطَتْ بِهِۦ
خَطِيٓـَٔتُهُۥ فَأُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿81﴾ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟
ٱلصَّٰلِحَٰتِ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿82﴾ ﴾

تحريف أحبار اليهود وافتراءاتهم

﴿**فَوَيْلٌ**﴾ هلاك أو واد في جهنَّم، لو وقع فيه جبل لذاب وسال، أو واد في جهنَّم يهوي فيه الكافر أربعين خريفًا قبل أن يبلغ قعره ـ كما ذكرتُه في **وفاء الضمانة**[1] ـ. ﴿**لِّلَّذِينَ يَكْتُبُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ**﴾ ذكر الأيدي مع أنَّ الكتابة لا تقع إلَّا باليد، تأكيدًا لقبح فعلهم، كما أكَّد في قوله تعالى: ﴿**يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ**﴾ [سورة الأنعام: 38]، ﴿**يَقُولُونَ بِأَفْوَاهِهِم**﴾ [سورة آل عمران: 167]، وأيضًا قد يقال: كتب فلان وهو لم يكتب بيده بل كتب له غيره، ووجه آخر أنَّ معناه نفي أن يكتبه كاتب قبلهم، فهو مختلَق من عند أنفسهم. ﴿**ثُمَّ يَقُولُونَ هَذَا**﴾ أي: هذا الكتاب ﴿**مِنْ عِندِ اللهِ لِيَشْتَرُواْ بِهِ**﴾ يستبدلون به ﴿**ثَمَنًا**﴾ ما به الشراء، أو الشراء على ظاهره، والثمن: المثمَّن، أي: مثمَّنًا ﴿**قَلِيلاً**﴾ بالنسبة إلى ما باعوا من دينهم ومن الجنَّة.

(1) كتاب للمؤلِّف رحمه الله في الحديث وعنوانه الكامل: «**وفاء الضمانة بأداء الأمانة**». وهو مطبوع.

خاف رؤساء اليهود على زوال ملكهم حين قدم النبيء ﷺ المدينة، فبدَّلوا صفة النبيء ﷺ بضدِّها إثباتًا لرئاستهم، ولِمَا يعطيهم سفلتهم وعامَّتهم. ﴿**فَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا كَتَبَتَ**﴾ أي: كتبته ﴿**اَيْدِيهِمْ**﴾ أو من كتابة أيديهم ﴿**وَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا يَكْسِبُونَ**﴾ من سائر شركهم وبدعهم وكبائرهم وصغائرهم، ومن كبائرهم أخذ الرِّشى. وهم أربع فرق: محرِّفون، ومنافقون، ومانعون من إظهار الحقِّ، وجاهلون مقلِّدون.

﴿**وَقَالُواْ لَن تَمَسَّنَا النَّارُ**﴾ كناية عن دخولها ﴿**إِلَّآ أَيَّامًا مَّعْدُودَةً**﴾ أي: قليلة، وكان الحساب في العرب عزيزًا، فصاروا يعبِّرون عن القليل بالعداد، لا يألفون عدَّ الكثير وقوانين الحساب، والقائلون: ﴿لَن تَمَسَّنَا النَّارُ إِلَّآ أَيَّامًا مَّعْدُودَةً﴾ يهود المدينة، وهم نشؤُوا على العربيَّة، وكلامهم فيها حجَّة فقالوا: «مَعْدُودَة» مكان «قليلة»، وهي مقدار عبادة آبائهم العجل أربعين، زعموا أنَّ الأربعين مدَّة جعلها الله عذابًا لآبائهم ولهم، وقال من قال: نعذَّب سبعة أيَّام عدد الأسبوع، وأنَّه سبعة آلاف سنة، رجع إلى سبعة أيَّام، يومٌ مكانَ ألفِ سنة.

﴿**قُلَ اَتَّخَذتُّمْ**﴾ بهمزة مفتوحة ثابتة وصلاً ـ حتَّى إنَّه نُقل فتحها للَّام فيه ـ ووقفًا، للاستفهام الإنكاريِّ، أو التقريريِّ على معنى التخطئة، فهو في معنى التوبيخ، أو نزَّله منزلة الاستفهام الحقيقيِّ.

﴿**عِندَ اللهِ عَهْدًا**﴾ علمًا يوثَق به أنَّكم تعذَّبون أيَّامًا معدودة. ﴿**فَلَن يُّخْلِفَ اللهُ عَهْدَهُ**﴾ عطف على مدخول الهمزة كقوله تعالى: ﴿أَفَمَن شَرَحَ اللهُ صَدْرَهُ لِلِاسْلَامِ فَهُوَ عَلَىٰ نُورٍ مِّن رَّبِّهِ﴾ [سورة الزمر: 22]، وقوله تعالى: ﴿أَفَمَنْ وَّعَدْنَاهُ وَعْدًا حَسَنًا فَهُوَ لَاقِيهِ﴾ [سورة القصص: 61] وذلك بمرتبة المضارع المنصوب في جواب الاستفهام، إلَّا أنَّ النصب هنا بـ«لن»، كأنَّه قيل: «أتَّخذتم عند الله عهدًا فيُوفِيَ لكم به»؟، بنصب يوفي، ولا حاجة إلى تقدير الشرط هكذا: «إن اتَّخذتم عند الله العهد فلن يخلف الله عهده»، بمعنى: أيُّ هذين واقِع؟ أتِّخاذُكم

العهد أم قولكم على الله ما لا تعلمون؟ خــرج ذلك مخرج المتردِّد في تعيينه على ســبيل التقريــر، والنبيء ﷺ عالــم بوقــوع أحدهما، وهــو قولهم بما لا يعلمون على التعيين.

[نحو] ﴿**أَمْ**﴾ متَّصلةٌ عَطَفَت جملة؛ لأنَّها تعطف المفردَ والجملة، أو حرف ابتداء منقطعة بمعنى «بل» وهمزة الإنكار، وهكذا ما أشبهه، والمنقطعة حرف ابتداء وإضــرابٌ، وتقدَّر بـ«بل» والهمــزة، أو بـ«بــل»، أو بالهمزة، وإذا كان الاســتفهام بعدها فبمعنى «بل» فقط، وإذا لم تصلح «بل» وحدها حُمِل الكلام على التهكُّم إن قدِّرت، كقوله تعالى: ﴿أَمْ كُنتُمْ شُــهَدَآءَ﴾ [سورة البقرة: 133]، أي: بل كنتم شهداء، فإنَّهم لم يكونوا شــهداء، أو يقدَّر: بل تقولون، على مقتضى دعواكم أنَّكم كنتم شهداء.

﴿**تَقُولُونَ عَلَى اللهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ**﴾ بل أنتم فيه جاهلون من دعوى الخروج من النار، وتقليل المدَّة ﴿**بَلَى**﴾ تَمَسُّــكُم النار مع الخلود فيها. واحتجَّ عليهم بما قُضي في الأزل، وكُتب في اللوح المحفوظ من قوله: ﴿**مَن كَسَبَ سَيِّئَةً**﴾ ذنبًا كبيرًا أو صغيرًا أصرَّ عليه، فالسيِّئة تشمل الشرك وما دونه.

[أصول الدين] ولا دليل على تخصيص الشــرك، ويدلُّ على ما قلت في أهل الجنَّة: ﴿الَّذِينَ ءَامَنُــواْ وَعَمِلُواْ الصَّالِحَاتِ﴾، وقومنا مجتمعون معنا على أنَّ الإصرار محبط للأعمــال الصالحات، ودعوى أنَّه يحبــط ثواب الأعمال ويبقى ثــواب التوحيد بدخــول الجنَّة لا دليــل عليها، والله يقــول: ﴿وَعَمِلُواْ الصَّالِحَاتِ﴾، ومن أين لهم أن يقولوا: بلا عمل للصالحات؟! وحديث دخول الجنَّة بمجرَّد التوحيد محمول على ما قبل أن تفرض الفرائض، وقد قال بهذا بعض سلفهم كما بيَّنته في «**وفاء الضمانة بأداء الأمانة**»[1].

---

(1) تقدَّم: ص 100.

ومن شأن السيِّئة غير المتوب منها أن تجرَّ سيِّئات، وهو قوله: ﴿**وَأَحَاطَتْ بِهِ خَطِيئَاتُهُ**﴾ سيِّئاته، أو أشار إلى أنَّه لَمَّا لم يتب عن السيِّئة لم تغفر له صغائره لإصراره، أحدَقَت به من كلِّ جانب إذ لم يتب منها كلِّها، ولو تاب من بعضها، وقيل: لا يعاقب على ما تاب منه، وهو قول لا بأس به، فيحيط به ما لم يتب منه ولو واحدة.

[أصول الدين] ﴿**فَأُوْلَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ**﴾ لا يخرجون منها، المشركون والفاسقون، والأصل في الخلود: الدوام، وحمله على المكث الطويل إنَّما يصحُّ لدليل، ولا خلاف في دوام المشرك في النار. ومعنى إحاطة الخطيئة به أنَّها أهلكته إذ لم يتخلَّص منها بالتوبة. وليس المراد أنَّها به[1] معنى أنَّها في قلبه وجوارحه، فلا دليل في الآية على أنَّ الخلود إنَّما هو لمن عمَّت قلْبه بالشرك؛ لأنَّا إذا صرنا إلى تعميم البدن بالمعصية وردَ علينا أنَّ من جسد الكافر ما لم تصدر منه معصية مثل عنقه وأعلى صدره إذا لم تصدر منهما.

﴿**وَالَّذِينَ ءَامَنُواْ**﴾ أتى هنا بالواو، وفيما مرَّ بالفاء؛ لأنَّ وعيد الكريم مظنَّة الخلف، حاشاه تعالى عن الخلف، بخلاف وعده، فأكَّد الوعيد بربط الفاء وتعقيبها، أو لسبق الرحمة، ولأنَّ خلودهم في النار بسبب أعمالهم، وَأَمَّا الجنَّة فبفضل الله ﷻ، فإنَّهم يحاسبون يوم القيامة بنعم الله فتستغرق أعمالهم، فيقول الله ﷻ: «ادخلوا الجنَّة بفضلي».

[أصول الدين] ﴿**وَعَمِلُواْ الصَّالِحَاتِ**﴾ **شاملٌ للتقوى، إذْ تَرْكُ المعاصي من الأعمال الصالحات، وهكذا حيث لم يَذكُر التقوى مع العمل الصالح، وذلك أولى من حمل المطلق على المقيَّد بالتقوى في**

---

(1) أي: الإحاطة به.

الآي الأُخر، أو يقدَّر: وعملوا الصالحات واتَّقوا، وكذا في ســائر القرآن، فلا دليل في الآية على أنَّ العمــل الصالح قد ينجو صاحبه مع عدم التوبة من الذنوب.

﴿أُوْلَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُــمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ دائمــون، وخلود أهل النار وأهل الجنَّة فيها دوام.

﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا ٱللَّهَ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَانًا وَذِي ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَقُولُوا۟ لِلنَّاسِ حُسْنًا وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِّنكُمْ وَأَنتُم مُّعْرِضُونَ ۝٨٣﴾

مخالفة اليهود المواثيق

﴿وَإِذَ اَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَآئِيلَ لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا اللهَ﴾ إمَّا مفعول لـ«أَخَذْنَا» لتضمُّنه معنى قلنا، واللفظ نفيٌ والمعنى نهي، وحكمته الحثُّ على المسارعة للامتثال، حتَّى كأنَّه قد امتثل فأخبر عنه، وصونًا للكلام عن الكذب إن كان بصيغة الإخبار فلم يمتثل، فلا حاجة إلى تقدير: قلنا، ووجه ذلك أنَّ أَمْرَ الله ﷻ بشيء أو نهيه عنه أخذٌ للميثاق، ولو لم يقل المأمور والمنهيُّ: نَعَم.

وإمَّا جواب القسَم الذي هو الميثاق، ومقتضى الظاهر على هذا: «لا يَعبدون» ـ بالتحتيَّة ـ. وإمَّا تفسير لأخذ الميثاق، **وهكذا فيما يأتي من القرآن تتصوَّر فيه هذه الأوجه.**

﴿وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا﴾ أي: أحسنوا، أو تحسنون بالوالدين إحسانًا، أي: أحسنوا، أو استوصوا بالوالدين، أي: بالوالد والوالدة، فغلَّب المذكَّر. ويبعد تفسير الميثاق هنا بميثاق يوم ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ﴾ [سورة الأعراف: 172]. **والآية مفصحة بعظم الإحسان إلى الوالدين إذ قرن بطاعة الله تعالى.**

﴿وَذِي الْقُرْبَى﴾ القرابةِ، كالرُّجعى بمعنى الرجوع. ﴿وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ﴾ أحسنوا إلى هؤلاء بالمال والخدمة والنفع بالجاه والبدن

والرفق، وتعليم العلم، والأمر بالمعروف والنهــي عن المنكر، وهو على ذلك الترتيب.

فالله أحقُّ لأنَّــه الخالق المنعم، وحقُّــه أعظم من كلِّ حقٍّ، ثــمَّ الوالدان لأنَّهما ســبب وجود الولد، ومتلقِّيان المشــاقَّ في الولد، ثمَّ ذو القربى لأنَّه بواسطتهما، و«**الرضاع لحمة كلحمة النسب**»[1]. ثمَّ اليتيم لأنَّه أضعف لصغره من المسكين.

[لغة] [اليتيم] مأخوذ من اليتم بمعنى الانفراد، كدرَّة يتيمة؛ وهو من بني آدم: من مات أبوه قبل بلوغه، و«لا يُتْــمَ بعد البلوغ». ومن الدوابِّ: من ماتت أمُّه، وفي الطيــر: من ماتا عنه، **وقــد يطلق على من ماتت أمُّــه من الآدميِّين.** وأفرد القريب لأنَّ القربــى مصدر يصلح للأكثر فتَبِعــه المضاف وهو «ذي»؛ والإشارة إلى أنَّهم كواحد ولو كثروا، فلا تقصِّروا في حقِّهم.

﴿**وَقُولُواْ لِلنَّاسِ حُسْــنًا**﴾ بضمٍّ فإسكان، أي: حَسَنًا بفتحهما، أو ذا حُسْنٍ، وهو الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وتعليم الجاهل، والصدق في شأن محمَّد ﷺ والقــرآن، والدعاء إلى التوحيــد، والرفق بهم بمــا يحبُّونه مِمَّا لا معصية فيه ليذعنــوا، وحين يكون التغليظ هو النافع فالتغليظ حســن، وذلك قبل الأمر بالقتال وبعده، وليس مِمَّا ينسخ.

﴿**وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ**﴾ المفروضة عليكم في التــوراة، ﴿**وَءَاتُواْ الزَّكَاةَ**﴾ على ما فرض عليكــم فيها وهو ربع المال، تنزل النار فتحرقه أو تأخذه، أو شــيء كالنار، وذلك علامة قبوله، ولا تحرق الحيوان.

---

(1) قاعدة فقهيَّة مأخوذة من حديث رسول الله ﷺ الذي أورده **القطب** في جامع الشمل، من حديث أنس: «إنَّ الله حرَّم من الرضاع ما حرَّم مِن النسب»، ج 2، ص 291، رقم: 3185.

وهذا خطاب لأوائلهم المأخوذ عليهم الميثاق ومَن بعدهم، والكلام في ذلك، لا في المعاصرين لرسول الله ﷺ؛ لأنَّ معاصريه تجب عليهم الصلاة والزكاة على ما فُرض عليه ﷺ.

أمَرْناكم بما ذكر من إفراد الله بالعبادة وما بعده من إيتاء الزكاة وقَبِلتُم ﴿**ثُمَّ تَوَلَّيْتُم**﴾ عن الوفاء ﴿**إِلَّا قَلِيلاً مِّنكُمْ**﴾ وهو من اتَّبع التوراة والإنجيل قبل البعثة كعبد الله بن سلام. ﴿**وَأَنتُم مُّعْرِضُونَ**﴾ عن الوفاء.

[لغة] والآية ﴿ثُمَّ تَوَلَّيتُم﴾ كقوله: ﴿وَلَّىٰ مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا﴾ [سورة لقمان: 7] وقيل: التولِّي: الانصراف بحاجة مع ثبوت العقد، والإعراض: الانصراف بالقلب؛ وقيل: التولِّي: الرجوع إلى ما كان أوَّلاً، والإعراض: أخذ طريق آخر.

والخطاب لمن قَبْلَ رسول الله ﷺ، وأجيز أن يكون الخطاب بقوله: ﴿وَأَنتُم مُّعْرِضُونَ﴾ لمعاصريه، أو المعنى: معرضون عن الفكر، فلا تأكيد، أي: وأنتم معرضون عن الوفاء بعهد التوراة والإنجيل قبل البعثة، وقد وجب عليكم اتِّباعهما، وعن الوفاء بالقرآن بعد البعثة وقد وجب عليكم اتِّباعه بعدها، ويضعف أن يقال: معرضون عن الغضب على المتولِّين، أو عن القليل الذين لم يتولَّوا بأن لم توالوهم وتحبُّوهم، **والأولى أنَّ الخطاب للآباء لأنَّ ما قبله وما بعده لهم**، نعم ما بعده لهم باعتبار آبائهم وهو قوله:

﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَكُمْ لَا تَسْفِكُونَ دِمَآءَكُمْ وَلَا تُخْرِجُونَ أَنفُسَكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ
ثُمَّ أَقْرَرْتُمْ وَأَنتُمْ تَشْهَدُونَ ﴿84﴾ ثُمَّ أَنتُمْ هَٰٓؤُلَآءِ تَقْتُلُونَ أَنفُسَكُمْ وَتُخْرِجُونَ
فَرِيقًا مِّنكُم مِّن دِيَٰرِهِمْ تَظَٰهَرُونَ عَلَيْهِم بِٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ وَإِن يَأْتُوكُمْ أُسَٰرَىٰ
تُفَٰدُوهُمْ وَهُوَ مُحَرَّمٌ عَلَيْكُمْ إِخْرَاجُهُمْ أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ ٱلْكِتَٰبِ وَتَكْفُرُونَ
بِبَعْضٍ فَمَا جَزَآءُ مَن يَفْعَلُ ذَٰلِكَ مِنكُمْ إِلَّا خِزْيٌ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَيَوْمَ
ٱلْقِيَٰمَةِ يُرَدُّونَ إِلَىٰٓ أَشَدِّ ٱلْعَذَابِ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿85﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ
ٱشْتَرَوُا۟ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا بِٱلْءَاخِرَةِ فَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ ٱلْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴿86﴾﴾

بعض حالات مخالفة اليهود الميثاق

﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ﴾ أي: أذكروا وقت أخذ العهد على آبائكم، ﴿لَا تَسْفِكُونَ دِمَآءَكُمْ﴾ أي: لا يقتل بعضكم بعضًا، أو لا تقتلون أمثالكم، **وجاءت العبارة بذلك لأنَّهم كنفس واحدة نَسَبًا ودينًا، فمن قتل غيره كأنَّه قتل** نفسه، وأيضًا هو كمن قتل نفسه بالقصاص؛ لأنَّه تعرَّض لأن يُقتصَّ منه، وكذا فيما أشبه هذا.

﴿وَلَا تُخْرِجُونَ أَنفُسَكُم مِّن دِيَارِكُمْ﴾ لا يخرج بعضكم أنفُسَ بعض، ومن أخرج أخاه كمن أخرج نفسه؛ لأنَّهم إخوة دينًا ونسبًا، أو لا تفعلون ما يوجب سفك دمائكم أو إخراجكم من دياركم، أو لا تهلكون أنفسكم بالمعاصي كمن قتل نفسه بحيث لا يلتذُّ كميِّت، إذا كان لا ينال لذَّات الجنَّة، ولا تصرفونها عن دياركم في الجنَّة.

﴿ثُمَّ أَقْرَرْتُمْ﴾ اعترفتم بأنَّ ذلك الميثاق حقٌّ فقبلتموه، ومِن لَازِمِ ما يُقَرُّ به أنَّه حقٌّ أَن يُقْبَل. و«ثُمَّ» لترتيب الأخبار باتِّصال، أو في الرتبة بالتراخي؛ لأنَّ رتبة الإقرار أقوى. ﴿وَأَنتُمْ تَشْهَدُونَ﴾ على أنفسكم، تأكيدٌ لـ«أَقْرَرْتُمْ» في المعنى، أو أَقْرَرْتُمْ: قبلتم وأنتم تشهدون على القبول، أو أنتم معشر المعاصرين له ﷺ تشهدون على إقرار أسلافكم لتوسُّط الأنبياء والرواة إليكم بينكم وبينهم، وضعِّف بأنَّه يكون حينئذٍ استبعاد الإجلاء والقتل منهم، مع أنَّ أخذ العهد والميثاق كان من أسلافهم.

﴿ثُمَّ أَنتُمْ﴾ يا معاصري محمَّد ﷺ ﴿هَؤُلَآءِ﴾ أَخُصُّ هؤلاء، أو يا هؤلاء، أو أنتم المشار إليهم المعهودون، وكأنَّه قيل: بماذا؟ فأجيب بما بعدُ. وأجاز الكوفيُّون أنَّ «هَؤُلَاءِ» بمعنى الذين، فتكون صلته هي قوله: ﴿تَقْتُلُونَ أَنفُسَكُمْ وَتُخْرِجُونَ فَرِيقًا مِّنكُم مِّن دِيَارِهِمْ﴾ وذلك الإخراج بالاستعانة عليهم، كما قال: ﴿تَظَّاهَرُونَ﴾ تتعاونون ﴿عَلَيْهِم بِالاِثْمِ﴾ فعل ما يُستحَقُّ به الذمَّ، أو نفس هذا الذي يُستحَقُّ به الذمَّ، أو ما يُنفَرُ عنه ﴿وَالْعُدْوَانِ﴾ الظلم الشديد.

﴿وَإِنْ يَّاتُوكُمْ﴾ ذلك الفريق الذين تخرجونهم من ديارهم وقت الحرب ﴿أُسَارَى تُفَادُوهُمْ﴾ بالمال أو بغيره كالرجال، العرب في المدينة وأعمالها: الأوس والخزرج، واليهود: قريظة والنضير وبني قينقاع.

[تاريخ] وكان بين الأوس والخزرج حروب، فكانت قريظة حلفاء الأوس، والنضير حلفاء الخزرج، ولم يكن بين اليهود مخالفة ولا قتال، وإنَّما يقاتلون لحلفائهم، فإذا أسرت الأوس أو الخزرج يهوديًّا فداه النضير وقريظة جميعًا، وفي الحرب يقتل القرظيُّ النضيريَّ والنضيريُّ القرظيَّ، ويخرب بعضهم دار بعض، ويخرجه منها معاونة لحلفائهم، يقال لهم: ما هذا؟ فيقولون: القتل والإخراب لأجل حلفائنا لا نستذلُّهم، وهو مخالف

لما عُهد في التوراة، ولذلك نفاديهم لأنَّا أمرنا بالفداء، فأحلُّوا بعضًا وحرَّموا بعضًا، فكأنَّهم حرَّموا جميعًا، وَأَمَّا بنو قنيقاع فلم يقتلوا ولم يخرجوا أحدًا من داره، ولم يظاهروا. وضرب الجزية عليهم؛ لأنَّهم لم يؤمنوا وبقوا في ديارهم.

﴿وَهُوَ﴾ أي: الشأن ﴿مُحَرَّمٌ﴾ خبر مقدَّم ﴿عَلَيْكُمْ إِخْرَاجُهُمْ﴾ مبتدأ. أي: الشأن أنَّ إخراجهم من ديارهم محرَّم عليكم، كما عاتبهم بقوله: ﴿وَتُخْرِجُونَ فَرِيقًا مِّنكُم مِّن دِيَارِهِمْ﴾. حرَّم الله عليهم إخراج إخوانهم وقتلهم في التوراة، وفيها بعد ذلك: «وأيُّما عبد أو أمَة وجدتموه من بني إسرائيل فاشتروه بكلِّ ما وجدتم، وأعتقوه».

﴿أَفَتُؤمِنُونَ﴾ أتتعدَّون الحدود فتؤمنون ﴿بِبَعْضِ الْكِتَابِ﴾ التوراة، وبعضُها هو فداء من وجدوه منهم أسيرًا عند الأوس أو الخزرج، ﴿وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ﴾ بعض الكتاب، وهو ترك القتل والإخراج والمظاهرة، وهم لم يتركوا القتل إذ يقتلون بعضهم بعضًا في الحرب معاونة لحلفائهم، ولم يتركوا الإخراج ولا المظاهرة.

[أصول الدين] وفي الآية تنزيل ترك العمل بالكتاب منزلة الكفر، أي: الشرك، فإنَّهم آمنوا بالتوراة كلِّها لكن نافقوا، ومِنْ لازِمِ الإيمانِ بالشيء العمل بمقتضاه بذلك، ويحتمل أنَّ ذلك في دينهم شرك. وفيه أنَّ الشرك لا تختلف الشرائع فيه، قيل: أو سمِّي ذلك شركًا مبالغة، **أو المراد: بالكفر كفر الجارحة وهي الفسق.**

وقيل عن ابن عبَّاس ﵄: عادة قريظة القتل، وعادة النضير الإخراج، فأجلى رسول الله ﷺ النضير وقتل قريظة وأسر نساءهم وأطفالهم، جازى كلًّا بما كان يفعل.

﴿فَمَا جَزَآءُ مَن يَفْعَلُ ذَٰلِكَ مِنكُمْ إِلَّا خِزْيٌ﴾ ذلٌ ﴿فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ بقتل سبعمائة من قريظة في السنة الثالثة[1] عقب الأحزاب، وأَسَرَ نساءهم وأطفالهم، وضَرَبَ الجزية على باقيهم، وضَرَبَ الجزية على بني النضير ثمَّ أجلاهم إلى الشام، ولا جزية عليهم بعد الإجلاء لأنَّ الشام فُتح بعده ﷺ، ولو كان قد تصرَّف في بعضه بالتمليك.

﴿وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يُرَدُّونَ إِلَىٰٓ أَشَدِّ الْعَذَابِ﴾ هو أشدُّ مِمَّا لقوا في الدنيا وفي القبر، فلا يرد أنَّ المنكر لله وعبدة الأصنام أشدُّ منهم عذابًا إلَّا من كان منافقًا بإضمار نوع من الشرك، أو بإسرار إلى بعض فإنَّ عذابه في الدرك الأسفل، والمراد التصيير إلى عذاب أشدَّ لا إلى عذاب كانوا فيه؛ ولا شكَّ أنَّ عذاب النار أشدُّ من عذاب القبر وعذاب الدنيا، وزاد أيضًا بالدوام. ولا يتصوَّر أنَّ عذاب النافي لله دون عذابِ اليهودِ والنصارى والفاسقِ، بل أعظم. ﴿وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ﴾ فهو لعلمه بما عملوا يجازيهم على صغيره وكبيره. وصغائر المشرك كلُّها كبائر.

﴿أُوْلَٰٓئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُاْ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا﴾ لذَّتها ومتاعها ﴿بِالْآخِرَةِ﴾ فباعوا ما لهم فيها من الخير بالدنيا، بأن ضيَّعوا دينهم لأجل تحصيل الدنيا ﴿فَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ الْعَذَابُ﴾ في الآخرة، أو فيها وفي الدنيا؛ ﴿وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ﴾ يُمنعون عنه البتَّة؛ أو لا يُنصرون بترك الجزية.

---

(1) كذا في النسخ المعتمدة، ولعلَّ ذلك وهمٌ من الشيخ، إذ إنَّ غزوة الأحزاب وحوادثها وقعت في السنة الخامسة لا الثالثة.

﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ وَقَفَّيْنَا مِنۢ بَعْدِهِۦ بِٱلرُّسُلِ ۖ وَءَاتَيْنَا عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَأَيَّدْنَٰهُ بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ ۗ أَفَكُلَّمَا جَآءَكُمْ رَسُولٌۢ بِمَا لَا تَهْوَىٰٓ أَنفُسُكُمُ ٱسْتَكْبَرْتُمْ فَفَرِيقًا كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ ﴿87﴾ وَقَالُوا۟ قُلُوبُنَا غُلْفٌۢ ۚ بَل لَّعَنَهُمُ ٱللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَقَلِيلًا مَّا يُؤْمِنُونَ ﴿88﴾ وَلَمَّا جَآءَهُمْ كِتَٰبٌ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ وَكَانُوا۟ مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَلَمَّا جَآءَهُم مَّا عَرَفُوا۟ كَفَرُوا۟ بِهِۦ ۚ فَلَعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿89﴾﴾

موقف اليهود من الرسل والكتب المنزَّلة

﴿**وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ**﴾ المعهود: التوراة، أو الجنس فيشمل الصحف المنزَّلة عليه قبلها ﴿**وَقَفَّيْنَا مِنۢ بَعْدِهِ بِالرُّسُلِ**﴾ التشديد للمبالغة، والباء للتعدية، والمفعول محذوف، أي: قَفَوْنا (بتخفيف الفاء) بالرسل، أي: تَبعناه بالرسل، أي: أتبعناه الرسل، وهذا أولى من جعل التشديد للتعدية إلى آخر، والباء صلة، أي: قفَّيناه الرسل؛ لأنَّ كثرة مجيئه في القرآن تُبعد هذا.

[تاريخ] والرسل: يوشع وشمويل وشمعون وداود وسليمان وأشعياء وأرميا وعزير وحزقيل وإلياس واليسع ويونس وزكرياء ويحيى وغيرهم. ويقال: عدد الأنبياء بين موسى وعيسى عليهما السلام سبعون ألفًا، وقيل: أربعة آلاف، وكلُّهم على شريعة موسى عليه السلام، وبينهما ألف سنة وتسعمائة سنة وخمس وعشرون سنة، **ولا حجَّة لهذه الأعداد والعلم عند الله**.

ومعنى إتباع الرسل من بعده الإتيان من بعده برسول، وبآخر بعده، وباثنين في زمان وبثلاثة في آخر، وما أشبه ذلك من انفراد رسول بزمان، ومن تعدُّده في زمان ـ كما مرَّ ـ أنَّهم قتلوا سبعين نبيًا في يوم واحد، وروي أنَّه لم يطق موسى أن يحمل التوراة فأعانه الله على حملها بملائكة عدد حروفها فلم يقدروا فخفَّفها الله بالنقص فحملها. ويبعد ما قيل: إنَّ المراد بإيتاء التوراة إفهامه معانيها له.

[لغة] ﴿وَءَاتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ﴾، لفظ عيسى سريانيٌّ أو عبرانيٌّ، قولان، كما هو مراد القاموس بـ«أو» على عادته وليس ترديدًا، وهو معرَّب من إيسوع، بهمزة بين بين، أو مكسورة، ومعناه: المبارك أو السيِّد، وقيل: اليشون بالشين المعجمة، أبدلت سينًا.

[لغة] ومريم بالسريانيَّة الخادم، سُميت لأنَّها أريد بجنين هو هي أن يكون خادمًا لبيت المقدس لو كان ذكرًا، أو معنى مريم العابدة، والعابدة خادمة لله عَزَّ وَجَلَّ. وفي لغة العرب: مريم المرأة التي تحبُّ التكلُّم مع الرجال ومخالطتهم، وعليه فمعنى مريم المرأة التي لا تحبُّ ذلك، كقولهم للأسود كافورًا. وقيل: تتحدَّث معهم ولا تفجر. وقيل: من شأن من تخدمها الرجال والنساء أن تتحدَّث معهم فسمِّيت بذلك.

﴿الْبَيِّنَاتِ﴾ المعجزات كإحياء الموتى وإبراء الأكمه والأبرص، والإخبار بالغيوب، وليس المراد الإنجيل كما قيل؛ لأنَّ اليهود كفروا به، فإنَّما يقمعون بتلك المعجزات، والآية في قمعهم وذكر عيوبهم، إذ لم يستقيموا مع المعجزات، لا بالإنجيل؛ لأنَّه ليس معجزًا. وخصَّ عيسى مع أنَّه من الرسل بعد موسى لأنَّه جاء بالإنجيل ناسخًا لبعض التوراة، فلم يكن كمن قبله من أتباع موسى. **﴿وَأَيَّدْنَاهُ﴾** قوَّيناه **﴿بِرُوحِ الْقُدُسِ﴾** جبريل يسير معه حيث سار مقارنًا له من حين ولد إلى أن رفعه الله إلى السماء ابن ثلاث وثلاثين سنة.

[لغة] وسمِّي جبريل روحًا تشبيهًا بروح الإنسان مثلاً في أنَّ كلًّا جسم لطيف نورانيٌّ، وأنَّ كلًّا مادَّة للحياة، فما يجيء به جبريل من الوحي لحياة القلوب كالروح لحياة الأبدان، وأضيف للطهر لطهارته عن مخالفة الله ﷻ. قيل: خصَّ بذلك اللفظ لأنَّه من ولادته كحاله بعد الرسالة. ولا تقلْ: ذلك من إضافة المنعوت إلى النعت، وأنَّ الأصل: الروح المقدَّسة، أو ذات القدس، بل من إضافة الشيء إلى حال من أحواله، ليُخَصَّ به أو يعرف أو يُمدح أو لنحو ذلك. أو روح القدس روحٌ مِن مُلك الله[1]، أو روح عيسى أضيفت للقدس، لعظم شأنه، أو لأنَّه منزَّه عن مسِّ الشيطان، فتنزيهه تنزيه لروحه، أو أضيفت لكرامته على الله، أو لأنَّه لم يكن في رحم حيض، وقيل: حاضت حيضتين، وحملته ذات عشر سنين أو ثلاث عشرة. أو روح القدس: الإنجيل، كما قال الله في شأن القرآن: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنَ اَمْرِنَا﴾ [سورة الشورى: 52]. أو اسم الله الأعظم، كما أنَّ القُدُّوس اسمه. وقيل: القدس اسمه والاسم الأعظم غيره. وقيل: إنَّه اسمه الأعظم الذي كان يحيي به الموتى. وقيل: لأنَّه قصده سبعون ألف يهوديٍّ لقتله فظهره الله عنهم.

﴿أَفَكُلَّمَا جَآءَكُمْ رَسُولٌ﴾ أفعلتم ما فعلتم، أو أكفرتم فكلَّما جاءكم رسول ﴿بِمَا لَا تَهْوَىٰ﴾ تحبُّ ﴿أَنفُسُكُمُ﴾ من الحقِّ ﴿اسْتَكْبَرْتُمْ﴾ أي: أتكبَّرتم كلَّ وقت مجيء رسول بما لا يوافق هواكم عن اتِّباعه. ﴿فَفَرِيقًا﴾ منهم ﴿كَذَّبْتُمْ﴾ كعيسى. وقدَّم التكذيب لأنَّه عامٌّ منهم، لمن لم يقتلوه ولمن قتلوه، ولأنَّه سبب للقتل. ﴿وَفَرِيقًا﴾ منهم ﴿تَقْتُلُونَ﴾ تحقيقًا، كيحيى وزكرياء، وفي قتل زكرياء خلاف، أو حكمًا كما قصدوا قتل عيسى فخابوا. والمراد: قتلتم، ولكنَّ المضارع تنزيل لما مضى من القتل منزلة الحاضر المشاهَد، أو الموجودين الآن منزلة من مضى وحضر؛ لأنَّ مشاهدة الشيء أقوى.

---

(1) وفي نسخة (ج): «روح ملك الله».

وخوطبوا بالقتل والتكذيب لرضاهم عن آبائهم الفاعلين لذلك، ولأنَّهم يحاولون قتل النبيء ﷺ بإلقاء الصخرة، وبسمِّ الشاة؛ قال ﷺ: «**ما زالت أكلة خيبر تعاديني ـ أو تعاودني ـ فالآن قطعت أبهري**»[1] فمات بقتلهم وغير ذلك.

[بلاغة] والجملتان عطفتا على «اسْتَكْبَرْتُمْ» لا على «أَيَّدْنَا» كما أجازه بعض، وقدَّم «فَرِيقًا» في الموضعين على طريق الاهتمام وللتشويق إلى ما بعد. وكذا تقول بالتشويق في سائر القرآن إذا صلح المقام له؛ وقلت: على طريق، لأنَّ الله عَزَّ وَجَلَّ منزَّه عن الاهتمام. وبدأ بالتكذيب لأنَّه أوَّل ما يفعلونه، ولأنَّه المشترك بين المكذَّب والمقتول.

﴿**وَقَالُواْ**﴾ للنبيء ﷺ استهزاء به ﷺ ﴿**قُلُوبُنَا غُلْفٌ**﴾ جمع أَغْلَف، كحُمْرٍ جمع أحمر، طُبعت على أن لا يصل إليها ما يُذكَر من الوعظ والأمر والنهي، كشيء متغطٍّ أغلف بغطاء حسِّيٍّ، فالآية تشبيه أو استعارة كما في: «زيد أسد». ولا يوجد في اللغة الغلفة بمعنى الرين حقيقة، بل مجاز كما أريد في الآية.

والرين واقع في قلوبهم تحقيقا. وكَذَبُوا في قولهم: خُلِقَتْ لا يصل إليها ذلك؛ لأنَّهم متمكِّنون من الفهم وأعرضوا ـ كلُّ مولود يولد على الفطرة ـ فذلك الإعراض كان به الرين، وبعضهم فَهِمَ الحقَّ وجحد، وذلك الجحود رينٌ، والرين غطاء لما بعد ذلك، أو فعلوا ما يورثهم الإعراض والجحود، وذلك الفعل رينٌ مانعٌ عن النظر والقبول وترك الجحود. أو جمع غلاف فأصْله ضمُّ اللَّام، سُكِّن تخفيفا، ككتاب وكتب. أي: أوعية للعلم؛ فلو كان قولك حقّاً لَوَعَتْه، أو استغنينا بما فيها من العلم بالتوراة. أو بسلامة الفطرة عن غيره كما يَمنعُ الغلافُ الزيادة.

---

(1) رواه أبو نعيم في الحلية في كتاب الطبِّ، من حديث أبي هريرة.

﴿ بَلْ ﴾ أي: ليس كما قالوا من الخلقة على عدم الفهم، أو امتلائها علمًا، ومن عدم حقِّيَّة ما يقول محمَّد ﷺ. ﴿لَّعَنَهُمُ اللهُ﴾ أبعدهم بالخذلان عن القبول، ﴿ بِكُفْرِهِمْ ﴾ أي: بكفرهم السابق الذي جرَّ إليهم قولهم: ﴿ قُلُوبُنَا غُلْفٌ ﴾، ولم تأبه قلوبهم لعدم كونه حقًّا فإنَّه حقٌّ، ولكن خذلهم الله ﷻ، أو أبعدهم عن رحمته بكفرهم هذا الذي هو قولهم: ﴿ قُلُوبُنَا غُلْفٌ ﴾.

﴿فَقَلِيلاً مَّا﴾ صلة لتأكيد القلَّة ﴿يُومِنُونَ﴾ أي: يؤمنون إيمانًا قليلاً جدًّا لقلَّة ما آمنوا به، أو لقلَّة من آمن، أو زمانًا قليلا، فإنَّ قلَّة ما آمنوا به قلَّة لزمان يوقع فيه الإيمان، ولو كثر ما أومن به لكثر زمان الإيمان، إذ تنزل الآية فيؤمنون بها، وتنزل الأخرى في زمان فيؤمنون وهكذا... وقلَّة من آمن قلَّة لزمان إيقاع الإيمان، إذ لو كثر من آمن لوقع إيمان هذا في زمان وهذا في زمان آخر، وهكذا... فتكثر أزمنة إيقاع الإيمان، وَأَمَّا قولهم: ﴿ءَامِنُواْ بِالَّذِي أُنزِلَ عَلَى الَّذِينَ ءَامَنُواْ وَجْهَ النَّهَارِ وَاكْفُرُواْ ءَاخِرَهُ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ...﴾ الآية [سورة آل عمران: 72]، فلا تفسَّر به القلَّة هنا لأنَّها غير حقيقة؛ لأنَّها خدعة وكذب، وهنا حقيقة. أو أراد بالقلَّة النفي، كما جاء أنَّه ﷺ: «يقلُّ اللغوَ»، ولا مانع من ذلك؛ وقيل: المراد إيمانهم حال الاحتضار تحقيقًا، لكن لا يُقبل.

﴿وَلَمَّا جَآءَهُمْ﴾ أي: اليهود المعاصرين للنبيء ﷺ ﴿كِتَابٌ﴾ هو القرآن ﴿مِّنْ عِندِ اللهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ﴾ هو التوراة وغيرها من كتب الله والأخبار المكتوبة. ومعنى تصديقه إيَّاها أنَّه نزل بحسب ما نعت فيها هو ـ أعني القرآن ـ وما نُعت فيها النبيء ﷺ، وما يختصُّ ببعثه ﷺ، ونحو ذلك ممَّا لم ينسخه القرآن، وليس المراد أنَّه موافق للكلِّ، والقرآن لإعجازه لا يحتاج إلى ما يصدِّقه.

﴿وَكَانُوا مِن قَبْلُ﴾ قبل بعثته ﷺ ﴿يَسْتَفْتِحُونَ﴾ اللهَ، أي: يستنصرونه ﴿عَلَى الَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ مشركي العرب، من الأوس والخزرج المجاورين لهم

إذا نالوا منهم سوءًا وغضبوا لدينهم قالوا: «اللهمَّ انصرنا عليهم بالنبيء المبعوث آخر الزمان الذي نجد صفته في التوراة» ويضعون أيديهم على اسمه فيها، فينصرون، وهو نبيئنا محمَّد ﷺ.

[سبب النزول] وقال لهم معاذ وبشر بن البراء: «اتَّقوا الله وأسلموا فقد كنتم تستفتحون علينا بمحمَّد ونحن أهل شرك»، فقال: سلام بن مشكم: ما جاء بشيء نعرفه وما هو بالذي نذكره، فنزلت الآية. أو يستفتحون يملون ويخبرون العرب أنَّ نبيئًا يبعث الآن نقاتلكم معه قتل عاد وإرم، كما يقال: «فتح المأموم على الإمام» إذا أخبره بما توقَّف فيه، وكانوا يقاتلون غطفان فتغلبهم غطفان في كلِّ وقعة، فكانوا يقولون: «اللهمَّ إنَّا نسألك بالنبيء الأمِّيِّ ﷺ الذي وعدتنا أن تبعثه آخر الزمان انصرنا عليهم» فينصرون، فلمَّا بُعث كفروا به فنزلت: ﴿وَكَانُوا مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ...﴾ الآية. أو يستخبرون: هل وُلد؟.

﴿فَلَمَّا جَآءَهُم مَّا عَرَفُواْ﴾ في التوراة وغيرها من النبيء ﷺ وصفاته وعلاماته وكتابه **﴿كَفَرُواْ بِهِۦ﴾** حسدًا وخوفًا على زوال رئاستهم وما يُعطَوْن.

[نحو] وجواب «لَمَّا» الأولى يقدَّر كجواب الثانية تأكيدًا، أي: كفروا به، أو تأسيسًا مدلولاً عليه بجواب الثانية، أي: استهانوا، أو ردُّوه، أو امتنعوا أو نحو ذلك، أو جوابها: «كفروا» فتكون الثانية أعيدت لبعد الأولى، كقوله: ﴿أَيَعِدُكُمُوٓ أَنَّكُمُوٓ إِذَا مِتُّمْ وَكُنتُمْ تُرَابًا وَعِظَامًا اَنَّكُم مُّخْرَجُونَ﴾ [سورة المؤمنون: 35] فأعاد «أنَّكم»، وعلى هذا الوجه أقحمت الفاء للإشعار بأنَّ ذلك عقب استفتاحهم. قيل: أو «لَمَّا» وما بعدها جواب للأولى كقوله تعالى: ﴿فَإِمَّا يَاتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدًى فَمَن تَبِعَ هُدَايَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [سورة البقرة: 38]، ويردُّه أنَّ جواب «لَمَّا» لا يقرن بالفاء إلَّا نادرًا جدًّا، ولا سيما أنَّه فعل ماض مجرَّد.

وكذا لا يقبل قول بعض: إنَّ الجواب هو قوله: ﴿**فَلَعْنَةُ اللهِ عَلَى الْكَافِرِينَ**﴾ إذ قرن بالفاء، وإذ هو جملة اسميَّة، الذين سبقت لهم الشقاوة أنس يموتوا كافرين.

وهكذا لا يدخل في لعن الكافرين في القرآن إلَّا من قضى الله أن يموت كافرا. والمراد في الآية الجنس أو الاستغراق، فتدخل اليهود ببرهان أنَّ الكافر ملعون أوَّلا وبالذات، بمعنى أنَّ الكلام سيق لهم، وهكذا وكذا كلَّما قلت أوَّلا وبالذات. أو المراد اليهود، وعليه فذكروا باسم الكفر لا بالضمير ذمًّا وتصريحا بموجب اللعن.

﴿ بِئْسَمَا اشْتَرَوْا بِهِ أَنفُسَهُمْ أَن يَكْفُرُوا بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ بَغْيًا أَن يُنَزِّلَ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ عَلَىٰ مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ فَبَاءُوا بِغَضَبٍ عَلَىٰ غَضَبٍ وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿90﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ آمِنُوا بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ قَالُوا نُؤْمِنُ بِمَا أُنزِلَ عَلَيْنَا وَيَكْفُرُونَ بِمَا وَرَاءَهُ وَهُوَ الْحَقُّ مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَهُمْ قُلْ فَلِمَ تَقْتُلُونَ أَنبِيَاءَ اللَّهِ مِن قَبْلُ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿91﴾ ﴾

كفرهم بما أنزل الله وقتلهم الأنبياء

﴿ **بِئْسَمَا اشْتَرَوْا** ﴾ استبدلوا ﴿ **بِهِ أَنفُسَهُمْ** ﴾ أو باعوها باختيار الكفر، أو اشتروا أنفسهم في زعمهم من العذاب بتصلُّبهم في دينهم جازمين، ولو عرفوا ما جاء ﷺ به، كما قال ﷻ: ﴿ فَلَمَّا جَاءَهُم مَّا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ ﴾. ﴿ **أَن يَكْفُرُوا** ﴾ مخصوص بالذمِّ، أي: هو كفرهم ﴿ **بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ** ﴾ من القرآن. والكفر ماض غير مستقبل، لكن قال: ﴿ أَن يَكْفُرُوا ﴾ لاستحضار الأمر الماضي بمنزلة المستقبل المترقَّب الوقوع، ليشاهَد ويعايَن.

[نحو] وإنَّما قلت ذلك لأنَّ المضارع المنصوبَ للاستقبال، وهذا أولى من أن يقال: المضارع هنا للحال، ليكون الأمر كالمشاهد، وأنَّه لم تخلِّصه «أَنْ» للاستقبال.

﴿ **بَغْيًا** ﴾ طلبًا لما ليس لهم، أي: حسدًا أو ظلمًا، تعليل لـ«يَكْفُرُوا»، أي: أن يكفروا لأجل البغي، أو تعليل لـ«اشْتَرَوْا»، ولو فُصل لِقلَّة الفاصل. أو ذوي

بغي أو باغين. ووجه تعليقه بـ«اشْتَرَوْا» أنَّ المعنى على ذمِّ الكفر الذي أوثر على الإيمان بغيًا، لا على ذمِّ الكفر المعلَّل بالبغي. وأيضًا إبدال أنفسهم بالكفر هو لمجرَّد العناد الذي هو نتيجة البغي والحسد، كأنَّه قيل: بئس استبدال أنفسهم بالكفر لأجل محض الحسد ﴿أَن يُنَزِّلَ اللَّهُ﴾ على أن ينزِّل الله الوحيَ، أو لأنْ ينزل، على أنَّه تعليلٌ لِـ«بَغْيًا». ﴿مِن فَضْلِهِ عَلَى مَنْ يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِ﴾ حسدوا محمَّدا على رسالته ﷺ، إذ كان من العرب ومن ولد إسماعيل لا منهم ولا من ولد يعقوب، أو نبيء من أنبيائهم. ﴿فَبَآءُوا بِغَضَبٍ﴾ هو هذا الكفر ﴿عَلَى غَضَبٍ﴾ استلحقوه من قبلُ لتضييع التوراة، والكفر بعيسى والإنجيل، وقولهم: عزير ابن الله، وقتلهم الأنبياء ونحو ذلك...

والمراد اجتماع غضبات عليهم، وتكرُّرها عليهم هكذا عمومًا. أو الأوَّل لعبادة العجل، أو قولهم عزير ابن الله، ويد الله مغلولة ونحو ذلك... والكفر بالإنجيل أو بعيسى، والثاني: الكفر بالقرآن أو به ﷺ. ﴿وَلِلْكَافِرِينَ﴾ مثل الكافرين في الآيةِ قَبلُ. ﴿عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾ مذلٌّ، جُوزُوا بما حاولوا من أن يذلُّوا المسلمين بدعوى فضلهم عليهم، والمذلُّ الله، وأسند الإذلال إلى السبب.

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ ءَامِنُوا بِمَآ أَنزَلَ اللَّهُ﴾: القرآن، أو القرآن والتوراة وغيرها من كتب الله ووحيه، وهذا إشارة إلى أنَّهم كفروا بالتوراة كلِّها إذْ كفروا ببعضها، وإلى أنَّهم كفروا بكتب الله ووحيه كلِّها إذ كفروا ببعض التوراة، فإنَّه من كفر بكتاب أو بعضه أو بنبيء فقد كفر بجميع الكتب والأنبياء. ﴿قَالُوا نُومِنُ﴾ نستمرُّ على الإيمان ﴿بِمَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا﴾ أي: كلِّفنا به في كتبنا، مع أنَّهم لم يؤمنوا بها إذ كفروا ببعضها.

﴿وَيَكْفُرُونَ بِمَا وَرَآءَهُ﴾ أي: سوى ما أنزل إلينا وهو التوراة، كقوله: «ليس وراء الله منتهى»؛ أو بمعنى بعده، والمراد على الوجهين: القرآن؛ لقوله تعالى: ﴿وَهُوَ﴾ أي: ما وراءه ﴿الْحَقُّ مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَهُمْ﴾ فإنَّ هذا في القرآن مستعمل

للقرآن؛ ولا مانع من أن يراد بـ«مَا وَرَاءَهُ» كتب الله، فإنَّها كلَّها حقٌّ مصدِّق للتوراة؛ لأنَّها كلَّها أمر بالتوحيد وطاعة الله واتِّباع كتبه ورسله. ويقال: ما وراءه هو القرآن والإنجيل، كما أنَّ التوراة مصدِّقة أيضًا لغيرها من كتب الله.

ثمَّ إنَّه إمَّا أن يخصِّص ما أنزل الله بالتوراة والقرآن أو يعمِّم ـ وهو الحقُّ ـ لجميع ما سوى التوراة. وعلى كلِّ حال تناقَضَ كلامهم؛ لأنَّ كفرهم بما وراءه حال الإيمان بالتوراة يستلزم عدم الإيمان به، ووجه الحصر التقييد بالحال وهو «مصدِّقًا» فإنَّ غير القرآن والإنجيل ولو صدَّق ما عندهم لكن لم يذكر فيه تصديق ما عندهم باسمه، ولكن فيه أنَّ التصديق بالموافقة يكفي، ولعلَّ الحصر هنا غير مرادٍ، أو يراد حصر غيرِ ما شُهر، وهو معنى ﴿وهو الحقُّ﴾ لا غير الحقِّ.

﴿قُلْ﴾ لهم يا محمَّد، أو من يصلح للمناظرة ﴿فَلِمَ تَقْتُلُونَ﴾ يقتل آباؤكم ورضيتم بقتلهم وصوَّبتم، وتتعاطون مثل فعلهم لو وجدتم ﴿أَنبِيَآءَ اللهِ مِن قَبْلُ إِن كُنتُم مُّومِنِينَ﴾ بالتوراة، ولقد نُهيتم فيها عن قتل الأنبياء وغيرهم، وعن سائر الظلم. أو «إِنْ» نافية، أي: ما كنتم مؤمنين بما خالفتموهم. ويجوز أن يكون قولهم: ﴿نُومِنُ بِمَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا﴾ بمعنى: نؤمن به نحن وأسلافنا، أي: نؤمن به كما آمن أسلافنا، فلمَّا ادَّعوا إيمانهم وإيمان أسلافهم توجَّه الاعتراض عليهم بأنَّكم وآباءَكم إن آمنتم بالتوراة فلم قتلوا الأنبياء؟ فيكون ﴿فَلِمَ تَقْتُلُونَ﴾ تغليبًا.

﴿وَلَقَدْ جَآءَكُم مُّوسَىٰ بِالْبَيِّنَٰتِ ثُمَّ اتَّخَذْتُمُ الْعِجْلَ مِنۢ بَعْدِهِۦ وَأَنتُمْ ظَٰلِمُونَ ﴿92﴾ وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ الطُّورَ خُذُوا مَآ ءَاتَيْنَٰكُم بِقُوَّةٍ وَاسْمَعُوا قَالُوا سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَأُشْرِبُوا فِى قُلُوبِهِمُ الْعِجْلَ بِكُفْرِهِمْ قُلْ بِئْسَمَا يَأْمُرُكُم بِهِۦٓ إِيمَٰنُكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿93﴾﴾

تكذيب ادِّعائهم الإيمان بالتوراة

﴿**وَلَقَدْ جَآءَكُم مُّوسَىٰ بِالْبَيِّنَاتِ**﴾ كفلق البحر، والمنِّ والسلوى، وتظليل الغمام، وإحياء القتيل، ورفع الطور فوقهم، وانفجار الماء من الحَجر، وهذا أولى من تفسير بعض العلماء الآيات بدلائل التوحيد، والعموم أولى.

وليس هذا وما بعده تكريرا لما تقدَّم؛ لأنَّه أُمِر أن يقوله لهم، فهو من جملة المحكيِّ بـ«قُلْ» في قوله: ﴿قُلْ فَلِمَ تَقْتُلُونَ...﴾ مشيرا إلى أنَّ طريقتهم مع محمَّد طريقتهم مع موسى عليه السلام، وأيضا سيقت لإبطال دعواهم في الإيمان بالتوراة، وللتلويح بأنَّ كفرهم بمحمَّد ليس بأعجب من كفرهم بموسى، وإن قلنا كرَّر ﴿**وَلَقَدْ جَآءَكُم مُّوسَىٰ**﴾ لإبطال دعواهم الإيمان بالتوراة، أو لبيان أنَّ طريقتهم معه ﷺ طريقتهم مع موسى ﷺ جاز أن يقدَّر: «قائلين»، أو: «قلنا خذوا...» إلخ على أنَّ خذوه غير داخل في الحكاية بـ«قُلْ».

﴿**ثُمَّ اتَّخَذتُّمُ الْعِجْلَ**﴾ عجل السامريِّ إلها تعبدونه، أو اتَّخذتم العجل بمعنى صوَّرتموه، ونصّ التوراة: «لا تعملوا صوَرًا»، فتصوير الرأس أو مع الجسد محرَّم، ولو لم يُعبد. والتوراة نزلت بعد اتِّخاذه بمدَّة قريبة. و«ثُمَّ»

للاستبعاد، أو لأنَّهم فعلوا ذلك بعد مهلة من النظر في الآيات، وذلك فعل لآبائهم خوطِبوا به، فجرى الخطاب على مقتضى أنَّهم فعلوه، لرضاهم عن آبائهم عن ذلك. وبهذا الاعتبار يصحُّ أن يراد بالبيِّناتِ التوراةُ، فلا يُعترض بأنَّ اتَّخاذ العجل قبل التوراة.

﴿مِنۢ بَعْدِهِ﴾ بعد ذهابه إلى الميقات، أو بعد مجيئه بالبيِّنات، كما قال: ﴿وَلَقَدْ جَآءَكُم مُّوسَىٰ بِالْبَيِّنَاتِ﴾، وقيل: الاتِّخاذ بعد رجوعه من الميقات، وهو ضعيف. ﴿وَأَنتُمْ ظَالِمُونَ﴾ أنفسَكم باتِّخاذ العجل، وظالمون لمن يقتدي بكم، ولدين الله والزمان والمكان، ولِنعم الله، إذ وضعتموها في غير محلِّها، وهكذا تستحضر بعد، أو أنتم عادتكم الظلم قبل الاتِّخاذ فينتج منكم الاتِّخاذ وغيره.

﴿وَإِذَ اَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ﴾ على التوراة درسا وتفهُّمًا وعملا، والحال أنَّا رفعنا الطور كما قال: ﴿وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ الطُّورَ﴾ يسقط عليكم إن امتنعتم من قبولها، مقولا لكم أو قائلين لكم: ﴿خُذُواْ مَآ ءَاتَيْنَاكُمْ﴾ جعلناه آتيا إيَّاكم ﴿بِقُوَّةٍ﴾ باجتهاد وترك الكسل والفتور، كما هو عادة المنافقين ﴿وَاسْمَعُواْ﴾ سماع إجابة، ﴿قَالُواْ سَمِعْنَا﴾ قولَك بآذاننا ﴿وَعَصَيْنَا﴾ بقلوبنا وجوارحنا، لا نعتقد أمرك ولا تعمل به جوارحُنا، كلُّ ذلك باللسان، أو سمعنا بلسان القال وعصينا بلسان الحال، أو سمعنا قبلُ أحكامًا وعصينا.

﴿وَأُشْرِبُوا﴾ أشربهم الشيطان بالوسوسة، أو أشربهم اللهُ بالخذلان، أو موسى إذ بَرَدَ بالمبْرَدِ العجلَ وأسقاهم بُرادته، كما يأتي إن شاء الله، جعل مخالطًا كما يخالط الشرابُ أعماق البدن، أو كما يدخل الصبغ الثوب، وهذا على أنَّه من الإشراب بمعنى دخول لونٍ على لونٍ. ﴿فِي قُلُوبِهِمُ الْعِجْلَ﴾ حبَّ العجل، ورسخ كما رسخ الماء في محلِّه من العطشان، أو الصبغ في الثوب. قيل: ولك أن لا تقدِّر «حُبَّ» بأن رسخت صورته وشغفوا بها، وفيه

بُعدٌ، إذ لا بدَّ من حكم يعرض على ذات، فيقدَّر «شـغف» أو «حبّ»، ووجهه المبالغة بأنَّه كأنَّه نفسه مشروب، وبأنَّه مثل قولك: فلان يأكل في جميع بطنه، إذا بالغ في الأكل.

وذكر القلوب مـع أنَّ الحبَّ لا يكون إلَّا فيها، ليجمـع بين مزيد التقرير والتأكيد، وبيان أنَّ الْمُشرَبَ الحبُّ إذ لم يُذكر، ولفائدة البيان بعد الإجمال أو بعد الإبهام، فإنَّ محلَّ الشـرب في المعتاد البطن، واختار الإشراب لأنَّ الماء أبلغ مساغا في البدن، ومطيَّة الأغذية والأدوية.

وقيل: برَدَه موسـى بالمبـرد وألقاه في المـاء وأمرهم بشـربه، فمن أحبَّه خرجت بُرادته إلى شفتيه، **وهو قولٌ باردٌ**، ويردُّه ذكر القلوب أو يضعِّفه. وقيل: رُبِط إلى قلوبهم كما يشرب البعير، بمعنى: شدَّ في عنقه حبلٌ يمسك به.

﴿**بِكُفْرِهِمْ**﴾ بسـبب كفرهم السـابق على اتِّخاذ العجل، كفرَ شركٍ، وهم مجسِّمةٌ يجيزون ألوهيَّة الأجسام، أو حلوليَّةٌ يجيزون حلول اللهِ أو الألوهيَّة منه في الأجسـام ـ زادهم الله عذابا في الدنيا والآخرة ـ ﴿**قُلْ بِيسَـمَا يَامُرُكُم بِهِ إِيمَانُكُمُ**﴾ بالتوراة والمخصوص بالذمِّ عبادة العجل. تهكَّم عليهم بأنَّ إيمانهم بالتـوراة أمرَهم بعبادة العجـل، فذلك نفي للإيمان بهـا؛ لأنَّ الإيمان يورث العلم والحكمة والفهم والإيمانَ بمحمَّد ﷺ، لا عبادةَ غير الله، ولا سيما أبلد الحيوان وهو البقر ولا سـيما صغيره. أو المخصوص قتل الأنبياء ونحوه، أو قولكم: ﴿**عَصَيْنَا**﴾ أو كلُّ ذلـك، **وما ذكرتُه أوَّلاً أولـى.** ﴿**إِنْ كُنتُم مُّومِنِينَ**﴾ بها، متَّصلٌ بما قبله. أو إن كنتم مؤمنين فاعملوا بما فيها. أو فلا تقتلوا الأنبياء ولا تكذِّبوا الرسلَ ولا تكتموا الحقَّ. أو ما كنتم مؤمنين إذ خالفتموهم إنكارا أو فسقا، فـ«إِنْ» نافية.

﴿ قُلۡ إِن كَانَتۡ لَكُمُ ٱلدَّارُ ٱلۡأٓخِرَةُ عِندَ ٱللَّهِ خَالِصَةٗ مِّن دُونِ ٱلنَّاسِ فَتَمَنَّوُاْ ٱلۡمَوۡتَ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ٩٤ وَلَن يَتَمَنَّوۡهُ أَبَدَۢا بِمَا قَدَّمَتۡ أَيۡدِيهِمۡۚ وَٱللَّهُ عَلِيمُۢ بِٱلظَّٰلِمِينَ ٩٥ وَلَتَجِدَنَّهُمۡ أَحۡرَصَ ٱلنَّاسِ عَلَىٰ حَيَوٰةٖ وَمِنَ ٱلَّذِينَ أَشۡرَكُواْۚ يَوَدُّ أَحَدُهُمۡ لَوۡ يُعَمَّرُ أَلۡفَ سَنَةٖ وَمَا هُوَ بِمُزَحۡزِحِهِۦ مِنَ ٱلۡعَذَابِ أَن يُعَمَّرَۗ وَٱللَّهُ بَصِيرُۢ بِمَا يَعۡمَلُونَ ٩٦ ﴾

حرص اليهود على الحياة

﴿قُلِ اِن كانَتْ لَكمُ الدّارُ الاَخِرَةُ﴾ الجنَّة نفسها أو نعيمها، وليست الدار الآخرة انقضاء الدنيا، بل انقضاؤها اليومُ الآخر، والنار أيضا دار آخرة، والعهد والسياق ينفيان إرادتها ﴿عِندَ اللهِ﴾ في حكمه، أو عنديَّة ﴿خَالِصَةً﴾ لم يشبها النقص بثبوت بعضها لغيركم، بمعنى صافية حقيقة، أو خاصة بكم مجازا من دُونِ النَّاسِ كما قلتم: ﴿لَنْ يَّدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَن كَانَ هُودًا اَوْ نَصَارَى﴾ [سورة البقرة: 111]، و﴿نَحْنُ أَبْنَـآؤُاْ اللهِ وَأَحِبَّآؤُهُ﴾ [سورة المائدة: 18]، و﴿لَن تَمَسَّنَا النَّارُ إِلَّآ أَيَّامًا مَّعْدُودَةً...﴾ إلخ [سورة البقرة: 80]. ولم يخلق الله الجنَّة إلَّا لإسرائيل وبنيه.

ثمَّ إمَّا أن يريدوا بالنَّاس سائرهم بعد الخاصَّة، فيستثنون إبراهيم وإسحاق ويعقوب ونحوهم، ومن دعواهم الباطلة أنَّ هؤلاء يهوديُّون؛ ويَستثنون أيضا آدم ونوحا ونحوهما ومن مات قبل اليهوديَّة. وإمَّا أن يعملوا ولا يستثنوا هؤلاء ولا غيرهم؛ لأنَّ من شأنهم إنكار ما عَرفوا من الحقِّ واعتقدوه، كما أنكروا رسولَ الله ﷺ وعيسى، والقرآنَ والإنجيل، وكثيرا من التوراة، مع

معرفتهم بهم، وكما قالوا: ﴿مَآ أَنزَلَ اللهُ عَلَىٰ بَشَرٍ مِّن شَيْءٍ﴾ [سورة الأنعام: 91]، وإمَّا أن يريدوا النبيء ﷺ والمسلمينَ من أمَّته.

﴿فَتَمَنَّوُا الْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ في دعوى اختصاص الجنَّة بكم، فإنَّ من أيقن بذلك يحبُّ الإفضاءَ إليها من دار البؤس والأكدار.

والمسلمون ولو لم يتمنَّوا الموت لكنَّهم لا يخصِّصون أنفسهم بها، بل يقولون: هي لكلِّ مؤمن من الأمم. والأمر بالتمنِّي مسبَّب عن دعواهم، وذلك نقيض التالي، هكذا: لو اختصصتم بها لتمنَّيتم الموتَ لكنَّكم لا تتمنَّونه فليست مختصَّة بكم، وتمنِّي ما يختصُّ بك أعظم من تمنِّي ما شورِكتَ فيه، وقد تمنَّاه مَن صَدَقَ في دعواه كقول عمَّار: «غدًا نلقى الأحبَّة محمَّدا وأصحابه»، وحذيفة إذ قال: «مرحبا بحبيب جاء على فاقة»، وقوله ﷺ في قتلى بئر معونة: «**يا ليتني غودرت معهم في لحف الجبل**»[1]، وعبد الله بن رواحة:

«يا حبَّذا الجنَّة واقترابَها طيِّبةً وباردٌ شرابُها
والرومُ رومٌ قد دنا عذابُها»

﴿وَلَن يَتَمَنَّوْهُ أَبَدًا بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ﴾ من تحريف التوراة وسائر معاصيهم، والكفرِ بمحمَّد ﷺ والقرآنِ، لِعلمهم أنَّه على الحقِّ فتخوَّفوا من عقاب الآخرة على إنكاره، ومَن لم يعتقد منهم نبوءته فما قدَّمت يده عنده هو غير إنكاره ﷺ ﴿وَاللهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ﴾ الجاحِدين. والآية إخبار بالغيب إذ لم يقدروا أن يتمنَّوا، ودلالة على نبوءته ﷺ، وأنَّهم لو لم يوقنوا لتمنَّوْا، ولا سيما إذا قلنا: التمنِّي هنا التلفُّظ، فلم يقدروا أن يتلفَّظوا بالتمنِّي، ولو مع

(1) رواه أحمد، عَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللهِ قَالَ سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَقُولُ إِذَا ذُكِرَ أَصْحَابُ أُحُدٍ: «أَمَا وَاللهِ لَوَدِدْتُ أَنِّي غُودِرْتُ مَعَ أَصْحَابِ نُحْصِ الْجَبَلِ»، يَعْنِي: سَفْحَ الْجَبَلِ. رقم: 15067، ج 3، ص 375.

خلوِّ قلوبهم منه، ولو وقعَ لنُقِل، ولو تمنَّــوا لماتوا في موضعهم بالريق، كما روي عن ابن عبَّـاس موقوفا، وروي عنــه مرفوعا، وفي روايــة عنه مرفوعا: «**لو أنَّ اليهود تمنَّوا الموت لماتوا**»[1]، وعنه موقوفا: «**ما بقي على وجه الأرض يهوديٌّ إلَّا مات**».

﴿**وَلَتَجِدَنَّهُم**﴾ الخطاب لرســول الله ﷺ أو لمن يصلــح، وكذا في جميع القرآن بحسب الإمكان، والأوَّل أولى، والهاء لليهود المخاطبين، ويلتحق بهم اليهود الباقون؛ وقيل: للجنس. ﴿**أَحْرَصَ النَّــاسِ عَلَى حَيَاةٍ**﴾ نوع من الحياة، وهي المتطاولة لقوله تعالى: ﴿**يَوَدُّ أَحَدُهُمْ لَوْ يُعَمَّرُ أَلْفَ سَــنَةٍ**﴾، والآية تدلُّ على أنَّ لغيرهــم أيضًا حرصًــا على الحيــاة الطويلة إلَّا أنَّهــم أحرص؛ لأنَّ «أَحْرَصَ» اسم تفضيل، فإنَّ الحرص على الحياة في طباع المؤمن وغيره، وفي الحديث القدســيِّ: «**إنَّ المؤمن يكــره الموت وأنا أكره مســاءته**»[2]، وإنَّه قد يحرص المؤمن على الحياة ليكثر العبادة، إلَّا أنَّه ليس ذلك منه مذمومًا، وقد يحمل الحديث عليه.

﴿**وَمِنَ الَّذِينَ أَشْــرَكُواْ**﴾ المجوس وعبدة الأصنام من العرب، وكانت المجوس يقولون للعاطس: «عش ألف سنة».

[نحو] عُطِفَ علــى المعنى، ويقال في غير القــرآن: عطف توهُّمٍ؛ لأنَّ معنى «أحرص الناس من الناس»، أي: من ســائرهم، أو يقدَّر «أحرص من الذين أشــركوا»، أو يقدَّر: «ومن الذين أشــركوا أناس يودُّ أحدهم»، وعلى الوجهين الأوَّلين يكون «يودُّ...» إلخ مســتأنفا، أو حالاً من «الَّذِينَ»، أو واوِ «أشركوا» أو من الهاء.

---

(1) ذكره **الآلوسيُّ** في تفسيره، ونســبه إلى البخاري. انظر: ج 1، ص 328. وأورده ابن كثير نقلا عن ابن جرير الطبري، ج 1، ص 222.

(2) رواه **البخاري** في كتاب الرقاق، باب التواضع، رقم: 6137، عن أبي هريرة.

وذكرُهم مع دخولهم في الناس زيادة في التوبيخ لهم بأنَّهم مع إقرارهم بالبعث والحساب أشدُّ حرصا ممَّن يعبد الصنم وينكر البعث.

وبيَّن حرص اليهود بقوله: ﴿**يَوَدُّ أَحَدُهُم**﴾ أي: أحد اليهود ليس المراد واحدا خاصًّا، ولكن التمثيل بالواحد كأنَّه معيَّنٌ مخصوص مشاهد ﴿**لَوْ يُعَمَّرُ أَلْفَ سَنَةٍ**﴾ أي: يودُّ تعميره ألف سنة، والنصب على الظرفيَّة، أو «لَوْ» حرف تمنٍّ محكيًّا مع ما بعده بـ«يَوَدُّ» لتضمين معنى القول، أو «لَوْ» شرطيَّة جوابها: لسرَّه ذلك. والأَلْف هي تمثيل للكثرة لا خصوص هذا العدد. وبيَّنَ حرصَهم بقوله: ﴿وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا...﴾ إلخ، على أن يراد بالذين أشركوا اليهود تصريحا بشركهم، وجاء الظاهر في موضع الضمير لذلك، على معنى: ومن المشركين ناس يودُّ... إلخ، فـ«يَوَدُّ...» إلخ نعت لمبتدأ محذوف على هذا.

﴿**وَمَا هُوَ**﴾ أي: أحدهم ﴿**بِمُزَحْزِحِهِ**﴾ مُبْعِدِهِ، خبر «مَا»، والباء صلة.

[صرف] أصله: «زَحَّحَ» أبدلت الحاء المدغمة فيها من جنس الفاء، بوزن فعَّل بشدِّ العين. وقيل: كُرِّرت الفاء فوزنه «فعفل».

﴿**مِنَ**﴾ أي: عن ﴿**الْعَذَابِ**﴾ بالنار وغيرها، من حين يموت إلى ما لا ينتهي ﴿**أَنْ يُعَمَّرَ**﴾ تعميره ألف سنة فاعل «مُزَحْزِح»، كقولك: ما زيد قائمًا أبوه. ﴿**وَاللهُ بَصِيرٌ**﴾ عليم ﴿**بِمَا يَعْمَلُونَ**﴾ كلِّه، يعذِّبهم على كلِّ صغير وكبير.

[سبب النزول] قال عبد الله بن صوريا ـ حَبر من اليهود ـ للنبيء ﷺ: «أيُّ ملَكٍ يأتيك من السماء؟» قال: «**جبريل**»، قال: «هو عدوُّنا، ينزل بالعذاب والشدَّة والخسف، عادانا مرارا، لو كان ميكائيل لآمنَّا بك». وقيل: سأل عبد الله بن صوريا عمرَ: «من يأتي محمَّدا من السماء؟» فقال: «جبريل»، فقال: «هو عدوُّنا...» إلخ.

وقيل: كان لعمر أرض بأعلى المدينة، ويمرُّ على اليهود في مدارسهم، ويجلس إليهم، ويسألهم، ويسمع كلامهم، فقالوا: «ما في أصحاب محمَّد أحبُّ إلينا منك، وإنَّا نطمع فيك»، فقال: «والله ما آتيتكم لحبِّكم، ولا لأنِّي شاكٌّ في ديني، بل لأزداد بصيرة في أمر محمَّد ﷺ وأرى أثره في كتابكم». فقالوا: «من يأتيه من السماء؟» قال: «جبريل»، قالوا: «هو عدوُّنا، يُطلع محمَّدا على سرِّنا، وهو صاحب عذاب وخسف وشدَّة؛ وإنَّ ميكائيل يأتي بالخصب والسلامة، ولو كان يأتيه هو لآمنَّا، وإنَّ محمَّدا رسول الله، وإنَّ بين جبريل وميكائيل عداوة»، وقال عمر: «أشهد أنَّهما سِلمٌ، ومع الله سِلمٌ، ومن عادى جبريل فهو حربٌ لله ولميكائيل، ولأنتم أكفرُ من الحمير» - أي: أجهل -. وقيل: سألهم عمر عن جبريل فقالوا: «يأتي بالشرِّ، ولو كان يأتي محمَّدا ميكائيل لآمنَّا به».

وعن عبد الله بن صوريا: «عادانا مرارا، أشدُّها: أنَّ نبيئنا بعث من يقتل بخت نصر، وهو طفل؛ لأنَّه يخرب بيت المقدس، فردَّه، فقال: إن قضى الله تعالى خرابه لم تقتلوه، وإلَّا فلمَ تقتلونه؟ فرجع فكَبُر بخت نصر فخربه».

وعلى كلٍّ حالٍ نزل في ذلك قوله تعالى:

﴿قُلْ مَن كَانَ عَدُوًّا لِّجِبْرِيلَ فَإِنَّهُۥ نَزَّلَهُۥ عَلَىٰ قَلْبِكَ بِإِذْنِ ٱللَّهِ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَهُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ۝97 مَن كَانَ عَدُوًّا لِّلَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَرُسُلِهِۦ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَىٰلَ فَإِنَّ ٱللَّهَ عَدُوٌّ لِّلْكَٰفِرِينَ ۝98﴾

موقف اليهود من جبريل والملائكة والرسل

﴿**قُلْ**﴾ لهم ﴿**مَن كَانَ عَدُوًّا لِّجِبْرِيلَ...**﴾ إلخ. و«جبريل» عَلَم عجميٌّ، وزعم بعض أنَّه عَلَمٌ عربيٌّ مركَّب من جبروت الله، وفيه أنَّه لو كان كذلك لورد فيه وجهان آخران: البناء، وإضافة الجزء الأوَّل للثاني، كنظائره، قال ﷺ لعمر رضي الله عنه ـ وقد سبقه الوحي ـ: «**لقد وافقكَ ربُّك يا عمر**» قال عمر: «لقد كنتُ بعد ذلك أَصلَبَ من الحديد». والمعنى من كان عدوًّا لجبريل لمجيئه بالعذاب والقرآن الفاضح لهم، فهو عدوٌّ لله؛ لأنَّه هو الذي أرسله؛ أو فلْيَمُت غيظًا؛ أو فلا وجه لعداوته؛ أو فلِعداوته وجهٌ هو أنَّه نزَّله على قلبك، كقولك: «إن عاداك فقد آذيته أمس» وناب عن الجواب علَّته، وهو قوله: ﴿**فَإِنَّهُ**﴾ أي: جبريل، أو الشأن، أو الله لأنَّه ﴿**نَزَّلَهُ**﴾ أي: القرآنَ المستتر في «نَزَّلَ» لجبريل، أو لله ﷻ ﴿**عَلَى قَلْبِكَ**﴾ مقتضى الظاهر: «على قلبي» لقوله: ﴿**قُلْ**﴾، لكن قال: ﴿**عَلَى قَلْبِكَ**﴾؛ لأنَّ المعنى: قل ذلك لأنَّه نزل على قلبك. وقيل: التقدير: قال الله: مَن كَانَ... إلخ. ولم يقل: عَلَيَّ، أو عليك تصريحا بالقلب الذي هو محلُّ النزول، وبيتٌ لوحي الله والفهم والحفظ.

[نحو] ولا يجوز أن يكون: ﴿فَإِنَّهُ...﴾ إلخ تعليلا لما قبله، ويقدَّر الجواب: فليمت غيظا، أو فالله عدوُّه؛ لأنَّ فاء التعليل عاطفة على جملة، ولا يصحُّ العطف على ﴿مَن كَانَ عَدُوًّا لِّجِبْرِيلَ﴾، ولو صحَّ معنًى قولُك: «لأنَّهُ نَزَّلَه...» إلخ.

﴿بِإِذْنِ اللهِ﴾ بأمره في صورة القول وتيسيره في صورة الفعل، وأصل الإذن الإباحة، والعلاقة اللزوم ﴿مُصَدِّقًا﴾ حال من هاء «نَزَّلَهُ» العائدة إلى القرآن، أو من ضمير «نَزَّلَ». ﴿لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ من كتب الله التوراة وغيرها، والموجود هو بين اليدين، وَأَمَّا ما سيوجد فهو مفقود لا يصحُّ أنَّه موجود بين اليدين، ويصحُّ بمعنى أنَّه مستقبل ﴿وَهُدًى﴾ من الوقوف لعدم العلم، ومن العمل بغير علم، وهذا في غير هذا المحلِّ ﴿وَبُشْرَى﴾ بالجنَّة، ذا هدى، وتبشيرا، وهاديا ومبشِّرًا، أو مبالغة. ﴿لِلمُومِنِينَ﴾.

﴿مَن كَانَ عَدُوًّا لِّلهِ﴾ بأن قال: إنِّي عدوٌّ له، أو بمخالفته ﴿وَمَلَآئِكَتِهِ وَرُسُلِهِ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَآئِلَ﴾ خصَّهما بالذكر لأنَّ الكلام في عداوتهم جبريل ومصادقتهم لميكائيل، فصرَّح لهم بأنَّ ميكائيل قد عادوه أيضا، لمخالفتهم جبريل وما نزل به من الوحي، ولأنَّ جبريل يجيء بالوحي الذي هو حياة للقلوب، وميكائيل يجيء بالأرزاق التي هي حياة الأبدان، ولأنَّهم قالوا: بين جبريل وميكائيل عداوة. ورواية أنَّ عمر رضي الله عنه نطق بهذه الآية قبل نزولها ضعيفة. وجبريل أفضل الملائكة؛ لأنَّه رسول الله إلى الأنبياء بالكتب والدين، ولأنَّه ينصر رسول الله ﷺ وأمَّته ويحبُّهم، ولقوله ﷺ: «**جبريل أفضل الملائكة**»[(1)].

﴿فَإِنَّ اللهَ عَدُوٌّ لِّلْكَافِرِينَ﴾ أي: لليهود، لكفرهم؛ ولهذا لم يقل: عدوٌّ لهم. **وهكذا أمثاله في سائر القرآن ولو لم أنبِّه عليه من وضع الظاهر موضع**

(1) ذكره الآلوسي رواية عن الطبراني، بسند ضعيف، عن ابن عبَّاس.

المضمر؛ لأنَّ تعليق الحكم بالمشتقِّ يؤذن بكونه علَّة للحكم، والآية دلَّت أنَّه من عادى ملَكا كجبريل فقد عادى الآخَرين أيضا، كميكائيل.

وقد جمع الملائكةَ جميعا والرسلَ ليفيد أنَّ من عادى واحدا من جمع الملائكة فقد عادى الآخر، ومن عادى واحدا من الأنبياء كمحمَّد ﷺ فقد عادى الأنبياء كلَّهم ﷺ؛ وَأَمَّا ما روي أنَّ عبد الله بن سلَّام قال: «أسألك عن ثلاثة لا يعلمهنَّ إلَّا نبيءٌ: أوَّل أشراط الساعة، وأوَّل طعام يأكله أهل الجنَّة، وما ينزع الولد لأبيه أو أمِّه» فقال: «أتاني بهنَّ جبريل آنفا» فقال: «هو عدوُّ اليهود» فقد أنزلت قبله، ولكن قرأها عليه[1].

(1) رواه البخاري في كتاب الأنبياء 2، قول الله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَآئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾، رقم: 3151. ورواه أحمد في مسنده، ج4، ص217، رقم: 12057، في حديث طويل عن أنس.

﴿وَلَقَدْ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ ۖ وَمَا يَكْفُرُ بِهَآ إِلَّا ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿99﴾ أَوَكُلَّمَا عَٰهَدُوا۟ عَهْدًا نَّبَذَهُۥ فَرِيقٌ مِّنْهُم ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿100﴾ وَلَمَّا جَآءَهُمْ رَسُولٌ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ نَبَذَ فَرِيقٌ مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ كِتَٰبَ ٱللَّهِ وَرَآءَ ظُهُورِهِمْ كَأَنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿101﴾﴾

كفرهم بالقرآن ونقضهم العهود

﴿وَلَقَدَ انزَلْنَآ إِلَيْكَ ءَايَاتِۭ بَيِّنَاتٍ﴾ يا محمَّد، القرآن المعجز والمعجزات الأخرى، وذلك ردٌّ على قول ابن صوريا: «ما جئتنا بشيء يصدِّقك في دعوى النبوءة». فإنَّ معنى «بَيِّنَاتٍ» واضحات المعنى والدلالة على نبوءته التي يدَّعيها ﴿وَمَا يَكفُرُ بِهَآ إِلَّا الفَاسِقُونَ﴾ إلَّا اليهود لفسقهم، أو جنس الفاسقين، فدخلت اليهود ببرهان الفسق.

وقال مالك بن الصيفي: «والله ما عهد إلينا في محمَّد عهد في التوراة» فنزل: ﴿أَوَكُلَّمَا﴾ أكفروا وكلَّما؟ ﴿عَاهَدُواْ﴾ لله ﴿عَهْدًا﴾ على أن يؤمنوا بالنبيء ﷺ إن بُعث، أو عاهدوا النبيء ﷺ أن لا يعينوا عليه المشركين. وقد قيل: نزلت في قول اليهود: «لئن خرج لنومننَّ به، ولنقاتلنَّ معه العرب المشركين»، ولَمَّا بُعث كفروا به. وقيل في قريظة والنضير نقضوا عهودا له. ﴿نَّبَذَهُ﴾ طرحه ﴿فَرِيقٌ مِّنْهُم﴾ بنقضه، وهذا الفريق هو الأكثر، والفريق الآخر لم ينقضوا ولكن لم يؤمنوا. ﴿بَلَ اكْثَرُهُمْ لَا يُومِنُونَ﴾ أي: كلُّهم لا يؤمنون، مَن نَقض ومَن لم ينقض، فاستعمل الأكثر بمعنى الكلِّ لقلَّة من آمن،

كاستعمال القلَّة بمعنى النفي، أو أراد بالأكثر ظاهره، وأنَّ الفريق الآخر القليل لم ينقضوا وهم آمنوا، وهم عبد الله بن سلام وأهله، والذي قال: «ما ننتظر، واللهِ لقد علمتم أنَّ محمَّدا هو رسول الله فأعينوه»، فقالوا: «لا ننقض السبت»، فخرج وقال: «لا سبت لكم»، فقاتل يوم السبت. أو أراد أنَّ الأكثر نقضوا جهرا، والأقلَّ خفاء.

﴿وَلَمَّا جَآءَهُمْ رَسُولٌ﴾ عيسى عَلَيْهِ السَّلَامُ ﴿مِّنْ عِندِ اللهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ﴾ من التوراة بالإنجيل ﴿نَبَذَ فَرِيقٌ مِّنَ الَّذِينَ أُوتُواْ الْكِتَابَ﴾ التوراة ﴿كِتَابَ اللهِ﴾ الإنجيل، وهذا لأسلافهم عوتبوا به لأنَّهم على ملَّتهم إذ جاءهم محمَّد بالقرآن مصدِّقا للتوراة فنبذه فريق منهم، وهم الأكثر، أو الرسول سيِّدنا محمَّد ﷺ و«كِتَابَ اللهِ» القرآن، أو «كِتَابَ اللهِ» الذي نبذوه هو التوراة، نبذوها بإنكار القرآن، أو الإنجيل نبذهما الذين على عهده ﷺ، وليس المراد الذين على عهد سليمان كما قال بعضٌ محتجًّا بقوله تعالى بعد ذلك: ﴿وَاتَّبَعُواْ مَا تَتْلُواْ...﴾ إلخ [الآية: 102]؛ لأنَّ النبذ عند مجيء رسول الله ﷺ لا يُتصوَّر منهم.

وقال السُّدِّيُّ: لَمَّا جاءهم محمَّد عارضوه بالتوراة، فاتَّفقت التوراة والقرآن، فنبذوا التوراة لموافقة القرآن لها، وأخذوا بكتاب «آصف» وسحر «هاروت وماروت» فلم يوافق القرآن، فهذا قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا جَآءَهُمْ رَسُولٌ...﴾ إلخ ﴿وَرَآءَ ظُهُورِهِمْ﴾ لم يعتنوا به إذ لم يعملوا بما فيه من الفرائض، والإيمان برسول الله ﷺ، ولم ينتهوا عمَّا نهوا فيه كالشيء الحقير الملقى وراء الظهر لجامع عدم المبالاة، فلم ينفعهم أن أدرجوه في الحرير وحَلَّوْه بالفضَّة والذهب الإبريز، وقد سمَّاه الله «كِتَابَ اللهِ» تعظيمًا له، وتهويلاً لِما اجترؤوا عليه، من نبذه وراء الظهر ﴿كَأَنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ أنَّ التوراة كتاب الله، وأنَّ فيها نبوءة محمَّد ﷺ.

وهم خمس فرق:

- فرقة آمنوا بها وقاموا بحقِّها، وعملوا بما لم ينسخه الإنجيل منها، كعبد الله بن سلام، وهم الأقلُّون المفهومون مفهوم مخالفة من قوله: ﴿أَكْثَرُهُمْ﴾، كأنَّه صرَّح بهم إذ فُهموا بالقيد.

- وفرقة نبذوها جهرا، وهم المذكورون بقوله: ﴿نَبَذَهُ فَرِيقٌ﴾ وهم عالمون بأنَّها حقٌّ.

- وفرقة نبذوها في خفاء جهلا بأنَّها حقٌّ، وهم الأكثرون في قوله تعالى: ﴿بَلَ اَكْثَرُهُمْ لَا يُومِنُونَ﴾.

- وفرقة علموا أنَّها حقٌّ، وتمسَّكوا بها ظاهرا، ونبذوها خفية عنادا أو تجاهلا، وهم في قوله: ﴿كَأَنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾.

- وفرقة علموا أنَّها حقٌّ، ولا يتمسكون بها ظاهرا.

وهذه قسمة متعيِّنة صحَّت بالعناية المقصودة في التقسيم، فلا يضرُّنا جواز دخول الخامسة فيما قبلها. والعدد من حكم المجموع المتوزِّع في الآيات، مع أنَّ الضمائر فيها لليهود مطلقا.

﴿وَاتَّبَعُوا مَا تَتْلُوا الشَّيَاطِينُ عَلَى مُلْكِ سُلَيْمَانَ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَانُ وَلَكِنَّ الشَّيَاطِينَ كَفَرُوا يُعَلِّمُونَ النَّاسَ السِّحْرَ وَمَا أُنْزِلَ عَلَى الْمَلَكَيْنِ بِبَابِلَ هَارُوتَ وَمَارُوتَ وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّى يَقُولَا إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِ بَيْنَ الْمَرْءِ وَزَوْجِهِ وَمَا هُمْ بِضَارِّينَ بِهِ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَيَتَعَلَّمُونَ مَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنْفَعُهُمْ وَلَقَدْ عَلِمُوا لَمَنِ اشْتَرَاهُ مَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ خَلَاقٍ وَلَبِئْسَ مَا شَرَوْا بِهِ أَنْفُسَهُمْ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ (102) وَلَوْ أَنَّهُمْ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَمَثُوبَةٌ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ خَيْرٌ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ (103)﴾

اشتغال اليهود بالسحر والشعوذة والطلاسم

﴿**وَاتَّبَعُوا**﴾ معطوف على قوله: ﴿وَلَمَّا جَاءَهُمْ...﴾ إلخ عطفَ قصَّة على أخرى ﴿**مَا**﴾ أي: السحر وما تأخذ الكهنة عن الشياطين، وما تضمُّ إليه من الأكاذيب. ﴿**تَتْلُوا الشَّيَاطِينُ**﴾ تتبَع، أو تقرأ على الناس، أي: ما تلت، ولكن نزَّل الحال الماضية منزلة الحاضرة كأنَّها تشاهد، فليس ممَّا يترتَّب على «نَبَذَ» الذي هو جواب لـ«مَا»، إلَّا على ما مرَّ من أنَّ القرآن وافق التوراة فنبذوها، وأخذوا بكتاب «آصف»، وسحر «هاروت وماروت»، فلم يوافق القرآن، فهذا قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا جَاءَهُمْ رَسُولٌ مِّنْ عِنْدِ اللهِ...﴾ الآية.

﴿**عَلَى مُلْكِ سُلَيْمَانَ**﴾ في عهد ملكه، أي: زمانه، أو «عَلَى» بظاهرها فيتضمَّن «تَتْلُو» معنى تتقوَّل، أي: تكذب.

[سبب النزول] قالت اليهود: انظروا إلى محمَّد يخلط الحقَّ بالباطل، يذكر سليمان في الأنبياء، إنَّما كان ساحرًا يركب الريح، وكانوا لا يسألونه عن شيء إلَّا أنزل عليه، فقالوا: محمَّد أعلم بما أنزل إلينا منَّا، فسألوه عن السحر فنزل: ﴿وَاتَّبَعُوا مَا تَتْلُوا...﴾ الآية.

وقيل: «مُلْك سُلَيْمَانَ»: كرسيُّه. ﴿وَمَا كَفَرَ﴾ أشرك ﴿سُلَيْمَانُ﴾ فإنَّ السحر الذي تتلوه الشياطين تضمَّن إشراكًا، كدعوى أنَّ الساحر خَلق كذا، أو حوَّل الشيخ شابًّا، أو الإنسان حمارًا، أو الطبيعة علَّة تغني عن الله، وكدعوى أنَّ السحر حلال، وما لم يكن فيه شركٌ ففسقٌ، فلا مانع من أنَّ الكفر شامل لذلك كلِّه، وهذا كما عند هذه الأمَّة، ويحتمل أنَّه عند من قبلنا شرك مطلقًا، وما فعل سليمان ذلك وما علَّمه ﴿وَلَكِنَّ الشَّيَاطِينَ كَفَرُواْ﴾ إذ فعلوه وعلَّموه الناس، كما فسَّر الكفر بقوله: ﴿يُعَلِّمُونَ النَّاسَ السِّحْرَ﴾. والمراد بالشياطين في الموضعين متمرِّدو الجنِّ، أو المعنى الموجود في الحقيقة وهي متمرِّدو الجنِّ، وفي المجاز وهو هنا متمرِّدو الإنس، وذلك المعنى هو مطلق التمرُّد، وذلك عموم المجاز؛ وقيل: شياطين الإنس.

[فقه] وتعلُّم السحر للعمل به أو لتعليمه أو للرياء به حرام، وللحذر منه أو لتعليمه من لا يَعصِي به فمباح، أو لغيره فمكروه، أو مباح أو حرام، أقوال. وعن أحمد: إنَّ السحر شرك ولو لم يعتقد حلَّه، ولا تضمَّنَ خصلة شرك.

[قصص] دَفَنَ سليمان عليه السلام كُتُبَ السحر وما يلقيه مسترقو السمع من الملائكة إلى الكهنة مِن صِدْقٍ وكَذِبٍ في صندوق تحت كرسيِّه، وقد شاع في الناس أنَّ الشياطين تعلم الغيب، وقال: من قال ذلك قَتَلْتُه!. وَلَمَّا مات قال شيطان في صورة إنسان لنفر من بني إسرائيل: احفروا تحت الكرسيِّ تستخرجوا منه ما لا يفنى، وأراهم المكان فقالوا: أُدْنُ، فقال: مِنْ هُنَا، وإن لم تجدوا

فاقتلوني، وكان لا يدنو منه شيطان إلَّا احترق فأخرجوها[1]، وقال لهم: إنَّ سليمان ضبط الثقلين والطير بها؛ وفشا في الناس أنَّه ساحر، ورفضوا كتب الله، إلَّا العلماء والصالحين علموا أنَّ ذلك ليس من علمه بل نبيء يعمل بتأييد الله، وما زال قول السوء عليه حتَّى بُعث رسول الله ﷺ فأنزل عليه براءته من السحر.

[قصص] وقيل: دفنها «صخر» تحت الكرسيِّ، حين قبض الخاتم من زوجه الأمينة، وكان يضعه عندها بجنابته أو حاجة الإنسان، وقال: أعطيني الخاتم، فأعطته ظنَّته سليمان، فلبسه وقعد على الكرسيِّ، وأذعن له الخلق، وجاء سليمان يطلبه منها فقالت: ما أنت هو، قد أخذه سليمان، وطار بعد أربعين يومًا، وألقاه في البحر على طريقه، فبلعته سمكة فوقعت في يد سليمان فأخذه منها؛ وَلَمَّا مات استخرجوها من تحت الكرسيِّ على ما مرَّ؛ ولا مانع من ذلك. وَأَمَّا ما يقال أنَّه كان «صخر» يدخل على زوج سليمان فيطأها فمنكر لا يصحُّ!! لأنَّ أزواج الأنبياء محفوظة عن ذلك، ولو كنَّ مشركات. وأمر الجنَّ فأحضروه فحبسه في صخرة فسدَّ عليه بالرصاص والحديد في قعر البحر[2].

﴿وَمَآ أُنزِلَ﴾ عطف على «مَا تَتْلُو»، أو على «السِّحْرَ»، كأنَّه قيل: ويعلِّمونهم ما أُنزل ﴿عَلَى الْمَلَكَيْنِ﴾ من ملائكة الله، أو رجلين كالملَكين في الصلاح.

والإنزال على ظاهره، أو بمعنى الإلهام؛ وما أنزل عليهما نوع من السحر قويٌّ، بل نوع غير السحر كما يدلُّ عليه العطف، وعلى أنَّه من السحر فالعطف لتنزيله بالقوَّة منزلة تغاير الذات. ﴿بِبَابِلَ﴾ في بابل، بلد في سواد الكوفة؛ وعن ابن مسعود: هو أرض الكوفة؛ وقيل: من نَصِيبِين إلى رأس العين، سمِّيت لتبلبل ألسنة الناس عند وقوع صرح نمروذًا، ولأنَّ الله حشر الناس

---

(1) نقل القصَّةَ الطبريُّ وابنُ كثير عن الحاكم في مستدركه عن السُّدِّيِّ.

(2) ذكر القصَّة ابن كثير عن الطبري عن الأعمش عن النهال عن سعيد بن جبير عن ابن عبَّاس.

بالريح لهذه الأرض، فلم يدر أحدٌ ما يقول الآخر، ثمَّ فرَّقتهم الريح في البلاد كلٌّ بلغته، فالبلبلة تفرُّقُهم عن بابل، أو تغاير الألسنة فيها، والتغاير تفرُّق، ونزل نوح بلدة «بنوها» قرية بثمانين إنسانًا سمِّيت بهم، فأصبحوا يومًا وقد تبدَّلت ألسنتهم على ثمانين لغة، فقيل: سمِّيت بهذه الثمانين لغة. ﴿**هَارُوتَ وَمَارُوتَ**﴾ لفظان أعجميَّان، وقيل: عربيَّان من الهرت والمرت بمعنى الكسر، ويردُّه منع الصرف، واسمهما عزا وعزايا فلمَّا أذنبا سمِّيا باسم الكسر.

أباح الله لهما ملكين أو بشرين تعليم السحر ابتلاء من الله ﷻ للناس هل يتعلَّمونه وهل يعملون به؟ كما أنَّ الله خلق المعصية ونهى عنها، وخلق المحرَّمات كالخنزير ونهى عن تناولها، وكما ابتلي قوم طالوت بالشرب من النهر، أو لتمييز السحر من المعجزة، إذ كثر في ذلك الزمان مع ادِّعاء النبوءة به.

[قصص] وَأَمَّا ما روي أنَّهما ملَكان من أعبد الملائكة، تعجَّبت الملائكة من كثرة ذنوب الناس وعظمها، فقال الله: لو ركَّبت فيكم ما ركَّبت فيهم من الشهاوي لعصيتم مثلهم، فقالوا: سبحانك ما كان ينبغي لنا ذلك!. فقال: اختاروا من هو أعبدكم، فاختاروهما، فركَّبها فيهما، وأمرهما بالقضاء بين الناس، ويصعدَان مساءً، فاختصمت إليهما امرأة من لخم أو فارسيَّة ملِكة مع زوجها، فراوداها فشرطت أن يقضيا لها عليه، فقضيا لها، ثمَّ أن يقتلاه فقتلاه، وأن يشربَا خمرًا ويسجدا للصنم ففعلا، وأن تعلِّماني الاسم الذي تصعدان به، فعلَّماها، فصعدت فمسخت زهرة، فلم يقدرا على الطلوع، فالتجآ إلى إدريس في عصرهما، فشفع لهما أن يختارا عذاب الدنيا أو الآخرة، فاختاراه لأنَّه ينقطع، وعلِّقا بشعورهما أو منكوسين، يضربان بسياط الحديد إلى قيام الساعة، فبعيدٌ، ولو أنَّه ممكن.

[فقه] ولا يحكم بالكفر على قائله؛ لأنَّه لم يثبت لهما تلك المعاصي مطلقًا، بل قال: ركَّب الله فيهما ما ركَّب في البشر من الشهوة، وذلك من حين

أنزلا، وليس متأخِّرًا إلى وقت القضاء بين المرأة وزوجها، فلا يعارض بعصمة الملائكة؛ لأنَّ الله أخرجهما من شأنهما إلى شأن البشر.

وقول الملائكة: «سبحانك ما كان ينبغي لنا» تعظيم لله، لا ردٌّ لقوله: لو ركَّبتُ فيكم الشهوة لعصيتم، وهما ملكان ولو ركَّب فيهما ذلك فلا ينافي تسميتهما ملكين في الآية، وإن سلِّم ذلك فهما ملكان قبلُ، فهو مجاز بلا ضعف، والشاهد الأحاديث، والكلام في العصمة مع البقاء على شأنها بلا إخراج، وَأَمَّا مع الإخراج عن شأنها فلله أن يخرج من يشاء من أهلها إلى غيره فلا يكون معصومًا. وَأَمَّا الزهرة فالظاهر أنَّها قبل ذلك لكن بلا نصّ على قَبليَّتها، فجاءت هذه الرواية بحدوثها بنسخ المرأة إليها.

وقد روي أنَّ امرأة دخلت على عائشة ﵂ تطلب التوبة من تعلُّم السحر منهما، وأنَّ رجلا من هذه الأمَّة أتاهما ليتعلَّم فوجدهما معلَّقين بأرجلهما، مزرقَّة أعينهما، مسودَّة جلودهما، بين ألسنتهما وبين الماء أربعة أصابع يعذَّبان بالعطش.

وقد أثبت قصَّتهما الشيخ يوسف بن إبراهيم الوارجلاني[1]، ورواها مرفوعة عن أحمد وابن حبَّان والبيهقي، وموقوفة عن عليٍّ وابن مسعود وابن عبَّاس، وصحَّح السيوطي الرواية.

﴿وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنَ اَحَدٍ حَتَّى يَقُولَا﴾ له مرَّة، وهو الثابت، وقيل: ثلاثًا، وقيل: سبعًا، وقيل: تسعًا **﴿إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ﴾** ابتلاء من الله للناس.

---

(1) أبو يعقوب يوسف بن إبراهيم الوارجلاني (ت: 570هـ): ولد بمدينة وارجلان جنوب شرق الجزائر، وإليها ينسب. تفقَّه بها على منهج الإباضيَّة، ثمَّ ارتحل إلى الأندلس، فأقام في قرطبة زمن الموحِّدين، ثمَّ استقرَّ في بلده للتعليم والتأليف؛ وله عدَّة مؤلَّفات منها: «الدليل والبرهان» (مطبوع)، العدل والإنصاف (مطبوع)... وقد حُقِّق العدل والإنصاف في دراسة أكاديميَّة بتونس، وأعدَّ الباحث باجو مصطفى رسالة ماجستير في أصول الفقه عند الوارجلاني مقارنة بالغزالي، نوقشت في جامعة قسنطينة، وطبعت في سلطنة عُمان.

[فقه] فمن تعلَّمه كَفَر، ومَن تعلَّمه وعمل به كَفَر، وكذا من اعتقد أنَّه حقٌّ جائز. ومن لم يتعلَّمه أو تعلَّمه ليتَّقي ضرَّه، أو يدفع به دعوى النبوءة عمَّن ادَّعاها به، وكان مؤمنًا فهو باق على إيمانه.

﴿**فَلَا تَكْفُرْ**﴾ بتعلُّمه أو بالعمل به أو دعوى النبوءة به، فإن لم يرتدع بهذه النصيحة علَّماه. ﴿**فَيَتَعَلَّمُونَ**﴾ أي: الناس المعبَّر عنهم بـ«أَحَدٍ» في سياق السلب عطف على «وَمَا يُعَلِّمَانِ»، كأنَّه قيل: يعلِّمان الناس، بعد قولهما: «إِنَّمَا نَحْنُ...» إلخ، فيتعلَّمون، أو على «يُعَلِّمُونَ». ﴿**مِنْهُمَا**﴾ من الملكين أنفسهما، وقيل: بتوسُّط شيطانين يأخذان عنهما مرَّة في السنة ويعلِّمان الناس. أو من السحر وما أنزل على الملكين، أو من الفتنة والكفر، أي: يتعلَّمون بعضًا من كلٍّ منهما؛ وعلى الثاني: العطف على «اتَّبَعُوا»، والوجه الأوَّل أحقُّ. ﴿**مَا يُفَرِّقُونَ بِهِ بَيْنَ الْمَرْءِ**﴾ الإنسان ﴿**وَزَوْجِهِ**﴾ أي: قرينه، حليلة وحليلها، أو صاحبٍ وصاحبِه مطلقًا، بأن يُبغِّض كلًّا إلى الآخر؛ ولا مؤثِّر إلَّا الله، والله يؤثِّر السحر ويطبع الطبائع ويؤثِّر أثرها، ومن قال باستقلال شيء أشرك.

﴿**وَمَا هُم**﴾ أي: السحرة، وهذا أولى من ردِّ الضمير إلى اليهود أو الشياطين. ﴿**بِضَآرِّينَ بِهِ**﴾ أي: بالسحر، أو ما يفرِّقون به. ﴿**مِنَ اَحَدٍ اِلَّا بِإِذْنِ اللهِ**﴾ متعلِّق بـ«ضَارِّينَ»، أي: إلَّا بتقديره، ومن قال بتخليته بينه وبين المسحور لم يُرِد أنَّ السِّحر مستغنٍ عن الله ومستقلٌّ، فإنَّه لا تأثير لشيء إلَّا بالله، وكلُّ شيء مستأنف من الله ﷻ.

﴿**وَيَتَعَلَّمُونَ مَا يَضُرُّهُمْ**﴾ في الآخرة أو مع الدنيا وهو السحر. ﴿**وَلَا يَنفَعُهُمْ**﴾ زاده لأنَّه قد يضرُّ الشيء ومعه نفع، فالسحر ضرر محض.

[فقه] وَأَمَّا تعلُّمه لدفع الشبهة عن دعوى النبوءة وليتَّقيه ففي تعلُّمه خير على ما مرَّ. **والذي عندي** أنَّه لا يجوز تعلُّمه إلَّا لمن استوثق من نفسه أنَّه

لا يستعمله، ولا يعلِّمه لمن يعلم أنَّه يستعمله، أو لا يعلم حاله؛ لأنَّ للعلم بالشيء قوَّة داعية للعمل به، ولا سيما مثل هذا، والنفس داعية.

﴿وَلَقَدْ عَلِمُواْ﴾ أي: اليهود المذكورون بالسوء في عهده ﷺ، أو عهد سليمان والشياطين، والكلام متعلِّق بقوله: ﴿وَلَمَّا جَآءَهُمْ﴾ فُصل بقصَّة السحر. ﴿لَمَنِ اِشْتَرَاهُ﴾ استبدله أو اشتراه بدينه. اللام للابتداء، والجملة مفعول العِلْم، والمجموع جواب القسم. ﴿مَا لَهُ فِي الْاَخِرَةِ مِنْ خَلَاقٍ﴾ نصيب في الجنَّة لبيعه بالسحر أو تعلُّمه. ﴿وَلَبِيسَ﴾ اللام لام جواب القسم، والجملة معطوفة على الجواب السابق وهو: «لَقَدْ عَلِمُوا» ﴿مَا شَرَوْاْ﴾ باعوا ﴿بِهِ أَنفُسَهُمْ﴾ وهو الكفر مطلقا، أو السحر، أو تعلُّمه، إذ نبذوا كلام الله ـ المنجِّي من الهلاك ـ إلى ذلك الهلاك ﴿لَوْ كَانُواْ يَعْلَمُونَ﴾ أي: حقيقة ما يصيرون إليه من العذاب للكفر، أو السحر، أو تعلُّمِه، ما فعلوه، وإلَّا فقد أثبت لهم العلم في قوله: ﴿وَلَقَدْ عَلِمُواْ﴾؛ فالعلم المثبَتُ الظنُّ، أو هو العلم بأنَّ اشتراءَ النفس بالسحر مثلا مذموم بدون علم أنَّ منه ما يفعلونه، فإنَّ حبَّ الشيء يُعمي ويُصمُّ. والعلم المنفيُّ بِـ«لَوْ»: العلم بحقيقة ما يصيرون إليه، والعلم بأنَّ منه ما يفعلونه، أو التفكُّر في ذلك، أو «يَعْلَمُونَ» بمعنى: يعملون؛ لأنَّ العلم سبب للعمل وملزوم له في الجملة. ويجوز كون «لَوْ» للتمنِّي، فلا جواب لها.

﴿وَلَوَ اَنَّهُمْ ءَامَنُواْ﴾ بالنبيء ﷺ والقرآنِ، أو أراد اليهودَ مطلقا لو آمنوا بالكتب والأنبياء مطلقا ﴿وَاتَّقَوْاْ﴾ عقاب الله على الكفر والسحر والمعاصي لأُثيبوا من عند الله، دلَّ عليه ذكر المثوبة، أو للتمنِّي فلا يقدَّر لها جواب. والتمنِّي في الموضعين مصروف للناس.

[نحو] والمصدر من خبر «أنَّ» بعد «لَوْ» الشرطيَّة أو التمنِّيَّة فاعل بمحذوف، أي: لو ثبت إيمانهم واتِّقاؤهم؛ أو مبتدأ خبره محذوف وجوبا، ونُسب لسيبويه؛ أو مبتدأ لا خبر له، ووجهه اشتمال الكلام على المسند

والمسند إليه لفظًا قبل التأويل، وهو وجه سيبويه إذ قدَّر المبتدأ مع اختصاص «لَوْ» بالفعل، حيث استغنى بوجوده قبل التأويل، **والصحيح الأوَّل، وهكذا في القرآن، ولا أعيده.**

﴿**لَمَثُوبَةٌ**﴾ مستأنفة، وليس من جواب «لَوْ»؛ لأنَّ جوابها لا يكون جملة اسميَّة.

[صرف] واللَّام للِابتداء. والمعنى: ثواب. نُقلت ضمَّة الواو إلى الثاء الساكنة كمعونة، أو وَصْفٌ بمعنى المصدر، كمفعول ومصون، والأصل: «مثووبة»، نُقلت ضمَّة الواو للثاء، فحُذفت إحدى الواوين لالتقاء الساكنين، كمفتون ومعقول وصْفَيْن في الأصل وكانا بمعنى الفتنة والعقل، وهو وجه في قوله تعالى: ﴿فَسَتُبْصِرُ وَيُبْصِرُونَ بِأَيِّكُمُ الْمَفْتُونُ﴾ [سورة القلم: 5 ـ 6] أو اسم مصدر، أي: إثابة.

﴿**مِنْ عِندِ اللهِ خَيْرٌ**﴾ من كلِّ شيء، أو ممَّا استبدلوا به دينهم، وهذا مراعاة لما في استبدالهم من نفع ادَّعوه، ولا يلزم التنقيص الذي في قولك: هذا السيف خير من العصا، أو السلطان خير من الحجَّام؛ لأنَّ الكلام باعتبار القصد، والقصدُ في المثالين النقص.

وفي الآية ذمُّهم بأنَّهم مع جهلهم تظهر لهم الخيريَّة، وأيضًا ما استبدلوا به الدين في اعتقادهم عظيم، أو أنَّه فاق في الخير أكثر ممَّا فاق في استبدالهم في شرِّه، كقولك: الخلُّ أحمض من العسل، أي: زاد في حموضته على زيادة العسل في حلاوته، ولك أن تقول: «خَيرٌ» خارج عن التفضيل، أو هو بمعنى المنفعة، قابَلَ به أنَّ ما استبدلوا به غير حسن، أو أنَّه مضرَّة.

﴿**لَّوْ كَانُواْ يَعْلَمُونَ**﴾ أنَّها خيرٌ لم يستبدلوا الحقَّ بالباطل، أو «لَوْ» للتمنِّي مصروف للناس، وقس على هذا في مثله، إلَّا أنَّ الأصل الشرط لتبادره وأكثريَّته.

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَقُولُواْ رَٰعِنَا وَقُولُواْ ٱنظُرۡنَا وَٱسۡمَعُواْۗ وَلِلۡكَٰفِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ ١٠٤ مَّا يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنۡ أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِ وَلَا ٱلۡمُشۡرِكِينَ أَن يُنَزَّلَ عَلَيۡكُم مِّنۡ خَيۡرٖ مِّن رَّبِّكُمۡۚ وَٱللَّهُ يَخۡتَصُّ بِرَحۡمَتِهِۦ مَن يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلۡفَضۡلِ ٱلۡعَظِيمِ ١٠٥ ﴾

أدب الخطاب مع النبيء ﷺ ومصدر الاختصاص بالرسالة

﴿يَآ أَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَقُولُواْ﴾ للنبيء ﷺ ﴿رَٰعِنَا﴾ اعتبِرنا وانظر أحوالنا وتدبَّرْها، وتداركْ مصالحنا، وتأنَّ بنا حتَّى نفهم ما تقول، وهذا مرادهم رحمهم الله. ومن ذلك رعي الغنم ونحوها.

[لغة] والمفاعلة للمبالغة هنا، وهي بلغة اليهود سبٌّ، لَمَّا سمعوا المؤمنين يقولونها قالوها له ﷺ سبًّا في لغتهم، عبريَّة أو سريانيَّة، يتسابُّون بها بينهم، فكانوا يسبُّون بها النبيء ﷺ، وليست من الرعونة بمعنى الحمق، وإن كانت منها فممَّا توافق فيه لغة العرب والعجم، وقد يكون بين لفظ العرب ولفظهم مغايرة فيزيلونها ليوافقوا كلام العرب خداعًا للسبِّ.

[سبب النزول] وقد قيل: معناها: اسمع لا سمعت، وقالوا: كنَّا نسبُّ محمَّدا سرًّا فأعلِنوا به الآن، فيقولون: يا محمَّد، راعنا! ويضحكون فيما بينهم. ويقال: كان مالك بن صيف ورفاعة بن زيد إذا لقيا النبيء ﷺ قالا ـ وهما يكلِّمانه ـ: راعِنا سمعك، واسمَع غير مُسمَع، فظنَّ المسلمون أنَّ هذا شيءٌ يعظِّمون به الأنبياء، فنزلت الآية. ويقال: كان ذلك لغةً للأنصار في الجاهليَّة،

وكان سعد بن معاذ، أو سعد بن عبادة يعرف لغتهم، فسمعهم يقولونها للنبيء ﷺ، فقال: «يا أعداءَ اللهِ، عليكم لعنة الله، والذي نفسي بيده لئن سمعتُها من رجل منكم يقولها لرسول الله ﷺ لأضربنَّ عنقه»، قالوا: «أوَلستم تقولونها؟» فنزلت الآية قطعا لألسنة اليهود عن التدليس.

ويحتمل أن يراد: أنت راعن، أو يا راعن، أي: أحمق، فزادوا الألف وفتحوا. أو: أنت راعينا لا نبيء، فحذفوا الياء واختلسوها.

﴿وَقُولُواْ انظُرْنَا﴾ اعتبرنا حتَّى نفهم وأمهلنا، فإنَّه يقال نظره بمعنى أمهله، فلا حاجة إلى تقدير: انظر إلينا ﴿وَاسْمَعُواْ﴾ من رسول الله ﷺ سماعَ قبولٍ وعملٍ وانتهاءٍ بجدٍّ، بحيث لا تحتاجون إلى الإعادة وطلب المراعاة، لا كقول اليهود: ﴿سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا﴾ [سورة البقرة: 93] السابِّين بـ«رَاعِنَا»، ولا تكونوا أيُّها المسلمون مثلهم في طلبكم الإعادة.

﴿وَلِلْكَافِرِينَ﴾ اليهود السابِّين بـ«رَاعِنَا»، أو جملة الكافرين فدخل اليهود، وذلك السبُّ كفرٌ. ﴿عَذَابٌ اَلِيمٌ﴾.

زعم طائفة من اليهود أنَّهم يودُّون الخير للمؤمنين، فكذَّبهم الله ﷻ بقوله: ﴿مَّا يَوَدُّ﴾ يحبُّ أو يتمنَّى حسدًا ﴿الَّذِينَ كَفَرُواْ مِنَ اَهْلِ الْكِتَابِ﴾ أي: وهم أهل الكتاب، وكلُّهم كفرة، إذ لم يؤمنوا برسول الله ﷺ إلَّا من آمن كعبد الله بن سلَام. وإن جعلناها للتبعيض فالمراد البعض الأكثر، وهو خلاف الظاهر.

﴿وَلَا الْمُشْرِكِينَ﴾ من العرب، والكلام جاء فيهم، عطف على «أَهْلِ الْكِتَابِ»، وذكَرهم أتباعا لليهود، وهم لم يدَّعوا ودَّ الخير للمؤمنين؛ ولذلك أخَّرهم ﴿أَنْ يُّنَزَّلَ﴾ أي: أن يُنزِّل الله ﴿عَلَيْكُم مِّنْ خَيْرٍ﴾ نائب فاعل «يُنَزَّلَ»، فـ«مِنْ» صلة للتأكيد والاستغراق، وصحَّ ذلك مع أنَّ قوله: ﴿يُنَزَّلَ﴾ مثبت لانسحاب نفي الودِّ إليه.

والمراد بالخير: الوحيُ والعلمُ والنصرُ، وغير ذلك من أنواع الخير، وكراهتهم تعمُّ كلَّ خير. رويَ أنَّ المسلمين قالوا لحلفائهم من اليهود: آمِنوا برسول الله ﷺ. فقالوا: وددنا لو كان خيرا ممَّا نحن فيه فنتَّبعه، فنزلت الآية تكذيبًا لهم؛ ومعنى تكذيبهم أنَّه ﷺ على خير ممَّا هم فيه ولم يؤمنوا. وقيل: نزلت تكذيبا لجماعة من اليهود يُظهرون أنَّهم يحبُّون المؤمنين. وإنَّما قال: ﴿عَلَيْكُم﴾ مع أنَّ الوحي على سيِّدنا محمَّد ﷺ، لأنَّا متعبَّدون بما أنزل إليه، فهو خطاب متوجِّه إلينا، وواقع علينا بواسطة رسول الله ﷺ، وهذا أبلغ من تقدير مضاف، أي: «يُنَزَّلَ على نبيئكم».

ولا تنزيل إلَّا من الله ومع ذلك قال: ﴿مِّن رَّبِّكُمْ﴾ إغاظة للكفَّار، وتحبيبًا لنفسه إلينا، وتذكيرًا لنعمة التربية منه والعبوديَّة منَّا له ﴿وَاللَّهُ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ﴾ أي: السعادةَ والجنَّة، أو النبوءة، أو الخير المذكور؛ ذكره بالاسم الظاهر تصريحا بأنَّه رحمة من الله وفضل، لا واجب عليه، ولا يوجبه عمل عامل. أو أراد بالرحمة مطلقها في الأمَّة وسائر الأمم. ﴿مَنْ يَّشَآءُ﴾ هو النبيء ﷺ وأمَّته، دون اليهود والمنافقين والمشركين، أو هو العموم. ﴿وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ﴾ كلُّ خير دينيٍّ أو دنيويٍّ أو أخرويٍّ منَّةٌ من الله ﷻ.

﴿مَا نَنسَخْ مِنْ ءَايَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِّنْهَآ أَوْ مِثْلِهَآ أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿106﴾ أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿107﴾ أَمْ تُرِيدُونَ أَن تَسْـَٔلُوا۟ رَسُولَكُمْ كَمَا سُئِلَ مُوسَىٰ مِن قَبْلُ وَمَن يَتَبَدَّلِ ٱلْكُفْرَ بِٱلْإِيمَٰنِ فَقَدْ ضَلَّ سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ ﴿108﴾﴾

إثبات نسخِ الأحكامِ الشرعيَّة

وَلَمَّا قال اليهود والمشركون من العرب: محمَّد يقول من عنده لا من الله؛ لأنَّه يأمر بأمر ثمَّ ينهى عنه، نزل:

﴿مَا نَنسَخْ مِنَ ـ ايَةٍ﴾ نرفعْ حُكمَها ولفظَها، أو نرفعْ حُكمَها ونبقِ لفظها، أو نرفعْ لفظها ونُبقِ حكمها ﴿أَوْ نُنسِهَا﴾ نرفعها من قلبك ونَمْحُهَا منه ومن قلوب أصحابك، فلا يدركون لفظها ولا معناها، ولا العمل بها، وهذا قِسمٌ آخر؛ لأنَّه قد يكون في الأخبار وقد يكون في غيرها، فإمَّا أن يكون معناها في آية أخرى أو لا يكون، فيكون قد رُفع التكليف بها، وهو شامل للنبيء ﷺ لقوله تعالى: ﴿سَنُقْرِئُكَ فَلَا تَنسَىٰٓ إِلَّا مَا شَآءَ اللَّهُ﴾ [سورة الأعلى: 6 ـ 7].

وَأَمَّا الامتناع في قوله تعالى: ﴿وَلَئِن شِئْنَا لَنَذْهَبَنَّ بِالذِي أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ﴾ [سورة الإسراء: 86] فباعتبار ما لا يجوز نسخه، أو باعتبار الكلِّ. وبين النسخ والإنساء عموم وخصوص يجتمعان في الرفع عن القلوب، ويختصُّ النسخ بمنسوخ الحكم مع بقاء التلاوة وبالعكس، ويختصُّ الإنساء بالأخبار التي أُذْهبت عن القلوب.

﴿نَاتِ بِخَيْرٍ مِّنْهَا﴾ ثوابا أو سهولة في الامتثال ﴿أَوْ مِثْلِهَا﴾ في ذلك، كما قال: ﴿وَإِذَا بَدَّلْنَا ءَايَةً مَّكَانَ ءَايَةٍ وَاللهُ أَعْلَمُ بِمَا يُنَزِّلُ قَالُوا إِنَّمَا أَنتَ مُفْتَرٍ﴾ [سورة النحل: 101].

[أمثلة لما نُسخ] روي أنَّ جماعة من الصحابة قاموا ليلة ليقرؤوا سورة، فلم يبق لهم منها إلَّا ﴿بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾ فأخبروه ﷺ غدوة الليلة، فقال: «**رُفِعت تلاوتُها وحكمها**»[1].

- وممَّا نُسخ لفظه وحكمه: «**عشر رضعات معلومات يحرِّمن**»[2]، وكثير من سورة الأحزاب، وكانت كالبقرة إلَّا أنَّه يحتمل بقاء بعض حكمها في سورة أخرى.

- قال بعض الصحابة: «كنَّا نقرأ سورة تشبه في الطول والشدَّة ببراءة، فأُنسيتها غير أنِّي حفظت منها: «**لو كان لابن آدم واديان من المال لابتغى إليهما واديا ثالثا، ولا يملأ جوف ابن آدم إلَّا التراب**»[3]. وكنَّا نقرأ سورة نشبِّهها بإحدى المسبِّحات فأُنسيتها، غير أنِّي حفظت منها: «**يا أيّها الذين آمنوا لمَ تقولون ما لا تفعلون، فتكتب شهادتها في أعناقكم، فتسألون عنها يوم القيامة**»[4].

---

(1) أوردها **الطبراني** عن الزهري عن سالم عن أبيه. راجع ابن كثير، فقد بسط القول عن النسخ واختلاف الأصوليِّين والمحدِّثين في الموضوع، وكذلك التحرير والتنوير.

(2) رواه مسلم، كتاب الرضاع، باب التحريم بخمس رضعات، رقم: 3670، عن عائشة.

(3) قال المخرِّج لـ«جامع الشمل»: أورده **السيوطيُّ** عن خمسة عشر نفسا، وأوردته غالب كتب السنَّة. رواه **البخاريُّ** في كتاب الرقاق، ومسلم في كتاب الزكاة. وأورده **القطب** في «جامع الشمل»، ج 1، رقم: 497.

(4) رواه مسلم، كتاب الزكاة، باب لَوْ أَنَّ لِابْنِ آدَمَ وَادِيَيْنِ لَابْتَغَى ثَالِثًا، رقم: 2466. عن أبي موسى الأشعري.

ـ وممَّا نسخ لفظه فقط آية الرجم: «**الشيخ والشيخة إذا زنيا فارجموهما...**» الآية، قال عمر: «قرأناها، ورجم رسـول الله ﷺ ورجمنـا، إذا كانت البيِّنة أو الحمل أو الاعتراف»[1]. وكانت في سورة الأحزاب، وقيل: في النور.

ـ وقوله تعالى: «خروجكم عن آبائكم كفرٌ بكم» يعني انتسابهم إلى غيرهم.

ـ وممَّا نسخ حكمه فقط آية عِدَّة الوفاة بالسـنَة، نسخت بآية العدَّة بأربعة أشهر وعشر[2]، وآية وجوب ثبوت واحد لعشرة بآية ثبوت واحد لاثنين[3].

[أوجه النسخ] ويكون النسـخ بالإبدال إلى أخفَّ كأربعة الأشـهر، والمصابرة لأقلَّ مـن ثلاثة. وإلى أثقل كوجوب الصـوم بعد التخيير بينه وبين الإطعام، وكتـرك القتال حتما إلى وجوبه فيما قيل. ونسـخ الإباحة إلى التحريم، كتحريم الخمر بعد إباحتها. وإلى مُسـاوٍ كنسخ الصلاة إلى القدس بالصلاة إلـى الكعبة. وبلا إبدال، وحُمل عليه قولـه عزَّ وعلا: ﴿أَوْ نُنسِـهَا﴾ [سـورة البقرة: 106]، فالمعنى: نأت بغيرها في غير شأنها. وَأَمَّا نسخ وجوب صوم عاشـوراء إلى الندب بصوم ثلاثة أيَّام من كلِّ شهر، أو لرمضان وصوم الثلاثـة برمضان فموجودٌ، إلَّا أنَّه لا يوجد المنسـوخ في القرآن صراحًا بل بتأويل.

---

(1) رواه ابن ماجه، كتاب الحدود، باب الرجم، رقم: 2650، عن ابن عبَّاس.

(2) يشـير إلى قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا وَصِيَّـةً لِّأَزْوَاجِهِم مَّتَاعًا إِلَى الْحَوْلِ غَيْرَ إِخْرَاجٍ﴾ (سـورة البقرة: 240)، مع قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْرًا﴾ (سورة البقرة: 234).

(3) يشير إلى قوله تعالى: ﴿إِن يَكُن مِّنكُمْ عِشْـرُونَ صَابِرُونَ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ وَإِن يَكُن مِّنكُم مِّائَةٌ يَغْلِبُوا أَلْفًا مِّنَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ (سـورة الأنفال: 65)، مع قوله تعالى: ﴿الْآنَ خَفَّفَ اللَّهُ عَنكُمْ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفًا فَإِن تَكُن مِّنكُم مِّائَةٌ صَابِرَةٌ يَغْلِبُـوا مِائَتَيْنِ وَإِن يَكُن مِّنكُمْ أَلْفٌ يَغْلِبُوا أَلْفَيْنِ بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ (سورة الأنفال: 66).

﴿أَلَمْ تَعْلَمَ اَنَّ اللهَ عَلَى كُلِّ شَـيْءٍ قَدِيرٌ﴾ زيـادة تثبيت للنبيء ﷺ، وأمَّته تبعٌ لـه، والخطاب لكلِّ من يصلـح له، يعلمون أنَّ الله لا يعجزه شـيء، فقد نسخهم قردة وخنازير بعد أن كانوا في صورة البشر.

[أصول الدين] وليس ذلك بداوةً له، بل قضى الله في الأزل أنَّ إبقاءهم في صورة البشر إلى وقت مخصوص، فكذلك قضى الله فيه أنَّ الآية تبقى إلى كذا.

ثمَّ إنَّه إن كان النسخ إلى أخفَّ فالخيريَّة في النفع، أو إلى أثقل فالخيريَّة في الثواب، وإن كان النسـخ في اللفظ إلى أخصر فالخيريَّة في النفع، أو إلى أطول ففي الثـواب، وإن كان في اللفظ والحكم إلى أخـفَّ حكمًا، وأخصر لفظا فالخيريَّة في النفع، أو إلى أثقل حكمًا وأطول لفظًا فالخيريَّة في الثواب، أو إلى أخفَّ حكمًا وأطول لفظـا فالخيريَّة في النفع والثـواب، أو إلى أثقل حكمًا وأخصر لفظًا فالخيريَّة في الثواب بالنسـبة للحكم، وفي النفع بالنسبة إلى اللفظ. ومنع بعضهم النسخ إلى أثقل.

[أصول الدين] والنسـخ دليل على أنَّ القرآن حادث مخلوق، ولا نثبت الكلام النفسـيَّ، فضلا عن أن يقال: التغيُّر من عوارض مـا يتعلَّق به الكلام النفسـيُّ، وهي الأفعال في الأمر والنهي، والنِّسَـبُ الخبريَّة في الخبر. وفي إثبات الكلام النفسـيِّ إثبات كون الله ظرفًا ومتحيِّزًا وإن رجع ذلك إلى العلم لزم أنَّ كلَّ ما علمه قديم، والقرآن هو هذه الألفاظ لا غيرها.

﴿اَلَمْ تَعْلَمَ اَنَّ اللهَ لَهُ مُلْكُ السَّـمَاوَاتِ وَالَارْضِ﴾ له التصرُّف فيهما بالزيد والنقص والتغييـر، ومن له ذلك فكيـف وله أضعافهما: العرش والكرسـيُّ وغيرهما، فله التصرُّف بالنسخ، وكلُّ ذلك على ما سبق به قضاؤه الأزليُّ. ولم تعطف هذه الجملة لأنَّها إيضاح لما قبلها وتأكيد في المعنى، وللإشـعار بأنَّها مستقلَّة في الاحتجاج.

﴿وَمَا لَكُم﴾ الخطاب لكفَّار العرب وغيرهم ﴿مِّن دُونِ اللهِ مِن وَلِيٍّ﴾ يحفظكم عن توجُّه العذاب إليكم ﴿وَلَا نَصِيرٍ﴾ يدفعه عنكم إذا أتاكم. وقد يضعف الوليُّ عن النصرة، وقد يكون النصير أجنبيًّا، فبينهما عموم وخصوص من وجه، فعموم الوليِّ في النصر وعدمه، وخصوصه في القرابة، وعموم النصر في القرابة وعدمها، وخصوصه في إيقاع النصر جزمًا. ومَن وليُّه اللهُ لا يجد إلَّا خيرًا في أمر النسخ وغيره، ولا يرتاب. والمراد بالوليِّ الوليُّ من حيث الدفع، وإلَّا فلكلٍّ أحد وليٌّ.

[نحو] و«مَا» حجازيَّة لم تعمل لتقدُّم الخبر، ويجوز أن يكون اسمها اسم فاعل ناب عنه «لَكُمْ»، و«وَلِيّ» فاعل له أغنى عن خبرها، أي: ما ثابت لكم وليٌّ ولا نصير، كما تقول: ما قائم الزيدان.

﴿أَمْ﴾ بل تريدون، وهو إضراب انتقال عن قصَّة لا إبطال ﴿تُرِيدُونَ﴾ يا معشر العرب وغيرهم كاليهود ﴿أَن تَسْأَلُواْ رَسُولَكُمْ﴾ أعلَمَهم أنَّه رسول للعرب واليهود وغيرهم.

أمَّا العرب فسألوه أن يوسِّع أرض مكَّة بإذهاب الجبال عنها للحرث والنزهة، وأن يجعل الصفا ذهبًا، وأن يبعث قُصيًّا يخبرهم أنَّه نبيء. قال السُّدِّيُّ: وأن يروا الله جهرة، قال: نعم، على أنَّه لكم كالمائدة لبني إسرائيل، فقال ابن أبي العالية: أن تكون كفَّاراتنا ككفَّارات بني إسرائيل، فقال: كفَّاراتكم خير: الاستغفار والصلوات والجمعة وكفَّاراتهم خزي، فإن لم يكفِّروها ففي الآخرة. ومن ذلك قول رافع بن خزيمة: إن كنت رسولا فيكلِّمنا الله حتَّى نسمع كلامه.

وَأمَّا اليهود فسألوه أن يأتي بالكتاب من الله جملة كالتوراة، وأن يأتي بالله والملائكة قبيلاً، ونحو ذلك. ﴿كَمَا سُئِلَ مُوسَى مِن قَبْلُ﴾ سأله اليهود أن يريهم

الله جهرة، وأن يجعل لهم إلهًا كما جعل قوم لأنفسهم آلهة، ونحو ذلك. ﴿وَمَنْ يَتَبَدَّلِ الْكُفْرَ بِالإِيمَانِ﴾ يأخذ الشرك والكبائر بدل التوحيدِ والإيمانِ، بترك التفكُّر في ما أنزل الله، وطلب آيات أُخر تعنُّتًا. ﴿فَقَدْ ضَلَّ سَوَآءَ﴾ أي: عن سواء، أو أخطأ سواء ﴿السَّبِيلِ﴾ أي: السبيل السواء، أي: المعتدل وهو الحقُّ.

قيل: قوله: ﴿وَمَنْ يَتَبَدَّلِ الْكُفْرَ بِالإِيمَانِ...﴾ إلخ يدلُّ على أنَّ الخطاب في قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَعْلَمْ﴾، ﴿وَمَا لَكُمْ﴾، ﴿أَمْ تُرِيدُونَ﴾ للمؤمنين؛ لأنَّ هذا لا يصحُّ إلَّا في المؤمنين؛ لأنَّهم آمنوا فنُهوا أن يبدِّلوه بالكفر، **قلت: لا يتعيَّن هذا**، لجواز أن يكون معنى التبدُّل إعراض الكفرة عن التوحيد والإيمان. واستدلَّ على أنَّ الخطاب في ذلك كلِّه للمؤمنين بأنَّ قوله ﴿أَمْ تُرِيدُونَ﴾ عطف على ﴿لَا تَقُولُوا رَاعِنَا﴾ [الآية: 104]، **قلت**: لا يتعيَّن لجواز أن تكون «أَمْ» حرف ابتداء للإضراب كما مرَّ. ولا داعي إلى تقدير: أتفعلون ما أُمرتم من السمع، وقول: انظرنا، أتريدون. واستدلَّ على أنَّ الخطاب للمؤمنين بأنَّهم كانوا يسألونه ﷺ عمَّا لا خير فيه، كما سأل اليهود موسى عليه السلام، كما روي أنَّهم قالوا: اجعل لنا ذات أنواط كما أنَّ للمشركين ذات أنواط، شجرة يعبدونها ويعلِّقون عليها سلاحهم ومأكولهم ومشروبهم، إلَّا أنَّهم لم يريدوا أن يعبدوها فقال: «**الله أكبر! هذا كما قال لأخي موسى قومُه: ﴿اِجْعَل لَّنَآ إِلَهًا كَمَا لَهُمُوۤ ءَالِهَةٌ﴾! والذي نفسِي بيدِهِ لَتَرْكَبُنَّ سَنَن من قَبْلَكُم حَذْوَ النَّعل بالنَّعل، والقُذَّة بالقُذَّة، إن كان فيهم من أتى أمَّه يكن فيكم! فلا أدري أتعبدون العجل**»(1). واختار بعض أنَّ الخطاب لليهود؛ لأنَّ الكلام فيهم من قوله: ﴿يَا بَنِي إِسْرَآئِيلَ اذْكُرُواْ...﴾ [الآية: 122].

---

(1) رواه أحمد في مسنده، ج8، ص208، رقم: 21956 و21959 إلى قوله ﷺ: «سنن من قبلكم». ورواه الترمذي في كتاب الفتن (18) باب ما جاء لتركبن سنن من كان قبلكم، رقم: 2180 من حديث أبي واقد الليثي.

﴿وَدَّ كَثِيرٞ مِّنۡ أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِ لَوۡ يَرُدُّونَكُم مِّنۢ بَعۡدِ إِيمَٰنِكُمۡ كُفَّارًا حَسَدٗا مِّنۡ عِندِ أَنفُسِهِم مِّنۢ بَعۡدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلۡحَقُّۖ فَٱعۡفُواْ وَٱصۡفَحُواْ حَتَّىٰ يَأۡتِيَ ٱللَّهُ بِأَمۡرِهِۦٓۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ (109) وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَۚ وَمَا تُقَدِّمُواْ لِأَنفُسِكُم مِّنۡ خَيۡرٖ تَجِدُوهُ عِندَ ٱللَّهِۗ إِنَّ ٱللَّهَ بِمَا تَعۡمَلُونَ بَصِيرٞ (110)﴾

موقف أهل الكتاب من المؤمنين وكيفيَّة الردِّ عليهم

﴿وَدَّ كَثِيرٌ﴾ منهم حيي بن أخطب وأبو ياسر، وكانا أشدَّ الناس حسدًا للعرب على الإسلام وكون النبيء منهم. ﴿مِّنۡ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّونَكُم﴾ أحبَّ وتمنَّى كثير من اليهود ردَّكم، أي: تصييركم ﴿مِّنۢ بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّارًا﴾ مشركين، وقوله: ﴿حَسَدًا﴾ تعليل لـ«وَدَّ» لا لـ«يَرُدّ»؛ لأنَّ المعنى عليه: ودَّ، وأن يكون الردُّ للحسد وليس مرادًا. ووَصَفَ الحسدَ بقوله: ﴿مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِمْ﴾ لخبثها الشديد بلا موجب لذلك الودِّ من التديُّن، بل تشهِّيًا. أو من عند ذواتهم، كأنَّهم جبلوا عليه فيصعب زواله.

﴿مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ﴾ في التوراة بموافقة نعوته فيها وبالمعجزات. ﴿الْحَقُّ﴾ أي: تبيَّن الحقُّ لهم أنَّ محمَّدا رسول الله بالقرآن ﷺ.

[سبب النزول] قال نفر من أحبار اليهود، كفنحاص بن عازوراء، وزيد بن قيس، لحذيفة وعمَّار بعد أُحد: «لو كنتم على الحقِّ لَما غُلبتم، فارجعوا إلى ديننا فهو خير لكم»، فقال عمَّار: «كيف نقض العهد فيكم؟» قالوا: «أمر شديد»، قال: «عاهدت الله تعالى أن لا أكفر بمحمَّد ﷺ ما عشت»،

فقالت اليهود: «أمَّا هذا فقد صبأ»، وقال حذيفة: «وَأَمَّا أنا فقد رضيت بالله ربًّا، وبالإسـلام دينًا، وبالقرآن إمامًا، وبالكعبة قبلة، وبالمؤمنين إخوانًا»، فأخبرا رسول الله ﷺ فقال: «**أَفْلَحْتُما**» فنزل: ﴿وَدَّ كَثِيرٌ...﴾.

﴿**فَاعْفُواْ**﴾ عن اليهود والعرب، كما لم يذكر لفظ «عنهم»، والفاء تدلُّ على اليهـود أوَّلاً وبالذات، ودخلت العرب ثانيـة وبالتبع، لا تعاقبوهم؛ ﴿**وَاصْفَحُـواْ**﴾ عنهـم لا تعاتبوهم العتاب الشـديد. وضعُـف ما قيل: لا تخالطوهم.

[لغة] وقد يعفو الإنسان ولا يصفح، وأصل العفو: محو الجريمة، مِن عَفَا إذا درس، وتَرْكُ العقوبة لازِمُـه، وبينهما عموم وخصوص من وجه، يجتمعان إذا عاقب وعاتب، ويختصُّ الصفح بما لـم يعاقب وعاتب، والعفو بما عاتب ولم يعاقب.

﴿**حَتَّى يَاتِيَ اللهُ بِأَمْرِهِ**﴾ واحد الأمور، وهي القيامـة والجزاء فيها، وقوَّة الرسالة، وكثرة الأمَّة. أو ضدُّ النهي، بأن يأذن في قتالهم لوقته، فجاء الإذن في قتال العرب قبل بـدر إذ قال: ﴿**أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُـمْ ظُلِمُواْ وَإِنَّ اللهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ...**﴾ الآية [سورة الحج: 39]. وجاء الإذن في أخذ الجزية عن أهل الكتاب، وبقتل قريظة وإجلاء النضير بعـد أُحد، بل بعد الأحزاب، وهي بعد أحد. ﴿**إِنَّ اللهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ**﴾ فلا يعجزه الانتقام منهم.

﴿وَأَقِيمُواْ الصَّلَاةَ﴾ بطهارة وخشـوع وإخلاص، مع تأديتها بأجزائها، وهكذا في سائر القرآن. ﴿**وَءَاتُواْ الزَّكَاةَ**﴾ صيِّروها آتية أهلها بأن توصلوها إلى مستحقِّها.

[فقه] وعلى أصحاب الـزكاة مؤونة حملها والمجـيء بها، حتَّى تصل العامل الذي جاء إليها، أو الفقير إذا لم يكن الإمام. أو أمرهم بتفريقها، وذلك

هو الأصل، وإن جاءها الفقير أو وكيله وقبَضها أجزت. والمراد بالزكاة الجزء المعلوم من المال. ويجوز أن يراد: اجعلوا التزكية آتية منكم إلى أهلها، **وكذا في سائر القرآن**. وذلك أمر بالعبادة البدنيَّة والماليَّة لأنَّها تدفع المكروه. وزعم الطبريُّ أنَّها كفَّارة لميلهم إلى قول اليهود: «رَاعِنَا»، وهو مردود.

﴿وَمَا تُقَدِّمُواْ لأَنفُسِكُم مِّنْ خَيْرٍ﴾ طاعةٍ، كأمر ونهي، وتعليم وصلة رحم، وأداء فرض أو سنَّة أو نفل، **﴿تَجِدُوهُ عِندَ اللهِ﴾** تعلموا أنَّ الله عالم به، وأولى من هذا: تجدوه بوجود ثوابه. سمِّي الثواب باسم سببه وملزومه، أو يقدَّر: تجدوا ثوابه، اللقمة والتمرة كأُحد، أو تجدوه نفسه مجسَّمًا.

وأنا أقول: لا بأس بتجسيم الأعراض؛ لأنَّ الله قادر على إنشاء كلِّ شيء من أوَّل، فهو قادر على تصيير العَرَض جسمًا، كما جاءت الأحاديث والآثار بأنَّه تجيئه صلاته بصورة رجل حسن، وتجيئه صدقته ظلًّا، وهكذا في الشرِّ، إلَّا أنِّي لا أقول بوزن ما تجسَّم من الأعراض. **﴿إِنَّ اللهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾** لا يخفى عنه شيء، فهو يجازي على مثاقيل الذرِّ من خير وشرٍّ.

﴿وَقَالُوا۟ لَن يَدْخُلَ ٱلْجَنَّةَ إِلَّا مَن كَانَ هُودًا أَوْ نَصَٰرَىٰ ۗ تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ ۗ قُلْ هَاتُوا۟ بُرْهَٰنَكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿111﴾ بَلَىٰ مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُۥٓ أَجْرُهُۥ عِندَ رَبِّهِۦ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿112﴾ وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ لَيْسَتِ ٱلنَّصَٰرَىٰ عَلَىٰ شَىْءٍ وَقَالَتِ ٱلنَّصَٰرَىٰ لَيْسَتِ ٱلْيَهُودُ عَلَىٰ شَىْءٍ وَهُمْ يَتْلُونَ ٱلْكِتَٰبَ ۗ كَذَٰلِكَ قَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ مِثْلَ قَوْلِهِمْ ۚ فَٱللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فِيمَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿113﴾﴾

رأي كلٍّ من اليهود والنصارى في الآخَرِ

﴿**وَقَالُواْ**﴾ متعلِّق بقوله: ﴿وَدَّ كَثِيرٌ﴾، والواو لأهل الكتاب لا لـ«كَثِير» في قوله: ﴿وَدَّ كَثِيرٌ مِّنَ اَهْلِ الْكِتَابِ﴾ [الآية: 109]. أو لليهود والنصارى ولو لم يتقدَّم ذكر النصارى لدلالة ما بعده عليهم. أو على الاستخدام؛ لأنَّ الكثير المذكور أريد به أحبار اليهود خاصَّة، إلَّا أنَّه لا مانع من أن يراد به النصارى. ﴿**لَنْ يَّدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَن كَانَ هُودًا اَوْ نَصَارَى**﴾ أي: قالت اليهود: لَنْ يَّدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَنْ كَانَ هُودًا، وقالت النصارى: لَنْ يَّدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَنْ كَانَ نَصَارَى، وروعي فيمن كان هودًا أو نصارى معنى «مَنْ»، إذْ هُما جمع هائد، أي: تائب من عبادة العجل، أو منتسب لليهود، وقد قيل: «هودا» مخفَّف من «يهود» بحذف الياء؛ ونصرانيٌّ أو نصرانٌ أو نصريٌّ.

[سبب النزول] قَدِمَ نصارى نجران إليه ﷺ، وناظرهم أحبار اليهود، وارتفعت أصواتهم، قالت اليهود للنصارى: ما أنتم على شيء، وكفروا بعيسى

والإنجيل، والجنَّة لنا دونكم، وقالت النصارى لليهود: ما أنتم على شيء، وكفروا بموسى والتوراة، والجنَّة لنا دونكم، فنزلت الآية.

جمعهم بالواو في «قَالُوا» لأنَّ السامع يميِّز ما قال كلٌّ بما بعده؛ لأنَّ اليهود لا تقول: لن يدخل الجنَّة إلَّا من كان نصارى، والنصارى لا تقول: لن يدخل الجنَّة إلَّا من كان هودًا، ولا يقول اليهود ولا النصارى: لن يدخل الجنَّة إلَّا اليهود والنصارى؛ لأنَّه ينافيه سببُ النزول وقولُه: ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ لَيْسَتِ النَّصَارَى...﴾ الآية. و«أو» بمعنى الواو، أو للتفصيل كما قال: ﴿وَقَالُواْ كُونُوا هُودًا اَوْ نَصَارَى تَهْتَدُوا﴾. ﴿تِلْكَ﴾ القولة التي هي قولهم: ﴿لَنْ يَّدْخُلَ الْجَنَّةَ...﴾ الآية ﴿أَمَانِيُّهُمْ﴾ شهواتهم الباطلة التي يتمنَّونها، أي: يقدِّرونها ويقطعون بها.

[صرف] أمانيُّ جمع أمنيَّة، وأصل هذا المفرد: أُمنُويَة، بوزن أضحوكة، قُلبت الواو ياءً وأدغمت الياء في الياء، وقلبت ضمَّة النون كسرة، وهذا الوزن للمبالغة وهو بمعنى الأكاذيب حقيقة، وبمعنى ما يُتمنَّى مجاز.

﴿قُلْ هَاتُواْ بُرْهَانَكُم﴾ حجَّتكم عليها.

[لغة] والأصل: «هاتيوا»، ثقلت الضمَّة على الياء فنقلت للتاء، وحُذفت الياء للساكن، والماضي: «هاتَى»، والمضارع: «يهاتي»، لكن لا يتصرَّف، ولكنَّ الأصل ذلك؛ وقيل: يتصرَّف. وقيل: الهاء عن الهمزة، وقيل: للتنبيه والهمزة حذفت. أو اسم فعل. وزعم بعض أنَّه اسم صوت، ويردُّه اتِّصال الضمير به. والبرهان من «البره» وهو القطع، والحجَّة تقطع الخصم، والنون زائد. أو من البرهنة بمعنى البيان، فالنون أصلٌ، كذا قيل، ويحتاج إلى ثباته في كلام العرب، وإلَّا فلعلَّ لفظ البرهنة تصرَّف من غير العرب.

﴿إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ فيها.

وإنَّما قـال: ﴿أَمَانِيُّهُمْ﴾ بالجمع مـع أنَّ القولة أمنية واحـدة لأنَّها قالتها اليهود وقالتها النصارى، فاستعملوا الجمع في اثنتين، أو لأنَّها تعدَّد قولها في اليهود، وغالبهم يقولها، وأيضًا يردِّدها في نفســه، وتعـدَّد قولها في النصارى وغالبهم يقولها وأيضًا يردِّدها في نفسه، ولأنَّ لليهود أمنية أن يدخلوها، وأمنية أن لا يدخلها غيرهـم؛ وللنصارى أمنيـة أن يدخلوها وأمنيـة أن لا يدخلها غيرهم، فهؤلاء أربعة أمانيّ. أو عدَّ الأمنية الواحدة أمانيَّ لشدَّتها، أو الإشارة إلى تلـك القولة وإلى تمنِّيهـم أن لا ينزل على المؤمنين خيـر، وتمنِّيهم أن يردُّوهم كفَّارًا، وقولهم: لن تمسَّنا النار إلَّا أيَّامًا.

﴿بَلَى﴾ إثبـات لِمَا نَفَـوه من دخـول غيرهم الجنَّـة ولو كانـوا أيضًا لا يدخلونها، فالمعنى: لا يدخلونهـا وغيرهم يدخلها، وقد تقع في غير النفي والاستفهام. ﴿مَنَ اَسْـلَمَ وَجْهَهُ﴾ أخضعه ﴿لِلهِ﴾ وخصَّ الوجه لأنَّه أعظم، إذ فيه أكثر الحواسّ بل كلُّها، وشـاركه غيره في الحسّ، ولأنَّه موضع السـجود الذي العبد فيه أقرب ما يكون من ربِّه، فغيره أولى بأن يكون قد أسـلم لله، أو الوجه بمعنى الذات كلِّها، إذ هـو جُزْؤُها الأعظم. أو بمعنـى قَصْدَه. ﴿وَهُوَ مُحْسِـنٌ﴾ موحِّد عامل متَّق، ولو لم يبلغ إلى قوله ﷺ: «**الإحسان أن تعبد الله كأنَّك تراه**»[1]. ﴿فَلَهُۥ أَجْـرُهُ﴾ ثوابه على عمله وتقـواه وتوحيده وهو الجنَّة. ﴿عِندَ رَبِّهِ﴾ عنديَّة علمٍ وعهدٍ وتشـريفٍ. ﴿وَلَا خَـوْفٌ عَلَيْهِمْ﴾ في الآخرة، لا خوف إلَّا خوف يحدث لعظم الهول ويزول، ويعقبه الأمن الدائم. ﴿وَلَا هُمْ يَحْزَنُـونَ﴾ فيها على فوت التوحيـد والعمل والتقـوى؛ لأنَّ ذلك لم يفتهم، وإنَّما يحزن من فاته أو بعضه. **وَأَمَّا في الدنيا فالمؤمن أشدُّ حزنًا في أمر دينه.**

(1) رواه مسلم في الإيمان (1)، باب بيان الإيمان والإسلام والإحسان، رقم: 1 (8)، ورقم 5 (9). والترمذي في الإيمان (4)، باب ما جاء في وصف جبريل للنبيء ﷺ، رقم: 2610، من حديث أبي هريرة.

وفصل قوله: ﴿وَقَالُواْ لَن يَدْخُلَ الْجَنَّةَ...﴾ إلخ بقوله: ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ﴾ أحبارهم في المدينة، أو نافع بن حرملة، ونُسب للجميع لأنَّه منهم راضون بقوله. أو مطلقًا ذكر الله اعتقاد من اعتقد ذلك ولفْظ من لفظ وهم القليل. ﴿لَيْسَتِ النَّصَارَى عَلَى شَيْءٍ﴾ معتدٍّ به من الدين، كفروا بالإنجيل وعيسى، وأثبتوا الحقَّ لأنفسهم. ﴿وَقَالَتِ النَّصَارَى﴾ كلُّهم إلَّا قليلاً أو واحدًا منهم كما مرَّ، أو من وفَد من نصارى نجران على رسول الله ﷺ، ذكر الله اعتقادَ مَن اعتقدَ ذلك، ولفْظَ مَن لَفَظَ، وهم القليل. ﴿لَيْسَتِ الْيَهُودُ عَلَى شَيْءٍ﴾ معتدٍّ به من الدين، كفروا بموسى والتوراة وأثبتوا الحقَّ لأنفسهم. ونفي الشيء في الموضعين كناية عن عدم الاعتناء به، وهي أبلغ من التصريح.

﴿وَهُمْ﴾ أي: الفريقان ﴿يَتْلُونَ الْكِتَابَ﴾ جنس الكتاب، تتلو اليهودُ التوراةَ، وتجد فيه تصديق عيسى والإنجيل، وتتلو النصارى الإنجيلَ وتجد فيه تصديق موسى والتوراة، أو تتلو اليهودُ التوراةَ والإنجيلَ، يجدون فيهما تصديق الكلِّ، وكذا النصارى. وقيل: المراد التوراة. ﴿كَذَٰلِكَ﴾ كقول اليهود للنصارى، والنصارى لليهود ﴿قَالَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ وهم مشركو العرب وغيرهم، كأمم قبل اليهود والنصارى ﴿مِثْلَ قَوْلِهِمْ﴾ قالوا لكلِّ ذي دين: ليسوا على شيء يعتدُّ به. وفي ذلك تشبيهان، تشبيه المقول بالمقول في المؤدَّى، وتشبيه القول بالقول في الصدور عن مجرَّد الهوى، ولو زاد اليهود بالتعصُّب، فليس في الآية تكرير بل فيها مزيد التوبيخ.

بل شبَّه من في يده علم التوراة والإنجيل بمن لا علم له من عبدة الأصنام كقريش ومن ينكر الله. والمراد بالتشبيه: التنظير، وهو من التشبيه المقلوب، إذ شبِّهوا بالجاهلين.

[نحو] و«كَذَٰلِكَ» مفعول لـ«قَالَ»، أي: مثل قول اليهود والنصارى قال الذين لا يعلمون. و«مِثْلَ» مفعول به لـ«يَعْلَمُونَ»، بمعنى يعتقدون، أو

مفعول به لـ«قَالَ» أو مفعـول مطلق له، وكذا مفعول به لــه، أو مثل توكيد لـ«كَذَلِكَ» لا بدل، لاتِّحاد مفهومهما، بخلاف جاء زيد أخوك، فإنَّ الأخوَّة ليست مفهومة لزيد.

﴿فَاللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ﴾ بين الفريقين، أو بينهما وبيـن الذين لا يعلمون، والمراد: الفريقان بالذات؛ لأنَّ الكلام فيهما، والذين لا يعلمون بالتبع.

﴿يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُواْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ من أمر الدين، فيدخل الجنَّة من عمل بالناسخ وترك ما نُسخ فقط من الكتاب الآخر. ويدخل النار من عمل بالمنسوخ وكفر بالناسخ، وذلك إشراك، ومن أشرك بعبادة الصنم أو بإنكار الله، وأيضًا المشركون أسفل النار، واليهود في لظى، والنصارى في الحطمة، وذلك من الحُكْم المذكور، فالحكم بينهم أن يقسم لكلٍّ فريق ما يليق به من العذاب.

﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن مَّنَعَ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ أَن يُذْكَرَ فِيهَا ٱسْمُهُۥ وَسَعَىٰ فِى خَرَابِهَآ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ مَا كَانَ لَهُمْ أَن يَدْخُلُوهَآ إِلَّا خَآئِفِينَ ۚ لَهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا خِزْىٌ وَلَهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿114﴾ وَلِلَّهِ ٱلْمَشْرِقُ وَٱلْمَغْرِبُ ۚ فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا۟ فَثَمَّ وَجْهُ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿115﴾﴾

ظلم مانع الصلاة في المساجد، وصحَّة الصلاة في أيِّ مكان

﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن مَّنَعَ مَسَاجِدَ اللهِ﴾ أيَّ مسجد كانت من مساجد الإسلام، ﴿أَنْ يُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ﴾ بتلاوة كتب الله والصلاة وسائر الأذكار. والاستفهام للنفي، أي: لا أحد أظلم، وقد ثبت الظلم لغير مانع المساجد، ولكن مانعها أعظم ظلمًا من المعصية بمنع غيرها، وبغير منع بشيء، لكن جاء أيضًا: ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَذَبَ عَلَى اللهِ وَكَذَّبَ بِالصِّدْقِ إِذْ جَآءَهُ﴾ [سورة الزمر: 32] ونحو هذا، فنقول: ذلك كلُّه أمر واحدٌ مفضَّل على غيره، كأنَّه قيل: المفترى على الله ومانع المساجد ونحوهما أظلم من غيرهم، والتفضيل بينهم يوكل إلى الفهم، مثل أن تقول: من قال «اتَّخذ الله ولدًا» أظلم من المفتري عليه، والمفتري عليه أظلم ممَّن منع مساجد الله.

والممنوع الناس لا المساجد، ولكن وقع على المساجد لأنَّها محلُّ إيقاعهم العبادة، وللإشارة إلى أنَّها مظلومة كما ظُلم النَّاس، ولأنَّه يوقع لها تمييز لمن يتعبَّد فيها فظُلمت بمنع من تحبُّه عنها. ومنعهم كإغلاقها. وبعد ذلك قال: الممنوع ذكر الله، أو المراد لأجل ذكره أو من أن يُذكَر، والمراد

بالمساجد كلُّ مسجد خرب أو سيخرب، ومنع أو سيُمنع، كما مَنَعت قريشٌ رسول الله ﷺ والمؤمنين قبل الهجرة وفي عام الحديبيَّة أنْ يدخلوا المسجد الحرام للعمرة.

﴿وَسَعَىٰ﴾ اجتهد، ﴿فِي خَرَابِهَآ﴾ في تحصيل خرابها، أو اسم مصدر، أي: في تخريبها بالتعطيل أو الهدم.

كما هدم «بخت نصر» بيت المقدس وألقى فيها الجيف، وذبح فيها الخنازير، وأحرق التوراة، وقتل بني إسرائيل، وسبى الذَّراري. وكما فعل «ططيوس الرُّومي» وقومه من روم ونصارى ذلك بعد أنْ بُني على عهد «عُزَيْز»، وبقي خرابًا[1] إلى أنْ عمَّره المسلمون على عهد عمر رضي الله عنه.

ويجوز أن يراد بالمساجد: المسجد الحرام، وتخريبه: تعطيل قريش النبيء ﷺ والمؤمنين عنه، جمع تعظيمًا، ولأنَّ مساجد الإسلام كلَّها تنبني عليه وتُبنى إليه، وأنَّ معطِّل مسجدٍ حقٍّ[2] كمانع المساجد كلِّها، كما أنَّ مكذِّب نبيءٍ أو كتابٍ كمكذِّب الأنبياء كلِّهم، والكتب كلِّها، ولا سيما أعظم المساجد وأعظم الأنبياء وأعظم الكتب.

﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ المانعون الساعون في خرابها ﴿مَا كَانَ لَهُمْ أَنْ يَدْخُلُوهَآ إِلَّا خَآئِفِينَ﴾ وقد تحقَّق ذلك وقوعًا في مدَّة عظيمة لا يدخل مشرك نصرانيٌّ ولا روميٌّ ولا غيره مسجدًا من مساجد المسلمين إلَّا خائفًا، وهذا إلى الآن إلَّا مساجد بلادٍ أخذوها[3]، أو لا يدخل مشرك المسجد الحرام إلى الآن إلَّا خائفًا متنكِّرًا، ومضى زمان مديد من عهد عمر وما بعده لا يدخل بيت المقدس

---

(1) كذا في النسخ، لعلَّه يريد جزءا منه بقي خرابًا.

(2) كذا في النسخ، ولعلَّ الصواب: «وأنَّ معطِّل حقِّ المسجد...».

(3) يعني الشيخ أنَّهم احتلُّوها، فهو يتألَّم ممَّا يفعله الاحتلال في زمانه.

مشـــرك، ولا يوجد فيها إلا أُوجِع ضربًا. وليس في الآية أنَّه لا يدخلها أبدًا بل فيها أنَّه يتحقَّق هذا المقدار من عدم الدخول إلَّا مع خوف، فلا يَرِدُ ما ذكرتُ من دخولهم مســاجد بلاد أخذوها، ودخولهم المسـجد الحــرام، وأخذهم الحجر الأســود، ثمَّ إنَّه رُدَّ، وكَوْن المقدس في يد الإفرنج أكثر من مائة ســنة بحيث لا يدخله مســلم إلَّا خائفًــا حتَّى نزعــه منهم الناصر صــلاح الدين يوســف[1]، وذلك إمَّا على أنَّ معنى الآيــة أنَّ الله قضــى أنْ لا يدخلوها إلَّا خائفين، وعدًا بالنَّصر للمؤمنين، وإمَّا على معنى أنَّه لا يجوز لكم أنْ تترُكوهم ودخولها، أو ما كان الحق أنْ يدخلوها إلَّا خائفين أنْ تبطشــوا بهم فضلاً عن أنْ يجترئوا على تخريبها، أو يمنعوا المؤمنين عنها.

[فقه] ولا يجوز عندنا أنْ يترك مشرك أنْ يدخل مسجدًا إلَّا إنْ لم نقدر، وذلك قول مالك؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا الْمُشْـرِكُونَ نَجَسٌ فَلَا يَقْرَبُوا الْمَسْجِدَ الْحَــرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَذَا﴾ [ســورة التوبة: 28]، والمســاجد مثله فــي التطهير عن الأنجاس، فهي مثلــه أيضًا في الحرمة. وأجازه الشــافعيُّ في غير المســجد الحرام بشــرط الحاجة فيه، وإذن المسلمين لــه، لذكره في الآيــة. وإدخالُ رســول الله ﷺ وفدَ ثقيف وغيرهم المسجدَ منســوخ بهــذه الآيــة: ﴿إِنَّمَا الْمُشْــرِكُونَ نَجَسٌ...﴾ إلخ لاســتلحاقه سائر المســاجد لجامع علَّة النجس والحُرمة؛ ولقوله: ﴿مَا كَانَ لَهُمْ أَنْ يَدْخُلُوهَآ...﴾ إلخ ســواء أفسَّــرناه بالأمر بإبعاد المشركين عنها، أو بقضاء الله؛ لأنَّه أمر يرغب فيه، فلا إشكال. وأجازه أبو حنيفة مطلقًا.

---

(1) هو سلطان المماليك صلاح الدين يوســف بن نجم الدين أيُّوب، أمَّره نور الدين، وَلَمَّا توفِّي نور الدين قام بعده صلاح الدين، ودانت له العســاكر، وقهر الفاطميين، ومحا دولتهم، وكان خليقا بالإمارة، مهيبا شجاعا حازما، عالي الهمَّة، وكانت دولته نيِّفا وعشرين سنة. فتح طبريَّة، ونازل عســقلان، وكانت وقعة حطِّين، وفيها حطَّم الصليبيِّين، ومحاســن صلاح الدين جمَّة. توفِّي رَحِمَهُ اللَّهُ بقلعة دمشق سنة 589هـ. ينظر: **تهذيب سير أعلام النبلاء**: رقم: 5346، ص 133.

﴿لَهُمْ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ﴾ بالقتل والسبي في بعض، والجزية في البعض الآخر. وأصل الخزي ذلٌّ يستحى منه؛ ولذلك يستعمل في كلٍّ منهما، والقتل والسبي ذلٌّ عظيم يستحى منه في السبي دون القتل، إلَّا أن يقال يستحيى منه المقتول قبل أنْ يقتل وأصحابه وقرابته. قَبِلَت النضير الجزية، وقُتِل بعض قريظة وسُبِيَ بعضٌ.

﴿وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ في النار لمنعهم مساجد الله، وسعيهم في خرابها.

[سبب النزول] وكان ﷺ يصلِّي النَّافلة على الدابَّة أينما توجَّهت من مكَّة إلى المدينة وفي غير ذلك، حتَّى الوتر قبل أن يُفرض عليه، وحوِّلت القبلة إلى الكعبة، وطَعنت اليهود في ذلك، وقالوا: لا قبلة لهم معلومة، وصلَّى كلٌّ على اجتهاده إلى جهة ليلاً في غزوة ومعهم النبيء ﷺ، وقيل: لم يكن معهم لظلمةٍ، فلمَّا أصبحوا تبيَّن أنَّ بعضا صلَّى إلى الشمال وبعضًا إلى الجنوب، فنزل قوله تعالى:

﴿وَلِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ﴾ اسْتُلْحِقَا[1] جوانبهما، فذلك الأرض كلُّها ﴿فَأَيْنَمَا﴾ هو المكان الذي أنتم فيه أو الذي استقبلتم إليه.

﴿تُوَلُّواْ﴾ وجوهكم في الصلاة بأمره لكم بالتولية ﴿فَثَمَّ وَجْهُ﴾ ذات ﴿اللَّهِ﴾ أو فثمَّ الله بالعلم والحفظ وسعة الرَّحمة وغير ذلك، أو فثمَّ جهة الله، أي: الجهة التي أمركم بها.

وليس تولِّيكم باختياركم حتَّى يعيبوكم بصلاة بعض إلى الجنوب وبعض إلى الشمال في السفر للجهل بالجهة في غزوة. وقد قيل: نزلت الآية فيهم. وقيل: في الصلاة على الراحلة للضرورة، وصلاة النفل عليها مطلقًا.

---

(1) كذا في النُّسخ، ولعلَّ الأنسب أن يكون الفعل مجرَّدا من الضمير: استَلْحق، أي الله تعالى، تأمَّل.

[فقه] وفــي ذلك اختصاص لنا بــأن نصلِّي حيــث أدركتنا الصلاة، لا كمن قبلنا لا يصلُّون إلَّا في كنائســهم، وكان عيســى عليه السلام يصلِّي حيث أدركته الصلاة، فصلُّوا إلى الكعبة والنفلَ على الراحلة، وصلُّوا في الأرض كلِّها فقد جعلت لكم الأرض مسجدًا، ولا يضرُّكم أن منعوكم عن المسجد الحرام أو الأقصى.

وقبل فتح المقدس مُنع المســلمون من الصَّلاة فيه، وقيل: منعهم الإفرنج حين استولوا عليه حتى ردَّه صلاح الدين، وعليه فالآية إخبار بالغيب.

﴿إِنَّ اللَّهَ وَاسِــعٌ عَلِيمٌ﴾ يسع فضله وعلمُه كلَّ شــيء، ومن سعة فضله أنَّ لكم الأرض مســجدًا، فقيل: ولو ســبخة حال الاختيار. ولا بدَّ من الطَّهارة. ومَن قبلَنَا لا يصلُّون إلَّا في مساجدهم، فإذا غابوا عنها تركوها وقضوها.

﴿وَقَالُواْ ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدٗاۗ سُبۡحَٰنَهُۥۖ بَل لَّهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ كُلّٞ لَّهُۥ قَٰنِتُونَ
116 بَدِيعُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ وَإِذَا قَضَىٰٓ أَمۡرٗا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ 117 وَقَالَ ٱلَّذِينَ
لَا يَعۡلَمُونَ لَوۡلَا يُكَلِّمُنَا ٱللَّهُ أَوۡ تَأۡتِينَآ ءَايَةٞۗ كَذَٰلِكَ قَالَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِم
مِّثۡلَ قَوۡلِهِمۡۘ تَشَٰبَهَتۡ قُلُوبُهُمۡۗ قَدۡ بَيَّنَّا ٱلۡأٓيَٰتِ لِقَوۡمٖ يُوقِنُونَ 118﴾

افتراءات أهل الكتاب والمشركين بنسبة الولد لله والمطالبة بتكليمه الناس

﴿وَقَالُواْ﴾ عطف على «مَنَعَ»، أي: ومن أظلم ممَّن منع وسعى وقالوا، أي: وممَّن قالوا: ﴿اتَّخَذَ اللهُ وَلَدًا﴾ قالت العرب وبعض النصارى: الملائكة والجنُّ بنات الله، وقالت النصارى: المسيح ابن الله، وقالت اليهود: عزير ابن الله.

[أصول الدين] ومن قال بالأبوَّة والبنوَّة بمعنى الرحمة لم يجز له ذلك؛ لأنَّ لفظ الكفر كفر، ولو لم يعتقد ظاهره، وإن صحَّ أنَّ عيسى قال بذلك على معنى الرحمة فقد قيل به على ظاهره بعده، فيكون لفظ الشـرك شركًا بحكم الشرع قطعا لمادَّة الشرك.

وقد كان بعض بربر الغرب يقولون للرحمن: «بَابَ»، فقال بعض علماء الغرب:

يقولون للرحمن بابَ بجهلهم ومن قال للرحمن باب فقد كفَر[1]

(1) تقدَّم: ص 105.

وأجاب بعض بأنَّه لا كفر إذ لم يقصدوا الإشراك، ومن قاله ولم يُرِد الإشراك فليس مشركًا، لكن يُنهى عن قوله.

﴿سُبْحَانَهُ﴾ نزِّهوه أيُّها المؤمنون عن الولد تنزيهًا؛ لأنَّ الوالد له جهات وحدوث وفناء، فيخلفه ولده، والله بخلاف ذلك. ﴿بَل لَّهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ من غير العقلاء والعقلاء.

ولفظ «مَا» هنا للأنواع، والأنواع غير عاقلة، وإنَّما العاقل بعض الأفراد. والمملوك والمخلوق لا يكونان ولدًا للخالق والمالك.

﴿كُلٌّ﴾ ممَّا في السماوات والأرض، عليهما وما فيهما من أجزاء. ﴿لَّهُ قَانِتُونَ﴾ عابدون عبادة يعلمها الله، أو منقادون لما أراد الله، ومن زعموه ولدًا فقد أذعن للعبوديَّة لله، وهم ممَّن في السماوات والأرض فليسوا بأولاد.

والآية تناسب حديث: «**من ملك ذا رحمٍ عُتِق عليه**»[1]. وجمع السلامة للمذكَّر تغليب وتلويحٌ بأنَّ الجمادات وغيرها كالعقلاء في الانقياد، أو لأنَّ الله خلق تمييزًا للجمادات يتعبَّدون به، أو جمْعُ السَّلامة للمذكَّر تغليب للعقلاء الذكور.

﴿بَدِيعُ﴾ هو بديع ﴿السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ أي: غريب شكلهما إذ أوجدهما بلا مثال سابق، وفائقهما فيما نشاهد. والعرش ولو كان أعظم منهما لا نشاهده.

[نحو] غريب صفة مشبَّهة أضيفت لفاعلها؛ لأنَّ «بدع» لازمٌ لا مفعول له كقولك: زيد كثير المال. وقد يقال: بمعنى مبدع أضيف لمفعوله.

---

(1) رواه أبو داود وغيره بلفظ: «مَنْ مَلَكَ ذَا رَحِمٍ مَحْرَمٍ فَهُوَ حُرٌّ». كتاب العتق، باب: فيمَنْ مَلَكَ ذَا رَحِمٍ مَحْرَمٍ، رقم: 3953.

﴿وَإِذَا قَضَىٰٓ أَمْـرًا﴾ أراد إيجاده، ﴿فَإِنَّمَـا يَقُولُ لَهُ كُـن﴾ أي: أُحْصُل، ﴿فَيَكُونُ﴾ فهو يكـون، أي: يحصل بلا توقُّف. وليس هنـاك قول بل تمثيل لوجود ما يريد وجوده بسرعة.

﴿وَقَالَ...﴾ إلخ عطف على «قَالُـواْ اتَّخَذَ اللهُ»، أو علـى ما عطف عليه، وذلك قدح في التوحيد، وهذا قدح في النبوءة. ﴿الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ مشـركو العرب من مكَّة ومن غيرها، أو مع اليهود والنَّصارى وغيرهم.

وقيل: المراد اليهود على عهد رسول الله ﷺ، لِمَا رَوَى ابن عبَّاس رضي الله عنهما أنَّ رافع بن خزيمة اليهوديَّ قال لرسول الله ﷺ: إنْ كنت رسول الله تعالى فقل له: يكلِّمنـا حتى نسـمع كلامه، فنزلت هـذه الآية وقولـه تعالى: ﴿يَسْأَلُكَ أَهْلُ الْكِتَابِ...﴾ إلخ [سورة النسـاء: 153]، وقيل: النصارى، وأنَّهم المرادون في قوله تعالى: ﴿وَقَالُـواْ اتَّخَذَ اللهُ وَلَدًا﴾ المذكورون في الآية، وهو ضعيف.

﴿لَوْلَا يُكَلِّمُنَا اللهُ﴾ جهرة أو بإنزال الوحي إلينا ﴿أَوْ تَاتِينَآ ءَايَةٌ﴾ على صدقك، كتصيير الصفا ذهبًا، وإفساح الجبال عن مكَّة، وبعث قُصيٍّ، وأنْ يأتي بالله والملائكـة قبيلاً، ونحو ذلك ممَّا مـرَّ مثل: ﴿لَوْلَآ أُنـزِلَ عَلَيْنَا الْمَلَآئِكَةُ أَوْ نَرَىٰ رَبَّنَا﴾ [سـورة الفرقان: 21]. ﴿كَذَٰلِكَ قَـالَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ من الأمـم الماضية لأنبيائهم تعنُّتًـا. ﴿مِّثْلَ قَوْلِهِمْ﴾ كما قالـوا: ﴿أَرِنَا اللهَ جَهْرَةً﴾ [سورة النسـاء: 153]. ﴿هَلْ يَسْـتَطِيعُ رَبُّـكَ أَنْ يُنَزِّلَ عَلَيْنَـا مَآئِدَةً مِّنَ السَّمَآءِ...﴾ إلخ [سورة المائدة: 112].

وليس مِـن طلب الآيـات: ﴿لَـن نَّصْبِرَ عَلَـىٰ طَعَـامٍ وَاحِـدٍ...﴾ إلخ [سـورة البقرة: 61] و﴿اجْعَل لَّنَآ إِلَهًا﴾ [سـورة الأعراف: 138] بل مجرَّد عناد وفسـاد.

﴿تَشَابَهَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ قلوب هؤلاء وأولئك في الكفر والعناد، فلا يشتدُّ حزنك يا محمَّد إذ قيل لك ما قيل لمن قبلك.

﴿قَدْ بَيَّنَّا الآيَاتِ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾ بأنَّها آيـات توجب الإيمان، أي: نزَّلناها بيِّنة مـن أوَّل الأمر، لا غير مبيِّنة ثـم بيَّناها، وهذا كقولك: «وسِّـع فم البئر» و«أدِرْ جيب القميص» و«سبحان من صغَّر البعوض».

﴿ إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا ۖ وَلَا تُسْـَٔلُ عَنْ أَصْحَٰبِ ٱلْجَحِيمِ ﴿119﴾ وَلَن تَرْضَىٰ عَنكَ ٱلْيَهُودُ وَلَا ٱلنَّصَٰرَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ ۗ قُلْ إِنَّ هُدَى ٱللَّهِ هُوَ ٱلْهُدَىٰ ۗ وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ أَهْوَآءَهُم بَعْدَ ٱلَّذِى جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ ۙ مَا لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿120﴾ ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَتْلُونَهُۥ حَقَّ تِلَاوَتِهِۦٓ أُو۟لَٰٓئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِۦ ۗ وَمَن يَكْفُرْ بِهِۦ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿121﴾ ﴾

التحذير من اتِّباع اليهود والنَّصارى

﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَاكَ﴾ يا محمَّد ﴿بِالْحَقِّ﴾ مع الحقِّ وهو دين الإسلام، أو لأجل إقامته، ﴿بَشِيرًا﴾ لمن اتَّبعه بالجنَّة، ﴿وَنَذِيرًا﴾ لمن خالفه بالنار، ولم نرسلك لتُجْبِر عليه، إنْ أنت إلَّا بشير ونذير، ﴿لَّسْتَ عَلَيْهِم بِمُصَيْطِرٍ﴾ [سورة الغاشية: 22]. ﴿وَلَا تَسْـَٔلُ عَنَ اَصْحَابِ الْجَحِيمِ﴾ النار الملتهبة، وأصحابها: اليهودُ والنصارى ومشركو العرب، وسائر المشركين. لا تسأل عنهم فإنَّ عقابهم لا يسعه إخبارك به، ولا يحتمله فهمك، فلا فائدة في السؤال عنه، والله قادر على الإخبار به ولكن لا يمكنك الاِطِّلاع عليه في الدنيا، فتسلَّ بشناعته عن ضرِّهم لك، ولا تسأل عنهم سؤال تحسُّر: لِمَ لَمْ يؤمنوا؟ مع وضوح الدلائل.

[سبب النزول] وعن ابن عبَّاس أنَّه ﷺ سأل اللهَ عن أبويه فنزلت نهيًا عن السؤال عن الكفرة عمومًا، وإنَّما سأل عن خفَّة عذابهما وشدَّته، أو عن حال أهل الفترة فأخبره بأنَّهم غير معذورين، وذلك قبل أنْ يحييَهما الله ويؤمنا به على ما روي ضعيفًا. وروي أنَّه سأل جبريل عن قبريهما فدلَّه عليهما فذهب إليهما فدعا لهما وتمنَّى أنْ يعرف حالهما، وقال: ليت شعري

ما حالهما في الآخرة؟ فنزلت الآية. **والصحيح أنَّ الآية في أهل الكتاب، أو فيهم وفي سائر المشـركين لا فيهما**. ولا بأس على من وقف فيهما لشبهة ما ذكروا من الأحاديث في إيمانهما إذْ كانـت ضعيفة، لا للحَمِيَّة والضعفِ في الولاية والبراءة.

﴿**وَلَن تَرْضَى عَنكَ الْيَهُـودُ وَلَا النَّصَارى حَتَّى تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ**﴾ أفرد الملَّة مع تعدُّدها لأنَّ مِللهم كلَّها كفر، والكفر ملَّة. وسـمِّيت ملَّةً لأنَّ الشـيطان أملاها عليهم، أو أهواؤهم وأنفسهم، كما أنَّ دين الله ﷻ أملاه جبريل للنبيء ﷺ.

قالوا له ﷺ: لن نرضى عنك حتَّى تتَّبع ديننا وقبلتنا فإنَّه الهدى، فأنزله الله عليه وهو في اللوح المحفوظ سـابق، وأعلمه أنَّ الأمـر كما قالوا لا يرضون عنك إقناطًا له عنهم إذ اتِّباعه ملَّتهم في غاية البعد التي لا غاية بعدها.

وكان يلاطفهم طمعًا فـي إيمانهم حتَّى نزلت، وعلَّمـه أنْ يردَّ عليهم في قوله: ﴿**قُلِ اِنَّ هُدَى اللهِ**﴾ وهو دين الإسلام، ﴿**هُوَ الْهُدَى**﴾، تحقيقا إلى الحقِّ، لا ملَّتكم ولا غيرها مِن كلِّ ما خالفه، فأيسوا بعد ما كانوا يرجونه.

﴿**وَلَئِنِ اِتَّبَعْـتَ**﴾ والله لئن اتَّبعت، ﴿**أَهْوَآءَهُـمْ**﴾ أي: ملَّتهم التي ادَّعوها دينا، ومقتضى الظاهر: ولئن اتَّبعتهـا ـ أي: الملة ـ وعبَّر عنها بالأهواء ليصرِّح بأنَّها مجرَّد اتِّباع النفس. ﴿**بَعْـدَ الَّذِي جَآءَكَ مِنَ الْعِلْـمِ**﴾ هو العلم، والمراد الحقيقة أو بعض العلم.

﴿**مَا لَـكَ مِنَ اللهِ مِنْ وَّلِـيٍّ**﴾ يلي أمرك بحفظك مـن العذاب من أوَّل، ﴿**وَلَا نَصِيرٍ**﴾ يدفعه عنك إنْ جاءك، لا وليَّ ولا ناصر إلَّا الله، فإذا لم يجئك وليٌّ من عنده ولا نصير هلكت، أو ما لك وليٌّ ولا نصير من عند الله.

﴿**الَّذِينَ**﴾ خبـره ﴿**أُوْلَئِكَ يُومِنُونَ بِـهِ**﴾، ﴿**ءَاتَيْنَاهُـمُ الْكِتَابَ**﴾ الإنجيل والتوراة. وقيل: المـراد المؤمنون والقرآن، ﴿**يَتْلُونَـهُ**﴾ أي: القرآن، والجملة

حال، أي: مقدَّرًا ـ بفتح الدال ـ لهم أنْ يتلوه ﴿حَقَّ تِلَاوَتِهِ﴾ لا يغيِّرون لفظه ولا معناه، ولا يزيدون ولا ينقصون، ويعملون به ويتفكَّرون في معانيه، ويكلون متشابهه إلى الله، **وذلك هو قراءته حقَّ قراءته، وَأَمَّا قراءته بإخلال ذلك أو بعضه فكَلَا قراءة**. أو يتلونه: يلونه بتلك الحقوق، وهم عبد الله بن سلام ونحوه من أهل المدينة وغيرها من علماء أهل الكتاب العاملين به، واثنان وثلاثون من الحبشة، وثمانية رهابين من أهل الشام، منهم: بحيرى الراهب، دخلوا الحبشة ورجعوا مع الإثنين والثلاثين منها مع جعفر رضي الله عنه وأصحابه في سفينة إلى رسول الله ﷺ.

وإنَّما جعلت «يَتْلُونَهُ» حالا مقدَّرة لأنَّهم حال إيتاء الكتاب ليسوا يتلون القرآن حقَّ تلاوته، بل بعدُ.

﴿أُوْلَئِكَ يُومِنُونَ بِهِ﴾ بالكتاب، أو بالله لا إله إلا الله. أو«الَّذِينَ»: الأنبياء، و«الْكِتَاب»: الجنس. وإنَّما قلت: «والتوراة»[1] لأنَّ من آمن بالإنجيل تحقيقًا حتَّى آمن بالقرآن لا يكفر بها. ولا يجوز أنْ يراد علماء أهل الكتاب مطلقا كقوله: ﴿الَّذِينَ ءَاتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ...﴾ الآية [سورة البقرة: 146]؛ لأنَّه ليس كلُّ من عرفه يتلوه حقَّ تلاوته. ﴿وَمَن يَّكْفُرْ بِهِ﴾ بالكتاب: التوراة والإنجيل، بل يحرِّفه بزيادة أو نقص أو كتم أو تفسير بما ليس حقًّا. وقيل: القرآن كما مرَّ. ﴿فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾ إذ بدَّلوا الهدى بالضَّلالة، والجنَّة بالنَّار، وهذا لعمومه أولى من التفسير بأخذ الرُّشى على الدِّين.

---

(1) يشير إلى تفسيره قوله تعالى: ﴿ءَاتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ﴾ بأنَّه «الإنجيل والتوراة».

﴿يَٰبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتِيَ ٱلَّتِيٓ أَنۡعَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ وَأَنِّي فَضَّلۡتُكُمۡ عَلَى ٱلۡعَٰلَمِينَ ١٢٢ وَٱتَّقُواْ يَوۡمٗا لَّا تَجۡزِي نَفۡسٌ عَن نَّفۡسٖ شَيۡـٔٗا وَلَا يُقۡبَلُ مِنۡهَا عَدۡلٞ وَلَا تَنفَعُهَا شَفَٰعَةٞ وَلَا هُمۡ يُنصَرُونَ ١٢٣﴾

تذكير بالنعمة وتخويف من الآخرة

﴿**يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اذْكُرُواْ نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَنِّي فَضَّلْتُكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ**﴾ عالَمي زمانهم ومَن قبلَهم ومَن بعدَهم، إلَّا هذه الأمَّة فإنَّها أفضل الأمم على الإطلاق، لقوله: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾ [سورة آل عمران: 110]، ولا تكون خير أمَّة إلَّا لمنْ هو خير الرُّسُلِ. صدَّر قصتهم بهذا وختمها به تأكيدًا لتذكُّر النِّعم، وللتَّحذير من إضاعتها.

﴿**وَاتَّقُواْ يَوْمًا**﴾ عقاب يوم، ﴿**لَّا تَجْزِي**﴾ فيه ﴿**نَفْسٌ**﴾ مؤمنة أو مطلقا، ﴿**عَن نَّفْسٍ**﴾ كافرة أو مطلقًا، ﴿**شَيْئًا**﴾ أي: جزاءًا، ولا تدفع شيئًا، ﴿**وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا عَدْلٌ**﴾ فداء؛ لأنَّه يعادل المفدى، ﴿**وَلَا تَنفَعُهَا شَفَاعَةٌ**﴾ أي: لا شفاعة لهم فضلاً عن أنْ تقبل، أو هو على ظاهره إلَّا لمن أذن له، فقد روي أنَّه ﷺ يقول: «**أُصَيْحَابِي**» فيقال: «**لا تدري ما أحدث هذا بعدك**»[1]. ﴿**وَلاَ هُمْ يُنصَرُونَ**﴾ بدفع العذاب عنهم.

---

(1) رواه مسلم في كتاب الصلاة (14)، باب حجَّة من قال: البسملة آية من كلِّ سورة، رقم: 53 (400). والنسائي في كتاب الافتتاح (21)، باب قراءة بسم الله الرحمن الرحيم، رقم: 903، من حديث ابن عبَّاس. ورواه الإمام الربيع بلفظ قريب، في: بَابٌ فِي الأُمَّةِ أُمَّةِ مُحَمَّدٍ ﷺ، رقم: 43.

﴿وَإِذِ ٱبۡتَلَىٰٓ إِبۡرَٰهِـۧمَ رَبُّهُۥ بِكَلِمَٰتٖ فَأَتَمَّهُنَّۖ قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامٗاۖ قَالَ وَمِن ذُرِّيَّتِيۖ قَالَ لَا يَنَالُ عَهۡدِي ٱلظَّٰلِمِينَ ١٢٤ وَإِذۡ جَعَلۡنَا ٱلۡبَيۡتَ مَثَابَةٗ لِّلنَّاسِ وَأَمۡنٗا وَٱتَّخِذُواْ مِن مَّقَامِ إِبۡرَٰهِـۧمَ مُصَلّٗىۖ وَعَهِدۡنَآ إِلَىٰٓ إِبۡرَٰهِـۧمَ وَإِسۡمَٰعِيلَ أَن طَهِّرَا بَيۡتِيَ لِلطَّآئِفِينَ وَٱلۡعَٰكِفِينَ وَٱلرُّكَّعِ ٱلسُّجُودِ ١٢٥ وَإِذۡ قَالَ إِبۡرَٰهِـۧمُ رَبِّ ٱجۡعَلۡ هَٰذَا بَلَدًا ءَامِنٗا وَٱرۡزُقۡ أَهۡلَهُۥ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ مَنۡ ءَامَنَ مِنۡهُم بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِۚ قَالَ وَمَن كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُۥ قَلِيلٗا ثُمَّ أَضۡطَرُّهُۥٓ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلنَّارِۖ وَبِئۡسَ ٱلۡمَصِيرُ ١٢٦﴾

اختبار إبراهيم عليه السلام وخصائص البيت الحرام وفضائل مكَّة

﴿وَإِذِ ٱبۡتَلَىٰٓ﴾ اذكروا يا بني إسرائيل، أو أُذكر يا محمَّد إذ ابتلى، أو متعلَّق بـ«قَالَ» بعد، أو بـ«كان كذا وكذا» فحُذف، أي: كلِّف حقيقةً، أو اختُبِر مجازًا لعلاقة اللُّزوم، فإنَّ التكليف ـ وهو الأمر والنَّهي وإلزام ما فيه المشقَّة ـ يستلزم الإخبار بالنسبة إلى من يجهل العواقب تعالى الله. ومعنى تكليفه أنَّه قدَّر له ذلك وقضى أنْ يجري له، فلا يشكل بما كان من الكلمات قبل بلوغه. ﴿إِبۡرَٰهِـۧمَ﴾ «أب راهيم»، أي: رحيم، وذلك لغتهم العبرانيَّة تشبه العربيَّة.

[لغة] قال السهيلي: كثيرًا ما يقع الاِتِّفاق أو التَّقارب بين العبرانيِّ والعربيِّ، ألَا ترى أنَّ إبراهيم تفسيره أبٌ أرْحَم، لرحمته بالأطفال؛ ولذلك جعل هو وزوجه كافلين لأطفال المؤمنين الذين يموتون صغارًا إلى يوم القيامة.

[قصص] إبراهيم بن تارخ بن آزر، أو إبراهيم بن آزر، وهو الصحيح، بل تارخ هو آزر بن ناخور بن شارخ بن أرغو بن فالغ بن عابر بن شالخ بن فينان بن ارفخشد بن سام بن نوح، ويقال: فينان ساحر فأسقطوه.

[فقه] ﴿رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ﴾ أي: معانٍ، تسميةً للمدلول باسم الدَّالِّ: المضمضة والاستنشاق والسواك وقصّ الشارب وفرق شعر الرَّأس إلى الجانبين إذا طال أربعة أصابع عرضًا، وقلم الأظفار، ونتف الإبطين، وحلق العانة والختان ـ قيل ختن نفسه وهو ابن مائة وعشرين سنة ـ والاستجمار والاستنجاء بالماء، وَأَمَّا بالحجارة قبله فلهذه الأمَّة خاصَّة، والتوبة والعبادة والحمد والسياحة، والركوع والسُّجود، والأمر بالمعروف، والنَّهي عن المنكر، وحفظ حدود الله والصَّلاة والخشوع، وترك اللَّغوِ، والزَّكاة، وحفظ الفروج، وحفظ الأمانة، وحفظ العهد، والمحافظة على الصَّلاة، والإيمان، والقنوت، والصدقة، والصوم، وكثرة ذكر الله، ومداومة الصلاة، وإعطاء السائل والمحروم، والتصديق بيوم الدين، والإشفاق من العذاب، والقيام بالشهادة، وقربان الأزواج، وقربان المملوكات، وإعفاء اللِّحية، والإحرام، والوقوف بعرفات، والمبيت بالمزدلفة، والرَّمي، والذَّبح، والحلق، والطواف، والسَّعي، والنَّظر في الكوكب والقمر والشمس ـ فيحصل الحجَّة ـ وذبح الولد، والتسليم للوقوع في نار نمروذ، وسائر الأوامر والنَّواهي، والهجرة بدينه من العراق لكفر فيه إلى حرَّان، ثمَّ إلى الشَّام ليجد الوصول إلى دينه، **صَبَرَ على ذلك كلِّه** كما قال الله جلَّ وعلا:

﴿فَأَتَمَّهُنَّ﴾ أتى بهنَّ تامَّات، كما قال: ﴿وَإِبْرَاهِيمَ الَّذِي وَفَّى﴾ [سورة النجم: 37]. ﴿قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا﴾ قدوة في الدين إلى يوم القيامة، ولا نبيء بعده إلَّا من ذرِّيته مأمورًا باتِّباعه في الجملة، وهو إمام لكلِّ نبيء بعده، وكلُّ نبيء إمام لمن بعده من العامَّة والأنبياء، وذلك في الأصول ومكارم الأخلاق، وهو محبوب في جميع الملل.

وعن مجاهد: الكلمات هي: ﴿إِنِّي جَاعِلُكَ...﴾ إلى آخر القصَّة.

والإمام: كلُّ ما يؤتمُّ به، كما قيل لخيط البناء إمامًا لأنَّه يقتدى به في البناء.

﴿قَالَ﴾ إبراهيم ﴿وَمِن ذُرِّيَّتِي﴾ أي: واجعل أئمَّة أنبياء، وقيل: أو غير أنبياء من ذرِّيتي.

[نحو] أو وأئمة من ذرِّيَّتي، عطفًا على محلِّ النَّصب للكاف، وكأنَّه قيل: وجاعل من ذرِّيَّتي أئمَّة. وللكاف محلُّ جرٍّ بالإضافة، ومحلُّ نصب على المفعوليَّة؛ لأنَّ «جَاعِل» اسم فاعل للاستقبال، وهو من زيادة السَّامع إلى كلام المخاطِب، كقول الصَّحابة: «والمقصِّرين»، بعد قوله ﷺ: «**اللهمَّ ارحم المحلِّقين**»[1]، ويقول القائل: جاء زيد، فتقول: راكبًا، وكما قال العبَّاس: «إلَّا الإذخر»[2] بعد تحريم النبيء ﷺ شجر مكَّة وكلأها.

[صرف] والذرِّية تشمل الأنثى، كما أنَّ عيسى هو ابن مريم، ومريم من ذرِّيته؛ والياء المشدَّدة زائدة، فوزنه «فُعْلِيَّة» ـ بضمِّ فإسكان ـ وياؤه في الأصل للنَّسب، والأصل فتح أوَّله وضمٌّ، كما قيل: دهريٌّ بضمِّ الدَّال في النَّسب إلى دَهر بفتحها. أو الياء الثانية عَنْ راءٍ، قُلبت ياء لئلَّا تجتمع ثلاث راءات، وأدغمت فيها الياء، والأصل «ذُرِّيرة» بضم الذَّال وشدِّ الرَّاء الأولى مكسورة، أو «ذرُّورة» بالواو. وكلُّ ذلك من الذَّرِّ بمعنى التَّفريق؛ وإمَّا من الذرء بمعنى الخلق، فالراء الثانية زائدة، والأصل: «ذريئة» أو «ذروية» قلبت الهمزة ياء، وأدغمت الياء في الياء في الأوَّل، وقلبت الواو ياء في الثاني وأدغمت الياء في الياء.

﴿قَالَ لَا يَنَالُ﴾ لا يصيب ﴿عَهْدِيَ﴾ معهودي إليك، أو أمانتي. وهو الأمانة؛ تسمى الأمانة عهدًا لأنَّها تُعاهَد بالحفظ. ﴿الظَّالِمِينَ﴾ من ذرِّيَّتك، وهذا إجابة لدعائه أنْ يجعل من ذريته أئمَّة، ولكنَّه استثنى الظالمين بفسق أو بشرك.

---

(1) رواه الربيع، كِتَابُ الْحَجِّ، بَابٌ فِي فَضْلِ الْحَجِّ وَالْعُمْرَةِ، رقم: 444.

(2) رواه الربيع، كِتَابُ الْحَجِّ، بَابٌ فِي الْمَوَاقِيتِ وَالْحَرَمِ، رقم: 398.

[فقه] فأيُّما فاسـق أو مشـرك تصدَّر فليس بإمام، أو خليفة أو حاكم بل غاصب، ولا يصلح للإمامـة - وهي أمانـة الله - من يخـون، ولا ينفُذُ حكمُ الفاسق، وناصبه ظالم «ومن استرعى الذئب ظَلم». وعن الحسن: إنَّ الله تعالى لم يجعل للظالم عهدًا؛ فلا يوفى له بشأن إمامته إذا أحدث ظلمًا؛ **فالعدل كما شـرط في البدء شـرط في البقاء**، وإنْ نصب بعد توبته جاز كما كان أبو بكر وعمر خليفتين بعد إسلامهما من شرك.

﴿وَإِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ﴾ الكعبة ﴿مَثَابَةً لِلنَّاسِ﴾ مرجعا يثوب إليه من كان عنده أو يجيئه من لم يكن عنده، ويلتجئ إليه الخائف.

[لغة] وإطلاق الرجوع لمن لم يكن عنده مجاز؛ فذلك جمع بين الحقيقة والمجـاز، وقد أجيز، وهـو من عموم المجاز يناسـب الإطـلاق، إنَّ الآتي والرَّاجع كواحد، لاتِّفاق الدِّين. أو «مَثَابَةً» بمعنى موضع ذهاب إليه أو مزار، اسـتعمالٌ للمقيَّد في معنى المطلـق. أو هو موضع ثواب فـلا مجاز، وتاؤه لتأنيث البقعة، وقيل: هي للمبالغة كما فـي الوصف كعلامة لكنَّه يؤنَّث، وهو اسـم مكان ميميٌّ، أو مصدر ميمـيٌّ، أي: ذا ثـواب، والأوَّل أولى والأصل: «مَثْوَبَة» بإسكان الثاء فُتحت بفتحة الواو نقلا فقلبت ألفًا.

﴿وَأَمْنًـا﴾ موضع أمـن، أي: ذا أمن، وقد يناسـب هـذا أن تجعل مثابة مصدرًا، أي: ذا مثابة وأمن للناس في حَرَمه، أو أمن لحرمه، لا يقع فيه ما يقع في غيره من الظلم والغارة، يَلقَى فيه الرجل قاتـل أبيه فلا يخيفه ولا يُهيِّجه، ويتبع الكلبُ الصيد فيدخل في الحرم فلا يتبعـه بعد لحرمة الحرم، وقد قال الله: ﴿حَرَمًا ـ امِنًا﴾ [سورة القصص: 57].

[بلاغة] فقـد نقول: «أَمْنًـا» بمعنى آمِـن، إلَّا أنَّ فيه مجـاز التعلُّق والاِشـتقاق، إذ جعلنا المصدر بمعنى اسـم الفاعل، ومجاز الإسناد لأنَّ

الذي يأمن هو الناس لا الحرم، وما تقدَّم فيه مجاز واحد كَلَا مجاز، إذ هو مجاز حذف.

[فقه] ومَن جَنَى في الحرم حُدَّ فيه، أو خارجًا فالتجأ إليه أخرج أو ضيِّق عليه حتَّى يخرج فيُحدَّ، وذلك من جملة الأمن فيه. وذكر بعض أنَّه أمن للحاجِّ من النار، وكفَّارة لذنوبه التي بينه وبين الله يوم القيامة، ولا يدري في الدنيا أَقُبل منه أو رُدَّ.

﴿وَاتَّخَذُواْ﴾ أي: الناس، **﴿مِن مَّقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى﴾** بفتح الخاء [على قراءة ورش] إخبارٌ بمعنى الأمر، كأنَّهم امتثلوا الاِتِّخاذ، فهو يخبر بوقوعه. والعطف عطف قصَّة على أخرى، أي: وإذ اتَّخذوا، أو على «جَعَلْنَا»؛ لأنَّ الغرض بيان أحوال البيت، ومنها الجعل والاتِّخاذ، أو يقدَّر: فثابوا واتَّخذوا، ولا بأس به، ولو كان الأصل عدم الحذف لاتِّحاد المسندين في المسند إليه.

[لغة] و«مِن» بمعنى إلى؛ لأنَّ المصلِّي يتوجَّه إلى الحجر الذي هو المقام، وينوي القبلة الكعبة. أو للابتداء، كقولك: رأيته من ذلك المكان، أي: انتهى شأنه منه إليك. أو«مِنْ» للتبعيض، أو الظرفيَّة، على أنَّ المقام الحرم، أو ما دار بالمطاف لا الحجر خصوصًا. والمراد على كلِّ وجه بالمصلَّى هذا الموضع المختار لركعتي الطواف.

[فقه] ويستحبُّ النفل والفرض فيه إذا لم يعطِّل ركعتي الطواف، وذلك أنَّه اتُّخذ للصلاة مطلقًا. وهو أربعون ذراعًا شمالاً، ويمينًا، وخلفًا. والمقام: موضع القيام، وهو ذلك الحجر.

[قصص] قام عليه عند بناء الكعبة، يدور به إلى جهاتها ويعلو به، وعند ندائه: «أيُّها الناس حجُّوا بيت ربِّكم»، تطاول حتَّى ساوى أبا قبيس، وعند غسل زوج إسماعيل رأسه أعني رأس إبراهيم إذ زاره ولم يجده، أو زار الكعبة.

والمحوِّل له إلى موضعه اليوم هو رسول الله ﷺ كما هو مروي بسند ولو كان فيه ضعف، لا عُمَر، كما روي بســند ولو كان قويًّا. ولو احتمل أنَّه صلَّى رسول الله ﷺ ملصقا بالبيت، فعلم عمر أنَّ المرادَ جعله بين المُصلِّي والكعبة أينما هو فأخَّره إلى حيث هو اليوم. وروي أنَّه ﷺ أخذ بيد عمر فقال له: «**هذا الحجر مقــام إبراهيم**»، فقال عمــر: «ألا تتَّخــذه مصلًّى؟» فقــال: «**لم أومر بذلك**»[1]، فلم تغب الشمس حتَّى نزلت الآية.

ويقال: كان داخل الكعبة ثمَّ أخرج. وقيل: موضعه اليوم هو بيت إبراهيم يحوله إليه من البناء كلَّ يوم.

وقيــل: المقام الحــرم. وقيل مواضع الحــجِّ والصلاة والدعــاء: عرفات والمزدلفة ومنى ومواضع الرمــي. والصلاة في ذلك دعاء. وقيل: الكعبة، أي: موضع صلاة إليه إذ يصلَّى إليها.

[فقه] ولا مقام إلَّا مقام إبراهيم ﵇، وهو مقام للمؤمنين كلِّهم على حدٍّ سواء، ولا وجه لنســبته للشــافعي، ولا وجه للبناء فيه؛ لأنَّه نقص منه، ومن المســجد، ولا وجه لجعل مقام آخر لمالك، وآخر لأبي حنيفة وآخر لأحمد، **فإنَّ ذلــك زيادات في الدين، وتشــرُّع فيه، وبدعة ونقص مــن الحرمِ والمقامِ بالبناء، ومناقضــةٌ لمقام إبراهيم حتَّى إنَّه اســتوت الثلاثة عنــد العامَّة بمقام إبراهيم، ويفضِّلها عامَّة أهليها على مقام إبراهيم**[2].

وقد قال أمير مكَّة للســلطان حمود[3]، وهو ســلطان زنجبار أعوام إقامته

---

(1) ذكره ابن كثير في تفسيره، ج 1، ص 296، من حديث جابر، بلفظ: «لَمَّا طاف النبيء ﷺ قال له عمر: هذا مقام أبينا؟ قال: نعم، قال: أفلا نتَّخذه مصلًّى؟ فأنزل الله الآية».

(2) هكذا كان في عهد المؤلِّف، أمَّا الآن فقد أزيلت والحمد لله، ولم يبق إلاَّ مقام إبراهيم ﵇.

(3) هو الســلطان حمود بن حمد العُماني الزنجباري (1270 ـ 1320هـ)، سافر من مسقط إلى زنجبار في أيَّام سلطنة ماجد بن ســعيد، وتزوَّج هناك، وقد اشــتهر بالرحلة والدعوة في =

بمكَّة: أَبْنِي مقامًا لك وللإباضيَّة لأهـل مذهبك، فقال: «**لا تفعل؛ لأنَّه خلاف الشـريعة، ولأنَّهم لا يقبلون ذلك عنِّي ولا عنك، ولا يقـف فيه أحد منهم**»، فلذلك ونحوه قلت فيه القصيدة:

حمُودنا بـن محمَّـد وشـيعتِه ظِـلُّ البريَّـة، والحقُّ شـريعتُه

﴿**وَعَهِدْنَآ إِلَىٰٓ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْـمَاعِيلَ**﴾ أصله «اسمع ايل»، أي: يا الله، ولقد علِمْتَ أنَّ العبريَّة قريبة مـن العربيَّة، والمعنى أنَّ إبراهيم قال: «اسـمع يا الله دعائي بأن ترزقني ولدًا» فرزقه، فسـمَّاه إسـماعيل، وهو قـويٌّ، ولو ضعَّفه بعض، وأختار أنَّـه بمعنى: مطيـع الله. والعهد إلـى إبراهيم بالـذَّات وإلى إسماعيل بالواسـطة: أمرناهما، وأمرهما علمٌ عهد إليهما. وفسَّر العهدَ إذ فيه معنى القول بقوله: ﴿**أَن طَهِّـرَا**﴾ أو يقدَّر: «بأن طهِّـرا» ﴿**بَيْتِيَ**﴾ من الأوثان والأنجاس وما لا يليق، والحائض والنفساء وأهل الشرك، أي: اِبنياه على رسم أنْ لا يكون فيه ذلك، كقولك: «أدِرْ جيب القميـص، وأطل القلم»، أي: جئ بهذه الصِّفة من أوَّل. أو أخلصاه.

﴿**لِلطَّآئِفِينَ**﴾ حوله لا يُعطِّلون عن الطَّـواف، ولا يكون عنده من ليس أهلاً للطواف كالمشرك، وذلك على عمومه. وقال ابن جبير: الغرباء الوافدون حجَّاجا وزوَّارًا. ﴿**وَالْعَاكِفِينَ**﴾ المقيمين عنده بالتوحيد والطاعة، قال عطاء: الجالسـون عنده بلا طواف، وقيل: المجاورون له من الغرباء، وقيل: المعتكفون فيه.

﴿**وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ**﴾ جمع سـاجد، والمراد بـ«الرُّكَّعِ السُّجُودِ» المصلُّون، وذكر الرُّكوع والسجود لأنَّهما أقرب أحوال المصلِّي إلى الله تعالى.

= سـبيل الله، وقد جاور في مكَّة المكرَّمة مدَّة ثلاث سـنين، وكان غاية في الورع والزهد. تولَّى الحكم في زنجبار يوم 17 ربيع الثاني 1314هـ، لمدَّة ستِّ سنوات وستَّة أشهر. وقد توفِّي رَحِمَهُ اللَّهُ بزنجبـار. ينظر: **جهينة الأخبار فـي تاريخ زنجبار**: سـعيد بن علي المغيري، تحقيق محمَّد علي الصليبي، نشر وزارة التراث، عُمان، ط 2، 1986م.

وقد أتمَّ الله تطهيره عـن الأوثان وكلِّ ما لا يليـق بنبيئنا ﷺ وأتمَّ عمارته بالطَّواف والعبادات والصلاة المشتملة على الركوع مقدَّمًا والسجود بعده على ترتيب لفظ الآية، لا كصلاة اليهود بلا ركوع، ولا كصلاة لا سجود فيها، ولا كصلاة يتقدَّم سـجودها على ركوعها كما قيل عن اليهـود أيضًا، ولا كصلاة مشركي العرب يقولون: السُّجود مسبَّة، فيركعون ولا يسجدون.

﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا﴾ أي: هذا البلد. دعا بعد أن كان عمارة، أو هذا المكان وهـو أرض مكَّة قبل أنْ يكون فيها مـاء وعمارة، وهذا الدعاء قبل ذلك. ﴿بَلَدًا ـ امِنًا﴾ ذا أمْنٍ، كـ«لَابِنٌ» بمعنى ذي لبن، أو مجاز عقليٌّ من الإسـناد إلى المكان، إذ الآمِنُ مَن فيه، أو آمنًا أهلُه. طلـب في المرَّة الأولى كون الوادي بلدًا آمنًا، أي: معمورًا آمنًا، فاسـتجيب له في كونه بلدًا معمورًا، وتأخَّرت الاسـتجابة في الأمن، ثم كرَّر الطلب للأمن فاسـتجيب له، إذ قال: ﴿رَبِّ اجْعَلْ هَذَا الْبَلَدَ ءَامِنًا﴾ [سورة إبراهيم: 35] فجعله الله بلدًا آمنًا.

[فقه] لا ينفر صيده، ولا يسفك فيه دم، ولو قصاصًا أو حَدًّا، إلَّا إن جنى فيه، وعـن الشـافعيِّ: يُقتصُّ منـه ويحدُّ فيه، ولـو جنى خارجـه إذا دخله. ولا يختلى خلاه، وتضاعف فيه السيِّئات: الواحدة بمائة كالحسنات: الواحدة بألف وبمائة ألف؛ ولا يظلم فيه، ولا يخسـف، ولا يمسخ فيه، إلَّا ما قيل أنَّه مسخ رجل وامرأة زنيا في الكعبة، ولا يقحط، ولا يخاف من عدوٍّ.

وليس طلب الأمن تكريرًا لقوله: ﴿وَإِذْ جَعَلْنَـا الْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ وَأَمْنًا﴾ [الآية: 125]؛ لأنَّ ذلك إخبـار من الله وما هنا طلب من إبراهيـم؛ أخبرنا الله بما اسـتجاب له فيه قبلُ، فلا حاجة إلى أنْ يُقالَ: أرادَ هنا الأمن من القحط. كما قال: ﴿وَارْزُقَ اَهْلَهُ مِنَ الثَّمَرَاتِ﴾ أي: من أنواعها، وقد اسـتجيب له حتى إنَّه يجتمع فيها في اليوم الواحد ثمرات الفصول من الطائف.

قال ابن عباس: نقل الله بقعة فلسطين بالشام، وقيل: من الأردن، وجعلها في الطائف، وسمِّيت بالطائف لأنَّ جبريل طاف بها سبعًا ووضعها في ذلك الموضع، توسعةً لرزق الحرم، إجابةً لدعائه ﵇.

﴿مَنَ ـ امَنَ مِنْهُم بِاللهِ وَالْيَوْمِ الَاخِرِ﴾ لا جميع أهله، ولا كفَّاره، متابعة لقوله تعالى: ﴿لَا يَنَالُ عَهْدِيَ الظَّالِمِينَ﴾ [الآية: 124]، فأخبره الله أنَّ الرِّزق يعمُّ الظالم لا كالإمامة؛ لقوله: ﴿قَالَ﴾ الله جلَّ وعزَّ ﴿وَمَن كَفَرَ﴾ عطف من الله على قول إبراهيم: «مَنَ ـ امَنَ»، كما في قوله: ﴿وَمِن ذُرِّيَّتِي﴾ [الآية: 124]، كما يقول الرجل: «أكرمْ زيدًا» فتقول: «وابنه». أو يقدَّر: وأَرزُقُ من كفر ـ بفتح الهمزة وضمِّ القاف ـ، وعطَف على هذا المقدَّر بقوله: ﴿فَأُمَتِّعُهُ قَلِيلاً﴾ أو قل يا إبراهيم: ومن كفر، أو أَرزُقُ من آمن ومن كفر ـ بالفتح والضمِّ ـ، أو من كفر فأنا أمتِّعه، أو فقد أمتِّعه، فحذف «أنا» أو «قد». وإنْ جعلنا «مَن» موصولة مبتدأ فالفاء صلة في خبرها بلا تقدير.

والمراد: تمتيعًا قليلاً، أو زمانًا قليلاً، وكلَّما كثر أو طال من الدنيا فقليل قاصر. ﴿ثُمَّ أَضْطَرُّهُ﴾ أُلجِئه بَعْدَ موته ﴿إِلَى عَذَابِ النَّارِ﴾ لكفره، فلا يجد امتناعًا عنها، وذلك بلا تحرُّك منه، كقوله تعالى: ﴿يَوْمَ يُدَعُّونَ إِلَىٰ نَارِ جَهَنَّمَ دَعًّا﴾ [سورة الطور: 13] وقوله: ﴿إِذِ الَاغْلَالُ فِي أَعْنَاقِهِمْ وَالسَّلَاسِلُ يُسْحَبُونَ﴾ [سورة غافر: 71]، وقوله: ﴿يُعْرَفُ الْمُجْرِمُونَ بِسِيمَاهُمْ فَيُوخَذُ بِالنَّوَاصِي وَالَاقْدَامِ﴾ [سورة الرحمن: 41]، وبتحرُّك كقوله ﷻ: ﴿وَسِيقَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ [سورة الزمر: 71]. ﴿وَبِيسَ الْمَصِيرُ﴾ النار أو عذابها، أو الصيرورة، فإنَّه يصار إلى المعاني كما يصار إلى الأجسام.

والمتسبِّب عن الكفر شيئان: الأوَّل تقليل التمتيع إذ قصر على التمتيع الدنيويِّ، ولم يوصل بالأخرويِّ، والثاني اضطراره إلى عذاب النار.

﴿وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿127﴾ رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَا إِنَّكَ أَنتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ﴿128﴾ رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿129﴾﴾

بناء البيت الحرام، ودعاء إبراهيم وإسماعيل

﴿وَإِذْ يَرْفَعُ﴾ المضارع لحكاية الحال الماضية، كأنَّ المخاطب حَضَر حين رَفَعَ ﴿إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ﴾ الأساس، أي: ينشئها، والجُدر؛ لأنَّ كل جزء منها قاعدة لما فوقه. أو رفعها تعظيمها بالحجِّ إليها، من القعود، وهو الثبوت. ﴿مِنَ الْبَيْتِ﴾ وليس المراد أنَّها كانت قصيرة وأطالها، أوقَعَ الإطالة على القاعدة للجوار أو الحلول؛ لأنَّ الجدار المجاور لها أو الحالَّ فيها غير مرفوع أيضًا، بل يحدث بإحداث سافة ثم سافة. ولا مانع من أن يراد برفع الجدُر جعل آخرها عاليًا بإكثار السافات. ﴿وَإِسْمَاعِيلُ﴾ أخَّره لأنَّه غلام تابع له معين له بمناولة الحجر والطين، ومع ذلك سمَّاه رافِعًا؛ لأنَّ الرفع بواسطة المناولة، وذلك من عموم المجاز، وهو هنا مطلق ما به حصول الرفع، أو جمع بين الحقيقة والمجاز، أو يقدَّر: وإسماعيل يناوله كقوله:

وزججن الحواجب والعيونا[1]

(1) نسبه في **لسان العرب** للراعي، وصدره: «وهزَّة نسوةٍ من حيٍّ صدقٍ...». **ابن منظور**: لسان العرب، ج 3، ص 11، مادة «زجج».

ويضعف أن يقال: تارة يبني إبراهيم وتارة إسماعيل، أو يبني أحدهما موضعًا منه والآخر موضعًا، ولو في وقت واحد.

قائلين: ﴿رَبَّنَا تَقَبَّلْ﴾ التفعُّل للمبالغة بمعنى: اِقبل قبولاً عظيمًا، بأنْ يزيد له ثوابًا على القبول؛ ﴿مِنَّآ﴾ بِناءَنَا وسَعْيَنا فيه؛ ﴿إِنَّكَ أَنتَ السَّمِيعُ﴾ لدعائنا، أي: العليم به، واختار لفظ السَّمع لأنَّه في الجملة للأصوات. ﴿الْعَلِيمُ﴾ بنيَّاتنا.

﴿رَبَّنَا﴾ تأكيد للأوَّل أو استجب دعاءنا يا ربَّنا؛ ﴿وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ﴾ منقادَيْن إليك، ومخلصين لك أعمالنا؛ ﴿وَمِن ذُرِّيَّتِنَآ أُمَّةً﴾ واجعل من ذرِّيتنا أمَّة ﴿مُّسْلِمَةً لَّكَ﴾ طلب البعض لعلمه من قوله: ﴿لَا يَنَالُ عَهْدِيَ الظَّالِمِينَ﴾ [الآية: 124] أنَّ من ذرِّيته من لا يكون مسلمًا لله، واختار الذرِّية لأنَّها أحقُّ بالشفقة ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ الَاقْرَبِينَ﴾ [سورة الشعراء: 214]، ﴿قُوا أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا﴾ [سورة التحريم: 6]، ولم يلغِ غيرهم لأنَّ صلاح بعض الذرِّية صلاح لغيرهم من الأتباع.

وقد أوقع الله ذلك فأخبر به نبيئه ﷺ إذ قال: ﴿وَمِن ذُرِّيَّتِهِمَا مُحْسِنٌ وَظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ مُبِينٌ﴾ [سورة الصافَّات: 113] ومن ذلك البعض أمَّة رسول الله ﷺ المجيبة المخلصة العربيَّة التي من نسل إبراهيم، وَأَمَّا غيرهم فتبعٌ لهم. ﴿وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَآ﴾ علِّمناها وهي شرائع ديننا أو مناسك الحجِّ، ومنها الذَّبح. أو بصِّرنا مواضعها، ومنها مواضع الذَّبح. وأصل النسك: العبادة الشاقَّة، ثم خُصَّ بالحجِّ لمشقَّته، وربَّما خُصَّ بعده بالذَّبحِ.

[قصص] وموضع الكعبة قبل الأرض بألفي عام زبدة بيضاء، وبسطت الأرض من تحتها، واستوحش آدم وشكا إلى الله ﷻ فأنزل عليه البيت المعمور ياقوتة من الجنَّة لها بابان من زمرد أخضر: باب غربيٌّ وباب شرقيٌّ

في موضع الكعبة، وقال: طف وصلِّ عنده كعرشي، وأنزلَ عليه الحجر الأسود فحجَّ آدم من الهند ماشيًا معه ملَك يدلُّه، واستقبلته الملائكة أربعين فرسخًا وقال له الملائكة: «برَّ حجُّك يا آدم»، وقالوا دفعا لما قد تستعظم النفس من عبادتها: لقد حججناه قبلك بألفي عام، وزاد بعد ذلك تسعة وثلاثين حجَّةً من الهند ماشيًا، ورفع في عهد آدم إلى السَّماء الرَّابعة، وبنى الكعبة في موضعه. وقيل: رُفع في الطوفان، يدخله كلَّ يوم سبعون ألف ملك ولا يعودون إليه، وأمر الله ﷻ جبريل عليه السلام أنْ يخبِّئ الحجر في أبي قبيس صيانة من الغرق، وبقي البيت خربًا إلى أن أمر الله إبراهيم ببنائه وبناه وردَّ إليه الحجر[1].

[قصص] وقد أمر الله جل جلاله الملائكة أن يبنوا في كلِّ سماء وأرض بيتًا على سمت الكعبة. روي أنَّ الأرض انشقَّت إلى منتهاها، وقذفت فيها الملائكة حجارة كالإبل أو كأسنمتها خضرًا، وبنوا عليها البيت ثم بَناهُ آدم لطول عهده من حين بنوه، فتلك التي بنى عليها إبراهيم أظهرها الله، فذلك بناءان.

[تاريخ] ثُمَّ شيت ثمَّ إبراهيم ثمَّ العمالقة ثمَّ الحَارث بن مضاض الجرهمي، ثمَّ قصيٌّ جدُّ النبيء ﷺ، ثمَّ قريش لضعفه بالسَّيل، وحضره ﷺ ابن خمس وثلاثين، ثمَّ عبد الله بن الزبير ليدخل فيه الحطيم على أصله، مع ضعفه بحجارة المنجنيق إذ حاصره الحجَّاج. حفر إلى حجارة الملائكة وبنى منها، وإذا ضرب المعول فيها تحرَّكت كلُّها وسائر الأرض القريبة، وجعل لها بابا تحت الموجود الآن، وبابًا مقابلاً له من جهة الركن اليمنيِّ ملتصقين بالأرض، ابتداء في جمادى الأخيرة وختم في رجب سنة خمس وستِّين، وذبح مائة بدنة للفقراء وكساهم، وهدمه الحجَّاج كلَّه وبناه وأخرج الحطيم، وقيل: هدم الجدار الذي يلي الحطيم فقط، وبناه وسدَّ باب جهة ركن اليمن. وهدم جهة الحجر القرامطة وأخذوا الحجر، وقتلوا من وجدوا من المسلمين،

---

(1) ينظر: ابن حجر في فتح الباري، كتاب أحاديث الأنبياء، ج 6، ص 316. والله أعلم.

ثمَّ ردَّ بعد مــدَّةٍ طويلةٍ، وبُنِيَ ما هدَموه[1]، وبَنى فيه بعض الملوك ســنة ألف وتسع وثلاثين[2]، وهو من حجارة خمسة أجبل: طور سيناء وطور زيتاء ولبنان بالشَّام والجودي بالجزيرة وقواعده من حراء بمكَّة.

﴿وَتُبْ عَلَيْنَآ﴾ فيما فرط منَّا مِن تَرْكِ ما هو أفضل إلى ما دونه.

[أصول الدين] وذلك مــا ليس بمعصية في حقِّ غيــر الأنبياء كنوم أكثر الليل، وكما يكون من طبع البشر كعُجب ضروريٍّ ينفيانه، وكالانتقام الجائز، ونحو ذلك ممَّا ليس ذنبًا في حقِّ الناس، وفعلاه عمدًا أو ســهوًا أو نسيانًا. أو ذلك هضم [للنفـس] أو تعليم للتوبة، أو اســتتابة لذنــوب ذرِّيَّتهما وأضافا لأنفســهما مبالغة. أو يقدَّر: «وتُب على ذرِّيَّتنا». أو إجراءٌ للولد مجرى النفس لعلاقة البعضيَّة ليكون أقرب للإجابة. والمعنى: اِقبَلْ توبتنا.

[فقه] وتوبــة العامة: النَّدم عن المعصية وإصلاح ما فســد، والعزم على إصلاحه إن لم يمكن في الحال. وتوبة الخواصِّ: الندم عن المكروه والتقصير والكسل في العبادة. وتوبة خواصِّ الخواصِّ: الترقِّي في الدرجات، وهما عليهما السلام

---

(1) ذكر صاحــب كتاب **تاريخ الكعبة** حســين عبد الله ســلامة: «ذكر أهل التاريــخ أنَّ عدوَّ الله أبا طاهر القرمطي وافى مكَّة في ســابع ذي الحجَّة ســنة 317هـ، وفعــل فيها هو وأصحابه أمورًا منكرة، وقلع الحجر، وذهب به معه إلى بلاده «هجر» وبقي موضع الحجر خاليا يضع الناس فيه أيديهم للتبرُّك، إلى حين ردَّ إلى موضعه من الكعبة يوم النحر سنة 339هـ، وذلك من أحداث ومذكِّرات ثورة القرامطة المعروفة في التاريخ.

والقرامطة أصحاب دعوة شيعيَّة متطرِّفة، تفرَّعت عن الإسماعيليَّة، وانتشرت سنة 310هـ بزعامة حمدان القرمطي الإسماعيلي اليمني، وأقام دولة في اليمن وانقرضت بالحروب الصليبيَّة سنة 915هـ، وبقيت مبادئهم عند الباطنيَّة في صنعاء. ينظر: الموسوعة العربيَّة الميسَّرة، ص1373.

(2) هو الســلطان مراد خان العثماني ســنة 1040هـ، وهو البناء الثاني عشر للبيت المعظَّم، قال صاحب كتاب **تاريخ الكعبة المعظَّمة عمارتها وكسوتها وســدانتها**، حسين عبد الله سلامة: «استغرقت عمارتها من طرف السلطان مراد ســتَّة أشهر ونصف، وهذه العمارة هي الأخيرة، ولا تزال على حكمها إلى العصر الحاضر» وطبع الكتاب سنة 1354هـ، بجدَّة.

من الثالث، أو يخافان أنْ يكونا من الثاني. ويجوز أنْ يقدَّر: تب على عُصاتنا. أو أراد المجموع فيرجع الكلام إلى العصاة.

﴿**إِنَّكَ أَنتَ التَّوَّابُ**﴾ لمن تاب ﴿**الرَّحِيمُ**﴾ به، كالحجَّة لقولهما: «تُبْ عَلَيْنَا»، وقد مرَّ أنَّ توبة الله التوفيق إلى التوبة أو قبوله التوبة.

﴿**رَبَّنَا**﴾ استجب دعاءنا، أو كرَّره تأكيدًا وتلذُّذًا، وهكذا يقدَّر محذوف، أو يجعل تأكيدًا إذ كرَّر النِّداء. ﴿**وَابْعَثْ فِيهِمْ**﴾ في الأمَّة المسلمة لك من ذرِّيتي أو في ذرِّيتي؛ ﴿**رَسُولاً**﴾ عظيمًا ترسله بشرع جديد وكتاب مجيد. ﴿**مِّنْهُمْ**﴾ من أنفسهم.

وقد استجاب الله دعاءهما بسيِّدنا محمَّد ﷺ؛ لأنَّهما لم يجتمعا إلَّا فيه، فإنَّ أكثر الأنبياء من ذرِّيَّة نبيء الله يعقوب ولد نبيء الله إسحاق ولد إبراهيم نبيء الله، وقليل من ولدِ روم بن إبراهيم، وهو: أيُّوب وذو القرنين في قول، قال ﷺ: «**أنا دعوة أبي إبراهيم**[1] ـ يعني هذه الآية، وهو أيضًا دعوة إسماعيل ولم يذكره اجتزاء بالأب الأكبر ولتقدُّمه ـ **وبشرى عيسى** ـ يعنى قوله: ﴿وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ...﴾ إلخ [سورة الصف: 6] ـ **ورؤيا أمِّي التي رأت حين وضعتني أنَّه أضاءت بي قصورُ الشام**». وهو ﷺ دعوة أبيه إسماعيل أيضًا لهذه الآية، ولم يذكره النبيء ﷺ لأنَّه تبع لأبيه إبراهيم، ولأنَّ أباه إبراهيم هو الأصل في هذا الدُّعاء الذي في الآية.

﴿**يَتْلُو**﴾ يقرأ ﴿**عَلَيْهِمْ ءَايَاتِكَ**﴾ أي: القرآن، والمراد: معانيه لكن بألفاظه، وهو دلائل النُّبوءة والتَّوحيد والشَّرع. ﴿**وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ**﴾ القرآن

---

(1) رواه **أحمد** في مسنده، ج 6، ص 84، رقم: 17150. والطبراني في **الكبير**، ج 18، ص 253، رقم: 631، ولفظه عندهما: «إنِّي عبد الله في أمِّ الكتاب وخاتم النبيئين، وإنَّ آدم عليه السلام لمنجدل في طينه، وسأنبِّئكم بأول ذلك ـ تفسيره ـ دعوة أبي إبراهيم، وبشارة عيسى...» من حديث العرباض بن سارية.

أيضًا، والمـراد لفظه. أو الآيـات: ألفاظه والكتاب معانيـه عكس ذلك، أي: ويعلِّمهم معانيـه. ﴿وَٱلْحِكْمَةَ﴾ مـا فيه من الأحكام بيَّنها لهـم. أو الحكمة: العمل به، أو وضع الأشـياء في مواضعها، أو ما يزيل حبَّ الدنيا، أو الآداب، أو السنَّة. ﴿وَيُزَكِّيهِمْ﴾ من الشرك والمعاصي.

ومعلوم أنَّ التَّخلية قبـل التَّحلية ولكن أخَّرها هنا لشـرف التَّحلية هذه، ولتقدُّم التخلية هذه فـي الذِّهن والقصد، فجيء بترتيـب الذِّهن ولو تقدَّمت التَّخلية في الخارج، ولأنَّ المقصـود التحلية، والتخلية وسـيلة. ﴿إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ﴾ الغالب لمـن أراد مخالفته، فالغلبة فعـلٌ، أو المنتفي عنه الذُّل فهي صفةٌ. ﴿ٱلْحَكِيمُ﴾ فـي صنعه، لا يقول عبثًا ولا يفعله، ولا سـفها، ولا يضع الشيء إلَّا موضعه.

﴿وَمَن يَرْغَبُ عَن مِّلَّةِ إِبْرَاهِيمَ إِلَّا مَن سَفِهَ نَفْسَهُ ۚ وَلَقَدِ اصْطَفَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا ۖ وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ ﴿130﴾ إِذْ قَالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْلِمْ ۖ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿131﴾ وَوَصَّىٰ بِهَا إِبْرَاهِيمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَا بَنِيَّ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَىٰ لَكُمُ الدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿132﴾﴾

سفه من يرغب عن ملّة إبراهيم

﴿وَمَنْ يَّرْغَبُ﴾ توبيخ، ونفيٌ لأنْ يصحَّ عقلاً أو شرعًا تصويب أنْ يرغب راغبٌ. ﴿عَن مِّلَّةِ إِبْرَاهِيمَ﴾ ويتركها.

[لغة] ﴿إِلَّا مَن سَفِهَ نَفْسَهُ﴾ حملها على الخسَّة والحقارة، وهو متعدٍّ، كقوله ﷺ: «**الكِبْر أنْ تَسفَهَ الحقَّ...**»[1] إلخ بفتح الفاء في رواية التخفيف، واللَّازم «سَفُهَ» بضمِّها. أو تعدَّى في الآية لتضمُّن معنى جَهِلَ أو أهلكها، أو أذلَّها بالإعراض عن النظر، وأنَّ أصله اللزوم، أي: جَهِلَهَا لخفَّة عقله، أو جهل أنَّها مخلوقة لله، أو يقدَّر: سفه في نفسه.

﴿وَلَقَدِ اصْطَفَيْنَاهُ﴾ اخترناه للرِّسالة، والخلَّة، والإمامة، والحكمة، أو بذلك[2]. ﴿فِي الدُّنْيَا﴾ وشهر بذلك في الأزمنة بعده عند مسلميها وكافريها.

---

(1) رواه أحمد في مسنده، ج 2، ص 58، رقم: 3789. والطبراني في الكبير، ج 2، ص 69، رقم: 1318، من حديث قيس بن شماس، وأوَّل الحديث: «كنت عند رسول الله ﷺ فقرأ هذه الآية: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ﴾ فذكر الكبر فعظَّمه، فبكى ثابت، فقال له الرسول ما يبكيك؟...» إلخ.

(2) في نسخة (ج) سقط: «أو بذلك».

﴿وَإِنَّـهُ فِي الْآخِرَةِ﴾ حال من اسـم «إنَّ» على قول سـيبويه بجواز الحال من المبتدأ، أو متعلِّق بنسـبة الكلام، أي: وأنَّه محكوم عليه فـي الآخرة بأنَّه من الصالحين. وإنْ علقناه بقوله: ﴿لَمِـنَ الصَّالِحِينَ﴾ أو بمتعلَّقه المحذوف، أي: لمعدود أو ثابت من الصالحين في الآخرة ففيه خروج للَّام في خبر «إنَّ» على الصدر كما هو ظاهـر، ﴿وَإِنَّهُ عَلَىٰ ذَٰلِكَ لَشَـهِيدٌ وَإِنَّهُ لِحُبِّ الْخَيْرِ لَشَـدِيدٌ﴾ [سـورة العاديات: 7 ـ 8] ولا يتعلَّـق بـ«صالحين» لأنَّه ليس المـراد أنَّه يصلح في الآخرة، بل المراد أنَّه يتبيَّن في الآخرة، ويشاهَد أنَّه من جملة الصَّالحين الذين لهم الدرجات العلى.

﴿إِذْ قَالَ لَهُ رَبُّهُۥٓ أَسْـلِمْ﴾ اذكر إذ قال، أو متعلِّق بـ«اصْطَفَيْنَاهُ». والتعليل مسـتفاد من المقام فإنَّه إذا قيـل «اصْطَفَيْنَاهُ وقـت قَال له...» إلـخ، عُلِمَ أنَّ الاصطفاء لقوله: «أَسْـلَمْتُ...» إلخ بعد قول الله جلَّ وعلا: «أَسْلِمْ». أو حرف تعليل كما تكون «على» و«عن» حرفا واسـمًا، بل كما قال سيبويه في «إذما»: إنَّ «إذ» حرف وفي غير الشرط اسم، أي: نال الاصطفاء بالمبادرة إلى الإذعان والإخلاص. ومعنى ﴿أَسْلِمْ﴾: أذعِنْ، أو أخلِصْ وجهك، وجاء على المعنيين قوله: ﴿قَالَ أَسْـلَمْتُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾. أو ﴿أَسْـلِمْ﴾ لفظُهُ أمرٌ، ومعناه إخطارُ دلائـلِ التوحيد بباله، كالقمر والشـمس والنجم[1]، فيكون قوله: «أَسْـلَمْتُ» مجازًا عن النظر والمعرفة على حدِّ «كُن فَيَكُونُ».

والمراد بالآية على كلِّ حال مـا بعد النبوءة أو قبلها حيـن كبر، فالمراد ازدياد ذلك، أو ما في حال الصِّغر إذ كان في الغار، فيكون المراد إنشاء ذلك، ﴿وَلَقَدَ ـ اتَيْنَآ إِبْرَاهِيمَ رُشْدَهُ مِن قَبْلُ﴾ [سورة الأنبياء: 51] وتقدَّم على هذا أيضًا أنَّ كلَّ مولود يولد على الفطرة. قال ابن عيينة: دعا عبدُ الله بن سـلام ابني أخيه سلمة ومهاجرًا إلى الإسلام، وقال: قد علَّمتنا أنَّ الله قال في التوراة: إني باعث

---

(1) إشارة منه رَحِمَهُ اللَّهُ إلى ما ورد في سورة الأنعام عن إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ، الآيات 76 ـ 79.

من ولد إسماعيل نبيًا اسمه أحمد، من آمن به فقد اهتدى ورشد، ومن لم يؤمن به فهو ملعون، فنزل: ﴿وَمَنْ يَرْغَبُ...﴾ الآية. **قال السيوطي: لم نجد هذا في كتب الحديث.**

﴿وَأَوْصَى بِهَا﴾ بالملَّة، أي: باتِّباعها لصراحة ذكرها وإظهار «إِبْرَاهِيمُ» وعطفِ «يَعْقُوبُ» عليه مع أنَّ عطف «أَوْصَى» على ما قال له ربُّه يقتضي الضَّمير. وأصل الإيصاء: التقدُّم إلى أحد بخبر، والوصل، يقال: وصَّاه إذا وصله، وقصَّاه إذا قطعه.

أو بكلمةِ **﴿أَسْلَمْتُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾**، لقوله: **﴿وَجَعَلَهَا كَلِمَةً بَاقِيَةً فِي عَقِبِهِ﴾** [سورة الزخرف: 28]، فإنَّه أنسب، ولا سيما إنْ رجعنا الضمير إلى قوله: **﴿إِنَّنِي بَرَاءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ﴾** [سورة الزخرف: 26] بتأويل الكلمة، ولقربه، ولو كان فيه تأويل؛ وفيه أنَّه لو رجع الضمير لكلمة «أَسْلَمْتُ» لقال: «أَسْلَمْتُ لربِّ العالمين، وأوصى بها بنيه ويعقوب».

[قصص] **﴿إِبْرَاهِيمُ بَنِيهِ﴾** ثمانية أو أربعة عشر، إسماعيل وهو أوَّلهم، وأمه هاجر (بفتح الجيم) القبطية، وإسحاق، وأمُّه سارة، وأمُّ الباقين قنطوراء بنت يقطن الكنعانيَّة، تزوَّجها بعد وفاة سارة، مدين، ومدائن، وزمران، ولنشان، ولبشق، وشوخ. زاد بعض: روم.

﴿وَيَعْقُوبُ﴾ بنيه كما أوصيا غير بنيهما، أو خصَّهم للشفقة، ولأنَّ صلاحهم صلاح لغيرهم، قال كل منهما لبنيه: **﴿يَابَنِيَّ...﴾** إلخ وقال: **﴿إِبْرَاهِيمُ﴾** لأنَّه أشدُّ عمدة ولذكر بنيه. أو يحكى بـ«أَوْصَى» لأنَّه بمعنى قال، أو المقدَّر: «ويعقوب قال».

﴿يَابَنِيَّ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى لَكُمُ الدِّينَ﴾ الكامل المعهود دين الإسلام الذي جاء به إبراهيم **﴿فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾** راسخون فيه، أي:

دوموا عليه حتَّى إذا جاءكم الموت وافاكــم عليه متَّصفين به. وَأَمَّا الموت نفسه فليس بأيديهم.

[قصص] وأولاد يعقوب: روبين، بضمِّ الراء وكســر الباء الموحَّدة بعدها مثنَّاة فنون، ويروى باللام بدل النون، وشِــمعون بكســر الشين، وبشوخور، ولاوي، ويروى: ليوى، ويهوذا، أو زبولون بفتح الــزاي وزوانى بفتح الزَّاي والنُّون، ويروى: تفتالى بفتح التَّاء واللام، ويــروى: نفتلي بفتح النون والتاء وكســر اللام، ويروى: بتيون بدله، وإسَّاخر بكســر الهمزة وشدِّ السين وفتح الخاء، ويروى بالياء المثنَّاة بدل الهمــزة بذلك الضبط، وكاد ويروى: كوذى، ويروى بإهمال الدال، وآشــر كناصر، ويروى: أوشــير، وبنيامين بكسر الباءِ، ويوسف، وأكبرُهُم سنًّا رُوبين، وأصغرهم سنًّا يوسف، وأكبرُهُم رايا شمعون، وقيل: يهوذا. والنبوءة في أولاد لاوي، والملك في أولاد يهوذا.

﴿أَمْ كُنتُمْ شُهَدَآءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ ٱلْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِنۢ بَعْدِى ۖ قَالُوا۟ نَعْبُدُ إِلَٰهَكَ وَإِلَٰهَ ءَابَآئِكَ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ ﴿133﴾ تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ ۖ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُم مَّا كَسَبْتُمْ ۖ وَلَا تُسْـَٔلُونَ عَمَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿134﴾ وَقَالُوا۟ كُونُوا۟ هُودًا أَوْ نَصَٰرَىٰ تَهْتَدُوا۟ ۗ قُلْ بَلْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِـۧمَ حَنِيفًا ۖ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿135﴾ قُولُوٓا۟ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَآ أُنزِلَ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ وَمَآ أُوتِىَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَآ أُوتِىَ ٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ ﴿136﴾ فَإِنْ ءَامَنُوا۟ بِمِثْلِ مَآ ءَامَنتُم بِهِۦ فَقَدِ ٱهْتَدَوا۟ ۖ وَّإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنَّمَا هُمْ فِى شِقَاقٍ ۖ فَسَيَكْفِيكَهُمُ ٱللَّهُ ۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿137﴾﴾

إبطال دعوى اليهود أنَّهم على دين إبراهيم ويعقوب

﴿أَمْ كُنتُمْ شُهَدَآءَ﴾ جمع شاهد، كعالم وعلماء، أو شهيد ككريم وكرماء. **﴿إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ الْمَوْتُ﴾**.

[أسباب النزول] قالت اليهود لعنهم الله للنبيء ﷺ: ألم تعلم أنَّ يعقوب يوم مات وصَّى بنيه باليهوديَّة، وما مات نبيء إلَّا عليها؟ فنزل: ﴿أَمْ كُنتُمْ شُهَدَآءَ﴾ وعَنَوْا باليهوديَّة ملَّة موسى، وعَنَوْا أن لا تخالف فيما خالفها القرآن والإنجيل فيه. أو عنوا اليهودية المحدثة الباطلة، فكذَّبهم الله بأنَّ يعقوب أوصاهم بدين الحقِّ ولم تحضروا، ولو حضرتم في زمانه لسمعتموه في ذلك، وإنَّما اليهوديَّة بعد موسى.

﴿إِذْ﴾ بدل مِن «إذ» [الأولى] ﴿قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِنۢ بَعْدِي﴾ من بعد موتي، أراد بـ«ما» العموم، من يعلم ومن لا يعلم، ويبعد أنْ يكون المراد ما لا يعلم فقط، وأنَّه كمختبِرٍ لهم، وكانت المعبودات في زمانه أصنامًا ونجومًا وغير ذلك ممَّا لا يعلم، فيقول لهم: أيَّها تعبدون؟ فأجابوا: أنْ لا نعبدها بل نعبد الله كما قال:

﴿قَالُواْ نَعْبُدُ إِلَهَكَ وَإِلَهَ ءَابَآئِكَ﴾ أي: الله الذي هو معبودك ومعبود آبائك ﴿إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ﴾ عَدَّهُ أبًا ليعقوب تغليبًا للأكثر، ولأنَّه عمُّه، والعم أبٌ كما في الحديث: «**وأنَّ العمَّ صنو الأب، وأنَّ العباس بقيَّة آبائي**»[1]، وقال: «**ردوا عليَّ أبي**»، وهو العبَّاس حين بعثه لمكَّة ليدعوهم لئلَّا يقتلوه «**واحفظوني في العبَّاس فإنَّه بقيَّة آبائي**». وقدَّمه على إسحاق الأب الحقيقيِّ تغليبا ولكبر سنِّه إذ زاد على أخيه إسحاق بأربع عشرة سنة، وأنَّه جدُّ نبيئنا ﷺ وعليهم.

ولو جعلنا «إِبْرَاهِيمَ» بدلا من «إِلَهَ» على حذف مضاف، أي: إله إبراهيم، لم نحتج لتأويل في ذكر إسماعيل، **إلَّا أنَّ فيه سوء أدب**. ﴿وَإِسْحَاقَ إِلَهًا وَاحِدًا﴾ بدل من «إِلَهَكَ»، أو نعني: إلها واحدا، تصريح بالتوحيد نفيا للتعدُّد المتوهَّم من قوله: ﴿إِلَهَكَ وَإِلَهَ ءَابَآئِكَ﴾، فإنَّ أغلبيَّة كون المعرفة المكرَّرة عين الأولى لا تكون نصًّا، ولأنَّها في غير العطف، أمَّا فيه كما هنا فقد عارضها أغلبيَّة أخرى هي أنَّ الأصل في العطف التغاير.

ولو أراد أنْ لا يكرِّرَ لقال: نعبد إلهكم أنتم وإبراهيم وإسماعيل وإسحاق، وقد تستفاد الوحدَة من «إِلَهًا» فيكون قوله: «وَاحِدًا» نفيًا للتركيب والمشاركة في الصِّفات. ﴿وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ﴾ مخلصون التوحيد، أو منقادون لأمره ونهيه.

---

(1) رواه الترمذي في كتاب المناقب (29)، باب مناقب العبَّاس بن عبد المطلب رضي الله عنه، رقم: 3759 ـ 60 ـ 61.

﴿تِلْكَ﴾ أي: هؤلاء إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب وبنوهم، وقال: ﴿تِلْكَ﴾ لمعنى الجماعة، أو للخبر وهو قوله: ﴿أُمَّةٌ﴾ جماعة.

[لغة] سـمِّيت أمَّة لأنَّها تُؤَمُّ، أي: تُقصَدُ، ويؤم بعضُها بعضًا، ويجمعهم أمر واحدٌ: دين أو زمـان أو مكان، هذا أصل الأمَّة. وقـد يطلق على الملَّة أو على الزمان أو على المنفرد بشـيء فـي زمانه؛ وحمل بعضهـم الآية عليه، بمعنى أنَّ كلَّ واحد من إبراهيم وإسـماعيل وإسحاق ويعقوب أمَّةٌ في زمانه، فالإشـارة إلى الأربعة على هذا، لعلَّه لا يرِدُ علينا ما يعمل الأربعة من خير أو شرٍّ، إذ لا يعملون شرًّا، اللهمَّ إلَّا على سبيل الفرض للبرهان.

﴿قَدْ خَلَتْ﴾ مضت ﴿لَهَا﴾ لا لغيرها ﴿مَا كَسَبَتْ﴾ أجر عملها، ﴿وَلَكُم﴾ لا لغيركم ﴿مَّا كَسَبْتُمْ﴾ ولهم أو لكم ما كسب لهم أو لكم، وحذف ذلك.

[فقه] [وذلك] مثل أن يتصدَّق واحد أو يصلِّـي النَّفل أو يصومه وينوي بثوابه غيره من الأحياء أو الأموات، وَأمَّا العلـم المنتفع به والصدقة الجارية فمن كسـب الإنسـان، ومنفِّذ ذلك كوكيلـه. وولد الرجل من كسـبه. وقيل: يختصُّ ذلك بهذه الأمَّة، والخطاب لليهود.

والمراد: الجزاء بخير أو شـرٍّ كمـا في قوله: ﴿وَلَا تُسْـأَلُونَ عَمَّـا كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾ من خير أو شرٍّ، ولا يُسألون عمَّا كنتم تعملون.

والسؤال عبارة عن لازمه وهو المؤاخذة ولو كان حقيقًا فكيف وهو توبيخ؟. قال ابن أبي حاتم مرسلاً: إنَّ رسول الله ﷺ قال: «**يا معشر قريش إنَّ أولى الناس بالنبيء المتَّقون فكونوا بسـبيل من ذلك، فانظروا أن لا يلقاني الناس يحملون الأعمال الصالحة وتلقوني بالدنيا تجمعونها فأصدُّ عنكم بوجهي**»[1] وفي معناه

(1) رواه الربيع في مسنده، باب ما ذكر من حديث الشفاعة، وهو من مراسيل جابر بن زيد ؓ. رواه الطبراني في الكبير، ج 18، ص 161، رقم: 354.

ما روي: «**يا بني هاشم لا يأتيني الناس بأعمالهم وتأتوني بأنسابكم**»[1]. أو لا تُسألون عمَّا يعمل هؤلاء الأنبياء قبلكم من الشرائع، بل عمَّا يعمل نبيئكم محمَّد ﷺ.

﴿**وَقَالُواْ كُونُواْ هُودًا أَوْ نَصَارَى تَهْتَدُواْ**﴾ «أَوْ» للتفصيل، قالت يهود المدينة: كعب بن الأشرف، ومالك بن الصيف، ووهب بن يهوذا، وأبو يسار بن أحطب، وعبد الله بن صوريا الأعور، وهم رؤساء يهود المدينة، للمسلمين: كونوا هودًا تهتدوا، لا دين إلَّا دين اليهود، وأنكروا الإنجيل وعيسى والقرآن ومحمَّدا صلَّى الله وسلَّم عليهما، وقالت نصارى نجران لهم: كونوا نصارى تهتدوا، وأنكروا التوراة وموسى والقرآن ومحمَّدا صلَّى الله وسلَّم عليهما.

﴿**قُلْ**﴾ يا محمَّد لهم: ﴿**بَلْ**﴾ نتَّبع ﴿**مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ**﴾ كما جاء: «اتَّبِعُوا»، أو نلزمها كما كنَّا لا نفارقها، أو: اتَّبِعوا أنتم كما اتَّبعناها، وذلك مضمون الردِّ على قولهم: «كُونُوا...» إلخ. أو بل نكون ملَّة إبراهيم، أي: أهل ملَّة إبراهيم، كما هو لفظ ﴿**كُونُوا هُودًا**﴾، أو يقدَّر: بل كونوا أهل ملَّة إبراهيم كما كنَّا على ملَّته.

﴿**حَنِيفًا**﴾ عن الأديان كلِّها إلَّا دين الإسلام. ﴿**وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ**﴾ كما كان الشرك في يهوديَّتكم ونصرانيَّتكم، إذ قلتم: عزير ابن الله والمسيح ابن الله، أو إله، ونحو ذلك، وكما أشركتم بإنكار القرآن وبعض الرُّسل، واليهود بإنكار الإنجيل، والنصارى بإنكار التوراة.

---

(1) ذكره الدكتور وهبة الزحيلي في التفسير المنير، ج 1، ص 323، دون إسناد، وأورده الطبراني. ينظر: كنز العمَّال، ج 16، ص 19، رقم: 43751، من حديث عمران بن حصين. فقرة من الحديث السابق.

والآية تعريض بشرك العرب المشركين إذ يعبدون الأصنام كما أنَّها تعريض بشرك اليهود والنصارى.

﴿قُولُوٓاْ﴾ أيُّها المؤمنون، أي: النبيء والمؤمنون، وكلُّ نبيء أوَّل من يؤمن بما أنزل عليه. ﴿ءَامَنَّا بِاللهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْنَا﴾ أي: أخبِروهم بأنَّا على الهدى مؤمنون بما يجب الإيمان به ممَّا أنزل علينا وهو القرآن. أو هذا القول من جملة ما حكي بـ«قُلْ»، والخطاب لليهود والنصارى، كأنَّه قيل: قلْ لهم: قولوا آمنَّا بالله وما أنزل إلينا من التوراة والإنجيل والقرآن، فإنَّه نزل عليهم كغيرهم.

﴿وَمَآ أُنزِلَ إِلَىٰٓ إِبْرَاهِيمَ﴾ من الصحف العشر ﴿وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ...﴾ إلخ أنزلت على إبراهيم خاصَّة، لكن خوطبوا بالعمل بها فهي منزَّلة إليهم، فهُمْ كَمَن أَرسَلَ إليهم السلطانُ في شأن بواسطة كبيرِهِم. ﴿وَيَعْقُوبَ﴾.

[قصص] اجتمع هو وعيص في بطن أمِّهما، فقال عيص: تأخَّر أنزل قبلك، وإلَّا خرقت بطن أمِّي، فتأخَّر فخرج عيص قبله، فخرج عقبه يعقوب، أو متصلاً بعقبه فسمِّي يعقوب، **وهذا ممَّا يقال.**

﴿وَالَاسْبَاطِ﴾ أولاد يعقوب، سمَّاهم لأنَّهم أولاد الولد لإسحاق ولإبراهيم.

[لغة] والسبط ولد الولد، أو يراد أولاد أولادِ يعقوب، والأسباط في بني إسرائيل كالقبائل في العرب من بني إسماعيل. من السبوطة وهي الاسترسال، أومن السبط وهو شجر كثير الأغصان لكثرتهم، أو من البسط فقُلِب، لكثرتهم.

وليسوا كلُّهم أنبياء، بل بعضهم على الصحيح، لصدور كبائر[1] منهم، والصحيح أنَّها لا تصدر من نبيء ولو قبل البلوغ.

---

(1) إشارة إلى ما فعلوا بأخيهم يوسف.

﴿وَمَآ أُوتِيَ مُوسَى وَعِيسَى﴾ من ربِّهم فحذف لدلالة ما بعده، جمع التوراة والإنجيل بلفظ «مَا» لشهرة التوراة لموسى والإنجيل لعيسى، واتِّصال ذكرهما إلى وقت الخطاب، ولأنَّ الإنجيل مقرِّر للتوراة وما نَسَخَ منها إلَّا قليلا.

وموسى وعيسى داخلان في الأسباط وخصَّهما بالذكر لعظمهما ولتخصيصهما بكتابيهما، وكانت العبارة كذلك تحرُّزًا عمَّا زاد اليهود والنَّصارى ونقصوا من الكتابين، وكذا في قوله: ﴿وَمَآ أُوتِيَ﴾ من الكتب والمعجزات والدلائل، ﴿النَّبِيئُونَ مِن رَّبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ﴾ واحد فحذف العطف، أو «أَحَدٍ» بمعنى الجماعة بعد السلب، أي: لا نفرِّق بينهما على أنَّه موضوع للواحد والاثنين فصاعدًا بعد كلٍّ، أو النفي كما قال الفارسيُّ.

﴿مِّنهُمْ﴾ بل نومن بهم كلِّهم، لا كاليهود والنصارى، آمنوا ببعض وكفروا ببعض. وَأَمَّا التفريق بتفضيل بعض على بعض تفضيلا لا يؤدِّي لنقصٍ فجائز ﴿تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ﴾ [سورة البقرة: 253].

﴿وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ فَإِنَ ـ امَنُواْ﴾ أي: اليهود والنصارى. وهذا يناسب أنَّ قوله: ﴿قُولُواْ﴾ خطاب لليهود والنصارى، ﴿بِمِثْلِ مَآ ءَامَنتُم بِهِ فَقَدِ اِهْتَدَوْاْ﴾ متعلِّق بقوله: ﴿قُولُواْ ءَامَنَّا﴾، أو بقوله سبحانه: ﴿بَلْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ﴾ أي: إنْ حصَّلوا الإيمان بمثل ما حصَّلتم الإيمان به، وهو الاعتقاد والنطق والتعميم في كتب الله وأنبيائه، أو إنْ حصَّلوا دينًا مثل دينكم وهو لا يوجد، فيكون تعجيزًا عن أن يوجد دين صحيح غير دين الإسلام، مثل ﴿فَاتُوا بِسُورَةٍ﴾ [سورة البقرة: 23] ولو ادَّعوا أنَّ ما هم عليه الحقُّ؛ لأنَّهم بين عالمٍ أنَّ دين الإسلام هو الحقُّ وكتم، وعاقل لو فكَّر لأدرك ذلك، وهَاءُ «بِهِ» لِـ«مَا». أو «مِثْلِ» زائدا والباء زائد، وعليه فـ«مَا» مصدريَّةٌ، أي: مثل إيمانكم بالله، وهاءُ «بهِ» للهِ.

﴿وَإِن تَوَلَّوْاْ﴾ أعرضوا عن الإيمان بالحقِّ المذكور، أو عن قوله ﷺ لهم: ﴿قُولُواْ ءَامَنَّا بِاللهِ...﴾ إلخ. ﴿فَإِنَّمَا هُمْ فِي شِقَاقٍ﴾ عظيم مخالفة لكم لأجل دينكم، أو مخالفة للقول. و«الفِعَال»[1] على بابه فإنَّ المسلمين أيضًا مخالفون لهم، فإنَّه في معنى جازوكم على مخالفتكم لهم وأنتم المحقُّون، وأصله الشقُّ وهو الجانب، أو المشقَّة، أو من شقّ العصا إذ أظهروا العداوة.

﴿فَسَيَكْفِيكَهُمُ﴾ مضرَّة شقاقهم ﴿اللهُ﴾ يا محمَّد بقتل قريظة وبني قينقاع وسبيهم، وإجلاء بني النضير، وضرب الجزية قبل إجلائهم وضرب الجزية على اليهود والنَّصارى. ﴿وَهُوَ السَّمِيعُ﴾ لأقوالهم، أي: العليم بها، ﴿الْعَلِيمُ﴾ بأحوالهم فيعاقبهم عليها، وهو متعلِّق بـ«شِقَاقٍ»، أو السميع لأقوالكم الحقَّة أيُّها المؤمنون، العليم بأحوالكم الصالحة فيجازيكم عليها، فيتعلَّق بالكفاية الممتنِّ بها الموعود بها.

---

(1) أي: صيغة المفاعلة التي تفيد المشاركة، باعتبار أنَّ كلمة: ﴿قُولُواْ ءَامَنَّا بِاللهِ﴾ من كلام يعقوب ﷺ.

﴿صِبْغَةَ ٱللَّهِ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ صِبْغَةً وَنَحْنُ لَهُۥ عَٰبِدُونَ ﴿138﴾ قُلْ أَتُحَآجُّونَنَا
فِى ٱللَّهِ وَهُوَ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ وَلَنَآ أَعْمَٰلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَٰلُكُمْ وَنَحْنُ لَهُۥ مُخْلِصُونَ ﴿139﴾ أَمْ
يَقُولُونَ إِنَّ إِبْرَٰهِۦمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطَ كَانُوا۟ هُودًا أَوْ
نَصَٰرَىٰ قُلْ ءَأَنتُمْ أَعْلَمُ أَمِ ٱللَّهُ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَتَمَ شَهَٰدَةً عِندَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ وَمَا
ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿140﴾ تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُم مَّا كَسَبْتُمْ وَلَا
تُسْـَٔلُونَ عَمَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿141﴾﴾

صبغة الإيمان وأثره في النفوس والعبوديَّة لله تعالى

﴿صِبْغَةَ اللهِ﴾ قيل: بدل من «مِلَّة»، أو الزموا صبغة الله، أو صَبَغَنا اللهُ صبغة، وحذف صَبَغَنا، وأضيف للفظ الجلالة، أو متعلِّق بقوله: ﴿ءَامَنَّا﴾ على حدِّ: «قعدتُ جلوسًا». وهي فطرة الله التي فطر الناس عليها، وهي الإسلام أو التوفيق، أو الحجَّة.

[بلاغة] أو تطهير القلب من الكفر والمعصية، شبِّه بالصبغة في كونه ظاهرًا ظهور الصبغة وحلية، ومتداخلاً في أعماق المصبوغ لأنَّه راسخٌ، وفي كونه يمتاز به الإنسان عن سائر الحيوان وعن الكفَّار امتياز الثوب المصبوغ، وهو استعارة تصريحيَّة أصليَّة تحقيقيَّة. أو سمَّى ذلك صبغةً للمشاكلة لوقوعه في جوار محذوف، هو صبغة النصارى أولادهم في ماء المعموديَّة لتحقُّق نصرانيَّتهم.

وهو ماء أصفر، ويدَّعون أصله ماء غسل به عيسى عَلَيْهِ السَّلَامُ في اليوم الثالث من ولادته، وكلَّما انتقص زادوا فيه ماء، ويقولون: هو تطهير بهم، ويقال: هو معرَّب «معموذينا» بإعجام الذال. أو معناه الطهارة، ماء يقدَّس بما يُتلَى من الإنجيل ثمَّ تغتسل به الحاملات[1]، أمر الله المؤمنين أنْ يقولوا للنصارى: قولوا آمنا بالله، وصبغنا الله بالإيمان صبغة لا مثل صبغة المعموديَّة. والإبدالُ ضعيف لكثرة الفصل بالأجنبيِّ.

﴿وَمَنَ اَحْسَنُ مِنَ اللهِ صِبْغَةً﴾ لا أحسن من صبغة الله ولا مساوي لها؛ لأنَّها الإسلام المنجي من خزي الدنيا والآخرة المورثُ لخيرهما. ﴿وَنَحْنُ لَهُ﴾ لا لغيره، كما تشركون معشر اليهود والنصارى غيره في العبادة. ﴿عَابِدُونَ﴾ قيل: أو داخل فيما أمروا أن يقولوه، أي: قولوا معشر اليهود والنصارى نحن له عابدون.

[سبب النزول] قالت اليهود: نحن أهل الكتاب الأُوَل، وقبلتنا أقدم، ولم تكن الأنبياء من العرب، ولو كان محمَّد نبيًا لكان منَّا، فنزل قوله: تعالى: ﴿قُل﴾ يا محمَّد أو يا من يصلح للقول، ﴿اَتُحَآجُّونَنَا﴾ تجادلوننا جدالاً يقطعنا، والحجُّ: القطع، لا قدرة لكم على ذلك لأنَّكم مبطلون. ﴿فِي اللهِ﴾ شأنه وقضائه إذ قضى وقدَّر أنْ يكون نبيء من العرب، ولا سيما أنَّه مذكور في التوراة والإنجيل، متداول ذكره من أوائلكم إلى الآن.

وقد أتى «قيدار» ولد إسماعيل بالتابوت من الشام إلى مكَّة وردَّه منه إمَّا إسحاق أو يعقوب عَلَيْهِ السَّلَامُ، وقال: إنَّ لكم نورًا واحدًا آخر الأنوار.

﴿وَهُوَ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ﴾ فله أن يختار للنُّبوءة من شاء منَّا أو منكُم. ﴿وَلَنَآ أَعْمَالُنَا وَلَكُمُۥٓ أَعْمَالُكُمْ﴾ فإنْ توهَّمتم أنَّ النُّبوءة بالعمل فلنا من الأعمال ما

---

(1) في نسخة (ج) الاستغناء عن هذه القصَّة، فلم يذكرها.

نســتحقُّ به النُّبوءة، كما تدَّعُون أنَّ لكم أعمالاً إلَّا أنَّها باطلة بخلاف أعمالنا فصحيحة بالإخلاص كما قال:

﴿وَنَحْنُ لَهُ مُخْلِصُونَ﴾ الدِّين والعمل، وأنتم جعَلتم له شركاء فنحن أولى بالنُّبُوءة، لكن النُّبوءة لا تُعطى صاحبها لعمل غيره، ولا لعمله بل اضطِراريَّة، لا كسبيَّة بالأعمَال أو بوصول نوع من الأعمَال.

[فقه] وعنه ﷺ أنَّه قال بعد أنْ سُـئِل عن الإخلاص: «**سألتُ جبريلَ عنه فقال: ســألتُ ربِّي عنه فقال: ســرٌّ مِن أســراري أوْدَعْتُه قَلْبَ مَــن أحْبَبْتُهُ مِن عِبَادِي**»[1]. وقال سـعيد بن جبير: «أنْ لا تشـرِك في دينه، ولا ترائي أحدًا في عمله». وقال الفضيل: «ترك العمــل من أجل الناس ريــاءٌ، والعملُ من أجل الناس شركٌ، والإخلاص أنْ يعافيك الله منهما». وقيل: استواء أعمال العبد في الظاهر والباطن. وقيل: كتم الحسـنات كما تكتم السـيِّئات. وقيل: احتقارك عملك. ومعنى كونه سرًّا من أسرار الله أنَّه لا طاقة لأحد عليه باختياره. ومعنى كون الترك رياء أنَّه راءَى الناسَ أنَّه غيرُ مراءٍ. ومعنى أنَّ العمل لهم شــرك أنَّه رياء أيضًا، زاد باسم الشِّرك لأنَّه عمل لغير الله ﷻ.

﴿أَمْ يَقُولُونَ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْـمَاعِيلَ وَإِسْـحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالَاسْبَاطَ كَانُوا هُودًا اَوْ نَصَارَى﴾ ﴿يَآ أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تُحَآجُّونَ فِي إِبْرَاهِيمَ وَمَآ أُنزِلَتِ التَّوْرَاةُ وَالِانجِيلُ إِلَّا مِنۢ بَعْدِهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ [ســورة آل عمران: 65]، و«أَمْ» متَّصلة متعلِّقة بقوله: ﴿أَتُحَآجُّونَنَـا﴾؟ أو منقطعة للانتقال من التَّوبيخ علــى المحاجَّة إلى التوبيخ علــى الافتراء علــى الأنبياء، ووجــه الاتِّصال ذمُّهــم بجمعهم بين المحاجَّة في الله، والقول بأنَّ إبراهيم ومن معه كانوا هودًا أو نصارى مع كون واحد منهما كافيًا في القبحِ.

---

(1) أورده الشيخ إسماعيل الجيطالي في قناطر الخيرات مقطوع السند، في كتاب الإخلاص، ج 3، ص 459، ط. حجريَّة.

[نحو] وأبو حيَّان لَمَّا رأى أنَّ الغالب في [أمْ] المتَّصلة استدعاء وقوع إحدى الجملتين، والسؤال عن إحداهما وما هنا ليس كذلك اقتصر على المنقطعة، وهكذا عادته يرى غير الغالب كأنَّه غير موجود فيقتصر على الغالب.

﴿**قُلْ ءَأَنتُمْ أَعْلَمُ**﴾ بحال إبراهيم في الدِّين ﴿**أَمِ اللَّهُ**﴾ عطف على «أَنتُم»، وأمر الله أعلم، والتفضيل استهزاء بهم. و«أَعْلَمُ» بمعنى عالم. أنتم الجهلاء والله هو العالم. قال: ﴿مَا كَانَ إِبْرَاهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا﴾ [سورة آل عمران: 67]، وإسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط تبع له. ﴿**وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَتَمَ**﴾ أخفى عن الناس. ﴿**شَهَادَةً عِندَهُ**﴾ جاءت ﴿**مِنَ اللَّهِ**﴾ في التوراة والإنجيل لإبراهيم بالحنيفيَّة لا باليهوديَّة أو النصرانيَّة، ولمحمَّد بالرِّسالة.

والكاتمون هم اليهود والنصارى لا أحد أظلم منهم، أو لا أحد أظلم منَّا لو كتمناها كما كتمتُموها. وقدَّم ثبوتها عنده على كونها من الله مع أنَّه متأخِّر في الوجود مراعاة لطريق الترقِّي. ﴿**وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ**﴾ فهو يجازيكم على مثاقيل الذرِّ، ككتمان شهادته تعالى، والافتراء على الأنبياء.

﴿**تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُم مَّا كَسَبْتُمْ وَلَا تُسْأَلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ**﴾ كرَّر تأكيدًا في الزَّجر عمَّا رسخ في الطباع من الافتخار بالآباء والقرابة والاتِّكال على أعمالهم؛ وقيل: الأولى لليهود، والثانية لنا، لئلَّا نقتدي بهم في الاتِّكال إلَّا أنَّ الكلام مسوق لأهل الكتاب أو الأمَّة، في الأولى الأنبياء، وفي الثانية أسلاف اليهود والنصارى، إلَّا أنَّ أسلاف اليهود لم يجر لهم ذكر، وما سبق ذكر الأنبياء.

وقد يقال: إنَّ القوم لَمَّا قالوا في إبراهيم وبنيه: إنَّهم كانوا هودا، صاروا كأنَّهم قالوا: إنَّهم كانوا على مثل طريقة سلفنا من اليهود، فصار سلفهم في

حكم المذكورين فجاز أنْ يقال: ﴿تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ﴾ ويعنيهم، وفيه تعسُّف. وقد يقال: إنَّه لَمَّا اختلفت الأوقات في الأحوال والمواطن لم يكن التكرار ضعيفًا، كأنَّه قيل: ما هذا إلَّا بشر، وصف هؤلاء الأنبياء وما أنتم عليه من الدين لا يسوغ بالتقليد في الجنس، فاتركوا الكلام في تلك الأمَّة فلها ما كسبت، وانظروا فيما دعاكم إليه محمَّد فإنَّه أنفع لكم، ولا تُسألون إلَّا عن عملكم.

﴿سَيَقُولُ ٱلسُّفَهَآءُ مِنَ ٱلنَّاسِ مَا وَلَّىٰهُمْ عَن قِبْلَتِهِمُ ٱلَّتِي كَانُوا۟ عَلَيْهَا ۚ قُل لِّلَّهِ ٱلْمَشْرِقُ وَٱلْمَغْرِبُ ۚ يَهْدِي مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿142﴾﴾

التمهيد لتحويل القبلة

﴿سَيَقُولُ...﴾ إلخ نزلت قبل قوله: ﴿مَا وَلَّاهُمْ...﴾ وبعد ﴿قَدْ نَرَى تَقَلُّبَ وَجْهِكَ...﴾ الآية، فتكون معجزةً بالإخبار بالغيب، وتوطينا لنفوس المؤمنين على الصبر، وليستعدُّوا للجواب. ومفاجأة المكروه أشدُّ على النفس، وأدعى لاضطراب الجواب أو خطئه، فقدَّم الله الأخبار لهم ولقَّنهم الجواب.

وعلى صحَّة نزولها بعد قولهم: «مَا وَلَّاهُمْ» فالسين للتأكيد دون الاستقبال، وفائدة التأكيد ذمُّهم بأنَّهم قد تحقَّق منهم كلام سوء وطعن، فيكون الفعل للحال المحكيَّة تنزيلاً للماضي منزلة الحاضر، أو للاستمرار، أو هي للاستقبال بمعنى أنَّهم سيعيدون القول ويكرِّرونه مجاهرة وجدالاً بعد إخفاء ويكرِّرونه. ﴿السُّفَهَآءُ﴾ من يضعون الشيء في غير موضعه لخفَّة عقولهم، ويعملون بغير دليل، ويرون غير الدليل دليلاً. ﴿مِنَ النَّاسِ﴾ أي: من جملة الناس، لئلَّا يتوهَّم أنَّ السفهاء هم خصوص المذكورين أوائل السورة، والسفيه ولو كان قد يكون في الحيوانات لكن لا قول لها إلَّا شاذًّا أو تأويلاً، فلا يحترز عنها.

والسفهاء: اليهود المجاهرون، والمنافقون بإضمار الشرك من العرب، والمنافقون من اليهود ومشركو العرب. أمَّا اليهود فإنَّهم لا يرون النسخ،

وكانوا يأنسون باستقبال النبيء ﷺ بيت المقدس، ويرجون أن يرجع إلى دينهم، وَلَمَّا استقبل القبلةَ اغتمُّوا وقالوا: اشتاق إلى دين آبائه، ولو ثبت على قبلتنا لعلمنا أنَّه المبشَّر به في التوراة. فبعض علموا أنَّه النبيء وأنَّه سيرجع إلى الكعبة وكتم، ولو لم يرجع إليها لعلموا أنَّه غير النبيء، وقال: ذلك سفهًا. وبعضٌ مَا علم وقال ذلك. وَأَمَّا المنافقون فقالوا: تحوُّله للكعبة لعبٌ بالدين وعملٌ بالرأي لا بدين. وَأَمَّا مشركو العرب فقالوا: قد رجع إلى وفاقنا ولو بقي عليه من أوَّل الأمر لكان أولى له، وَكَذِبُوا، لم يكن قطُّ إلَّا على الإسلام، إلَّا إنْ أرادوا موافقة الكعبة.

[سيرة] ويُروَى أنَّه كان يصلِّي إلى بيت المقدس فتأذَّوا بذلك. وقيل: بجعل الكعبة بينه وبين بيت المقدس، وَلَمَّا حُوِّلت القبلة قالوا: لو كان من أوَّلٍ كذلك كان أليق به، وقالوا: رغب عن قبلة آبائه، ثمَّ رجع إليها وسيرجع إلى دينهم. قال البراء: لَمَّا قدم رسول الله ﷺ صلَّى نحو بيت المقدس ستَّة عشر شهرًا أو سبعة عشر شهرًا، وكان يحبُّ أنْ يتوجَّه إلى الكعبة فأنزل الله تعالى: ﴿قَدْ نَرَى تَقَلُّبَ وَجْهِكَ...﴾ الآية، فكان يصلِّي إليها، وفي رواية: صلَّى إلى بيت المقدس تسعة أشهرٍ أو عشرة أشهرٍ؛ وعن معاذ: ثلاثة عشر شهرًا، وقيل: سبعة أشهر.

﴿مَا وَلَّاهُمْ﴾ صرفهم إلى الكعبة **﴿عَن قِبْلَتِهِم﴾** صخرة بيت المقدس. وأصل القبلة نوع من الاستقبال في ذات المستقبل وأحواله في مكانه، ثمَّ صار حقيقة عرفيَّة عامَّة للجهة المستقبَل إليها. **﴿الَّتِي كَانُوا عَلَيْهَا﴾** في صلاتهم ودعائهم وأمورهم، وذلك ظاهر في اليهود والمنافقين من العرب المعتقدين لحقِّيَّة قبلة اليهود تقليدًا لليهود.

وممَّا ورد في صخرة بيت المقدس أنَّ المياه تقسم عليها لأهل الأرض.

وَأَمَّا مشركو العرب فقولهم: «مَا وَلَّاهُم...» إلخ، مجرَّد طعن بأنَّ الانصراف بلا داع والتوجُّه أوَّلاً بلا داعٍ، وَأَمَّا استقبال الكعبة فحقٌّ عندهم.

﴿قُل لِّلهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ﴾ وسائر الأرض داخل فيهما تعميمًا للجوانب، أو كناية عن جميع الأرض، وذلك أبلغ من أنْ يقول: للهِ الأرض كلُّها. وأيضًا في ذكرهما تلويح بذكر قبلة النصارى وهي المشرق وقبلة اليهود وهي المغرب، وأخَّره لأنَّ الطلوع قبل الغروب، ومطابقة لمزيد ظهورهما لكونهما مطالع النور والظلمة، وكثرة توجُّه الناس إليهما للأوقات والمقاصد، ولا بدَّ أنَّهما سُمِّيا لشروق الشمس وغروبها، لكن إمَّا أنْ يعتبرا على طول الأرض وعرضها، وإمَّا أن يعتبرا بمشارق الشمس ومغاربها.

فأينما تولُّوا وجوهكم إليه أو فيه فثمَّ وجه اللهِ، ذات الله بالخلق والعلم والقدرة والحفظ. ﴿يَهْدِي مَنْ يَّشَآءُ﴾ هدايته ﴿اِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ هداية توفيق إلى قبول دين الله، سواء أَعَمِلَ به، أو آمن وقَبِل وعمل الكبائر فهو للنار إنْ أصرَّ؛ فهؤلاء أمَّة الإجابة. ومقابلهم من لم يهده إلى التوحيد وقبول الدين وهم اليهود والنصارى وكلُّ مشركٍ، وهم أمَّة كفرٍ، من جملة أمَّة النبيء ﷺ، كقوم نوح وقوم هود. أو هداية توفيق للسعادة، ويدلُّ للأوَّل العموم في قوله:

﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ
عَلَيْكُمْ شَهِيدًا ۗ وَمَا جَعَلْنَا ٱلْقِبْلَةَ ٱلَّتِى كُنتَ عَلَيْهَآ إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يَتَّبِعُ ٱلرَّسُولَ مِمَّن
يَنقَلِبُ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ ۚ وَإِن كَانَتْ لَكَبِيرَةً إِلَّا عَلَى ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُ ۗ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِيعَ
إِيمَٰنَكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِٱلنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿143﴾ قَدْ نَرَىٰ تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِى ٱلسَّمَآءِ ۖ
فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَىٰهَا ۚ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ۚ وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ
فَوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُۥ ۗ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ لَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ ۗ وَمَا
ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ ﴿144﴾ وَلَئِنْ أَتَيْتَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ بِكُلِّ ءَايَةٍ مَّا تَبِعُوا۟ قِبْلَتَكَ ۚ
وَمَآ أَنتَ بِتَابِعٍ قِبْلَتَهُمْ ۚ وَمَا بَعْضُهُم بِتَابِعٍ قِبْلَةَ بَعْضٍ ۚ وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ أَهْوَآءَهُم
مِّنۢ بَعْدِ مَا جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ ۙ إِنَّكَ إِذًا لَّمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿145﴾ ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ
ٱلْكِتَٰبَ يَعْرِفُونَهُۥ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَآءَهُمْ ۖ وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ ٱلْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿146﴾
ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ ۖ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُمْتَرِينَ ﴿147﴾ ﴾

تحويل القبلة

﴿وَكَذَٰلِكَ...﴾ إلخ أي: كما هديناكم إلى الصراط المستقيم، وجعلنا قبلتكم الكعبة، لا تُنسخ هي ولا دينكم، وهما أفضل دين وقبلة، ولو لم تصرِّح الآية بالأفضليَّة وعدم النسخ، لكن ناسبه التفضيل في قوله: ﴿جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً...﴾ إلخ.

ولا شكَّ أنَّ الكعبة أشرف؛ لأنَّها قبلة إبراهيم وقبلة آدم ومن بعده، إذا

صير إلى السبق فهي أسـبق؛ لأنَّها قبل آدم بألفي عام لحجِّه الملائكة، ووضع الله بيت المقدس أيضًا لكن بعد الكعبة بأربعين عامًا.

﴿جَعَلْنَاكُم﴾ يا أمَّة محمَّد ﴿أُمَّةً وَسَطًا﴾ أفضل من غيركم بالعلم والعمل من الواسـطة التي هي المختار من الجواهر، أو من الوساطة بمعنى الاعتدال في الشأن؛ لأنَّ وسـط الشيء مصون والأطراف يتسـارع إليها الخلل، ولأنَّها وسـط معنويٌّ بين إفراط وتفريط. والوسـط في الأصل اسم لما يستوي نسبة الجوانب إليـه كالمركز، ثمَّ اسـتعير للخصـال المحمودة لكونها أوسـاطًا للخصال المذمومة المكتنفـة بها من طرفي الإفـراط والتفريط، كالجود بين الإسراف والبخل، والشجاعة بين الجبن والتهوُّر.

﴿لِّتَكُونُوا شُهَدَآءَ عَلَى النَّاسِ﴾ أنَّ أنبياءهم بلَّغوهم، والمراد بالكاف وَوَاوِ «تَكُونُوا» المجموع لا الجميع؛ لأنَّ الأشقياء من هذه الأمَّة لا يكونون شهداء على الناس الذين قبل هذه الأمَّة.

﴿وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ﴾ لكم ﴿شَـهِيدًا﴾ بأنَّكم عدول تُقبل شهادتكم على الأمم، وأنَّه بلَّغكم وقبلتم، كما دلَّ عليه ﴿أُمَّةً وَسَطًا﴾ وأنَّكم شهداء، فله مدخل في التعليل بخلاف ما لو فسَّرنا بمجرَّد شهادته ﷺ أنَّه بلغكم، فيخصُّ على الأنبياء بشـهادته لنفسـه بالتبليغ، فتكون «عَلَى» بظاهرها، فتكون اللام للعاقبة فـي هذا. ولو صـحَّ التعليل في «تَكُونُـوا» فيُجمع فيـه بين الحقيقة والمجـاز. أو تجعل لعموم المجـاز. أو تجعل فـي الأوَّل للتعليل وتقدَّر في الثاني للعاقبة، أي: وليكون الرَّسول عليكم شهيدًا.

تنكر كفَّار الأمم تبليغ الرسـل فيقول الرسل: تشـهد لنا أمَّة محمَّد ﷺ، فيشـهدون لهم بالتبليـغ، فيقول الكفَّار: كيف يشـهدون علينا وهـم بَعدَنا؟ فيقولون: يا ربَّنا أرسـلت إلينا رسـولاً وأنزلت عليه كتابًا فيه تبليغهم، وأنت

صادق. فيُسأل ﷺ عن أمَّته فيزكِّيهم. يشهد كلُّ نبيء على أمَّته بالكفر بما بلَّغها، ﴿فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ﴾ [سورة النساء: 41] فتكذِّبه فتشهد له هذه الأمَّة، وشهادته ﷺ بعدالة أمَّته الشاهدين للأنبياء شهادة على كفَّار الأمم.

﴿وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَٰؤُلَآءِ﴾ أي: كفَّار الأمم ﴿شَهِيدًا﴾. وعن أبي سعيد عنه ﷺ: «**يجيء النبيء يوم القيامة ومعه الرجل والنبيء ومعه الرجلان وأكثر، فيُدعى قومُه فيقال لهم: هل بلَّغكم هذا؟ فيقولون: لا، فيقال له: هل بلَّغت قومك؟ فيقول: نعم، فيقال له: من يشهد لك؟ فيقول: محمَّد وأمَّته، فيدعى محمَّد وأمَّته، فيقال لهم: هل بلَّغ هذا قومه؟ فيقولون: نعم، فيقال: وما أعلمكم؟ فيقولون: جاءنا نبيئنا ﷺ، فأخبرنا أنَّ الرُّسل قد بلَّغوا، فذلك قوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا...﴾ الآية**». وفي رواية: «**فيؤتى بمحمَّد ﷺ فيُسأل عن حال أمَّته فيزكِّيهم ويشهد بعدالتهم، وذلك قوله تعالى: ﴿وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾**»(1).

﴿وَمَا جَعَلْنَا الْقِبْلَةَ﴾ وهي الكعبة في نفس الأمر. ﴿الَّتِي كُنتَ عَلَيْهَآ﴾ قبلُ، كانت قبلتُه حين كان بمكَّة الكعبةَ، ولو كان يجعلها بينه وبين بيت المقدس، واستقبل المقدس في المدينة ستَّة أو سبعة عشر شهرًا بأمر الله تأليفًا لليهود، ثم حوَّله للكعبة. فـ«الَّتِي» مفعول ثانٍ لا نعت على المختار. أو ما جعلنا القبلة في المدينة قبل التحويل للكعبة هي بيت المقدس الذي كنت عليه قبل التحويل، أو ما جعلنا القبلة التي كنت عليها قبل الهجرة قبلةً، أو ما جعلنا القبلة التي كنت عليها بعد الهجرة قبلة، فالمفعول الثاني محذوف و«الَّتِي» نعت.

﴿إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يَتَّبِعُ الرَّسُولَ﴾ محمَّدا ﷺ، عِلْمَ ظهورٍ، أو ليَظهَرَ عِلْمُنا، أو نعاملهم معاملة المختبِر.

---

(1) رواه أحمد في مسنده، ج4، ص117، رقم: 11558.

[أصول الدين] وعِلْم الله أزليٌّ، لكن لا يخفى عنه وقوع الشيء، ووقته وتفاصيله؛ لأنَّه الخالق له؛ أو ليعلم رسولنا أو عبادنا الصَّالحون، فحذف المضاف أو أسند لنفسه لأنَّهم خواصُّه، وفي ذلك تعظيم لهم. أو لنميِّز من يتَّبع الرسول للناس، والعلم سبب للتمييز وملزوم له، فإنَّ العلم صفة توجبُ تمييزًا لا يحتمل النَّقيض. أو لنجازيَ الطائع والعاصي؛ وإنَّما يكون الجزاء ممَّن علم طاعة الطائع وعصيان العاصي. والمراد بالاتِّباع: البقاء على اتِّباعه فيما مضى، وفيما يحدث من القبلة وغيرها.

﴿مِمَّنْ يَنقَلِبُ عَلَى عَقِبَيْهِ﴾ يكفر بعد الإيمان بسبب تبدُّل القبلة، كفرًا شبيهًا برجوع الماشي إلى ورائه، يظنُّ أنَّه ﷺ في حيرة من أمره. وقد ارتدَّ لذلك الظَّنِّ جماعة. ﴿وَإِن﴾ إنَّه، إنَّ الشَّأن؛ ﴿كَانَتْ﴾ أي: التولية المعلومة من قوله: ﴿مَا وَلَّاهُم﴾، أو القبلة والتحويلة، أو الردَّة إلى الكعبة، أو الجعلة، أو المتابعة. ﴿لَكَبِيرَةً﴾ شاقَّة على قلوب الناس.

[نحو] وقاعدة الكوفيِّين في جميع القرآن وغيره أنْ يجعلوا «إنْ» المخفَّفة نافيه لا مخفَّفة، واللَّام بعدها بمعنى «إلَّا»، ويردُّه أنَّه لم يجئ في كلام العرب: «ما جاء لَزيدٌ»، أي: إلَّا زيد، و«جاء القوم لزيدًا»، أي: إلَّا زيدًا.

﴿إِلَّا عَلَى الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ﴾ منهم، أجاز بعضهم التفريغ في الإثبات، والمانع يَعتبِر ما في «كَبِيرَةً» من معنى النفي، أي: لا تخفُ إلَّا على الذين هدى الله.

[سبب النزول] كان رسول الله ﷺ يصلِّي نحو بيت المقدس ويكثر النظر إلى السماء ينتظر أمر الله، فأنزل الله تعالى: ﴿قَدْ نَرَى تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي السَّمَآءِ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَاهَا فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ﴾، فقال رجال من المسلمين: وددنا لو علمنا علم من مات منَّا قبل أنْ نُصرف إلى القبلة، وكيف صلواتنا إلى بيت المقدس؟ فأنزل الله ﷻ:

﴿وَمَا كَانَ اللهُ لِيُضِيعَ إِيمَانَكُم﴾ أي: طاعتكم، أي: ثوابها، وكلُّ عبادة إيمان، وفي الحديث: «**الإيمان بضع وستُّون جزءًا**»[1] وهي في الآية الصلاة.

قال حيي بن أخطب وأصحابه من اليهود: إنْ كانت صلاتكم إلى بيت المقدس هدى فقد تحوَّلتم عنه، أو ضلالة فقد دنتم بها مدَّة، ومن مات قبل التحول مات عليها، كأسعد بن زرارة، وأبي أُمامة من بني النجّار، والبراء بن معرور، من بني سلمة، وكانا من النقباء وآخرين، فقال عشائرهم: يا رسول الله قد صرفك الله إلى قبلة إبراهيم فما حال من مات منّا قبل الصَّرف؟ فنزل ﴿وَمَا كَانَ اللهُ لِيُضِيعَ إِيمَانَكُم﴾ أي: صلاتكم، أو طاعتكم مطلقًا، لا يضيِّع صلاتكم ولا غيرها. أو إيمانكم باستقبال بيت المقدس، سواء قلنا استقبالها بوحي على ما رجَّحوا، أم اجتهاد منه، إذ وجد أهل التوراة يستقبلونها، كما صام عاشوراء متابعة لهم، فوطَّن أنْ يستقبلها حتَّى يوحى إليه في الاستقبال. ومن قال: الإيمان التصديق فقط وفسَّره بالصَّلاة، فقد تجوَّز لأنَّه سببها وملزومها.

﴿إِنَّ اللهَ بِالنَّاسِ﴾ متعلِّق بما بعد اللَّام بحسب الظَّاهر، فيحمل عليه، فيقال: لا صدر للَّام في خبر «إنَّ» إذا كان المتعلِّق ظرفًا أو مجرورًا؛ لأنَّ تأويل الكثير لا يحسن إلَّا لما لا بدَّ منه ولا محيد عنه.

﴿لَرَؤُوفٌ﴾ شديد الرَّحمة، ﴿رَّحِيمٌ﴾ الرَّحمة أعمُّ من الرأفة، ومع ذلك أخَّرها للفاصلة، وهي مبنيَّة على الميم نظير الميم في «مستقيم».

[بلاغة] وأولى من ذلك أن نقول: لا محذور في تقديم خاصٍّ لا يشمل كلَّ ما في العامِّ فلذكر العامِّ بعده دلالة على ما لم يدلَّ عليه الخاصُّ، فذكر الرَّحمة ليدُلَّ على رحمة أخرى دون الشديدةِ، بخلاف: «فلان متكلِّم فصيح»،

---

(1) رواه مسلم في كتاب الإيمان 12، باب بيان عدد شعب الإيمان. وأورده القطب في جامع الشمل، ج 1، رقم: 31، مع زيادة في آخره. والهندي في كنز العمال، ج 1، ص 53 من حديث علي ﵁.

فإنَّه لــو أُخِّر «متكلِّمٌ» لم تكن لــه فائدة، فإنَّ فلانًا لا يكــون فصيحًا إلَّا وهو متكلِّم؛ لذلك قدِّمت بلا فاصلة في قوله تعالى: ﴿رأفةً ورحمةً﴾.

وقيل: الرحمة تعمُّ دفع المكروه وإزالة الضرر وســائر الأفضال، والرأفة دفع المكروه والضرِّ، ودفعُهما أهمُّ من جلب الرِّزق مثلاً، فقدِّمت لذلك على الرحمة، فهي تخلية متقدِّمة على التحلية. أو الرأفة: دفع المضارِّ، والرَّحمة: جلب المسارِّ.

﴿قَدْ نَرَى﴾ تَحَقَّق أَنَّا لَنعلَمُ. وقال ســيبويه: كثر تقلُّــب وجهك. ﴿تَقَلُّبَ وَجْهِكَ﴾ حال الدعاء، ﴿فِي السَّــمَآءِ...﴾ إلخ تعليل جمليٌّ ثان لقوله تعالى: ﴿وَمَا جَعَلْنَا...﴾ إلخ، والأوَّل ﴿لِنَعْلَمَ مَن يَتَّبِعُ...﴾ إلخ.

[سيرة] روي أنَّه أمره الله بعد الهجرة باســتقبال المقــدس تأليفًا لليهود فرضِيَ وأحبَّ، وكان بطبعه يحبُّ استقبال الكعبة لأنَّها أشرف وأقدم للملائكة قبــل آدم، ولأنَّها قبلة آدم إلى إبراهيم وإســماعيل ومــن بعدهما حتَّى نزلت التوراة، ولأنَّ الأنبيــاء تحجُّه، ولأنَّه أدعى للعرب إلى الإســلام وهم أفضل، ولهم قرابة وأنفع في الإسلام وأقوى، ولو كان استقبال القدس أدعى لليهود، ولأنَّه أغيظ لهم وأشــدُّ مغايرة، ولأنَّه لو لم يتحوَّل لوجدوا مقالاً إذ علِموا أنَّه يؤمر بالتَّحوُّل، ولأنَّهم قالوا: يخالفنا ويتَّبع قبلتنــا، وقال لجبريل: «**وددت لو حوَّلني الله إلــى الكعبة**»، فقال جبريــل: إنَّما أنا عبد مثلك، ثــمَّ عرج جبريل وجعل النبيء ﷺ يديم النظر في جِهَةِ الســماء رجاء نزوله باســتقبال الكعبة، فنزلت ﴿قَدْ نَرَىٰ تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي السَّمَآءِ﴾[1].

﴿فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَاهَا﴾ فــوالله لنصيِّرنَّك تاليًا قبلة محبوبة لك بالطبع، وما معه من دواعــي الدين كما رأيــت، وَأَمَّا بيت المقدس فهــو أيضًا يحبُّ استقباله امتثالاً لأمر الله ﷻ؛ أو لَنوجِّهنَّك إلى قبلة ترضاها.

---

(1) أورده الآلوسيُّ في تفسيره أثرًا، لا حديثًا. ج 2، ص 8.

قيل: لا تدعو الأنبياء بشـــيء حتَّى يأذن الله لهم فيه خـــوف أنْ يكون فتنة لقومهم، وقد روي أنَّه ﷺ اســتأذن جبريـــل أنْ يدعو الله في شـــأنٍ فأخبره أنَّ الله ﷻ قد أذن لــه أنْ يدعو فيه، والواضــح أنَّه لا يلزمهم أنْ يســتأذنوا، وقد جاءت أخبار بأنَّهم دعوا بدون اســتئذان، وليس ذلك خروجًا عن الأدب، وما ورد فيه معاتبة له ﷺ فإنَّما هو لأسرار خفيَّةٍ.

﴿فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ﴾ جهة، ﴿الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ﴾ جهته، لا لذاته بل للكعبة فيه، وهي التي تقصد، ولكن ذَكَرَ شطرَ المسجد وهو الحَرَم لأنَّه يتعذَّر الجزم بإصابة عينها مع عدم معاينتها والبعد عنها.

[سيرة] نزلت في رجب بعد الزوال قبل بدر بشهرين، وقد صلَّى بأصحابه في مسجد بني سلِمة ـ بكسر اللَّام ـ في زيارة أمِّ بشر بن البراء بن معرور، وقد صنعت لهم طعامًا ركعتين من الظهر، وقيل: كان في ركوع الركعة الثَّانية فتحوَّل واستقبل الميزاب، وتبادل الرِّجال والنِّساء صفوفًا، وزاد الرَّكعتين الباقيتين.

[فقه] ولا يضـرُّ ذلــك صلاتهم ولو كثـرت الخطى والأعمــال، ورفع الأقدام، والقيام من الرُّكوع بمشــي؛ لأنَّهم في إصلاح الصــلاة بذلك، وفي امتثال أمرِ اللهِ.

وقيل: قدم المدينة في ربيع الأوَّل، وصلَّى إلى بيت المقدس تمام السنة، وصلَّى من سنة اثنتين سبعة أشهرٍ أو ستَّة أشهرٍ ثمَّ حوِّلت الكعبة في جمادى. وقيل: يوم الثلاثاء نصف شــعبان. وقيل: نصف رجب يوم الإثنين. وقيل: في صلاة العصر. وقيل: في صلاة الفجر، وذلك قبل بدر بشهرين. وقيل: مرَّ رجلٌ ببني ســلِمة فناداهم وهم ركوعٌ في صلاة الفجر نحو بيــت المقدس: «ألا إنَّ القبلة قد حوِّلت للكعبة»، فمالوا كلُّهم ركوعًــا إليها. وروي ذلك في قباء في صلاة الفجر، وأنَّه قال المارُّ: ألا إنَّ القبلة قد حوِّلت الليلة.

وقال السيوطي: حديث بني سلِمة تحريف، فإنَّه ﷺ لم يكن إماما في تلك الصَّلاة ولا هو الذي تحوَّل في الصَّلاة، فإنَّ أبا سعيد بن المعلَّى روى أنَّه ﷺ قرأ: ﴿قَدْ نَرَىٰ تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي السَّمَآءِ...﴾ الآية، فنزل فصلَّى الظهر أربعًا. قلت: لعلَّه نزل في صلاة الفجر وتحوَّل، وأعاد قراءتها عند الظهر، فإنَّ أبا سعيد لم يقل: نزلت في الظهر بل قال: قرأ على المنبر، قال: فقلت لصاحبي: تعال نركع ركعتين قبل أنْ ينزل رسول الله ﷺ فنكون أوَّل من صلَّى إليها، فصلَّيناهما فنزل ﷺ فصلَّى الظهر إليها.

[فقه] ﴿**وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ**﴾ وهو الحرم، ومن كان فيه فشطره المسجد، ومن عاينه كُلِّف الجزم بمقابلتِه، ويكلَّف بمقابلة الكعبة جزمًا مَن عاينها. وعن مالك: الكعبة قبلة لأهل المسجد، وهو لأهل مكَّة، وهي لأهل الحرم، وهو لأهل الدُّنيا، قلت: ذلك مقاربة.

وعمَّم الأمكنة لتعمَّ بيت المقدس وغير المدينة وما حضر فيه اليهود وما لم يحضروا فيه، فلا يتوهَّم خصوص المدينة إذ نزلت فيها، ولا غير محضر اليهود إذ كان يصلِّي لبيت المقدس حين هاجر استجلابًا لهم، أمره الله سبحانه بالتَّولية خصوصًا تعظيمًا له، ولأنَّه الدَّاعي لله بالتَّحويل، فخاطبه بأنَّا قد استجبنا لك، وذكر دعاءه في قوله: ﴿قَدْ نَرَى تَقَلُّبَ...﴾ الآية، فكأنَّه قيل: دعوتنا للتَّحويل فاستجبنا لك، ثمَّ عمَّم أمَّته بالخطاب تأكيدا وحضًّا على المتابعة، وإلَّا فخطابه كافٍ إلَّا إذا تبيَّنت الخصوصيَّة.

﴿**وَإِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ**﴾ اليهود والنَّصارى والصَّابين، ﴿**لَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ**﴾ أي: ما ذكر من التولية، أو أنَّ التولِّي المطاوع للتَّولية، أو أنَّ التوجيه أو التَّحويل، أو أنَّ التحوُّل أو التوجُّه؛ ﴿**الْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ**﴾ وقد صحَّ لهم في التوراة والإنجيل أنَّه ﷺ يصلِّي إلى القبلتين بيت المقدس والكعبة. ﴿**وَمَا اللَّهُ**

بِغَافِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ﴾ وعيدٌ لليهود والنصارى والصَّابين على التكذيب وسائر المعاصي، ووعدٌ للمؤمنين على التصديق وسائر الطَّاعات.

﴿وَلَئِنَ اَتَيْتَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ﴾ التوراة والإنجيل، ﴿بِكُلِّ ءَايَةٍ﴾ دليلٍ منقول عن الله، أو حجَّة عقليَّة تنبني علـى دين الله، أو مجرَّد حجَّة عقليَّة على صدقك في أنَّ الله هو الـذي أمرك بالتحوُّل إلى اسـتقبال القبلة؛ ﴿مَا تَبِعُوا﴾ كلُّهم، ولو يتَّبع بعضهـم، ﴿قِبْلَتَكَ﴾ الكعبة؛ لأنَّ عنادهـم لك في أمر القبلة وغيره ليس لشبهة فيتركوه لآية تزيلها، بل عناد وحسد.

﴿وَمَـآ أَنتَ بِتَابِعٍ قِبْلَتَهُمْ﴾ إخبار منـه تعالى بأنَّه لا يصـدر منه متابعة قبلتهم، وهو مدح وتبشـير؛ وقيل: إخبار بمعنى النهـي، أي: لا تتَّبع قبلتهم، أي: دُم على عـدم اتِّباعها. صخرة بيـت المقدس لليهود، ومطلع الشـمس للنَّصارى؛ لأنَّ الله هو الذي أمرك بالتحوُّل عن قبلة بيت المقدس. وَأَمَّا مطلع الشَّمس فلا وجه لاسـتقباله إذ ليس في التوراة، وإنَّما الواجب على النصارى قبل التحويل إلى الكعبة اسـتقبال بيت المقدس لوجوب اتِّباع التوراة عليهم إلَّا ما نسـخ الإنجيل منها، وإنَّما أخذوه من اتِّخاذ مريم مكانًا شـرقيًا، أو من «بوليس»[1] اليهودي إذ غرَّهم وقال: إنَّ الشمس كلَّ يوم تبلِّغ سلام عيسى إلى الله، وقد أمر عيسى بأنْ تستقبلوه في الصَّلاة.

وقد صحَّ أنَّ عيسى يسـتقبل بيت المقدس؛ ولذلك أفرد قبلتهم؛ لأنَّ القبلة بيت المقدس لا المشرق، وبه خوطبوا كاليهود وهذا أنسب بما في نفس الأمر.

---

(1) بولس: قدِّيس اشتهر بلقب رسول الأمم، وكان من أعنف مضطهدي المسيحيَّة، اندفع متفانيا في التبشير بين مدن آسيا الصغرى واليونان، وكان اسـمه شاول قبل اهتدائه. مات في روما سنة 67م، وله أربع عشرة رسالة موجَّهة إلى الكنائس المختلفة أو إلى بعض تلاميذه.

وزعم أشـياخ النَّصارى أنَّ المسـيح فوَّض إليهم الديـن، فما أوجبوه أو حرَّموه أو أباحوه فهو كذلك، فجعلوا الصلاة للمشرق؛ لأنَّ فيه أسرارًا ليست في غيره عندهم؛ ولذا كان مولده شرقًا. أو أفردها مع أنَّها اثنتان: بيت المقدس ومطلع الشـمس، لاتِّحادهما في البطـلان بعد التحويل للكعبـة، فكأنَّهما إذ بطلتا قبلة واحـدة، فقبلة حقٍّ وهي الكعبة، وقبلة باطـل وهي ما عداها، وهو أنسـب لقوله: ﴿وَمَا بَعْضُهُم بِتَابِعٍ قِبْلَةَ بَعْضٍ﴾ وهذا إنْ قلنا: أفردها لمشاكلة الإفراد في قوله: ﴿مَـا تَبِعُوا قِبْلَتَكَ﴾. أو معنى ﴿وَمَآ أَنـتَ بِتَابِعٍ قِبْلَتَهُمْ﴾ أنَّ قبلتك لا تنسخ إلى قبلتهم، كما لا تنسخ إلى غيرها. وفيه قطع طمعهم عن أنْ يستقبل قبلتهم، كما أنَّه قطع طمعه في أنْ يؤمنوا ويستقبلوا الكعبة بقوله: ﴿مَا تَبِعُوا قِبْلَتَكَ﴾، وهذا أولى من أنْ يقال: المراد النَّهي، أي: لا تتَّبعْ قبلتهم؛ لأنَّ اسـتعمال الجملة الاسـميَّة في الطلب ضعيف، وما تقدَّم أولى من أنْ يقال: المعنى: ما ينبغي لك اتِّباع قبلتهم وما يحقُّ.

وقيل: إنَّ الله لم يأمر اليهود باسـتقبال بيت المقدس في التوراة بل كانوا ينصبون التابـوت ويصلُّون إليه من حيـث خرجوا، فإذا قدمـوا نصبوه على الصَّخرة وصلَّوْا إليه من خلفه، ولَمَّا رُفـع صلَّوْا إلى موضعه وأبقاهم الله على ذلك؛ وصحَّح بعضهم أنَّها في التوراة التي غيَّروها، ونسخت على كلِّ حال.

والصَّابون يصلُّون إلى الكعبة، ولعلَّهم اختاروها بعد نزول القرآن بها. وقبلة السامريَّة طورهم في الشام، يعظِّمونه ويحجُّون إليه، وهي في بلدة «نابلس» قبلة باطلة مبتدعة. والبعض الأوَّل لليهود أو للنَّصارى، والثَّاني للآخرين، وفي ذلك بعض تسلية إذ لم يختصَّ عنادهم به بل هو شأنهم حتَّى [فيما] كان بينهم.

﴿وَلَئِـنِ اِتَّبَعْتَ أَهْوَآءَهُمْ﴾ مـا يحبُّونه ممَّا خالف الحـقَّ، كالرُّجوع إلى قبلتهم. وهذا زيادة في قطـع طمعهم في أن يتَّبعهـم، وإلَّا فقد تحقَّق أنَّه ﷺ وتحقَّق من الله أنَّ الرَّسـل لا تفعل ذلك. أو الخطـاب للمؤمنين على البدليَّة

لا له ﷺ، ولا سيما مع قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَنتَ بِتَابِعٍ قِبْلَتَهُمْ﴾ إلَّا على معنى: لا ينبغي لـــك اتِّباعُها، أو لا تتَّبعْهـــا. أو الخطاب له ﷺ على سـبيل الفرض تعريضًا بغيره، إذ كان يعاقَبُ لو اتَّبع فكيف غيره، وتهييجًا على الثبات. ﴿مِنۢ بَعْدِ مَا جَـآءَكَ مِنَ الْعِلْمِ﴾ الوحـي أنَّ القبلة الكعبة أبـدًا، أو العلم المعلوم. ﴿إِنَّكَ إِذَن لَّمِنَ الظَّالِمِينَ﴾ لأنفسهم ولدين الله ولغيرهم بالبدعة.

[بلاغة] أكَّد الله ﷻ باللَّام، والقسمِ المقدَّر قبلها، و«إنْ» الفَرَضيَّة، و«إنَّ» واللَّام في خبرها، والجملة الاسـميَّة، وتعريف «الظَّالِمِينَ»، و«إِذَنْ» الجزائيَّة، فإنَّها لكونها جوابًا وجزاءً تفيد المبالغة. وإيثار [قولـه:] «مِنَ الظَّالِمِينَ» على «إنَّك ظالمٌ» أو «الظَّالم»، لإفادة أنَّك معدود فيهم؛ و«زيدٌ من العلماء» أبلغُ من «زيـدٌ عالم». وتسـمية الاِتِّباع هوًى بمعنـى أنَّه لا يعضده دليـل. والإجمال والتفصيل في قولـه: ﴿مَا جَآءَكَ مِـنَ الْعِلْمِ﴾، إذ لو قال: «مـا جاءك العلم»، لكفى، وجعل الجائي نفس العلـم، ووضع الظَّاهر موضع المضمر إذ لم يقل: «لَمِنهم»، أي: اليهود والنَّصارى إن أريد العهد.

﴿الَّذِينَ ءَاتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ﴾ اليهود والنَّصـارى آتيناهم التوراة والإنجيل، مبتدأ خبره قوله تعالى: ﴿يَعْرِفُونَهُ﴾ أي: محمَّدا ﷺ لدلالة الكلام عليه وعدم اللَّبس، وَأَمَّا ذكر الرَّسول قبلُ مرَّتين فبعيد مع الفصل بأجنبيٍّ. أو التفات عن الخطاب في «اتَّبعتَ»، والكافَيْن إلى الغيبـةِ والأصل: يعرفونك، أي: يعرفون القرآن أو التحويل، لاستحضار القلب لهما في المقام للنباهة لهما. أو يعرفون العلم المذكور، أي: المعلوم الحـقَّ، ومنه كون الكعبة قبلـة. ﴿كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَآءَهُمْ﴾ هذا أنسب بكون الهاء في «يَعْرِفُونَهُ» لمحمَّد ﷺ، والمراد: يعرفونه بصفاته في التوراة وغيرها، ومن صفاته فيها أنَّهُ يصلِّي للقبلتين، واسـتمراره على الكعبة بعد نسـخ الصلاة إلى صخرة بيت المقدس معرفة كما لا يلتبس عليهم أبناؤهم.

قال عمر لعبد الله بن سلام: قال الله تعالى: ﴿الَّذِينَ ءَاتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَآءَهُمْ﴾ ما هذه المعرفة؟ فقال: يا عمر، لقد عرفته حين رأيته كما عرفت ابني، ومعرفتي به أشدُّ من معرِفتي بابني، فقال عمر: كيف ذلك؟ قال أشهد أنَّه رسول الله حقًّا وقد نعته الله في كتابنا، ولا أدري ما تصنع النساء. وفي رواية: ولعلَّ والدة ابني خانت. وفي رواية: لعلَّ اليهودية خانت. وقبَّل عمر رأسه، وقال: وفَّقك اللهُ يا عبد الله بن سلام، فقد صدقت.

ولا يلزم من قول الله تعالى: ﴿كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَآءَهُمْ﴾ أنَّهم لا يعرفونه أشدَّ من معرِفتهم بأبنائهم؛ لأنَّ المراد في الآية مجرَّد التنظير، ولم يقل: «كما يعرفون أنفسهم» مع أنَّ معرفة الإنسان نفسه أشدُّ من معرِفته لولده؛ لأنَّ الإنسان لا يعرف نفسه إلَّا بعد انقضاء برهة من دهره، ويعرف ولده من حين وجودِهِ. وخصَّ البنين بالذِّكر لأنَّه ﷺ ابن، والابن ألصق بالقلب من البنت، وأشهر وألزم لصحبة الأب. ﴿وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنْهُمْ﴾ من أهل الكتاب ﴿لَيَكْتُمُونَ الْحَقَّ﴾ نعته ﷺ في التوراة والإنجيل والقرآن، ﴿وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ أنَّك المنعوت، وأنَّك على الهدى فيما تقول وما تفعل، وأنَّ كتمان الحقِّ معصية، وأنَّ عليه العقاب. وفريق آخر معترفون بالحقِّ كعبد الله بن سلام ومن معه، وذكر فريق الكتمان تنصيصًا على فجِّ الكتمان مع الكفران. ﴿الْحَقُّ مِنْ رَّبِّكَ﴾ الحقُّ المعهود الذي أنت عليه، أو الذي كتموه، أو الحقُّ كلُّه، أو حقيقة الحقِّ، بحيث لا يشذُّ عنه شيء من ربِّك. وَأَمَّا ما جاء من غير الله فليس بحقٍّ، كالذي يفتريه اليهود والنَّصارى في أمر القبلة وغيرها، كما زعمت النصارى أنَّ عيسى فوَّضهم في القبلة والتحليل والتحريم.

[نحو] و«مِن رَّبِّكَ» خبر، أو يقدر: هو الحقُّ، أي: ما أنت عليه. أو ما كتموه الحقُّ، و«مِن رَّبِّكَ» حال أو خبر ثان. أو نعت عند مجيزه بالظروف في المعارف، أي: هو الحقُّ الثابت من ربِّك، وعلى كلِّ وجهٍ الجملة مستأنفة.

﴿فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ﴾ الشَّاكِّين في أنَّ ما أنت عليه من النبوءة والقبلة وسائر الدين حقٌّ من ربِّك، أو في أنَّ أهل الكتاب عرفوه من الكتاب وكتموه، والنَّهي إلهاب على الإيقان، وتلويح بأنَّه بحيث لا يشكُّ فيه ناظر، أو له وللأمَّة جميعًا على البدليَّة لا العموم الشُّموليِّ، وإلَّا ضمَّت النون الأولى. وَأَمَّا أنْ يكون للأمَّة وحدها ففيه تلوين الخطاب، اللهمَّ إلَّا أنْ يجعل كاف «رَبِّكَ» لها أيضًا؛ وذُكِّرت لأنَّها بمعنى العموم أو الجمع وفيه بعدٌ، ثمَّ إنَّ الشكَّ ليس كسبيًّا فكيف يُنهى عنه؟ وإنَّما ساغ النَّهيُ عنه لأنَّ المراد به تحقيق أنَّ ما كان من الله لا يُشكُّ فيه، أو اكتساب النبيء ـ أو هو والأمَّة ـ المعارفَ.

وليس المراد ظاهر النَّهي، وقد يكون الشكُّ كسبيًّا باعتبار مبادئه، أي: لا تباشر شيئًا يؤدِّي إلى الشَّكِّ، فيجوز حمل الآية على هذا كما أنَّ الإيمان مأمورٌ به باعتبار مبادئه، وأيضًا الشكُّ مقدورٌ للإزالة، فمن كان فيه أو فُرض فيه نُهِيَ عن البقاء عليه.

والمراد بـ«الْمُمْتَرِينَ» الجنس، فيشمل من شكَّ من جهلاء أهل الكتاب والعرب، لا من عرف، فإنَّه لا يشكُّ لقوله تعالى: ﴿وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾، وقوله: ﴿لَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ﴾، وقوله: ﴿يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَآءَهُمْ﴾؛ وقد مرَّ أنَّ النهي عن الكون من أهل كذا أبلغُ عن أنْ يكون كذا. أو لا تفعل، فذلك أبلغ مِن «لا تكون ممتريًا»، ومِن «لا تمتر»، **وهكذا في سائر القرآن ولو لم أكرِّرهُ.**

﴿وَلِكُلٍّ وِجْهَةٌ هُوَ مُوَلِّيهَا فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ أَيْنَ مَا تَكُونُوا يَأْتِ بِكُمُ اللَّهُ جَمِيعًا إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (148) وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَإِنَّهُ لَلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ (149) وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَيْكُمْ حُجَّةٌ إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنِي وَلِأُتِمَّ نِعْمَتِي عَلَيْكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ (150) كَمَا أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولًا مِّنكُمْ يَتْلُو عَلَيْكُمْ آيَاتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ (151) فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ وَاشْكُرُوا لِي وَلَا تَكْفُرُونِ (152)﴾

الاختلاف في القبلة وأسباب تحويلها

﴿**وَلِكُلٍّ**﴾ من الأمم، ﴿**وِجْهَةٌ**﴾ جهة، أو لكلٍّ أهل ملَّة، أو لكلٍّ جماعة من المسلمين واليهود والنَّصارى، أو لكلِّ قومٍ من المسلمين جهة من الكعبة، جنوبيَّة أو شماليَّة أو شرقيَّة أو غربيَّة يتوجَّه إليها بالاستقبال في الصَّلاة ونحوها؛ أو لكلٍّ من الأمم توجُّهٌ. مصدر شاذٌّ إذ هو «فِعْلَةٌ» بكسر الفاء، ثبتت فاؤه واوًا. أو «وِجْهَةٌ»: ملَّةٌ تُقصَد. ﴿**هُوَ**﴾ أي: الكلُّ أو الله ﴿**مُوَلِّيهَا**﴾ وجهَهُ، فالمفعول الثَّاني محذوف، أي: بجعل وجهه تاليا لها، أو يولِّيها ملَّتها.

والمعنى أنَّهم لا يتركون قبلتهم ولا ملَّتهم، فذلك كالفذلكة لقوله: ﴿مَا تَبِعُواْ قِبْلَتَكَ وَمَآ أَنتَ بِتَابِعٍ قِبْلَتَهُمْ وَمَا بَعْضُهُم بِتَابِعٍ قِبْلَةَ بَعْضٍ﴾. وليس المراد أنَّ الله

أباحَ لهم ذلك، بل الله يعاقب كلَّ أمَّةٍ خالفت نبيئها، فيعاقب الله اليهود والنَّصارى وغيرهم الذين أدركتهم بعثة رسول اللهِ ﷺ وخالفوه في القبلة وغيرها، إلَّا من لم يبلغه الخبر فيُعذر إن كان على دين غير منسوخ، أو لم يبلغه نسخه.

﴿فَاسْتَبِقُواْ﴾ أيُّها المؤمنون، أو أيُّها المكلَّفون، وهو من الافتعال بمعنى التفاعل، أي: ليعالج كلٌّ منكم أنْ يسبق الآخر لرِضا الله وثوابه، كالصَّلاة أوَّل الوقت، واستقبال عين القبلة لا عنادًا للآخر، أو حسدًا أو كبرًا. وهو متعدٍّ أو لازمٌ فتقدَّر «إلى». ﴿الْخَيْرَاتِ﴾ الأمور الحسنة اعتقادًا وقولاً وفعلاً، من أمر القبلة وغيرِها. أو الخيرات: الكعبة، جمعها لجمعها كلَّ خير. أو للتَّعظيم. أو الجهات الفاضلة لكونها على سمت الكعبة، فيكون الخطاب للمؤمنين أو للمكلَّفين من أهل الآفاق لتعذُّر مقابلة الكعبة جزمًا.

و«الْخَيْرَات»: جمع خيِّر، أو خيِّرة بشدِّ الياء أو بالتخفيف، تقول: أمر خيِّر وخصلة خيِّرة، أو جمع «خَيْر»، اسم تفضيل خارجًا عن بابهِ، أو باقيًا؛ لأنَّ الأفقي يجيز في استقبال القبلة وجهين أو أكثر، فيختار أقواها عنده، ولأنَّ المخطئ يدَّعي أنَّ ما هو عليه حسن، وعلى دعواه هذا الذي عليه محمَّد أحسن.

﴿أَيْنَ مَا تَكُونُواْ﴾ في موضعٍ خفيٍّ أو ظاهرٍ، في برٍّ أو بحرٍ. ﴿يَاتِ بِكُمُ اللهُ﴾ يصيِّركم الله آتين ﴿جَمِيعًا﴾ يوم القيامة للجزاء بأعمالكم، وذلك حثٌّ على الِاستباق، كقوله تعالى: ﴿يَا بُنَيِّ إِنَّهَآ إِن تَكُ مِثْقَالُ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ فَتَكُن فِي صَخْرَةٍ اَوْ فِي السَّمَاوَاتِ أَوْ فِي الَارْضِ يَاتِ بِهَا اللهُ﴾ [سورة لقمان: 16]. أو يُمِتْكُم، كقوله تعالى: ﴿اَيْنَمَا تَكُونُوا يُدْرِككُّمُ الْمَوْتُ﴾ [سورة النساء: 78]. أو يأت بكم إماتة وحشرًا. أو يجمع صلواتكم في الآفاق من جهات الكعبة كصلاة واحدة إلى جهة واحدة في القبول، كأنَّها إلى عين القبلة، أو في المسجد الحرام، فـ«يَاتِ بِكُم» مجاز عن جعل الصلاة متَّحدة الجهة. ﴿إِنَّ اللهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ﴾ من الإماتة والإحياء والحشر وغير ذلك ﴿قَدِيرٌ﴾.

﴿وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ﴾ متعلِّق بـ«وَلِّ» بعـده. و«مِن» للابتداء، أو بمعنى «في»، كأنَّه قيل: ﴿فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ﴾ من حيث خرجت للسَّفر إلى أنْ ترجِع، وفي موضع خروجك للسَّفر، فيفهم منه أنَّ حكم ما بعد الموضع من مواضع السـفر كذلـك. أو «خَرَجْتَ» بمعنى سافرت، أي: ولِّ وجهك في مواضع سفرك. ولا يعترض على ذلك بأنَّه يلزم اتِّصال الواو بالفاء إذا علَّقناه بـ«وَلِّ»؛ لأنَّ الفاء صلة للتأكيد، أساغها شبه «حَيْثُ» بالشـرطيَّة المتَّصلة بـ«مَا» في العمـوم، كما أجاز الفرَّاء كونها شَـرطيَّة ولو بدون «مَا»، ولأنَّه لا يكون الثِّقل في التقدير مثل الثقل اللفظيِّ كما في أنواع كثيرة، بل يسوغ في التَّقدير. وكرَّره لبيان أنَّك تستقبل القبلة في السفر كالحضر.

﴿وَإِنَّهُ﴾ أي: التولي المطاوع للتَّولية المذكورة. أو شطر المسجد الحرام، أي: اسـتقباله. أو إنَّ التَّولية، فذُكِّر لتذكير الخبر. أو إنَّ الصَّرف أو الاستقبال، ﴿لَلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ وَمَا اللهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ وَمِن حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ﴾.

[لغة] الشطر في الأصل: ما انفصل عن الشـيء، إمَّا حسًّا كدارٍ شَطُور، أي: منفصلة عن الدُّور، و[إمَّا] معنًى كقولنا: الإقرار شـطر التوحيد. واسـتعماله في الجزء شائع. واستعمل لجانب الشيء ولو لم ينفصل، بمعنى الجهة كما في الآية.

﴿وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّواْ وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ﴾ والعطفان على «لِكُلٍّ وِجْهَةٌ»، أو على ﴿قَدْ نَرَى تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي السَّمَآءِ﴾.

ذكر ذلك ثلاث مرات، كلٌّ لعلَّة غير علَّة الأخرى:

ـ ذكره المرَّة الأولى ليريـه أنَّه قد أجاب له فيما يشـتاق إليه، ورحم تضرُّعه، وأنَّه أهل لأن يجاب لعظم شـأنه عند الله ﷻ، كما قال الله ﷻ: ﴿قَدْ نَرَى تَقَلُّبَ وَجْهِكَ﴾.

ـ وذكره المرَّة الثانيــة ليبيِّن أنَّه جعل لــكلٍّ أمَّة قبلة يمتــاز بها، إذ قال: ﴿وَلِكُلٍّ وِجْهَةٌ﴾ أي: لكلِّ أمَّة.

ـ وذكره المرَّة الثَّالثة ليدفع حجَّة اليهــود، إذ يحتجُّون بأنَّه لو كان النبيءَ الموعود به لتحوَّل إلى الكعبة كما فــي التوراة، وأنَّه لو كَانَه لم يتَّبع قبلتنا مع أنَّه يُنكِر ديننا، ولدفع حجَّة مشــركي العرب، إذ يحتجُّون بأنَّه لو كان نبيئًا لم يخالف قبلة إبراهيم مع أنَّه يدعيها، كما قال ـ بعد قوله: ﴿لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ﴾ اليهود ومشــركي العرب ﴿عَلَيْكُمْ حُجَّةٌ﴾ ـ: ﴿وَلأُتِمَّ نِعْمَتِي﴾ إنْ عُطِف على «لِئَلَّا...» إلخ.

وَأَمَّا قولُه ﷻ: ﴿وَمَا جَعَلْنَــا الْقِبْلَةَ التِي كُنتَ عَلَيْهَــا﴾ أي: الكعبة التي كنت عليها، فبان أنَّ الجعل معلَّل بالعلم لا بقيد كونه تعظيمًا للرَّسول ﷺ ولا بغيره، وناســب التكــرار أنَّ الكعبة لها شــأنٌ. والنســخ من مظــانِّ الطعن، والمخالفة في النسخ بدعوى إلزام البَداء، وهو غير جائز، وهي مخالفة باطلة؛ لأنَّ النسخ إزالة حكم قُضِي في الأزل أنَّه يزال، لا ظهورٌ لِمَا خفي، تعالى الله.

وقيل: الأُولى على أنَّ الإنسان في المسجد الحرام، والثانية على أنْ يخرُج من المســجد الحرام، ويكون في البلد، والثالثة على أنْ يخرُج عن البلد إلى أقطار الأرض. وفيه أنَّ الخطاب أوَّلاً لرســول الله ﷺ وهو في المدينة، فكيف تكون الأولى لمن في المسجد الحرام!.

﴿إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُواْ﴾ بالعناد ﴿مِنهُمْ﴾ مــن الناس المعهودين، أي: إلَّا المعاندين من اليهود، إذ قالوا: تحوَّل للكعبة ميلاً لدين قومه، وحبًّا لبلده. و[من] مشــركي العرب، إذ قالوا: رجع لقبلة آبائه ويوشــك أنْ يرجِع إلى دينِهم، وإنَّه في حيرة من أمر القبلة. ومن لم يعاند قال: يدَّعي ملَّة إبراهيم ويوافق قبلته.

والحجَّة: ما يُستدلُّ به صحيحًا في نفســه أو في زعم المستدِلّ. ولا حجَّة صحيحة لمن خالف كلام الله، لكن تُسمَّى حجَّة كأنَّها صحيحة لشِبْهِها بها في إحضارها لإثبات المقصود. أو المــراد: التَّحاجُ، أي: الخصامُ. أو الِاســتثناء منقطع، أي: لكن الذين ظلموا، من تأكيد الشــيء بضـدِّه، أي: إنْ كانت لهم حجَّة فهي الظُّلمُ، والظُّلمُ لا يكون حجَّةً، فحجَّتهم غير ممكنة كقوله:

ولا عيب فيهم غير أنَّ سيوفهم   بهنَّ فلــول من قــراع الكتائب

فأخذ منه بعض قوله:

ولا عيب فيهم غيــر أنَّ نزيلهم   يُلام بِنِسْـيَانِ الأَحِبَّــةِ والوَطن

فالمعنى المبالغة بأنَّه: إنْ كانت الحجَّة في نفي الحقِّ فهي كلام المعاندين، وكلامهم غير حجَّةٍ فلا حجَّة في نفي الحقِّ، وهو هنا استقبال الكعبة.

﴿فَلَا تَخْشَــوْهُمْ﴾ أي: الظالمين، وقيل: الناس عمومًا، والأوَّل أولى، لا تخافوهم في الجدال في التَّولِّي إلى الكعبة فإنَّه يضمحلُّ، وضرره عائد عليهم. وسَمَّى خوفَهم خشــيةً مع أنَّه إن خوفهم المؤمنون لا إجلالَ فيها، مشاكلةً لقوله تعالى: ﴿وَاخْشَونِي﴾ أي: خافوني مع إجلال.

﴿وَلِأُتِمَّ﴾ لئلَّا يكون ولأتمَّ ﴿نِعْمَتِي عَلَيْكُمْ﴾ وفي ذلك عدم المناسبة إلَّا بتكلُّفٍ، وأيضًا إرادة الِاهتداء علَّة تصلــح للأمر بالتَّولية لا الفعل المأمور به، والأولى أنْ يقدَّر: «وأمرتكم بالتوليــة للكعبة لأتمَّ نعمتي»؛ لأنَّها نعمة عظيمة تورث فوزًا عظيمًا، ونعيمًا مقيمًا. أو اخشوني لأحفظكم من شرِّهم في الدُّنيا، ولأتِمَّ نعمتي عليكم في الدُّنيا والآخرة بكونكم على الحقِّ، وبإدخال الجنَّةِ.

وروى البخــاريُّ والترمذيُّ «**أنَّ تمام النِّعمة دخــول الجنَّة**»[1]. وعن عليٍّ: «الموت على الإســلام». **قلت**: أو الهدى إلى معالم الدين والإقامة عليها إلى

---

(1) رواه **البخاري** في كتابه: الأدب المفرد (701)، باب من سأل الله العافية، رقم: 725، ص 217.

الموت. والنِّعمة في كلِّ وقت، وتمامها بما يليق به، فلا يعارض بما جاء بعدُ من قوله تعالى: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي﴾ [سورة المائدة: 3]. ﴿وَلَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ قد مرَّ، ومن معانيه: ولتهتدوا.

﴿كَمَآ أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولاً مِّنكُمْ﴾ معشر العرب، شرفًا لكم إذ لم يكن من غيركم. ولا تقدرون أنْ تأخذوا الأحكام والوحي عن الملَك. يعني محمَّدا ﷺ، ولأتمَّ نعمتي عليكم إتمامًا شبيهًا بإرساله في الإتمام به للنِّعمة. ويجوز أنْ يعود إلى قوله: ﴿فَاذْكُرُونِي﴾ [الآية: 152]، أي: أُذكروني ذكرًا مثل ذكري لكم بالإرسال، أو اذكروني بدل إرسالنا فيكم رسولاً، فالكاف للمقابلة، وذكرُ الإرسال وإرادة الإتمام من إقامة السبب مقام المسبَّب.

﴿يَتْلُو عَلَيْكُمْ ءَايَاتِنَا﴾ أي: القرآن الذي هو معجزة دائمًا لا يملُّ. ﴿وَيُزَكِّيكُمْ﴾ يطهِّركم من الشِّرك والمعاصي، أو يعلِّمكم ما تكونون به أزكياء. ﴿وَيُعَلِّمُكُمُ الْكِتَابَ﴾ أي: القرآن، ذكره أوَّلاً بلفظ الآيات باعتبار معانيه التي هي مدلولها، وثانيًا بالكتاب باعتبار ألفاظه، ﴿وَالْحِكْمَةَ﴾ ما فيه من الأحكام، تخصيص بعد تعميم. أو السُّنَّة.

﴿وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمْ تَكُونُواْ تَعْلَمُونَ﴾ من أخبار الأمم وأنبائهم والحوادث، ولم يقل: «ويعلِّمكم الكتاب والحكمة وما لم تكونوا تعلمون» بل أعاد ذكر «يُعلِّمُكُمْ» ليدلَّ على أنَّ هذا التعليم نوع آخر، ولو قلنا: ﴿مَا لَمْ تَكُونُواْ تَعْلَمُونَ﴾ هو الكتاب والحكمة وعطف؛ لأنَّ تغاير الصفة كتغاير الذات، فإنَّ مفهوم ﴿مَا لَمْ تَكُونُواْ تَعْلَمُونَ﴾ غير مفهوم الكتاب والحكمة، ولو اتَّحدت مأصدقًا.

وقدَّم التَّزكية لأنَّها تخلية عن التعليم لأنَّه تحلية **ولأنَّها غاية التعليم، متقدِّمة في القصد، كما قالوا في الغاية المقصودة من الفعل: «هي أوَّل الفكر وآخر العمل»**، كالماء غاية يقصد بالحفر ويحصل بعده، وقد قصد قبل الحفر.

وقدَّم التعليم في دعاء إبراهيم ﴿رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ...﴾ إلخ [سورة البقرة: 129] باعتبار أنَّ التزكية تحصل بعد العلم، وهو بعد التعليم. وقيل: التزكية عبارة عن تكميل النفس بالقوَّة العمليَّة وتهذيبها، المتفرِّع عن تكميلها بالقوَّة النَّظريَّة، الحاصل بالتعليم المترتِّب على التِّلاوة. ووسَّطت بين التِّلاوة والتعليم إيذانًا بأنَّ كلًّا من الأمور المرتَّبة نعمة على حدة، توجب الشكر، ولو روعي ترتيب الوجود كما في دعوة إبراهيم لتُوهِم أنَّ كلًّا نعمة واحدة.

﴿فَاذْكُرُونِي﴾ بالطَّاعة باللِّسان، وبالتَّفكر في الدَّلائل والوحدانيَّة، وبالجوارح في أنواع العبادات. ولكون الصَّلاة جامعة لذلك سمَّاها ذكرًا في قوله ﷻ: ﴿فَاسْعَوْا إِلَىٰ ذِكْرِ اللهِ وَذَرُوا الْبَيْعَ﴾ [سورة الجمعة: 9]. **وحقيقة ذكر الله أنْ يُنسِيَ كلَّ شيء سواه.** ﴿أَذْكُرْكُمْ﴾ بالثواب أو بالثَّناء عند ملإٍ خير من ملأ ذكرتموني عنده، وهم الملائكة كما في الحديث(1)، عطف إنشاء على إخبار. أو مهما يك من شيء فاذكروني أذكركم. أو إنْ لم تذكروني بالطَّاعةِ لنعمتي عمومًا فاذكروني لنعمة الإرسال، أحوجَ ما أنتم إليه في وقت الفترة، وهذا أنسب لفظًا، والذي قبله أبلغ، وأساغهما حضور النِّعمِ في الحسِّ خارِجًا وفي لفظ الآي، ويجوز أنْ يُراد: فاذكروني أُثِبْكُم؛ وسمَّى الإثابة ذكرًا للجوارِ. ﴿وَاشْكُرُواْ لِي﴾ نعمتي بعبادة قلوبكم ومع ألسنتكم وجوارحكم، وذكرُ النعم جلبًا للعبادة ونفع خلق الله بها. وقدَّم الذكر لأنَّه اشتغال بالذَّات، والشُّكر اشتغال بالنِّعمة. ﴿وَلَا تَكْفُرُونِ﴾ ولا تستروا شأني بترك الشُّكر كأنِّي لم أنعم عليكم، وبالمعصية، والاِشتغال بحظوظ النَّفس وما لا يعني.

---

(1) لعلَّ الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ يشير إلى الحديث الذي رواه **البخاري** عن قتادة عن أنس، وأحمد كذلك، قال: قال رسول الله ﷺ: «يا ابن آدم، إن ذكرتني في نفسك ذكرتك في نفسي، وإن ذكرتني في ملأ ذكرتك في ملأ خير منه، وإن دنوت منِّي شبرًا دنوتُ منكَ ذراعا، وإن دنوتَ منِّي ذراعا دنوت منك باعا، وإن أتيتني تمشي أتيتك هرولة» قال قتادة: «الله أقرب بالرحمة».

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱسْتَعِينُوا۟ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿153﴾ وَلَا تَقُولُوا۟
لِمَن يُقْتَلُ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتٌۢ ۚ بَلْ أَحْيَآءٌ وَلَٰكِن لَّا تَشْعُرُونَ ﴿154﴾ وَلَنَبْلُوَنَّكُم بِشَىْءٍ
مِّنَ ٱلْخَوْفِ وَٱلْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَنفُسِ وَٱلثَّمَرَٰتِ ۗ وَبَشِّرِ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿155﴾ ٱلَّذِينَ
إِذَآ أَصَٰبَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُوٓا۟ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ ﴿156﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَٰتٌ مِّن رَّبِّهِمْ
وَرَحْمَةٌ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُهْتَدُونَ ﴿157﴾ ﴾

الصبر على البلاء

﴿ **يَآ أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اسْتَعِينُوا** ﴾ على الشُّكر والذِّكر وسائر العبادات، وترك المبالاة بعناد المعاندين، أو على نيل درجات الآخرة، والنقص من هول الموت وما بعده من القبر والحشر، وهول الدُّنيا. ﴿ **بِالصَّبْرِ** ﴾ على البلاء ومشقَّة العبادة، وعن المعاصي وحظوظ النَّفس. ﴿ **وَالصَّلَاةِ** ﴾ خصَّها من سائر الطَّاعات لعظم شأنها؛ لأنَّها أفضل العبادات بعد التوحيد وأُمُّها، ومعراج المؤمنين، ومناجاة الرَّبِّ، ولتكرُّرها، وهي الأصل الموجب لكمال التقرُّب. ﴿ **إِنَّ اللهَ مَعَ الصَّابِرِينَ** ﴾ بالعون والنَّصر، وذلك تعليل جمليٌّ متعلِّقٌ بالإستعانة بالصَّبرِ لأنَّه المحتاج للتَّعليل.

وَأَمَّا الصَّلاة فحيث كانت أجلَّ المطالب، لم يفتقر الأمر بالإستعانة بها إلى التعليل، كذا قيل، مستأنسًا له بقوله ﷺ: «**جعلت قرَّة عيني في الصَّلاة**»[1].

(1) تقدَّم تخريجه، انظر تفسير الآية رقم: 44 من هذه السورة.

ويجوز أنْ يكون تعليلاً للاستعانة بهما على الحذف، أي: إنَّ اللهَ مع الصَّابرين والمصلِّين، قيل: أو للاستعانة بالصَّلاة فهمًا، وبالصَّبرِ تصريحًا، فإنَّه إذا كان مع الصَّابرين فأولى أنْ يكون مع المصلِّين لاشتمالها على الصَّبر، وفيه أنَّ الصبر أشدُّ وشاملٌ للصَّبر على الصَّلاة وغيرها.

﴿**وَلَا تَقُولُواْ لِمَنْ يُقْتَلُ**﴾ أي: في شأن من يقتل، ﴿**فِي سَبِيلِ اللهِ**﴾ في الجهاد؛ ﴿**أَمْوَاتٌ**﴾ أي: هم أموات البتَّة كالجماد؛ ﴿**بَلْ أَحْيَآءٌ**﴾ وهذا قطع عن القول وردٌّ له، ولكن لا مانع من الوصل به، إلَّا أنَّ المراد بالذات الردُّ له وتقديره: بل قولوا: «هم أحياء وأرواحهم في حواصل طير خضر تسرح في الجنَّة حيث شاءت»، وَأَمَّا السعداء غير الشهداء فيجاء لأرواحهم بنعيم الجنَّة إلى باب الجنَّة، وقيل: ينعم غير الشَّهيد في قبره بروائح وغيرها، ممَّا ليس طعامًا، ولا شرابًا؛ كما أنَّ الشقيَّ يصل روحَهُ في قبره أو في النَّار عذابٌ. وتارة يرجع الروح للجسد، فيجيء الجسدَ مسلمًا أو كافرًا، وذلك كما تُعرض النار على أرواح آل فرعون قال ﷺ: «**أرواح الشهداء في أجواف طير خضر، تَرِدُ أنهار الجنَّة وتأكل من ثمارها، وتأوي إلى قناديل** ـ أي: صُوَر قناديل ـ **معلَّقة تحت العرش**»[1]، وعن ابن مسعود: «أرواح آل فرعون في أجواف طير سود تعرض على النار بكرة وعشيًّا إلى يوم القيامة».

فنقول: الأرواح أجسام لطيفة، وأجساد تلك الطير على صور الموتى، لو رآهم أحد لقال رأيت فلانًا؛ وقيل: أجسادٌ أُخَر على صور الطَّير، ويدلُّ له رواية عنه ﷺ: «**في صور طير خضر**»، ولا ينافي ذلك رواية: «**في أجواف طير**»، ورواية: «**في حواصل طير**».

---

(1) أورده **الآلوسيُّ** في تفسيره، ج 2، ص 20. وقال: أخرجه عبد الرزَّاق في مسنده من حديث عبد الله بن كعب بن مالك.

﴿وَلَكِن لَّا تَشْعُرُونَ﴾ ما هم فيه من أنَّه تنعم أرواحهم في أجواف طير خضر على حدِّ ما مرَّ. تكون الطَّير لها كالهوادج. وأرواح أهل النار تعذَّب في أجواف طير سود، تكون لها كالتَّابوت في النَّار، وقد تحيى أجسام هؤلاء وهؤلاء.

[سبب النزول] ونزلت الآية لَمَّا قيل في شهداء بدر، وهم ستَّة من المهاجرين وثمانية من الأنصار، أو سبعة عشر أو ستَّة عشر ـ بيَّنتُ أسماءهم في **شرح نونيَّة المديح**[1] ـ: إنَّهم ماتوا وذهبت عنهم النِّعم واللَّذَّات، ولقول المشركين والمنافقين: قتلوا في مرضاة محمَّد بلا فائدة.

﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُم﴾ عطف على «اسْتَعِينُوا»، أو على ما عطف على «اسْتَعِينُوا»، والمعنى: لنصيبنَّكم إصابة كإصابة من تختبر حاله لتعلم أيصبر ويثبت على الطَّاعة أوْ لَا؟ والله لا يخفي عليه شيء، فذلك استعارة تمثيليَّة، والخطاب للمؤمنين عمومًا؛ وقيل: للصَّحابة؛ وقيل: لأهل مكَّة. ﴿بِشَيْءٍ﴾ قليل، كما يفيده التَّنكير مع «مِن» التَّبعيضية، مع العرف في لفظ شيء، فإنَّ كلَّ ما أصابهم قليل بالنِّسبة إلى المصايب العظام، وهم عالمون بأنَّ ما لم يصبهم أعظم، فيعلمون أنَّ رحمة الله لم تفارقهم، إذ هم معافون من المصايب التي فوق ذلك، وأيضًا يفرج الله عنهم ويعوِّضهم، وبالنِّسبة إلى ما يصيب الكُفَّار في الآخرة، وذلك داع للشُّكر.

ومن نعمته أنَّه أخبرهم بما يصيبهم قبل وقوعه ليوطِّنوا أنفسهم، مع معرفتهم أنَّ لهم عليه أجر، فيخفُّ بما بعد ذلك، ولو أصيبوا بمثله قبل الإخبار. ﴿مِّنَ الْخَوْفِ﴾ خوف العدوِّ، وقيل: خوف اللهِ، وفيه أنَّ خوف الله لا يسمِّيه الله بلاء واختبارًا، وهو أمر محمودٌ لا يسمَّى باسم ينفِّر ويثقل، وَأَمَّا أنْ يعترض أنَّه للحال فلا؛ لأنَّ المضارع مع لام القسم للاستقبال، وإنْ صحَّ الحال فالمراد

---

(1) يعني رَحِمَهُ اللَّهُ كتابه الهامَّ في شرح نونيَّة ابن الونان المغربي الفاسي المعروف بأبي الشمقمق في مديح رسول الله ﷺ، وذكر سيرته.

ما يستقبلُ من ذلك. ﴿وَالجُوعِ﴾ للقحط والغلاء والفقر، وفسَّره بعض بنفس القحط إقامة للمسبَّب مقام السَّبب؛ وقيل: للصَّوم، وفيه ما مرَّ من خوف الله بل دونه؛ لأنَّه يقال: يبتليكم الله بما يشقُّ عليكم فتفعلونه، **لكنَّ التفسير بغير الظَّاهر بلا داع بدعة ولا تجوز.** ﴿وَنَقْصٍ مِّنَ الاَمْوَالِ﴾ بالهلاك للحيوان والنبات والشجر، أو بالسَّرقة والكساد. وقيل: بالإنفاق نفلاً أو زكاةً، وفيه ما مرَّ في خوف اللهِ، وأيضًا في تسميتها نقصًا من الأموال تنفيرٌ، ولو صحَّ أنَّ ما يُعطى من المال نقص من عدده، وقد قال ﷺ: «**ما نقص مال من صدقةٍ**»[1]، أي: لها، أي: يخلفه الله عددًا أو كمالاً بالبركة، فيقوم الباقي مقام نفسه ومقام ما خرج وأكثر، مع ثواب الآخرة. ﴿وَالَانفُسِ﴾ أنفس الأحبَّة، ومن يعزُّ على الرَّجل هلاكه، وذلك بالقتل والموت والأمراض، وذهاب منافع البدن بذهاب قواه كالصَّمم، والعمى والعرج، فذلك نقص من صحَّة الأنفس. ﴿وَالثَّمَرَاتِ﴾ من الشَّجر والنبات والحرث بالجوائح، من ريح وحرٍّ وبردٍ ونقص ماءٍ ونحو ذلك، وخصَّت مع أنَّها من الأموال لأنَّها قد لا تُملَك، كثمار الأرض التي لا يملكها أحد.

وقيل: الأولاد؛ لأنَّها ثمرة آبائهم وأُمَّهاتِهم، بأنْ يموتوا أو يصابوا في أبدانهم، ومن الثَّمرات بمعنى الأولاد الحديث: «**إذا ماتَ ولدُ العَبدِ قال الله للملائكة: أَقَبَضْتُم وَلَدَ عَبْدي؟ فيقولون: نعم، فيقول: أَقَبَضْتُم ثَمَرَة فؤادِهِ؟ فيقولون: نعم، فيقولُ الله تعالى: ماذا قال عبدي؟ فيقولون: حمدَكَ واسترجعَ، فيقول الله تعالى: ابنوا لعبدي بيتًا في الجنَّة وسمُّوهُ بيتَ الحمدِ**»[2]، أي: لأنَّ سببهُ الحمد، لكن ليس كلُّ ما جاء في الحديث يفسَّر القرآن بهِ.

---

(1) رواه مسلم في كتاب البرِّ والصلة والآداب (19)، باب العفو والتواضع، رقم: 69. وأحمد في مسنده، ج 3، ص 334، رقم: 9018، مع زيادة في آخره، من حديث أبي هريرة.

(2) رواه الترمذي في الجنائز (36)، باب فضل المصيبة...، رقم: 1021، من حديث أبي موسى الأشعري.

﴿وَبَشِّرِ﴾ بالصَّلوات من الله والرَّحمة، والخلف والثَّواب العظيم، ولا حاجة إلى تقدير بعضهم: «أنذرِ الجازعين»؛ لأنَّه معلوم بلا تقدير، ولا داعي إلى تقديرِهِ. ﴿الصَّابِرِينَ﴾ من المؤمنين لأنَّ صبر الكافرين لا ينفعُهُم في الآخرةِ، والخطاب للنبيء ﷺ أو لكلٍّ من يصلح للتَّبشير، وهكذا في مثل الآية بحسب الإمكان، ولو لم أذكُرهُ. ﴿الَّذِينَ إِذَآ أَصَابَتْهُم مُّصِيبَةٌ﴾ مَّا، في بدنٍ أو عرضٍ أو مال أو أهلٍ أو من يعزُّ عليه، ولو شوكة أو بعوضة أو ذبابة. طفئَ مصباح رسول الله ﷺ، فقال: «إِنَّا للهِ وإنَّا إليه راجِعونَ»، فقيل: أمصيبةٌ هي؟ قال: «نَعم، كلُّ شيءٍ يُؤْذِي المؤمنَ فَهُوَ لَهُ مُصِيبةٌ»[1].

﴿قَالُوٓاْ﴾ إذعانًا واستسلامًا ورضًا وتفويضًا بالقلب واللِّسان، أو بالقلب لا باللِّسان وحده. ﴿إِنَّا لِلَّهِ﴾ خلقًا وعبوديَّةً ومُلكًا، يفعل بنا ما يشاء إذ لا نملك شيئًا من أنفسنا مع الله، كيف نملك ذلك وقد أوجدنا من العدم؟! ولا نملك في العدم شيئًا. ﴿وَإِنَّآ إِلَيْهِ رَاجِعُونَ﴾ في الآخرة فيثيبنا، ولا نملك وجودا ولا عدمًا، وما أخذ فعارية مردودة لمالكها، وما أبقى أكثر قال ﷺ: «مَن اسْتَرْجَعَ عِندَ المُصِيبةِ آجَرَهُ اللهُ فِيهَا وَأَخْلَفَ عليهِ خيرًا»[2].

وقد يسترجع الإنسان بلسانِه فقط، إلَّا أنَّه غير ساخط، فوالله إن شاء الله لا يخلو من خير، ألا تراه رجع إلى ذكر اللهِ؟ لا إلى قول سوء، بل لا يكون ذلك إلَّا وفي قلبه حضور مَّا، ولو لم يعلم به، وفي الحديث: «ما أعطي الِاسترجاع لأحدٍ قبل أمَّتي»، ألا ترى إلى قول يعقوب: ﴿يَآ أَسَفَىٰ عَلَىٰ يُوسُفَ﴾ [سورة يوسف: 84]. ويُسنُّ أنْ يقال بعد الِاسترجاع: «اللهمَّ أجرني في

---

(1) ذكره الآلوسي في تفسيره، ج 2، ص 23، بدون ذكر السند.

(2) هو جزء من الحديث الذي سيأتي تخريجه، عند قوله تعالى: ﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ﴾ (الآية: 157).

مصيبتي، واخلفني خيرًا منها»[1]، قال ﷺ: «لا يقولُ أحدٌ ذلك إلَّا آجرهُ فيها وأخلَفه خيرًا منها»[2]، قالته أمُّ سلمة: لَمَّا مات أبو سلمة زوجها، فأخلفها الله رسول الله ﷺ. ﴿أُوْلَئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ﴾ مغفرة أو تزكية أو ثناء أو تعظيم، والجمع مناف لأن يـراد بالصَّلوات الثَّناء أو التعظيـم، إلَّا أنْ يقال: بمعنى ثناء بعد ثناء، وتعظيم بعد تعظيم، ولم يقـل: صلاة لكثرة المغفرة والتَّزكية والثَّناء وأنواعهنَّ.

[نحو] أو أراد صلاة بعد صلاة. لكنَّ المعروفَ بالتكرير المفرداتُ، نحو: زيد يأكل مرَّة مرَّة، والتَّثنية كقوله: كرَّتين، وقولنا: لبَّيك.

﴿مِّـن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ﴾ نعمة عظيمـة أفرادًا وأنواعًـا، روي: «نِعْمَ العِدلانِ للصَّابرين: الصَّلواتُ والرَّحمـةُ»[3]. ﴿وَأُوْلَئِكَ هُـمُ الْمُهْتَدُونَ﴾ إلى الصَّواب والحقِّ إذ استرجعوا رضًا بقضاء الله ﷻ، قال ﷺ: «مَن اِسترجَعَ عند المصيبةِ جَبَرَ اللهُ مُصِيبَتَهُ، وأَحسنَ عُقباهُ وجعلَ لهُ خلفًا صَالحًا يَرضاهُ»[4]. وذلك أولى من تقدير: المهتدون إلى الفوز بالمطالب.

---

(1) أورده ابن كثير في تفسيره عن أحمد، وفي صحيح مسلم، ج 1، ص 198..

(2) رواه مسـلم في الجنائز (2)، باب ما يقال عند المصيبة، رقم: 4. ورواه الطبرانيُّ في الكبير، ج 23، ص 262، رقم: 550، من حديث أمِّ سلمة.

(3) أورده الشـيخ إسـماعيل الجيطالي في القناطر أثرا عن عمـر ﷺ، ج 3، ص 276. وأورده الآلوسي كذلك في تفسيره، ج 2، ص 23.

(4) رواه الطبراني في الكبير، ج 12، ص 198، رقم: 13027، من حديث ابن عبَّاس.

﴿إِنَّ ٱلصَّفَا وَٱلْمَرْوَةَ مِن شَعَآئِرِ ٱللَّهِ ۖ فَمَنْ حَجَّ ٱلْبَيْتَ أَوِ ٱعْتَمَرَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَن
يَطَّوَّفَ بِهِمَا ۚ وَمَن تَطَوَّعَ خَيْرًا فَإِنَّ ٱللَّهَ شَاكِرٌ عَلِيمٌ (158) إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَآ أَنزَلْنَا
مِنَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلْهُدَىٰ مِنۢ بَعْدِ مَا بَيَّنَّٰهُ لِلنَّاسِ فِى ٱلْكِتَٰبِ ۙ أُو۟لَٰٓئِكَ يَلْعَنُهُمُ ٱللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ
ٱللَّٰعِنُونَ (159) إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُوا۟ وَأَصْلَحُوا۟ وَبَيَّنُوا۟ فَأُو۟لَٰٓئِكَ أَتُوبُ عَلَيْهِمْ ۚ وَأَنَا ٱلتَّوَّابُ
ٱلرَّحِيمُ (160) إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَمَاتُوا۟ وَهُمْ كُفَّارٌ أُو۟لَٰٓئِكَ عَلَيْهِمْ لَعْنَةُ ٱللَّهِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلنَّاسِ
أَجْمَعِينَ (161) خَٰلِدِينَ فِيهَا ۖ لَا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ ٱلْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ (162)﴾

حكم السعي بين الصفا والمروة وجزاء كتمان آيات الله

﴿**إِنَّ الصَّفَا وَالْمَرْوَةَ**﴾ عَلَمَانِ بالغلبة على جبلين بمكَّة.

[لغة] فإنَّ الصفا جمع صفاة في الأصل وهي الصَّخرة الصَّلبة الملساء، أو الحجر الذي لا يخالطه طين، أو تراب متحجِّرًا، وضعِّف، مأخوذ من الصَّفوة وهي الخلوص. والمـروة في الأصل: الحجـر الليِّن أو الأبيـض البرَّاق، أو الأسود البرَّاق، أو المحدَّدة الأطراف، أو الصَّلبة.

[قصص] قيل: سمِّي الصَّفا لوقوف صفيِّ الله آدم عليه السلام عليه، وذُكِّر لذلك. وسمِّيت المروة لوقوف المرأة عليه وهي حوَّاء، وأنِّث لذلك. ولا يقال فيه: إنَّ مادَّة «المـروة» غير مادَّة «المـرأة»؛ لأنَّ المراد بتأنيثه أنَّه قُـرن بالتَّاء، كما أنَّ المراد بتذكير الصَّفا أنَّه لم يقرن بها.

﴿**مِن شَعَآئِرِ اللهِ**﴾ أي: علاماته، أي: علامات دينه، أو المواضع التي يقام

فيها دينه، وهـي مواضع الحجِّ، كالمطـاف وعرفة والمزدلفـة ومنًى. أو من علاماته التي تَعَبَّد خلقه بها، فهُمَا يُسْـعَى بينهما. ﴿فَمَـنْ حَجَّ الْبَيْتَ﴾ قصده ليقف بعرفة، ويبيت بالمزدلفة، ويرمي ويحلق ويطوف ويسعى. ﴿أَوِ اعْتَمَرَ﴾ زار البيت ليطوف ويسعى.

وأصل الحجِّ القصد مطلقًا أو إلى معظَّمٍ، والعمرة: الزِّيارة أخذًا من العمارة، والزَّائر يعمر المكان بزيارته. ﴿فَلَا جُنَاحَ﴾ لا إثْم وأصلُه: الميل مطلقًا، سمِّي به الذنب لأنَّه ميل عن الحقِّ. ﴿عَلَيْهِ أَنْ يَطَّوَّفَ﴾ في أنْ يتطوَّف. ﴿بِهِمَا﴾ بينهُما، كما زعم المسلمون قبل نزول الآية أنَّه لا يجوز السَّعي بينهما لأنَّه كان فوق كلٍّ منهما صنم، يمسُّهما المشركون بأيديهم ويمسحون بهما وجوههم ويعظِّمونهما، فكرهوا أن يشـبه سـعيُهم ـ ولو كانوا لا يمسـحونهما ولا يعظِّمونهما ـ سعيَ المشركين المعظِّمين لهما الماسحين.

أحدهما «إِساف» بكسر الهمزة، والآخر «نائلة»، صنمين من أوَّل، ورجِّح هذا. وقيل: كانا رجلاً وامرأة زنيا في الكعبة فمسـخهما الله، وجعلهما الناس على الجبلين ليعتبر بهما، فطالت المدَّة فعُبدا من دون الله، ونُسـب هذا القول لأهل الكتـاب. وقيل: واضعهما على الجبلين عمرو بـن لُحَي، وهو أوَّل من سنَّ عبادة الأصنامِ من عربِ مكَّة. والباء للإلصاق المجازي.

[فقه] والطـواف بهمـا واجـب لقولـه ﷺ: «**إنَّ اللهَ كتبَ عليكمُ السَّـعيَ فاسْـعَوْا**»[1]. وَأَمَّا قول عائشـة ﵂: «لعمري ما أتمَّ الله تعالى حجَّ من لم يسـع» فمعناه حجٌّ ناقصٌ لا باطل، فالطَّواف بهما واجب لا يَبطل الحجُّ أو العمرة بتركه، كما روي أنَّ عروة بن مضرس أتى رسـول الله ﷺ بالمزدلفة فقال: يا رسول الله، جئت من جبل طيِّئ ما تركت جبلا إلَّا وقفت عليه، فهل لي من حجٍّ؟ فقال: «**مَن**

(1) رواه **الطبراني** في الكبير، ج 11، ص 147، رقم: 11437، من حديث ابن عبَّاس.

صلَّى معنا هذه الصَّلاة ووقفَ معنا هذا الموقفَ، وقد أدركَ عرفةَ قبل ذلك ليلاً أو نهارًا فقد تمَّ حجُّه وقَضى تَفَثَه»[1] فأخبره ﷺ بإدراك الحجِّ بلا ذكر للسَّعي بينهما، ولو كان واجبًا يبطل الحجُّ بتركه لبيَّنه له؛ لأنَّه سائل جاهل. ولا حجَّة فيه لمن قال بأنَّه غير واجب لأحاديث الوجوب، وهذا مذهبنا ومذهب أبي حنيفة.

[فقه] وإن لم يسع لزمته شاة، وقيل: بدنة. وقال مالك والشافعي: يبطل الحجُّ بتركه، للحديث. وقال أحمد: سنَّة غير واجبة، ويردُّهُ الحديث؛ وأُجيب بأنَّه يجوز كون «كَتَب» بمعنى استحبَّ، كقوله تعالى: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ إِن تَرَكَ خَيْرًا الْوَصِيَّةُ لِلْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ﴾ [سورة البقرة: 180]، قلت: الوصيَّة للوالدين كانت واجبة ثمَّ نسخت بالميراث، وكذا القرابة الوارثون، فلا يصحُّ تأويل «كُتِبَ» بـ«استُحِبَّ»، ولا حجَّة أيضًا له في قراءة ابن مسعود: «أنْ لا يطوَّف» لأنَّها شاذَّة مخالفةٌ للجمهور لفظًا وعملاً، بل لم نر مَن عمِل بها فيقرب تأويلها بزيادة «لا». ولنا الحديث دليل للوجوب. ولا دليل للشافعيِّ ومالك على أنَّه ركن يبطل الحجُّ بتركه. ولا يقال: تمَّ الكلامُ في ﴿جُنَاحَ﴾، واستأنف أن عليه التطوُّف؛ لأنَّه لا يتوهَّم أحد أنَّ في الحجِّ والعمرةِ جُناحًا، إلَّا أن يقال: إنَّهم توهَّموا الجناح في الحجِّ والعمرة؛ لأنَّ فيهما الطَّواف بين محلَّيْ الصَّنمين.

﴿وَمَن تَطَوَّعَ خَيْرًا﴾ عالج الطَّاعة بفعل فرض أو سنَّة أو نفل من حجٍّ أو عمرة أو طواف أو صلاة أو صوم أو غير ذلك، وذلك أصل التطوُّعِ في اللُّغة، وَأَمَّا تخصيصه بالنَّفل فهو في عرف الإصطلاح، قيل: والشرع، وكأنَّه قيل: ومن فعل خيرًا أو زاد خيرًا أو تطوَّع بخير. وليس المراد: مَن تَطَوَّعَ بالطواف بينهما كما قيل، لأحاديث وجوبه.

---

(1) رواه البيهقي في الحج (249)، باب إدراك الحج بإدراك عرفة...، رقم: 9814، من حديث الشعبي.

﴿فَإِنَّ اللَّهَ شَاكِرٌ﴾ أي: يثيبه ثوابًا عظيمًا، أو مُثْنٍ عليه عند الملائكة؛ لأنَّ الله شاكر. أو هذه علَّة وبرهان عظيمٌ. أو من تطوَّع خيرًا فإنَّ الله شاكره، أي: مثيبه، أو مُثنٍ عليه في ملإٍ خير من ملئِه. وفي التعبير بشكره تعالى له من الإثابة أو الإثناء مبالغةٌ. ﴿عَلِيمٌ﴾ بتطوُّعه وبكلِّ شيء، أو بكلِّ شيءٍ، فيكون برهانًا للعلم بتطوُّعِهِ.

﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ﴾ من اليهود والنَّصارى بالمحو، أو بتبديل غيره به، أو بتفسيره بغير معناه، أو إخفاء لفظه أو محلِّه عن النَّاس؛ والكتم: ترك إظهار الشيء قصدًا مع مسيس الحاجة إليه، وذلك بمجرَّد إخفائه أو بإزالته ووضع شيء آخر موضعه، واليهود لعنهم الله مرتكبون للأمرين. ﴿مَآ أَنزَلْنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالْهُدَى﴾ الآيات الدَّالات على الرجم، ونعوت رسول الله ﷺ، سمَّاهنَّ آيات لأنَّهنَّ دلائل، وسمَّاهنَّ هدًى لأنَّه يوصل بهنَّ إلى المقصود.

وقيل: الهدى الدَّلائل العقليَّة، كقوله تعالى: ﴿قَدَّرَ فَهَدَى﴾ ولا يأباه الإنزال والكتم؛ لأنَّ العطف حينئذٍ على «مَا»، لا على «الْبَيِّنَاتِ»، ولا مانع من أنْ تظهَر الحجَّةُ العقليَّة لإنسان ويكتمها، إلَّا أنَّه خلاف المتبادر. ﴿مِنۢ بَعْدِ مَا بَيَّنَّاهُ لِلنَّاسِ﴾ الكاتمين وغيرهم، ﴿فِي الْكِتَابِ﴾ التوراة والإنجيل، وقيل: التوراة وغيرها ملحق بها، وهو أولى؛ لأنَّ سبب النُّزول اليهود، وقيل: القرآن، وعليه فالناس أمَّة محمَّد ﷺ، و﴿بَيَّنَّاهُ﴾: أوضحناه فيه، بحيث يكون متبيِّنًا لكلِّ من رآه أو سمعه، والمشهورون بالكتمان اليهود وهم سبب النُّزول.

[سبب النزول] سأل معاذ بن جبل وسعد بن معاذ وخارجة بن زيد نفرا من أحبار اليهود عن بعض ما في التوراة فكتموا، فنزلت. وقيل: نزلت في الكاتمين من اليهود والنَّصارى، إلَّا أنَّ خصوص السَّبب لا يدفع عموم الحكم.

[فقه] فالآية تعمُّ مَن كَتَمَ مِن أهل التوحيد ما لا يجوز له كتمه من أمر الدِّين، قال أبو هريرة: «لولا هذه الآية ما حدَّثتُ أحدًا بشيء»، وعنه ﷺ: «**من سُئل عن علمٍ فكتمهُ جاءَ يومَ القيامةِ مُلجمًا بلجام من نارٍ**»(1)، وذلك شامل للنساء، لا يحلُّ لهنَّ الكتم ولا يعذر المسؤول بل يكفر، إلَّا إن علم أنَّه إنْ لم يُجِب سُئِل غيرُه وأجاب.

﴿**أُوْلَئِكَ يَلْعَنُهُمُ اللهُ**﴾ يبعدهم عن رحمته ويذيقهم العذاب. مقتضى الظاهر: أولئك نلعنهم ويلعنهم اللاعِنون ـ بالنون ـ إلَّا أنَّه بالياءِ ولفظِ الجلالةِ تفخيمًا للحكم، يبعدهم الله عن رحمته، أو يذمُّهم للملائكة وفي اللوح المحفوظ.

﴿**وَيَلْعَنُهُمُ اللَّاعِنُونَ**﴾ أي: يتلفَّظون بلعنهم، كلٌّ وكلامه حتَّى الجمادات، وقد علم الله تسبيحها. أو يُدَعُّونَ بإبعادهم عن الرَّحمة، وتلعنهم أجسامهم وأجسام غيرهم من الكفرة والمسلمين. وقيل: الملائكة والثقلان. وقال ابن عبَّاس: غير الثَّقلين. وقال عطاء: الثَّقلان. وقال مجاهد: البهائم حتَّى العقارب والخنافس، إذا أقحطت بذنوب بني آدم، فجمع السلامة للمذكَّر تنزيلٌ لها منزلة العاقل إذْ دعت، أو تعدُّ من العقلاء إذ ذاكَ.

﴿**إِلَّا الَّذِينَ تَابُواْ**﴾ عن الكتمان، ﴿**وَأَصْلَحُواْ**﴾ أنفسهم بالإيمان والعمل الصَّالح، وكتب ما محوا وإزالة ما زادوا أو بدَّلوا، وإرشاد من أضلُّوا، وضمان ما أفسدوا من الأموال بذلك أو أكلوه بلا حلٍّ؛ ﴿**وَبَيَّنُواْ**﴾ ما لُعنوا بكتِمانه، **وهكذا التوبة إصلاح ما فسد بالمعصية ومضادَّتُها**، وبيَّنوا توبتهم لمن علم بكتمانهم ليقتدي بهم في الإعلام والتَّوبة ويُعلِمُوا بتوبتهم، **وهكذا كلُّ من عصى الله أَعلَمَ بتوبته مَن عَلِمَ بمعصيته إقامةً**

---

(1) رواه أحمد في مسنده، ج 3، ص 153، رقم: 7948، من حديث أبي هريرة.

لشــعار الإســلام، وحوطة عن جانبه. ﴿فَأُوْلَئِكَ أَتُوبُ عَلَيْهِمْ وَأَنَا التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾ مرَّ ذلك[1].

﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ بالكتم أو غيره، ﴿وَمَاتُواْ وَهُمْ كُفَّارٌ أُوْلَئِكَ عَلَيْهِمْ لَعْنَةُ اللهِ وَالْمَلآئِكَةِ وَالنَّــاسِ أَجْمَعِيــنَ﴾ المؤمنين، أو النَّاس مطلقًا، فإنَّ أجســاد الكفرة تلعنهم وتلعن أصحابها. ﴿خَالِدِينَ فِيهَا﴾ أي: في اللَّعنة، فهم خالدون في مقتضاها وهو النَّار، أو خالدون في النَّار المدلول عليها باللَّعنة. ذكرَ اللعنة أوَّلاً للكاتمين وثانيًا لمطلق الكافرين، أو ذكرها أوَّلاً بمعنى حصولها بالفعل لهم، وثانيًا بمعنى أنَّهم مستحقُّون لها، أو بمعنى أنَّهم يلعن بعضهم بعضًا في الآخرة، أو بمعنى دوامه مــن حيث إنَّه بالجملة الاســميَّة، وثبوت اللعن في الآخرة فرع على ثبوته في الدُّنيا. أو لعنهم أوَّلاً على الكتم واستثنى من تاب، ولعن ثانيًا من لم يتُبْ تصريحًا بما يُفهمه الاســتثناء، ومــا ذكرته أوَّلاً أولى. وفيه إشارة إلى أنَّ الكتم كفرٌ.

﴿لَا يُخَفَّــفُ عَنهُمُ الْعَذَابُ﴾ طرفــة عين بالإنقطــاع ولا بالنَّقص منه مع الإســتمرار. والجملة خبر ثان، أو حال من ضمير «خَالِدِينَ»، أو هاء «عَلَيْهِم»، أو مســتأنفة. ﴿وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ﴾ لا يُمهَلون عن العذاب كما أُمهِلوا في الدُّنيا، من الإنظار. أو لا يؤخَّرون ليعتذروا، من النَّظر بمعنى الانتظار. أو لا يُرحمون، كقوله تعالى: ﴿وَلَا يَنظُــرُ إِلَيْهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ [ســورة آل عمران: 77]، بمعنى الرُّؤية الرحميَّة، ففي الأساس أنَّه بمعنى الرَّحمة يتعدَّى بـ«إلى» وبنفسه

(1) في تفسير الآية 128: ﴿... وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَآ إِنَّكَ أَنتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾.

﴿وَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ ۖ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلرَّحْمَٰنُ ٱلرَّحِيمُ ﴿163﴾ إِنَّ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ
وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَٱلْفُلْكِ ٱلَّتِى تَجْرِى فِى ٱلْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ وَمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ
مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن مَّآءٍ فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٍ وَتَصْرِيفِ
ٱلرِّيَٰحِ وَٱلسَّحَابِ ٱلْمُسَخَّرِ بَيْنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿164﴾﴾

وحدانيَّة الإله ورحمته ومظاهر قدرته

﴿وَإِلَٰهُكُمْ﴾ معشر الخلق، الأجسام والأعراض، العقلاء وغيرهم، الحيوان والجماد، بتغليب العقلاء، ويختصُّ بهم ما يناسِبُهم بعدُ، ويتجدَّدُ لهم معرفته[1] أنَّه لغيرهم أيضًا، وقيل: الخطاب للعقلاء، وقيل: لقريش القائلين: صِفْ لنا ربَّك يا محمَّد، ويلتحق بهم غيرهم، وزعم بعض أنَّه للكاتمين. ﴿إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ﴾ أي: إنَّ الذي يستحقُّ العبادة منكم إله واحدٌ في ذاته لا يتجزَّأ، وفي صفاته وأقواله وأفعاله، وفي ألوهيَّته، وقيل: الوحدة هنا عدم التَّجزيء. والأولى أنَّ المعنى: لا نظير له، فيدخل ما ذُكر وعدم التجزُّؤ.

[سبب النزول] قيل: سألت اليهود وقريش رسول الله ﷺ أن يصف لهم ربَّهم فنزلت سورة الإخلاص وقوله تعالى: ﴿وَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ﴾.

﴿لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلرَّحْمَٰنُ ٱلرَّحِيمُ﴾ الجملة خبر ثان أو نعت ثان لـ«إله»، والمنفيُّ الآلهة الحقَّة، أي: لم يوجد إله بحقٍّ إلَّا الله، أو الآلهة الباطلة، أي: ليست موجودة من حيث الألوهيَّة، ولو ادَّعاها عابدوها.

(1) الضمير يرجع للخطاب.

[نحو] و«الرَّحْمَـٰنُ الرَّحِيمُ» خبر إنَّ لإلهكم. وقيل: الرحمن بدل هو، و«الرَّحِيمُ» نعت «الرَّحْمَنُ». وقيل: بدلان مِن «هُوَ»، وقيل: خبر لمحذوف.

[سبب النزول] وروي أنَّ حول الكعبة ثلاثمائة وستُّون صنمًا، وَلَمَّا نزل: ﴿وَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الرَّحْمَٰنُ الرَّحِيمُ﴾ قالوا متعجِّبين: ائتِ بآية على ذلك، فنزل: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ...﴾ إلخ، وهم غير القائلين: «لا شريك لك، إلَّا إلهًا تملكه وما ملك»، هو الخالق وما سواه منعَم عليه، ونعمة مشكورة أو مكفورة بالعصيان أو الشرك، وطلبوا آية على ذلك، فنزل قوله تعالى:

﴿إِنَّ فِي خَلْقِ﴾ إيجاد ﴿السَّمَاوَاتِ﴾ السَّبع من حيث ارتفاعها بلا عمد ولا علاقةٍ، ونيِّراتها؛ ﴿وَالْأَرْضِ﴾ أي: جنسها، فصدق بسبع في قوله تعالى: ﴿وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ﴾ [سورة الطلاق: 12]، وفي قوله: ﷺ «**من اقتطع قيد شبر من أرض جاره طوَّقه من سبع أرضين**»[1]، وقوله ﷺ: «**اللَّهمَّ ربَّ السَّماوات السَّبع وما أظللن، وربَّ الأرضين السَّبع وما أقللنَ**»[2] من حيث مدُّها وكونها على الماء، ومن حيث شجرها وجبالها وبحارها ومعادنها وجواهرها، وعيونها وثمارها وحيواناتها وأفرادها؛ لأنَّها متَّفقة بالحقيقة، وهي التُّراب، بخلاف السَّماوات فالأولى من زبد الماء متجمِّدًا، والثَّانية من رُخامٍ أبيض، والثَّالثة من حديد، والرَّابعة من نُحاسٍ، والخامسة من فضَّةٍ، والسَّادسة من ذهبٍ، والسَّابعة من ياقوت أحمر. وقيل: الأولى زبد جامد، والثَّانية من نُحاسٍ، والثَّالثة من فضَّةٍ، والرَّابعة من ذهبٍ، والخامسة من ياقوتٍ، والسَّادسة من

---

(1) رواه **البيهقي** في كتاب الغصب (6)، باب التشديد في غصب الأراضي وتضمينها بالغصب، رقم: 11532، من حديث سعيد بن زيد. ورواه **أحمد** في مسنده، ج 3، ص 426، رقم: 9588، من حديث أبي هريرة دون ذكر لفظة «جاره».

(2) رواه **الطبراني** في الكبير، ج 8، ص 34، رقم: 7299، من حديث عطاء بن أبي مروان عن أبيه. ورواه **البيهقي** في الحجِّ (353)، باب ما يقول إذا رأى قرية يريد دخولها، رقم: 10320، مع زيادة.

زمرد، والسَّابعة من نور العرش، بين كلِّ سماءٍ وأخرى، وأرضٍ وأخرى، والأرض والسَّماء، [مسيرة] خمسمائة عامٍ كغلظ كلٍّ ـ كذا قيل ـ.

﴿وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ﴾ من الِافتعال بمعنى التفاعل، يتخالفان طولاً وقصرًا إلَّا وقت الِاعتدال، وزيادة ونقصًا، وذهابًا ومجيئًا، وظلمة ونورًا، وسكونًا للجوارح والأبصار، وراحة وانتشارًا لها، واختلافًا للأوقات.

[هيئة] فكلُّ ساعةٍ: مغربٌ في موضع، وعِشاءٌ في آخر، وثلثُ ليلٍ في آخر، ونصفُه في آخر، وسدسٌ في آخر، وسحرٌ في آخر، وتوسُّطٌ في آخر، وزوالٌ في آخر، ووسطٌ الوقتين في آخر، وعصرٌ في آخر، واصفرارٌ في آخر، وغروبٌ في آخر، وما بين ذلك كلِّه أيضًا متخالف، ولا تزول ولو لحظة، تغرب عن موضع وتطلع في آخر من خلفها وقدَّامها. وأينما كانت الشمس عند غروبها في موضع وطلوعها في آخر يكون وراءها مثل الفجر الكاذب شفقًا أبيض، وقدَّامها مثله، وكلُّ بلدٍ يكون عرضه للشَّمال أكثر من طوله يكون أيَّام صيفه أقصر من أيَّام شتائه.

والظلمة سابقة على الضَّوء، فقدم اللَّيل لذلك، فالنَّهار لليلة قبله وهو الصَّحيح، وقيل بالعكس. واستثنى بعضهم يوم عرفة على الأوَّل وجعله لليلة بعده، ولا يصحُّ ذلك، وإنَّما نتَّبع الحكم الشَّرعي وليس رجوعًا لتقدُّم اليوم على اللَّيلة[1]. ﴿وَالْفُلْكِ﴾ جماعة بدليل قوله: ﴿الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ﴾ فدلَّ على الجماعة، بضمِّ الفاء وإسكان اللَّامِ مع الحروف بخلاف الفلك المفرد فإنَّه لا دلالة لضمِّه وسكونه على معنى، أو سُكِّنت اللَّام عن ضمِّ الجمعِ تخفيفًا.

والمعنى: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالَارْضِ...﴾ إلخ، وفي الفلكِ فالعطف على «خَلْقِ»، أو ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ...﴾ إلخ، وفي خلق الفلك

(1) في النسخة (ج): «لتقدُّم اليوم والليلة». فتأمَّل.

فالعطف على «السَّـمَاوَاتِ»، وقد يجوز عطفه على «اللَّيْـلِ»، أي: واختلاف الفلكِ ذهابًا ورُجوعًا.

وعلى كلِّ حال إنَّ في ذاتها وإيجادها من حيث إنَّها لا تنزل إلى أسـفل الماء مجرَّدة، أو محمولاً فيها ما خفَّ، أو ما ثقل، وجريانها على وجه الماء بالرِّيح مقبلةً ومدبرةً مع قوَّة الماء وهيجانـهِ؛ ﴿**بِمَا**﴾ أي: بالذي، ﴿**يَنفَـعُ النَّاسَ**﴾ من التِّجارة وسـائر ما يُحمل فيها. قيل برد الضمير لـ«ما» على أنَّها موصولة اسميَّة، أو بنفعه النَّاس على أنَّ «ما» مصدريَّة برد الضَّمير للجـري، أو للبحر، **والردُّ للجري أولى**؛ لأنَّ النَّفع بالجري بالذَّات بخلاف البحر فبواسطة الجري ولو كان الجري بواسطة البحـر. وقيل: يجوز تذكيـر الفلك وتأنيثه مفـردًا أو جماعة، فيجـوز ردُّ الضَّمير للفلك، وقد قيل: إنَّه مفرد أُنِّثَ بتأويل السَّفينة أوَّلاً، وذكِّر ثانيًا على أصله.

وفي البحـر أيضًا عجائب حيتـان ولؤلؤ ومرجـان وياقوت، والسَّـفينة آلة الخوض فيها والاِطِّلاع على ذلك، ولكن لا تحمل الآية على الإشـارة لذلك لما فيه من التكلُّف، ولو كانت الفلك سـببًا. ﴿**وَمَآ أَنزَلَ اللهُ مِنَ السَّمَآءِ مِن مَّآءٍ**﴾ أي: وفي خلق ما أنزله من السَّحاب، أو في ما أنزله من السَّحاب سمَّاه سماءً. أو ﴿**مِنَ السَّـمَآءِ**﴾: إحدى السَّـبع يصل بسُـرعة، أو أريد بالسَّـماء جهة العلوِّ فيشـمل الوجهين، والماء تارة من السَّماء، أو من الجنَّة ينزل في أقرب مدَّة كسرعة الملَك في النُّزول، **وتـارة من البحر والعيون بخـارًا**، وهو الأكثر، وتـارة بتقلُّب أجزاء الهواء الصِّغار الهبائية ماء بسـبب. وأخَّره مع أنَّه أفضل ـ قيل ـ لفضله الزَّائد، أو لجمعه العلوَّ والسفل إذ منه ما من السـماء وما من البحر، كما أنَّ اختلاف الليل والنهار فيه ذلك؛ لأنَّ الضوء والظُّلمة في الأرض والجوِّ والفلكَ بالماء والرِّيح.

﴿**فَأَحْيَا بِـهِ الاَرْضَ**﴾ بالنبات، أظهر بهجتها وزيادة منها، إظهارًا شـبيهًا بإحياء ما مات، وبإدخال الرُّوح فيما ليس حيًّا قطُّ، بجامع الحسـن والزِّيادة، وهي قبل النبات جماد، وكَميِّتٍ بعد حياة، كمـا قال: ﴿**بَعْدَ مَوْتِهَا**﴾ أي: عدم

النبات فيها أو زواله عنها، وذلك أنَّ الماء سبب للحياة في الحيوانات وسبب للنبات والثِّمار، وينـزل عند الحاجة وبالدُّعاء والإستسقاء، وفي مكان دون مكان، وهو لكلِّ سنة مقدار مخصوص، ويكون في بعض بلاد دون بعض.

﴿وَبَثَّ﴾ به، أي: فرَّق، أي: بما أنزل من السماء من ماء.

[نحو] وفيه حذف رابط الصِّلة المجرور بدون جرِّ الموصول بمثله، ودون تعلُّقه بما تعلَّق به جارُّ الموصول لو جرَّ، فأقول: يجوز حذف الرَّابط بلا شرط إذا علم، وذلك أنَّ «بثَّ» معطوف على الصِّلة أو على ما عطف عليها ولا يضرُّ فصله لأنَّه سببيٌّ وكأنَّه صلة، وهذا أولى من أنْ يقال: بثَّه، أي: بثَّ به.

﴿فِيهَا﴾ دوابَّ ﴿مِن كُلِّ دَآبَّةٍ﴾ أي: من كلِّ نوعٍ من الدَّوابِّ توجد بالماء خلقًا، وينمو الموجود منها بالتَّوالد، مع اختلافها خرسًا ونطقًا، وصوتًا ولونًا، ووحشًا وأنسًا، ونفعًا وضرًّا وطبعًا، وغير ذلك كطول حياة وقصرها، وطول ذات وقصرها، ورقَّةٍ وغلظة؛ وفي السماء دوابُّ أيضًا. ﴿وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ﴾ تقليبها جنوبًا وشمالاً، وقبولاً ودبورًا، حارَّة وباردة، وليِّنة وعاصفة، وعقيمًا ولاقحًا للمطر والشَّجر.

وكان ﷺ إذا هبَّت الرِّيح قال: «**اللهمَّ اجعلها رياحًا لا ريحًا**»[1]؛ لأنَّ مفردها في القرآن سوء، كقوله تعالى: ﴿وَفِي عَادٍ إِذْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الرِّيحَ الْعَقِيمَ﴾ [سورة الذاريات: 41]، وجمعها في خيرٍ، كقوله تعالى: ﴿وَمِنَ ـ ايَاتِهِ أَنْ يُرْسِلَ الرِّيَاحَ مُبَشِّرَاتٍ وَلِيُذِيقَكُم مِّن رَّحْمَتِهِ﴾ [سورة الروم: 46] ويقال: سمِّيت ريحًا لأنَّها تريح النُّفوس، وياؤه عن واو، ويقال: ما هبَّت إلَّا لشفاء سقيم أو سقم صحيح. ويقال: البشارة في الصَّبا والشَّمال والجنوب، وَأَمَّا الدَّبور فعقيمة لا بشارة فيها.

---

(1) ذكره الآلوسي في تفسيره، ج 2، ص 32، بدون إسناد.

[لغة] وسمِّيت الصَّبا قَبولاً لاستقبالها وجه الكعبة، وهي حارَّة يابسة، ويسمِّيها أهل مصر «الشَّرقية» لأنَّها تهبُّ من الشَّرق؛ ويقال: المبشِّرات والنَّاشرات والذَّاريات والمرسلات والرُّخاء للرَّحمة، والعقيم والصَّرصر والعاصف والقاصف في البحر للعذاب. والصَّبا من مطلع الشمس في الاِعتدال، والدَّبور تقابلها. والشّمال من جانب القطب، والجنوب تقابلها. وطبع الدَّبور البرد والرُّطوبة، يسمِّيها أهل مصر الغربيَّة؛ لأنَّ مهبَّها الغرب، وتأتي من دُبُرِ الكعبة. وطبع الشّمال البرد واليبس، وتسمَّى البحريَّة؛ لأنَّه يُسَار بها في البحر على كلِّ حال، وقلَّما تهبُّ ليلاً. وطبع الجنوب الحرارة وتُسمَّى القبليَّة؛ لأنَّ مهبَّها من مقابلة القطب، وهي عن يمين مستقبل المشرق، ويقال: إذا هبَّت على أهل مصر سبع ليال استعَدُّوا للأكفان. ولو أمسكت الرِّيح طرفة عينٍ لمات كلُّ ذي روحٍ وانتن ما على الأرض.

﴿**وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ**﴾ المذلَّل ﴿**بَيْنَ السَّمَآءِ وَالْأَرْضِ**﴾ بلا عمد ولا علاقة مع ما فيه من المياه الثَّقيلة العظيمة التي تملأ منها الأودية والأراضي. سمِّي لانسحابه وانجراره. ويسير بواسطة الرِّياح. و«بَيْنَ» متعلِّق بـ«مُسَخَّر» أو حال من المستتر فيه. ﴿**لَايَاتٍ**﴾ دلائل على وجود الله وقدرته، وكونه لا كالأشياء. ﴿**لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ**﴾ يستعملون عقولهم فيدركون بها الحقَّ ولا يهملونها.

[أصول الدين] روى ابن أبي الدُّنيا وابن مردويه عن عائشة رضي الله عنها عن رسول الله ﷺ: «**ويل لمن قرأها ولم يتفكَّر فيها**»[1]. وتلك الأمور من الجائز، قابلةٌ لعكس ما هي عليه كلِّه من حركة أو سكون وبسط وكوريَّة وغير ذلك، ومثلها لا يفعلها ولا تفعل نفسها، فالفاعل هو غيرها وغير مثلها، والفعل لا يكون من فاعلَيْن، والمصطَلِحَانِ عاجزان، وإن كان لأحدهما فغير الفاعل ليس إلهًا.

---

(1) وأورده الآلوسي كذلك في تفسيره، ج 2، ص 33، بنفس الإسناد.

﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ وَلَوْ يَرَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ إِذْ يَرَوْنَ ٱلْعَذَابَ أَنَّ ٱلْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا وَأَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعَذَابِ ﴿165﴾ إِذْ تَبَرَّأَ ٱلَّذِينَ ٱتُّبِعُواْ مِنَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُواْ وَرَأَوُاْ ٱلْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ ٱلْأَسْبَابُ ﴿166﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُواْ لَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَتَبَرَّأَ مِنْهُمْ كَمَا تَبَرَّءُواْ مِنَّا كَذَٰلِكَ يُرِيهِمُ ٱللَّهُ أَعْمَٰلَهُمْ حَسَرَٰتٍ عَلَيْهِمْ وَمَا هُم بِخَٰرِجِينَ مِنَ ٱلنَّارِ ﴿167﴾﴾

حال المشركين مع آلهتهم

﴿**وَمِنَ النَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ اللهِ أَندَادًا**﴾ أمثالاً للهِ مقاومة له في زعمهم، وهي الأصنام. أو أصنامًا أمثالاً، بعضها يماثل بعضًا. أو رؤساء من النَّاس يتَّبعونهم، وهو ضعيف؛ لأنَّ المقام للاستدلال على انتفاء ألوهيَّة الأصنام الدَّائرة بالكعبة وغير الدَّائرة بها؛ ولأنَّه لم يعهد تعظيم رؤسائهم حبًّا وطاعةً. وَأَمَّا ضمير العقلاء في قوله: ﴿**يُحِبُّونَهُمْ**﴾ وهو «هُمْ»، فلتنزيلهم الأصنام منزلة العقلاء في السَّمع والفهم والنَّفع والضَّرِّ؛ ولأنَّ رؤساءهم يتَّخذون الأنداد، فهم ممَّن خوطب باتِّخاذ الأنداد، أو ما يعمُّ الأصنام والرُّؤساء وغيرهم من كلِّ ما يشغل عن الله عَزَّ وَجَلَّ. ﴿**كَحُبِّ اللهِ**﴾ كحبِّهم اللهَ، أو كحبِّ النَّاس مطلقًا اللهَ خضوعًا وتعظيمًا، ولو تفاوت الحبَّان؛ لأنَّهم عقلاء يعلمون أنَّ الخالق للسَّماوات والأرض وغيرهنَّ الله، وقد قال: ﴿وَظَنُّوا أَنَّهُمُۥ أُحِيطَ بِهِمْ دَعَوُا اللهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾ [سورة يونس: 22]، وأنَّ الأصنام وسائل ولا تُعبَدُ تسويتهم لفرط حمقهم. قال الله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ

السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ﴾ [سورة العنكبوت: 61]، ﴿فَإِذَا رَكِبُوا فِي الْفُلْكِ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ...﴾ [سورة العنكبوت: 65].

﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِلَّهِ﴾ من المشركين لأندادهم، فإنَّهم لا يعدلون بالله شيئًا في الرَّخاء والشِّدَّةِ، والمشركون يَعْدِلون عن الأنداد إلى الله في الشدَّة كما مرَّ آنِفًا، ويرفضون صنمًا إلى غيره ويأكلونه، كما أكلت باهلة وهي قبيلة من قيس غيلان إلهها من حيس ـ تمر يخلط بِسَمنٍ وإقط ـ وكما عَبَد عمر بن الخطَّاب رضي الله عنه قبل إسلامه عجينة فأكلها.

وللمشركين حبٌّ شديدٌ للأنداد؛ لأنَّ اللهَ جلَّ وعلا أخبرنا أنَّ شدَّة حبِّ المؤمنين الله سبحانه فوق شدَّة حبِّ المشركين الأندادَ؛ لأنَّ محبَّة المؤمنين اللهَ تزداد بازدياد إدراكهم الكمالَ، وهي ميلهم إليه توقيرًا بامتثال وازدجار، لنعمه وخوف عقابه، فالحبُّ متعلِّقٌ بطاعته وتعظيمه. وزعم بعض أنَّه يجوز تعلُّقه بذاته تعالى من حيث إنَّه الكامل المطلق؛ وحبُّهم الله أرسخ لا يميلون عنه، والمشرك المبالغ في عبادة صنم يميل عنه لشدَّة تناله ولو اشتدَّ في نفس العبادة أكثر من المؤمن. والحُبُّ بالضَّمِّ من الحبَّة بالفتح كالثَّمرة والعنبة استعير لحبَّة القلب وهي دمه الأسود، يتعلَّق به الرُّوح الحيوانيُّ بعد تعلُّقه بالبخار اللَّطيف الذي يحدث ويتصاعد من ثَمَّ، بواسطتها يسري إلى سائر البدن، فسويداء القلب في كونها منشأً للحياة والآثار، كالحَبِّ في كونه مبدأً للنَّماء والإثمار. واللهُ عز وجل يحبُّ عبده المؤمن بمعنى أنَّه أراد له الخير وأنَّه يوفِّقه.

﴿وَلَوْ تَرَى﴾ رأيت بعينيك يا محمَّد، أو من يصلُح للرُّؤية. **﴿الَّذِينَ ظَلَمُوا﴾** باتِّخاذ الأنداد، أو مطلق الظَّالمين بالكفر. **﴿إِذْ﴾** أي: «إذا» بدليل المضارع بعدها؛ لأنَّه للاستقبال أو للحال المستقبلة، وهو متعلِّق بـ«تَرَى». **﴿يَرَوْنَ﴾** يشاهدون، **﴿الْعَذَابَ﴾** على ظلمهم لرأيت أمرًا فظيعًا خارجًا عن الوصف لك.

ويجوز إبقاء «تَرَى» علــى الاِســتقبال تحقيقًــا، و«إِذْ» للماضي تأويلاً بتحقيق الوقوع، أي: ولو ترى يــوم القيامة عذابهم لترى أمرًا فظيعًا، لكن لا تراهم لأنَّهم في النَّار وأنت في الجنَّة، أو: لو ترى الآن لترى... إلخ، لكن لا ترى العذاب في قبورهم في برزخ موتهم. وعلَّل قوله: لرأيت أو لترى بقوله: ﴿أَنَّ الْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًــا﴾ بفتح الهمزة، أي: لأنَّ القــوَّة، أو يقدَّر: «لعلمت أنَّ القوَّة...» إلخ، أي: لازْدَادَ عملك، أو المصدر من خبر «أنَّ» بدل اشتمال من «الْعَذَابِ»؛ لأنَّ ثبوت القوَّة كلِّها لله ﷻ تشمل قوَّته في العذاب، فيقدَّر على هذا «لرأيت»، أو «لَترى» بعد قوله: ﴿وَأَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعَذَابِ﴾ أي: لرأيت أو لترى، أي: علمت أو تعلم ثبوت القوَّة كلِّها وشدَّة العذاب لله، والمراد ازدياد العلم أو علم المشاهدة.

﴿إِذْ﴾ بدل من «إذ» باعتبــار مدخوليها، أو متعلِّقٌ بـ«شَــدِيدُ» أو مفعول لـ«أُذْكُر». ﴿تَبَرَّأَ الَّذِينَ اتُّبِعُواْ﴾ ادَّعى الرؤســاء المتَّبوعون براءة ذمَّتهم. ﴿مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُواْ﴾ من ذنوب التَّابعين لهم، بأنْ قالوا: ما أضللناكم، أو ما قهرناكم علــى الضَّلال، بــل اخترتُمــوه، ﴿تَبَرَّأْنَــآ إِلَيْكَ مَــا كَانُــوا إِيَّانَــا يَعْبُدُونَ﴾ [ســورة القصص: 63]، ﴿وَرَأَوُاْ﴾ عطف على «تَبَرَّأَ» أو حــال، أي: والحال أنَّهم قد رأوا، ﴿الْعَــذَابَ وَتَقَطَّعَتْ﴾ زالت زوالاً شــديدًا. ﴿بِهِمِ﴾ عنهم، أو بســبب كُفرهم، أو البــاء للتَّعديــة، أي: قطَّعتهم كما يقال: تمزَّقت بهــم الطُّرق، أي: فرَّقتهم. ﴿الَاسْــبَابُ﴾ الأمور التي يتوصَّلون بها إلى مرادهم، من دين الباطل وسائر الأغراض، كما يتوصَّل بالحبال، من القرابة والمودَّة والجوار والأموال فليسوا ينجون بها يوم القيامة ولو نفعتهم في الدنيا.

[لغة] والسَّــبب: الحبل مطلقًا، أو الذي يُتوصَّل به إلــى الماء، أو الذي تعلَّق بالسَّقف، أو الذي تُرتَقَى به النَّخلة فهو استعارة أصليَّة تحقيقيَّة تصريحيَّة والقرينة حاليَّة.

﴿وَقَالَ الَّذِينَ اتَّبَعُواْ﴾ قال التَّابعون، هؤلاء الرُّؤساء. ﴿لَو﴾ ثبت ﴿أَنَّ لَنَا﴾ معشر التَّابعين والمتبوعين ﴿كَرَّةً﴾ أي: رجعة إلى الدنيا، ﴿فَنَتَبَرَّأَ مِنْهُمْ﴾ من هؤلاء الرؤساء في الدنيا إذا رجعنا إليها نحن وهم، فلا نتابعهم على الكفر إذا دعونا إليه، فعدم المتابعة بعد الرجوع هو تبرُّؤهم منهم. أو نتبرَّأ من دينهم إذا رجعنا إلى الآخرة مسلمين بعد الرجوع إلى الدنيا، ورجعوا إليها كافرين. أو لو أنَّ لنا رجعة إلى الدنيا فنسلم ونرجع إلى الآخرة، وهم باقون فيها لم يرجعوا فنتبرَّأ من دينهم. و«لو» للتمنِّي. ونُصِب «نَتَبَرَّأَ» في جوابه. ولا يلزم من التشبيه أن يكون تبرُّؤ التابعين من جنس تبرُّؤ المتبوعين فقد تخالفا، إذ تبرُّؤ المتبوعين بقولهم: لم نقهركم على الضلال، وتبرُّؤ التابعين بقولهم: لسنا على دينكم، لو رجعوا إلى الدنيا وأصلحوا.

ويجوز أن يكون المتبوعون الأصنام، إذ عظَّموهم وجعلوهم كالعقلاء، فتقول في الآخرة: ﴿مَّا كُنتُمْ إِيَّانَا تَعْبُدُونَ﴾ [سورة يونس: 28]، ﴿تَبَرَّأْنَآ إِلَيْكَ مَا كَانُوا إِيَّانَا يَعْبُدُونَ﴾ [سورة القصص: 63]. ﴿كَمَا تَبَرَّءُواْ مِنَّا﴾ كما تبرَّأ هؤلاء الرؤساء المتبوعون منَّا معشر التابعين، بأن قالوا: إنَّا بريئون من ذنوبكم، ما أضللناكم، أو ما قهرناكم على الضلال بل اخترتموه، وذلك مجازاة لهم إذ غاظهم تبرُّؤ الرؤساء المتبوعين، فأرادوا أن يغيظوهم بالتبرُّؤ بأن يرجعوا إلى الدنيا ويسلموا فيقولوا: لسنا على دينكم، ويبقى الرؤساء المتبوعون على الكفر، وذلك إغاظة في الدنيا أو يوم القيامة، إذا رجعوا إلى الآخرة من الدنيا التي رجعوا إليها.

﴿كَذَٰلِكَ﴾ أي: مثل ما ذكر من رؤية العذاب، ومن تبرُّؤ المتبوعين من التابعين، وذلك أنَّه يجوز أن يقال: قمت كما قعدت، أي: فعلت القيام كما فعلت القعود، فلا يضرُّ أنَّ التبرُّؤَ لم تسلَّط عليه الرؤية. بل لا مانع من أن يقال: المراد مثل إراءة العذاب وشدَّته وتبرُّئهم؛ لأنَّ ذلك كلَّه يرونه ولو لم يذكر رؤية كلٍّ ذلك في الآية، فيكون التذكير بتأويل ما ذكر.

[صرف] أو يشار إلى الإرءاء ـ بهمزتين بينهما ألف بوزن «إكرام» بلا تاء ـ أو إلى إراء ما ذكر بالإضافة تنزيلا للهمزة قبل الألف ـ وهي عين الكلمة ـ منزلة حرف العلَّة، فيكون من باب إقامة لكن بلا تاء لأنَّا قدَّرناه مضافًا، فهو مذكَّر كقوله: تعالى، وإقام الصَّلاة وإيتاء الزَّكاة.

والمعنى على كلٍّ حال: كما أراهم ذلك ﴿**يُرِيهِمُ اللهُ**﴾ يعلِمهم، أو يجعلهم رائين بأبصارهم باعتبار الأثر. ﴿**أَعْمَالَهُمْ حَسَرَاتٍ**﴾ موجبات ندمات في حزنٍ وتلهُّفٍ، فالحسرة أخصُّ من النَّدمِ، وقيل مترادفان. ﴿**عَلَيْهِمْ**﴾ متعلِّق بـ«حَسَرَاتٍ» أو نعته؛ لأنَّ المعنى: مضرَّات عليهم. أو المراد: حسرات على خبثهم، إفراطًا وتفريطًا. ﴿**وَمَا هُم بِخَارِجِينَ مِنَ النَّارِ**﴾ ولو وجدوا لخرجوا بأنفسهم ولو بلا إخراج، بخلاف أهل الجنَّة فإنَّهم لا يخرجون منها إلَّا بإخراج مخرج لو كان، لكن لا خروج ولا إخراج.

[أصول الدين] والجملة الاسميَّة والباء للمبالغة في الخلود، وليس في ذلك حصر، وإذا قيل به في مثل ذلك فمن دليل خارجٍ. فليس المعنى: هم فقط لا يخرجون وَأَمَّا الفسَّاق فيخرجون، فلا دليل فيه على عدم خلوده، وليس في ذلك صيغة حصر. وأيضًا ليس المقام مقام حصر الخلود في المشرك حصر قلبٍ أو تعيين أو إفراط؛ والمراد: نفي أصل الخروج، مثل قوله تعالى: ﴿يُرِيدُونَ أَنْ يَّخْرُجُواْ مِنَ النَّارِ وَمَا هُم بِخَارِجِينَ مِنْهَا﴾ [سورة المائدة: 37].

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ كُلُواْ مِمَّا فِي ٱلۡأَرۡضِ حَلَٰلٗا طَيِّبٗا وَلَا تَتَّبِعُواْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيۡطَٰنِۚ إِنَّهُۥ
لَكُمۡ عَدُوّٞ مُّبِينٌ 168 إِنَّمَا يَأۡمُرُكُم بِٱلسُّوٓءِ وَٱلۡفَحۡشَآءِ وَأَن تَقُولُواْ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعۡلَمُونَ
169 وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّبِعُواْ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُواْ بَلۡ نَتَّبِعُ مَآ أَلۡفَيۡنَا عَلَيۡهِ ءَابَآءَنَآۚ أَوَلَوۡ كَانَ
ءَابَآؤُهُمۡ لَا يَعۡقِلُونَ شَيۡـٔٗا وَلَا يَهۡتَدُونَ 170 وَمَثَلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ كَمَثَلِ ٱلَّذِي
يَنۡعِقُ بِمَا لَا يَسۡمَعُ إِلَّا دُعَآءٗ وَنِدَآءٗۚ صُمُّۢ بُكۡمٌ عُمۡيٞ فَهُمۡ لَا يَعۡقِلُونَ 171﴾

تحليل الطيِّبات، ومنشأ تحريم المحرَّمات

﴿يَآ أَيُّهَا النَّاسُ كُلُواْ مِمَّا فِي الأَرْضِ حَلاَلاً﴾ غير محرَّم، كمغصوب ومسروق، وربًا وخمر وميتة، وما أخذ في قمار أو زنًى أو كهانة أو في معصية، ونحو ذلك من المحرَّمات. ﴿طَيِّبًا﴾ نعت مؤكِّدٌ لأنَّ الحلال هو الطيِّب، وأفاد أنَّ الشَّرع استطاب الحلال فأمروا بأكل الطيِّب، وهو الحلال مستلذًّا أو غير مستلذّ. فالآية نزلت ردًّا على من حرَّم البحيرة والسَّائبة والوصيلة والحامي من المشركين، وعلى قوم من ثقيف ومن بني عامر بن صعصعة، وخزاعة وبني مدلج إذ حرَّموا على أنفسهم التَّمر والإقط.

ويضعف لقوله تعالى: ﴿وَأَن تَقُولُوا...﴾ إلخ، أنْ يكون ذلك ردًّا على من عزم من المسلمين على أنْ لا يأكل لذيذًا، ولا يلبس لباسًا رفيعًا، وعلى عبد الله بن سلام وأضْرابِه حين أراد تحريم لحم البعير كما في دين اليهود قبل أن يسلم، وإنْ كان بعد الإسلام ـ فنزلت ـ تاب منها، كما استأذن رسول الله ﷺ أنْ يصلِّي ليلاً النَّفل بالتوراة فزجره فازدجر، ونزل أيضًا في تحريم اللَّذائذ في

قوله تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُحَرِّمُواْ طَيِّبَٰتِ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكُمۡ﴾ [سورة المائدة: 87]، وقوله تعالى: ﴿وَٱلطَّيِّبَٰتِ مِنَ ٱلرِّزۡقِ﴾ [سورة الأعراف: 32].

وسمِّي الحلال حلالاً لانحلال عقدة الحظر عنه، والأمر للإباحة، أي: أبَحتُ لكم السَّائبة ونحوها واللَّذائذ ولم أحرِّمها عليكم قطُّ، ولن أحرِّمها أبدًا، وللوجوب على معنى اعتقدوا حلَّ أكل ما لم يُحرِّمه الله.

[فقه] ويجب الأكل لقوام الجسد. ويستحبُّ ـ ولو فوق الشِّبَع ـ إذا كان مؤانسة للضَّيف، أو لعقًا للقصعة أو للأصابع، أو أكلاً لما يسقط من الطَّعام. وكذا الشُّرب من زمزم فوق الرَّيِّ مستحبٌّ. وقد استدلَّ بعض بالآية على تحريم الأكل فوق الشِّبَعِ لأنَّه ليس طيِّبًا في الشَّهوة المستقيمة.

﴿وَلَا تَتَّبِعُواْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيۡطَٰنِ﴾ طُرُقَه، من تحريم السَّائبة واللَّذيذ ونحوهما. لَمَّا كان يأمر بها جُعلت كأنَّها طرق يمشي فيها، وَلَمَّا كانت الطُّرُق محلًّا للخطو سمِّيت باسم الخطوات. أو لَمَّا كان الأمر بتلك المحرَّمات أمرًا بالكون عليها الشبيه بالخطو أطلق على الذي يأمر به وهو الشيطان أنَّه يمشي فيها. ﴿إِنَّهُۥ لَكُمۡ عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾ ظاهر العداوة لأهل البصائر، وَأَمَّا الغواة فهو وليُّهم يتبعونه ولو ظهرت لهم منه مضرَّة، كقوله تعالى: ﴿أَوۡلِيَآؤُهُمُ ٱلطَّٰغُوتُ﴾ [سورة البقرة: 257]. وقيل: أولياؤهم أعداء، كما يقال: «تحيَّتهم ضربٌ وجيع»، و«تحيَّتهم السَّيف». والجملة تعليل، فلا يليق جعله من «أَبَانَ» بمعنى أظهر. ﴿إِنَّمَا يَأۡمُرُكُم بِٱلسُّوٓءِ﴾ الذَّنب الكبير والصَّغير، ﴿وَٱلۡفَحۡشَآءِ﴾ الذَّنب الكبير المتجاوزِ الحدَّ في القبح.

[لغة] الفحشاء أخصُّ من السُّوء، ويجوز أنْ يكونا بمعنى واحد إلَّا أنَّه من حيث إنَّه يسوء فاعله وغيره سوءٌ، ومن حيث إنَّه قبيح فحشاء. أو السُّوء: ما لا حدَّ فيه، والفحشاء: ما فيه الحدُّ، وقيل: هما بمعنى واحد؛ وهو ما أنكره

العقل وحكم بأنَّه ليس فيه مصلحة وعاقبة حميدة واستقبحه الشَّرع. وقوله تعالى: ﴿قُلۡ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ ٱلۡفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنۡهَا وَمَا بَطَنَ﴾ [سورة الأعراف: 33] دليل على أنَّ كلَّ معصية ولو صغيرة تسمَّى فاحشة، والأمر المذكور عن الشَّيطان حقيقة؛ لأنَّه يقول: افعلوا كذا، على طريق الإلتماس على أنَّهم يسوِّيهم بنفسه، أو لأنَّه يدَّعي العلوَّ عليهم ولو لم يكن عنده، أو اعتقد أنَّه أعلى. ولا حاجة إلى أن نقول: شبَّه الوسوسة في المعاصي بالأمر بها، ولا إلى أنْ نقول شبَّه تزيين المعاصي بالأمر بها على أنَّ ذلك استعارة. ولا يلزم من الأمر ـ ولو كان من عال ـ تسلُّط وقهر، فلا منافاة بين الآية وقوله تعالى: ﴿إِنَّ عِبَادِي لَيۡسَ لَكَ عَلَيۡهِمۡ سُلۡطَٰنٌ﴾ [سورة الحجر: 42].

﴿وَأَن تَقُولُواْ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعۡلَمُونَ﴾ أي: وبأن تقولوا كاذبين على الله، أو ضمِّن «تَقُولُوا» معنى الكذب، أو عن الله ما لا علم لكم به من تحريم السَّائبة ونحوها، وتحليل الميتة ونحوها، واتِّخاذ الأنداد.

[فقه] وليس قول المجتهد قولا بما لا يعلم؛ لأنَّه يقول استدلالاً بما يستنبطُ من القرآن والسنَّة والإجماع، قصدًا للحقِّ لا اتباعًا للهوى، وقد أباح الله له ذلك، وإن اختلف المجتهدون فالحقُّ عند الله مع واحدٍ فقط، وغيره مأجورٌ يجوز العمل بما قال. وقد يكون الحقُّ عند الله غير ما قالوا مع أنَّ ما قالوا لا يعدُّ ضلالاً عليهم. وقالت المعتزلة: الحقُّ متعدِّدٌ بحسب أقوال المجتهدين، وهو ضعيف. وَأَمَّا أن يقال: كلُّ واحد مأجور يجوز العمل بما قال، وإنَّ كلَّ واحد العمل به حقٌّ في حقِّ المقلِّد، فلا بأس.

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ﴾ للناس وهم كفَّار، **﴿ٱتَّبِعُواْ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ﴾** في القرآن وفي العقول من الحجج العقليَّة من التوحيد، وتحليل السَّائبة ونحوها، **﴿قَالُواْ﴾** لا نتَّبع ما تزعُمون أنَّه من الله، **﴿بَلۡ نَتَّبِعُ مَآ أَلۡفَيۡنَا﴾** وجدنا **﴿عَلَيۡهِ ءَابَآءَنَآ﴾** من عبادة الأصنام وتحريم السَّوائب.

ويبعد أن يكـون الضَّمير لليهود الذين دعاهم ﷺ إلى الإسـلام، وأنَّ ما أنزل الله هو التوراة والإنجيل والقرآن؛ لأنَّ الثلاثة تدعو إلى الإسـلام، ولو روي أنَّها نزلت في طائفة منهم دعاهم فقالوا: نتَّبع ما عليه آباءنا لأنَّهم أعلم منَّـا. وإنَّما قلـت: يبعد ذلـك لأنَّ الآيات والضمائـر قبل ذلك في غيرهم، وعلى هـذه الرواية لو صحَّت يكون المـراد بـ﴿مَآ أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَآ﴾ [سورة البقرة: 170] ما وجدوا عليه أسـلافهم من اليهود، ممَّا يخالف الحقَّ البتَّة، أو كان حقًّا ونَسَخَهُ القرآنُ.

وقيل: الضَّميـر عائدٌ إلى «مَـن يَـتَّخِـذُ»، أو إلى ما يفهم مـن أنَّ الذين يكتمون، أو إلى المشـركين. ولا يلزم من النُّزول في قـوم ردُّ الضَّمير إليهم. والغيبة بعد الخطاب تلويح بأنَّهم ليسوا من أهل الخطاب، فصرف عنهم إلى أهله بإخبار أهله عنهم.

﴿أَوَلَوْ كَانَ ءَابَآؤُهُمْ﴾ زيادة في كلامهم على طريق الاستفهام التوبيخي، والهمزة ممَّا بعد الواو، أو مسـتأنف توبيـخ، أي: أيتَّبعـون آباءهم ولو كان آباؤهم؟ ﴿لَا يَعْقِلُونَ شَـيْـًٔا﴾ من أمور الدِّين التي خالفوها، وأمروا باتِّباعها، ﴿وَلَا يَهْتَدُونَ﴾ إلى الحقِّ.

﴿وَمَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ من اليهود والنَّصارى وغيرهم ومشـركي العرب، مع الذين يدعونهم إلى الإيمان من النبـيء والمؤمنين، أي: مثل الكافرين مع المؤمنين كمثـل الغنم مع راعيها كما قال: ﴿كَمَثَلِ الَّـذِي يَنْعِقُ﴾ يصوِّت من رعاة الغنـم عليهـا، ﴿بِمَا لَا يَسْـمَعُ﴾ أي: على ما لا يسـمع وهـو الغنم، ﴿إِلَّا دُعَآءً وَنِدَآءً﴾ صوتًا بلا فهم لمعناه لماذا صاح بها لِتمشـيَ أو تقف، ولو فهمت منه علـى الاعتياد أنَّها تقف أو تمشـي. وأيضًا هذا الفهـم ليس فهمًا لوضع الصَّوت لمعناه، بل فهمًا لاعتياد ضربها أوَّلاً بالحجر لتقف أو تمشي.

وإنَّما قدَّرتُ مع الذين يدعونهم إلى الإيمان بلفظ «مع» لا بالواو ليناسب قوله: ﴿كَمَثَلِ الَّذِي...﴾ إلخ، فإنَّ المتقدِّم فيه الراعي كذلك، فإنَّ «مَعَ» أصلُها أَنْ تدخلَ على الراجح المصحوب، فالراجح المصحوب هو النبيء والمؤمنون، أو يقدَّر: «ومَثَل داعي الذين كفروا للإيمان كَمَثَل الذي ينعق»، أو يقدَّر: «مَثَل الذين كفروا كَمَثَل بهائم الذي ينعق».

وعلى كل حال فالنبيء ﷺ والمؤمنون يدعون الكفَّار إلى الإيمان ولا يعرفون المقصود لانهماكِهم في التقليد، وكونهم أُمِّيِّين وإعراضهم تجاهلاً كما يصيح الرَّاعي على غنمه، ولا تفهم حكمة موضوع الصَّوت ولو وقَفَتْ به أو مَشَت، فهم أضلُّ منها إذ تمتثل ولا يمتثلون.

أو المعنى: مَثَل الذين كفروا في دعاء الأصنام كَمَثَل النَّاعق في غنمه، بل الناعق فوقهم؛ لأنَّ الغنم تسمع وتحسُّ بخلاف الأصنام.

[بلاغة] والدعاء والنداء مترادفان فيما قيل، فلعلَّه كُرِّر تأكيدًا، كأنَّه قيل: أصواتًا كثيرةً. أو الدُّعاء: ما يدلُّ على معنى امش أو قف أو اشربي أو كلي أو نحو ذلك، من فعل أو اسم فعل أو اسم صوت، والنِّداء: ما يزاد على ذلك، كهاء وياء، ممَّا يتلفَّظ به في البهائم، ويبعد ما قيل: إنَّ الدعاء للقريب والنداء للبعيد، كقولٍ يُسمع، والنِّداء قد يُسمع وقد لا يُسمع.

﴿**صُمٌّۢ بُكۡمٌ عُمۡيٞ**﴾ هم صمٌّ بكم عمي، أي: لا يسمعون الحقَّ ولا ينطقون به ولا يرونه، ﴿**فَهُمۡ لَا يَعۡقِلُونَ**﴾ الموعظة والأحكام الشرعيَّة، أي: لا يدركونها، وليس المراد نفي عقل التكليف، [بل هو] على سبيل تنزيل وجوده منزلة العدم، لفقد ثمرته؛ لأنَّه لا يصحُّ ترتُّبه بالفاء كذا قيل، وفيه أنَّه لا مانع من أنْ يقال: هم صمٌّ بكمٌ عميٌ لا يدركون، فهم لذلك كمن لا عقل له كالمجنون.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُلُواْ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقۡنَٰكُمۡ وَٱشۡكُرُواْ لِلَّهِ إِن كُنتُمۡ إِيَّاهُ
تَعۡبُدُونَ 172 إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيۡكُمُ ٱلۡمَيۡتَةَ وَٱلدَّمَ وَلَحۡمَ ٱلۡخِنزِيرِ وَمَآ أُهِلَّ بِهِۦ لِغَيۡرِ
ٱللَّهِۖ فَمَنِ ٱضۡطُرَّ غَيۡرَ بَاغٖ وَلَا عَادٖ فَلَآ إِثۡمَ عَلَيۡهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٌ 173﴾

الحلال والحرام من المآكل

﴿يَآ أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُواْ كُلُواْ مِن طَيِّبَاتِ﴾ لذائذ ﴿مَا رَزَقْنَاكُمْ﴾ لا تحرِّموها على أنفسكم ولو اعتقدتم حلَّها، نزلت فيمن عزم من الصَّحابة على أنْ يمنع نفسه منها. أو الطيِّبات: الحلال مطلقًا، فيدخل فيها اللَّذائذ، ﴿وَاشْكُرُواْ لِلَّهِ﴾ على حلِّ أكلها. والأمر بالأكل للإباحة العامَّة في الطيِّبات. أو في اللَّذائذ إباحة تأكيدٍ لتقدُّمها في آيٍ أُخَر، ولعهدها في الأذهان، وخارجًا وعملاً. كرَّر ذلك تشخيصًا للمؤمنين، وتخصيصًا بأنَّهم الأهل لها، وتشريفًا لهم، وليرتِّب عليه ذكر الشكر وتحريم الميتة وما بعدها، ﴿إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ﴾ إذ عبادته لا تتمُّ إلَّا بالشكر، أي: إن كنتم تريدون عبادته عبادة تامَّة، والمراد الشكر باللسان. أو أنْ يستشعر في العبادة أنَّه يعبده لأجل نعمه. وَأَمَّا الشكر بمعنى استعمال القلب واللسان والجارحة فلا تفسَّر به الآية؛ لأنَّ المعنى يكون بذلك: واشكروا الله إنْ كنتم إيَّاه تشكرون، وهو لا يصحُّ.

وتقديم «إِيَّاهُ» للاهتمام والفاصلة، وإنْ جعلناه للحصر كان المعنى: واشكروا الله إن كنتم خصَّصتموه بالعبادة، فالقيد حصرَ العبادة له لا نفس العبادة، فمن لم يشكر له بل شكر غيره لم يخصَّه بالعبادة، قال ﷺ:

«**الحمد رأس الشكر ما شكر اللهَ من لم يحمده**»[1]، والمراد بالحمد في الحديث الحمد اللفظيُّ، قال الطَّبرانيُّ والديلميُّ والبيهقيُّ: قال رسول الله ﷺ: «**يقول الله تبارك وتعالى: إنِّي والإنس والجنَّ في نبإ عظيم، أخلُق ويُعبد غيري! وأَرزق ويُشكر غيري!**»[2].

﴿**إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ وَالدَّمَ وَلَحْمَ الْخِنزِيرِ وَمَآ أُهِلَّ بِهِ لِغَيْرِ اللَّهِ**﴾ الحصر إضافيٌّ، منظور فيه إلى السائبة وما معها لا حقيقيٌّ؛ لأنَّه قد حرَّم أيضًا المغصوب والمسروق، وأجرة الزنى وأجرة الكهانة، والرِّبا وغير ذلك.

[فقه] وَأَمَّا الموقوذة والمتردِّية والنطيحة وما أكل السبع فداخلة في الميتة إنْ لم تُدرَك ذكاتُها قبل الموت، وإنْ أدركت فمن الحلال. والحصر حصر قلبٍ بالنسبة إلى من أحلَّ الميتة وما معها، وحرَّم السائبة وما معها. وحصرُ أفرادٍ بالنسبة إلى ما حرَّمه بعض المؤمنين من اللَّذات بأنْ شدَّد عليهم، فعدَّ منعهم أنفسهم منها تحريما، فنهاهم بهذا الحصر، ففي كلٍّ من التحريم والمنع تحجير فيكون من عموم المجاز.

[فقه] ثمَّ **الحكم إنَّما يتعلَّق بالمعاني لا بالذَّوات**، فالمراد: حرَّم عليكم أكل الميتة وما معها وبيعهنَّ وشراءهنَّ، ورهنهنَّ والإجارة بهنَّ، وإصداقهنَّ والغسل بهنَّ والاستصباح بهنَّ، ولكن أسند الحكم إلى الذَّوات مبالغة.

[فقه] وأَلحقَ الحديثُ ما قُطع من حيٍّ وهو حيٌّ، قال أبو داود والترمذي وحسَّنه عن أبي واقد الليثي قال رسول الله ﷺ حين قدم المدينة وهم يَجُبُّون الأسنمة، ويقطعون إليات الغنم، «**ما قُطع** - أي: وهو حيٌّ - **من**

(1) لم نقف على تخريجه.

(2) أورده الآلوسي في تفسيره، ج 2، ص 41، من حديث أبي الدرداء مرفوعًا.

البهيمة ـ وهي حيَّةٌ ـ فهو ميِّتة»[1]. واستثنى الحديث السمك والجراد إذ قال: «**أحِلَّت لكم ميتتان...**»[2]. وزعم بعض أنَّ ما مات من الحوت والجراد حرام، وعموم الحديث يردُّه، واستثنى الحديثُ أيضًا الجلدَ فإنَّه إنْ أزيل وَدَكُهُ بدباغ أو غيره حَلَّ ظاهرًا وباطنًا. واستثنى من الدمِ الكبدَ والطحالَ. وخصَّ ذكر لحم الخنزير بالذكر لأنَّه معظم ما يؤكل، ولأنَّهم يستعظمون تحريمه، وغيرُه تبعٌ له وكلُّه حرام حتَّى عظامه وجلده وشعره، وقيل بحلِّ شعره، وحلَّ خنزير البحر على الصحيح.

ومعنى ﴿أُهِلَّ بِهِ﴾ رفع الصوت به، وذلك أنْ يذكر الصَّنم أو غيره عند ذكاته وحده أو مع الله.

[فقه] فيحرم ما ذُكر عليه المسيح. وقيل: حلَّ؛ لأنَّ الله ﷻ أباح ذبائح أهل الكتاب، وقد علم أنَّهم يخلطون. ويحرم ما ذكر للجنِّ اتِّقاء بهم لمريض، أو عند حفر بئرٍ، أو بناء دارٍ بأن يذبح في الموضع الذي يحفر نفسِهِ، أو في الدار نفسِها، أو في موضع مجاور لهما لذلك.

[فقه] ورفع الصوت ذكرٌ للواقع في الجاهليَّة، فما ذُبح لغير الله حرام ولو أسرَّ ذكر غير الله، أو ذَكَره في قلبه.

والإهلال مأخوذ من الهلال إذ يرفع الصوت به إذا رُئي، ثمَّ أطلق على رفع كلِّ صوت.

---

(1) رواه **الترمذي** في الأطعمة (7)، باب ما قطع من الحيِّ فهو ميِّت، رقم: 1480. وأبو **داود** في الصيد، باب في صيد قطع منه قطعة، رقم: 2858، من حديث أبي واقد الليثي. وابن **ماجه** في الصيد، و**أحمد** في مسنده، عن أبي واقد كذلك.

(2) رواه **ابن ماجه** في الصيد (9)، باب صيد الحيتان والجراد، رقم: 3218، من حديث ابن عمر. ورواه **البيهقي** في الطهارات، رقم: 1197.

[فقه] كلُّ ما نهي عن قتله في الحديث من نحو الصرد والهدهد فذبحه للأكل أو لمنفعة حلال، والآية تشمله.

﴿فَمَنُ اضْطُرَّ﴾ افتُعل، من الضرّ، وهو متعدٍّ لواحدٍ كأصله، ألا تراه مبنيًّا للمفعول مع أنَّ نائب الفاعل غير ظرف ولا مصدر. وطاؤه عن تاء لتوافق الضّاد في الجهر. والافتعال هنا للمبالغة، كأنَّه قيل: من ضُرَّ ضرًّا عظيمًا بالجوع حتَّى خاف به الموت أو العمى أو الصّمم أو البكم أو الشَّلل أو نحو ذلك ممَّا لا يُحمل، ﴿غَيْرَ بَاغٍ﴾ بالسَّفر في معصية، أو منع حقٍّ، أو نشوز عن زوج أو سيِّد، أو خروج عن المسلمين أو منع مضطرٍّ آخَر عن أن يشاركه، ﴿وَلَا عَادٍ﴾ معلٌّ، كَغَازٍ وقاضٍ، من العداوة أو العدوان، وهو تجاوز الحدِّ، ومرجعهما واحد. وذلك بقطع الطريق عن المسلمين أو أهل الذمَّة، أو بأكل فوق ما يمسك الرمق، ﴿فَلَآ إِثْمَ عَلَيْهِ﴾ في الأكل من ذلك بقدر ما يوصله أو يحيى به، ولا يأخذ معه من ذلك.

[فقه] والمذهب تحريم الزيادة على ما يمسك الرَّمق، وكذا روي عن أبي حنيفة والشافعي، وقال عبد الله بن الحسن البصري: يأكل قدر ما يدفع الجوع، وقال مالك: يأكل حتَّى يشبع ويتزوَّد، فإذا وجد الحلال طرحه، وإنْ تاب الباغي أو العادي حلَّ له تناول من ذلك. وكذا لا يحلُّ لهما التيمُّم إنْ فقدا الماء ويصلِّيان به، ويقضيان إذا وجدا ماء، وإنْ تابا لم يقضيا ما صلَّيا بالتيمم بعد التوبة.

﴿إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ﴾ لأوليائه لأنَّهم يتوبون، ﴿رَّحِيمٌ﴾ بأهل طاعته حيث وسَّع للمضطرِّ، وليس ذلك مختصًّا بالموحِّدين بل يحلُّ لمشرك غير باغ ولا عاد أيضًا أنْ يتناول منها للاضطرار؛ لأنَّهم مخاطبون بفروع الشَّريعة كأصلها.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَيَشْتَرُونَ بِهِۦ ثَمَنًا قَلِيلًا أُو۟لَٰٓئِكَ
مَا يَأْكُلُونَ فِى بُطُونِهِمْ إِلَّا ٱلنَّارَ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ ٱللَّهُ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ
وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿174﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱشْتَرَوُا۟ ٱلضَّلَٰلَةَ بِٱلْهُدَىٰ وَٱلْعَذَابَ
بِٱلْمَغْفِرَةِ فَمَآ أَصْبَرَهُمْ عَلَى ٱلنَّارِ ﴿175﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ نَزَّلَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ وَإِنَّ
ٱلَّذِينَ ٱخْتَلَفُوا۟ فِى ٱلْكِتَٰبِ لَفِى شِقَاقٍۭ بَعِيدٍ ﴿176﴾﴾

كتمان أهل الكتاب ما أنزل الله

﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَآ أَنزَلَ اللهُ مِنَ الْكِتَابِ﴾ هم علماء النَّصارى واليهود ورؤساؤهم، كانوا يصيبون من سفلتهم الهدايا والمآكل، ويرجون أنَّ النبيء المبعوث آخرًا منهم، فلمَّا كان من العرب خافوا من ذهاب ما يُعطون فكتموا صفاته التي في التوراة والإنجيل، واهتمَّ أهل الكتاب بأنْ لا يعلِّموها من يتعلَّمها، وبأنْ يخطُّوا عليها ويكتبوا كتابا ولا يكتبوها فيه، وبأنْ يبدِّلوها بعكسها، وبأن يبدِّلوها في التعليم وبكلٍّ ما أمكنهم **وهكذا كلَّما ذكر كتمهم في القرآن.**

﴿وَيَشْتَرُونَ بِهِ﴾ بسبب الكتاب أو ما أنزل إذ كتموه، أو بكتمانه، **﴿ثَمَنًا قَلِيلاً أُوْلَئِكَ مَا يَاكُلُونَ فِي بُطُونِهِم﴾** كلِّها بملئها، لا في بعض البطن، لشهرة أنَّه «أكل في بعض بطنه»: إذا أكل قليلاً، و«**أكل في بطنه**»: إذا ملأه. **﴿إِلَّا النَّارَ﴾** ما يأكلون في الدنيا بكتمانهم إلَّا سبب النار، أو موجب النار، فحذف المضاف.

[بلاغة] ولا يصحُ أنْ يكون مجازا بعلاقة التسبُب أو المآل، أي: إلَّا ما سيصير نارًا، وأنَّ النار مستعمل في ذلك المأكول؛ لأنَّه لو قيل: ما يأكلون في بطونهم إلَّا ذلك المأكول بالكتمان أو الصَّيرورة لم يصحَّ، فإنَّ شرط المجاز أنْ تصلح موضعه الحقيقة. أو المعنى: ما يأكلون يوم القيامة إلَّا النار جزاء على ذلك الأكل على الكتمان، فأكل النار حقيقة، فالمضارع للاستقبال على هذا الوجه، وللحال على الوجه الأوَّل. ولا ينافي الحصر أنَّهم يأكلون الزَّقُّوم أيضًا لأنَّه إضافيٌّ، أي: ما يأكلون لهذا الكتمانِ والأكلِ عليه إلَّا النار، فأكل الزَّقُّوم على غيره أو على الإطلاق. أو أكل النار مجازٌ عن إحراق باطنهم. أو عدَّ الزَّقوم أيضًا نارًا. أو الكلام تمثيل شبَّه هيئة الراشي والمرتشي والرشوة بهيئة الأكل والنار وآكلها.

﴿وَلَا يُكَلِّمُهُمُ اللهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ كناية عن غضبه عليهم، أو تعريض بحرمانهم لكتمهم من الكرامة التي يؤتيها المؤمنين لعدم كتمانهم، ومن جملتها الكلام الموحى إليهم من الله بالبشرى والرضا، أو المراد: لا يكلِّمهم بخير كما يكلِّم المؤمنين، وذلك بالوحي، وإلَّا فمطلق الكلام واقع لقوله تعالى: ﴿فَوَرَبِّكَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [سورة الحجر: 92]، وقوله: ﴿فَلَنَسْأَلَنَّ الَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ﴾ [سورة الأعراف: 6]، ويُسأل كلُّ مكلَّف، ﴿وَلَا يُزَكِّيهِمْ﴾ يطهِّرهم من الذنوب، أو لا يمدحهم، ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ اَلِيمٌ﴾ في الدنيا كالآخرة.

﴿أُوْلَئِكَ الَّذِينَ اَشْتَرَوُاْ الضَّلَالَةَ بِالْهُدَى﴾ في الدنيا، ﴿وَالْعَذَابَ﴾ في الآخرة أو الدنيا أو فيهما، و[خصَّ] ذكر الآخرة في قوله: ﴿فَمَآ أَصْبَرَهُمْ عَلَى النَّارِ﴾ [سورة البقرة: 175]، ﴿بِالْمَغْفِرَةِ﴾ المعدَّة لهم لو آمنوا ولم يكتموا، وعملوا الصَّالحات واتَّقَوْا. ﴿فَمَا﴾ تعجبيَّة، أو استفهاميَّة توبيخيَّة، ﴿أَصْبَرَهُمْ عَلَى النَّارِ﴾ الأصل أنْ تكون المعصية شاقَّة على العاصي لعظمة حقِّ الله وشدَّة

العقاب، حتَّى إنَّ الصَّبــر عليها كالصَّبر على النار، فجــاءت الآية على ذلك، تقول لمن تعرض لغضب السلطان: ما أصبرك على القيد والسِّجن! تُقَبِّحُ رأيه بأنَّه لا يتعرَّض لغضبه إلَّا من له طاقة على القيد والسجن، وأنت لا طاقة لك.

وكانت رابعة العدويــة ترى المعصية نارًا. شــبَّه مداومتهم على المعصية باعتبار مشقَّتها بحسب الأصل ولو لم تشقَّ عليهم وباعتبار الصِّدِيقين بالصَّبر على النار، أو يقال كذلك: ما أصبرهم علــى موجبات النار!. أو الصَّبر: مطلقُ حبسِ النفس على الشيء ولو لم يشــقَّ عليها، أي: ما أدومهم على موجبات النار! وهي الكتم والكفر والاشتراء.

﴿ذَٰلِكَ﴾ أي: أكل النار في بطونهم وعــدم تكليم الله إيَّاهم، وعدم تزكيته لهم، وثبوت العــذاب الأليم والنــار، أو ذلك العذاب المسبَّب على الكتم والاشــتراء، ﴿بِأَنَّ اللهَ نَزَّلَ الْكِتَـابَ﴾ التوراة والإنجيل والقــرآن، ﴿بِالْحَقِّ﴾ فخالفوه وآمنوا ببعض الكتاب وكفــروا ببعض، والذي آمنوا به كفروا ببعضه. أنكر اليهود والنصــارى القرآن، واليهود الإنجيل وبعــض التوراة، والنصارى التوراة وبعض الإنجيل، ﴿وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُواْ﴾ مشركو العرب ﴿فِي الكِتَابِ﴾ القرآن، قال بعض: هو شــعر، وبعض: كهانة، وبعض: سحر، وبعض: كذب، وبعض: علَّمه بشــر، وبعض: أســاطير الأوَّلين، وبعــض: كلام جنون. أو هو الكتاب الأوَّل العامُّ والمختلفون المشركون واليهود والنصارى، فإنَّ المشركين أيضًا كذَّبوا القرآن وآمنوا ببعضه، وكذَّبوا التوراة والإنجيل، وقد يؤمن بعضهم بهما أو ببعضهمــا؛ فاختلفوا بمعنى: تخالفــوا أو تخلَّفوا عــن الحقِّ، ﴿لَفِي شِقَاقٍ﴾ خلاف، ﴿بَعِيدٍ﴾ عن الحقِّ، وكلٌّ في جانب بعيد عن جانب الآخر.

﴿لَيْسَ الْبِرَّ أَن تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ وَآتَى الْمَالَ عَلَى حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَالسَّائِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ أُولَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ (177)﴾

مظاهر البرِّ الحقيقيِّ

﴿لَيْسَ الْبِرُّ﴾ الطاعة والإحسان ﴿أَن تُوَلُّواْ﴾ فقط للصَّلاة وتصلُّوا، بل مع ذلك الإيمان بالله واليوم الآخر، والملائكة والكتاب والنبيئين وإيتاء المال على حبِّه، والإتيان بالصَّلاة تامَّة، وإيتاء الزَّكاة، والوفاء بالعهد، والصبر في البأساء والضرَّاء وحين البأس.

﴿وُجُوهَكُمْ﴾ أيُّها المؤمنون. والتعريف [في «البرّ»] للحصر، و«ال» للجنس، أو للعهد، بمعنى: ليس البرّ العظيم الذي أكثرتم الخوض فيه. وقيل: الخطاب لهم ولأهل الكتاب، ﴿قِبَلَ الْمَشْرِقِ﴾ كما إذا كنتم غرب مكَّة، ﴿وَالْمَغْرِبِ﴾ كما إذا كنتم شرقها وكما كنتم تصلُّون إلى المغرب قبل تحويل القبلة إلى الكعبة، فإنَّ بيت المقدس غرب المدينة، فإنَّ الشمس تغرب إليه في أطول الصَّيف، وما يلي أطوله فذلك المغرب، وليس كما قيل: إنَّه شمال المدينة. ولم يذكر الجهات الأخر اكتفاء بذكر المشرق والمغرب، على طريق التمثيل لا التقييد؛ لأنَّ من أهل الجهات

من يستقبل ما بينهما. وقدَّم المشرق مع أنَّه قبلة المتأخرين وهم النصارى لتقدُّم شروق الشمس على غروبها.

﴿وَلَكِنِ الْبِرُّ﴾ الإحسان الكامل من آمن بالله. البرُّ مبالغة، كقولك زيد عَدْل، فهو خبر و«مَنْ» مبتدأ، أو بالعكس، وهو أشدُّ مبالغة، كمن قال: الصوم هو زيد. و«ال» للجنس أو العهد.

[صرف] أو: لكنِ البارُّ، والأصل البارر، نقلت كسرة الراء للباء وحذفت الألف قصدًا لسكون الراء بسلب حركتها، وأدغمت في الراء. ولا حذف مضاف في ذلك، ولا تأويلاً بالوصف لكن فيه تكلُّف، أو هو مصدر بمعنى اسم الفاعل أو يبقى على مصدريَّته، ويقدَّر مضاف فيه، أي: «ولكن ذو البرِّ»، أو في قوله:

﴿مَنَ ـ امَنَ﴾ أي: برُّ من آمن، ﴿بِاللهِ وَالْيَوْمِ الاخِرِ وَالْمَلَآئِكَةِ وَالكِتَابِ﴾ أي: الكتب كلِّها، كما قال ﷺ: «**أنْ تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله...**»[1]. أو القرآن لأنَّه الذي أنكره أهل الكتاب، وأنَّه المقصود بالدَّعوة وأنَّه أكمل الكتب، والإيمان به يستلزم الإيمان بجميع الكتب لأنَّه مصدِّق لما بين يديه. وقيل: التوراة، ولا قرينة له؛ وهي لا توجب الإيمان إلَّا بتوسُّط اشتمالها على القرآن المستلزم لذلك، ﴿وَالنَّبِيئِينَ﴾ وهذا كلُّه موجود في المؤمنين قبل نزول الآية.

فمحطُّ الكلام قوله: ﴿وَءَاتَى الْمَالَ...﴾ إلخ، وما كان فيهم من بعض صفة فقد أمروا بتجويدها، أو الخطاب في ﴿تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ﴾ لليهود والنصارى؛ ردًّا على اليهود إذ قالوا: البرُّ استقبال المقدس، وعلى النصارى إذ قالوا: البرُّ استقبال مطلع الشمس. و«ال» في «البِرّ» للجنس، ولا حصر في الآية.

---

(1) ورد في مسند الربيع، بَابُ الْحُجَّةِ عَلَى مَنْ قَالَ الإِيمَانُ قَوْلٌ بِلاَ عَمَلٍ، رقم: 769. ورواه البخاري، كتاب الإيمان، باب سؤال جبريل النبي عن الإيمان والإسلام والإحسان، رقم: 50. عن أبي هريرة.

﴿عَلَى حُبِّهِ﴾ مع حبِّ صاحب المال، فالهاء لـ«مَن»، والمفعول محذوف، أي: مع حبّه المال، أو مع حبِّ المال، فالهاء للمال، والفاعل محذوف، ومحبُّه مؤتيه، أو الناس، وحبُّه لجودته أو لقلَّته؛ أو على حبّه على حبِّ الله فالهاء للمال أو لصاحبه المؤتي، أو لله سبحانه، أو للإيتاء المفهوم من آتى. والتقييد بقوله: ﴿عَلَى حُبِّهِ﴾ للتكميل، قال ﷺ: «**أفضلُ الصَّدقة أنْ تتصدَّق وأنت صحيحٌ، تأملُ البقاءَ وتخشى الفقرَ، ولا تمهِلْ حتَّى إذا بلغت الحلقومَ قلت: لفلانٍ كذا، ولفلانٍ كذا، ألا وقد كان لفلانٍ كذا**»[1]، فصدقة الفقير والبخيل أفضل من صدقة الغنيِّ والكريم، إلَّا أنْ يكونا أحبَّ للمال منهما أو يتصدَّقا بما هو أعزُّ عندهما قال ﷺ: «**أفضل الأعمال أحمزها**»[2].

﴿ذَوِي الْقُرْبَى﴾ القرابة بالنَّسَب، مع الحاجة أو دونها. وهو مفعول ثان و«الْمَالَ» مفعول أوَّل؛ لأنَّه الفاعل في المعنى، أي: صيَّره آتيًا ذوي القربى، فافهم ولا تهِم؛ فالمال يأتي ذوي القربى لا مفعول أوَّل إلَّا بتكلُّف التفسير بـ«تناول» ونحوه، ممَّا يكون ذوي القربى به فاعلا في المعنى، ﴿وَالْيَتَامَى﴾ مع الحاجة أو دونها.

[فقه] وذلك بوساطة القائم بهم من وليٍّ وغيره؛ لأنَّه لا قبض لغير البالغ، ولا يُتمَ بعد بلوغ. ولكن يجوز إطعام يتيم ولو بلا قائم ولو حقًّا واجبًا، كزكاة لمن هو في يده ويتفقَّده. وما أوتي قائم يتيم قد أوتي يتيمًا؛ لأنَّ قائمه كرسول إليه، فهو معطوف على «ذَوِي»، ولا حاجة إلى عطفه على «الْقُرْبَى» قصدًا إلى معنى إعطاء ذوي اليتامى.

---

(1) رواه مسلم في الزكاة (31)، باب بيان أنَّ أفضل الصدقة صدقة الصحيح الشحيح، رقم: 92 ـ 1032. والنسائي في الزكاة (60)، باب أيُّ الصدقة أفضل، رقم: 2541، من حديث أبي هريرة دون ذكر الفقرة الأخيرة.

(2) قال في **اللسان** بعد ذكر الحديث رواية عن ابن عبَّاس: «أحمزها يعني: أمتنها، وأقواها، وأشدُّها؛ وقيل: أمضُّها وأشقُّها». اهـ. والحديث أورده **الآلوسي في تفسيره**، ج 2، ص 46.

﴿وَالْمَسَاكِينَ﴾ أسـكنتهم الحاجة فقلَّت حركتهم، أو أسكنتهم إلى الناس بالميل إليهم. وعن أبي حنيفة: هو من لا يملك شيئًا، والفقير من يملك أقلَّ من نصاب. والشافعيّ: من يملك شـيئًا، والفقير من لا يملك شـيئًا؛ ﴿أَمَّا السَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسَـاكِينَ﴾ [سـورة الكهف: 79] فللمسكين شـيء، لكن ليس في الآية أنَّ الفقير لا شـيء له، ﴿وَابْنَ السَّبِيلِ﴾ المسـافر مع حاجة في حالِهِ ولو غنيًّا في أهله، سمِّي لأنَّه يلقيه الطريق كما تلد الأمُّ ولدها، ولأنَّه يصاحب الطريق كالولد مع أبيه، ولأنَّه مبنيُّ السـبيل كالولد مبنيُّ أبيه كأنَّه ولدَهُ السـبيلُ، أو لانفراده عمَّن معه قبل، وقيل: ابن السَّبيل الضَّيف؛ لأنَّه يقدَّم به إلى بيت المضيِّف.

﴿وَالسَّـآئِلِينَ﴾ ألجأتهم الحاجة إلى السؤال، عطف عامٍّ على خاصّ؛ لأنَّ ذوي القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل يكونون سائلين وغير سائلين، ويكون السـائل أيضًا غيرهم دعاه داع إلى السـؤال ولو كان غنيًّا كتحمُّله دَينا لإصلاح بين الناس، وكاشـتهائه شـيئًا ليس عنده كحامل ومتوحِّمٍ، وحالف على موجوده لا ينتفع به في محلِّه، وككلِّ سائل ولو غنيًّا إذ لا يدرى هل هو غني، بل ولو غنيًّا قال ﷺ: «**للسـائل حقٌّ ولو جاء على فرس**»[1]. رواه أحمد. وذلك سدٌّ لذريعة الرَّد، واحتياطًا للناس.

﴿وَفِي الرِّقَـابِ﴾ وصَرَفَه في الرِّقاب، بصيغـة الماضي المحذوف، دلَّ على صَرَفَ قولُـه: ﴿وَءَاتَى الْمَـالَ﴾، والمقامُ. ويجوز إبقـاؤه على معنى: وإيتاؤه في الرِّقاب، أي: علـى طريق صرفه فيها بـوزن المصدر، أي: لفكِّ الأسرى وإعتاق العبيد، وإعانة المكاتب، وشراء العبيد، ليكونوا في الإسلام عونًا له في الجهاد وغيره، وتنجية المضطرِّ، وشـراء العبيد المسلمين الذين تملَّكهم المشركون بالتقويم.

(1) وأورده **القطب** في جامع الشـمل بلفظ: «أعطوا السائل ولو جاء على فرس»، ج 1، ص 327. قال صاحب «**كشف الخفاء**»: رواه **مالك** في الموطأ مرسلا.

[فقه] ﴿وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَءَاتَى الزَّكَاةَ﴾ أهلَها؛ فما قبل هذا في غير الزكاة ترغيبًا في النفل لا إيجابًا، إذ لا واجب في المال بعد الزكاة، إلَّا إنْ خِيفَ موت أحدٍ أو نفقة العيال والضَّيف، وإلَّا أنواع الكفَّارات. وعن الشَّعبيِّ: «إنَّ في المال حقًّا سوى الزكاة» وتلا هذه الآية؛ وسئل الشعبيُّ: هل في المال حقٌّ بعد الزكاة؟ قال: «نعم يصل قرابة، ويعطي السَّائل»، وتلا هذه الآية. وعنه ﷺ: «**لا يؤمن بالله واليوم الآخر من بات شبعانًا وجاره طاوٍ إلى جنبِه**»[1]. وفي الحديث: «**في المال حقوقٌ سوى الزكاة**». واجتمعت الأمَّة ـ إلَّا من شذَّ ـ أنَّه يجب دفع حاجة المضطرِّ ودفع الكفَّارات، وذلك ثابت ولو مع قوله ﷺ من حديث عليٍّ: «**نسخَ الأضحى كلَّ ذبحٍ، ورمضانُ كلَّ صومٍ، وغسلُ الجنابة كلَّ غسلٍ، والزَّكاةُ كلَّ صدقةٍ**»[2]. وهو غريب، أخرجه ابن شاهين، وليس في سنده قوَّة، وأخرجه الدَّارقطنيُّ والبيهقيُّ، ويجوز أنْ يكون: آتى الزكاة ذِكْرًا للخاصِّ لمزيَّته بعد العامِّ، وهو ﴿ءَاتَى الْمَالَ﴾.

﴿وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُواْ﴾ ربَّهم في طاعة، أو مخلوقًا فيها[3]، أو في مباح فيه نفع لغيرهم، أو انتظار حقٍّ غيرهم لهم، لا في معصية أو مكروه، أو مباح لأنفسهم فلا ذمَّ في خُلف الثلاثة.

والعطف على «مَنْ»، ومقتضى الظَّاهر: «ولكن إنَّه من آمن بالله... إلخ، وأوفى بعهده إذا عاهد»، ولكن غيَّر الأسلوب لأنَّ ما تقدَّم بإيجاب الله، وهذا

---

(1) رواه **الترمذي** في كتابه، باب الترهيب من أذى الجار، رقم: 24 و25، من حديث ابن عبَّاس. وقال: رواه الطبراني والبزَّار والحاكم وإسناده حسن.

(2) رواه **البيهقي** في كتاب الضحايا، رقم: 19491. وذكره **الآلوسي** في تفسيره، ج 2، ص 47، من حديث عليٍّ كرَّم الله وجهه، مرفوعا. وأورده **الزحيلي** في التفسير المنير، بدون إسناد، ج 2، ص 102.

(3) يعني رَحِمَهُ اللهُ: أو عاهدوا مخلوقا من الخلائق في طاعة.

بإيجاب المكلَّف على نفســه، كما قال: ﴿إِذَا عَاهَدُوا﴾ أي: لا يتأخَّر إيفاؤهم عن وقت عُهِد إليه؛ وذلك حكمة التقييــد بـ«إِذَا»، فليس ذلك فيما أوجبه الله عليه بلا إيجاب منه كما قيل به، وبــأنَّ ﴿إِذَا عَاهَدُوا﴾ تأكيد، وممَّا يكون من إيجابهم برُّ اليمين والنَّذر وردُّ الأمانة؛ لأنَّ عقدهنَّ عهدٌ منهم بالوفاء. أو غَيَّر الأسلوبَ إشارةً إلى وجوب استقرار الوفاء. أو إلى أنَّه أمر مقصود بالذَّات. أو لأنَّ هذا من حقوق الله خاصَّة. ويطلق العهد علــى ما يجري في الناس ممَّا لا يُحلُّ حرامًا ولا يحرِّم حلالاً، والظاهر أنَّ المراد حقوق الله وحقوق العباد؛ لأنَّ الوفاء بها من حقوق الله أيضًا.

﴿وَالصَّابِرِيــنَ﴾ لا تنسَ الصابريــن في مقام الخير والثَّنــاء، أو: «اذكرْ الصابرين»، أو «خصَّ الصابرين»، ومعنى كــون ذلك ـ نصبًا على المدح ـ أنَّهم في مقام رفيع يعرف به المحذوف ولو لم يذكر.

[نحو] قال أبو عليٍّ الفارســيُّ: إذا غيِّر إعراب صفة المدح أو الذمِّ فذلك تفنُّنٌ، ويســمَّى: قطعًا، وذلك أنَّ تغيير المألوف يدلُّ على مزيد الاهتمام بشأن المغيَّر، **فإنَّه لا فضيلة إلَّا وللصَّبر فيها أثر بليغ، وإلَّا فسدت وأدَّت إلى مضرَّة.**

﴿فِي الْبَأْسَآءِ﴾ شدَّة الفقر وفساد المال ولو بلا فقرٍ، كفساد نوع دون آخر أو فســاد فيه كلِّه مع بقاء نفع فيه بلا فقــر، ﴿وَالضَّرَّآءِ﴾ المضــرَّة في البدن بمرض أو غيره كعــرج وصمم وعنَّة. وذَكَر «فِــي» لأنَّ المدح في الصَّبر على البأســاء والضَّرَّاء إنَّما يكون إذا عَظُما، وكان المصاب كالمظروف لهما، وَأَمَّا الصبر على مــا قلَّ منه ففي أكثر النــاس. ﴿وَحِينَ الْبَــأْسِ﴾ القتال، والمراد: القتال في سبيل الله. ذَكَر «حِينَ» لأنَّ القتال لا يستمرُّ.

﴿أُوْلَئِكَ﴾ الموصوفون بالإيمان وإيتاء المال وإقامة الصلاة وإيتاء الزكاة، والموصوفون بالإيفــاء بالعهد، والموصوفون بالصبــر، ﴿الَّذِينَ صَدَقُواْ﴾ في

دين الله مع الله، وفي دعواهم أنَّهم مؤمنون، وفي طلب البرِّ. وذَكَر الثلاث على الترقِّي، فالصبر على المرض أشدُّ منه على الفقر، و[على] القتال أشدُّ من المرض، ﴿وَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُون﴾ عن الكفر وسائر الرذائل.

قال بعضهم: هذه الصفات خاصَّة بالأنبياء استجماعًا وغيرهم لا يستجمعها، والصحيح أنَّها عامَّة في جميع المؤمنين، كما قال ﷺ دعاءً إلى العمل بها: «**مَن عمِلَ بهذهِ الآيةِ فقد استكمَلَ الإيمانَ**»[1].

---

(1) أورده السيوطي في الدر المنثور، وعزاه إلى وكيع وابن أبي شيبة وابن المنذر عن أبي ميسرة موقوفا. ج 1، ص 412.

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُتِبَ عَلَيۡكُمُ ٱلۡقِصَاصُ فِي ٱلۡقَتۡلَى ٱلۡحُرُّ بِٱلۡحُرِّ وَٱلۡعَبۡدُ بِٱلۡعَبۡدِ وَٱلۡأُنثَىٰ بِٱلۡأُنثَىٰۚ فَمَنۡ عُفِيَ لَهُۥ مِنۡ أَخِيهِ شَيۡءٞ فَٱتِّبَاعُۢ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَأَدَآءٌ إِلَيۡهِ بِإِحۡسَٰنٖۗ ذَٰلِكَ تَخۡفِيفٞ مِّن رَّبِّكُمۡ وَرَحۡمَةٞۗ فَمَنِ ٱعۡتَدَىٰ بَعۡدَ ذَٰلِكَ فَلَهُۥ عَذَابٌ أَلِيمٞ ﴿178﴾ وَلَكُمۡ فِي ٱلۡقِصَاصِ حَيَوٰةٞ يَـٰٓأُوْلِي ٱلۡأَلۡبَٰبِ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ ﴿179﴾ ﴾

مشروعيَّة القصاص وحكمته

﴿يَآ أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُواْ كُتِبَ﴾ أي: فُـرض، وأصله: خُطَّ، ولَمَّا كان الخطُّ لإنفاذ ما خُـطَّ كان بمعنى فُـرِضَ مجازًا، ثـمَّ صار حقيقةً عرفيَّـة في معنى الإلزام، وتقوَّى ذلك بـ«عَلَى» في قوله: ﴿عَلَيْكُـم﴾ أيُّها المؤمنون والقاتلون وولَاةُ الأمر، فالخطـاب بالكاف للذيـن آمنوا والقاتليـن وولَاة الأمر كقوله تعالى: ﴿يَآ أَيُّهَا النَّبِيءُ إِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَـآءَ﴾ [سـورة الطلاق: 1] فالخطاب للنبيء وسائر المطلِّقين، يقال لرئيس القوم: «يا فلان، إذا جئتم أكرمتكم». ﴿الْقِصَاصُ فِي الْقَتْلَى﴾ الْمُمَاثلة فيهم، أي: في قتل القتلى، أي: في شأنه، أو بسببه، ومنه المقصُ لتساوي أطرافه. والقصَّة لأنَّها تساوي المحكيَّ، والقاصُ لأنَّه يذْكُرها بلا تغيير وإلَّا عُدَّ محرِّفًا.

وذلك بأنْ يُقتَل القاتل فقط، كما قَتَل القاتل إنسـانًا فقط، ويُقتل العبد إذا قتل عبدا كما قَتـل العبدَ، ولا يُقتل به الحرُّ وهكـذا... ومعنى ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِصَـاصُ﴾ أنَّه حقٌّ واجـبٌ على القاتل لمن له الـدَّم، ووجوبُه لا ينافي أنَّه يجوز العفو مطلقًا، والعفو عن القتل مع أخذ الدِّيَة، كما تقول:

يجب على المدين أن يقضي الغريم، فإنَّه لو تَرَكَ الغريمُ الدَّين جاز، فلا عطاء على المدين.

[سبب النزول] نزلت الآية في الأوس والخزرج، كان لأحدهما ـ ولعلَّهم الأوس ـ على الآخرين قوَّة وشرف، وكانوا ينكحون نساءهم بلا مهر، وأقسموا: لنقتلنَّ الحرَّ منهم بالعبد منَّا، وبالمرأة منَّا الرجل منهم بلا ردٍّ لنِصفِ ديَة الرجل، وبالرجل الرجلين، وجعلوا جراحاتهم ضِعف جراحات أولئك، فرفعوا أمرهم إلى النبيء ﷺ فأمرهم الله بالمساواة، فَرَضُوا وسَلَّموا؛ ويقال: ذلك بين قريظة والنضير من اليهود، يقولون لبني قريظة: إذا قتلتم منَّا عبدًا قتلنا منكم حرًّا، وإذا قتلتم منَّا حرًّا قتلنا منكم حرَّين، ونقتل رجلكم بأنثانا؛ قيل: ويردُّه قوله تعالى: ﴿يَآ أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ وهؤلاء كفرة، ويجاب أنَّه وقع ذلك بين الأوس والخزرج، ووقع أيضًا بين فريظة والنضير، كما مرَّ أنَّهم تحالفوا، إحداهما مع الأوس والأخرى مع الخزرج، فغلَّب المؤمنون وهم الأوس والخزرج، وبأنَّ المؤمنين هم الحكَّام على القاتل من اليهود أو من المسلمين.

﴿**الْحُرُّ بِالْحُرِّ**﴾ يقتل الحرُّ الواحد بالحرِّ لا بالعبد، ولا حُرَّان بحرٍّ واحدٍ، أو الحرُّ يقتل بالحرِّ، وكذا ما بعدُ، ﴿**وَالْعَبْدُ**﴾ الواحد لا اثنان ولا الحرُّ ﴿**بِالْعَبْدِ وَالأُنثَى**﴾ لا الأنثيان، ولا الذَّكر به بلا ردٍّ لنصف ديَة الذَّكر ﴿**بِالأُنثَى**﴾ والخنثى بالخنثى، لا الذَّكر به، بلا ردٍّ زائدٍ، ولا الخنثى بالمرأة بلا ردٍّ.

[فقه] وقيل: بيَّنت السنَّة أنَّ الذكر يقتل بالأنثى بلا ردٍّ، **وأنَّه تعتبر المماثلة في الدِّين، وأنَّ الإسلام يعلو ولا يُعلى عليه**، فلا يقتل مسلم ولو عبدًا بكافر ولو حرًّا، ويقتل كافر بمسلم، وعن عليٍّ: «مضت السنَّة أنْ لا يُقتل مسلم بذي عهد ولا حرٌّ بعبد». والمشرك غير ذي العهد أولى بأنْ لا

يقتل به مؤمن. وكان أبو بكر وعمر كلَّما قتَل حرٌّ عبدًا لا يقتلانه به، سواءً أكان له أم لغيره، وهما عمدة بين الصحابة ولا يخالفهما أحد، وقَتَل رجلٌ عبدَه فجلده رسول الله ﷺ ونفاه سنةً، ولم يصحَّ عن مالك والشافعيّ أنَّه لا يُقتل الذكر بالأنثى؛ وقيل عن أبي حنيفة: أنَّه يقتل الحرُّ في العبد المؤمن لقوله ﷺ: «**المسلمون تتكافأ دماؤهم**»[1]، ورُدَّ بأنَّه استثنى منه العبد إذ قال: «**لا يُقتل حرٌّ بعبد**»[2]. وعن مالك والحنفيَّة: أنَّه ليس للوليِّ إلَّا القتل، إلَّا إن رضي القاتل بالدِّيَة، ويردُّه تخييره ﷺ الوليَّ بين القتل والدِّيَة وتركهما.

﴿**فَمَنْ عُفِيَ**﴾ سومح، ﴿**لَهُ**﴾ فالقاتل الذي تُرِكَ له ﴿**مِنَ اَخِيهِ**﴾ المقتول، أي: من دم أخيه. والتارك ورثة المقتول. وقيل: الأخ وليُّ الدم، **والمراد الأخوَّة في التوحيد**. وفيه ردٌّ على الصفريَّة القائلين بأنَّ فاعل الكبيرة أو المعصية مشرك، ويبعد التأويل بالأخوَّة في الآدميَّة، وذَكَره بلفظ «أَخِيهِ» ليرقَّ له، والقتل لا يقطع الأخوَّة. ﴿**شَيْءٌ**﴾ من القتل ولو جزاء من ألف جزاء، أو شيئًا من الدِّيَة، تركه الورثة كلُّهم أو بعضهم. ﴿**فَاتِّبَاعٌۢ بِالْمَعْرُوفِ وَأَدَآءٌ اِلَيْهِ بِإِحْسَانٍ**﴾ أي: فالواجب، أو فعلى المعفوِّ له، أو فالأمر أنْ يتَّبعه العافي وسائر الورثة بالدِّيَة، أو ببعضها إنْ ترك البعض منها بلا عنف، وبلا ملازمة إنْ أعسر، وأنْ يؤدِّي القاتل الديَة أو ما بقي منها بلا مطل ولا بخس، وإنْ ترك القتل والدِّيَة فلا اتِّباع.

---

(1) رواه **ابن ماجه** في الديات (31)، باب المسلمون تتكافأ دماؤهم، رقم: 2683، من حديث ابن عبَّاس. ورواه **أبو داود** في الديات، باب إيقاد المسلم بالكافر؟ رقم: 4530، من حديث قيس بن عبَّاد، من حديث طويل.

(2) أورده **القطب** في جامع الشمل، ج2، ص163، رقم: 2654، من حديث ابن عبَّاس. ورواه **البيهقي** في كتاب الجراح (10)، لا يقتل حر بعبد، رقم: 15639، من حديث ابن عبَّاس كذلك.

[فقه] والواجب القتلُ، والدِّيَة بدله، كذا ما دون القتلِ الأرشُ بدَلُه، فلو قال: عفوت عنه، لم يكن له قتل لأنَّه الأصل وقد عفا، ولا ديَة لأنَّها بدَلُه وقد سَـقَطَ فلا ديَة. وقيل الواجب أحدهما على الإبهام فلو عفا لم يحمل عليه بل يستبقى له بأنْ يحمل العفو على العفو عن القتل فيعطى الدِّيَة، وإنْ صَرَّح بما عفا فيه عُمِل به.

﴿ذَٰلِكَ﴾ التخيير لوليِّ الدَّم بيـن القتل وأخذ الدِّيَة والعفو، ﴿تَخْفِيفٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَرَحْمَةٌ﴾ إذ لم يحتِّم عليكم القتـل كاليهود ولا الدِّيَة كالنصارى، وفي تحتيم أحدهما تضييق على الوارث والقاتل.

﴿فَمَنِ اعْتَدَىٰ﴾ بالقتل، ﴿بَعْدَ ذَٰلِكَ﴾ أي: بعد تركه أو بعد أخذ الدِّيَة أو بعد العفو الكلِّيِّ، ﴿فَلَهُ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ فـي الدُّنيا بالقتل، فإنَّه لا يعفى عنه ولو عفا عنه وليُّ القاتل كما جاء به الحديث، وفي الآخـرة بالنار إلَّا إنْ تاب فلا عذاب في الآخرة عليـه في ذلك، وعليـه القتل ولو تـاب، وروي عنه ﷺ: «**لا أعفي أحدًا قتَلَ بعد أخذ الدِّيَة**»[1].

﴿وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ﴾ نوع من الحياة عظيم في شأنه، كثير بأفراده؛ لأنَّه إذا علم مريد القتل ظلما أنَّه يقتل إذا قتل كفَّ عن القتل، فلا يقتله الوليُّ، وإنْ قتله قتل وحده فذلـك القصاص، وقبل ذلك كانـوا يَقتُلون جماعةً فيهم القاتل، ويَقتُلون غيرَ القاتـل واحدًا أو جماعة، وذلك غير قصاص، فينتشـر القتل في ذلك. وفي الآية جَعَل القتلَ سـببًا للحياة. وكالقتلِ الجروحُ وأنواع الجنايات في البدن، فقد يُجنَى على غير الجاني من واحد أو متعدِّدٍ، أو عليه

---

(1) رواه **البيهقي** فـي الجراح (30)، باب من قتـل بعد أخذه الدية، رقـم: 16045، من حديث الحسـن، بلفظ «رجلا» مكان «أحدا». ورواه **أحمد** في مسنده، ج 4، ص 148، رقم: 14917، من حديث جابر بن عبد الله.

وعلى غيره، وتنتشر الفتنة، فقد يفضي ذلك إلى الموت بقتل أو جرح، فقد تحتمله الآية أيضًا مع القتل، وإذا اقتُصَّ من الجاني أو أُخِذ الأرش توقَّفت الفتنة. والآية زجر عن القتل الأوَّل وعن القتل الثَّاني بزيادة قتل غير القاتل أو بقتل غيره. وإنْ جعلنا الحياة أخرويَّة فالآية إغراء إلى الإذعان للقصاص؛ لأنَّه إذا أذعن إليه القاتل كانت له الحياة الطيِّبة الأبديَّة.

﴿**يَآ أُوْلِي الأَلْبَابِ**﴾ العقول الخالصة عن الكدورات، وكلُّ المكلَّفين يجب عليهم تعاطي خلوص العقل، ﴿**لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ**﴾ أنْ تقتُلوا غيركم، أو تزيدوا على القاتل، أو تقتلوا غيره، وتتَّقون الله بالمحافظة على القصاص والحكم به والإذعان له، أو تتَّقون القتْلَ خوفَ أنْ تُقتَلُوا. **وختَم آيةَ القِصَاصِ هذه وآية الصَّوْمِ بعدها بالتَّقْوَى لأنَّ القِصَاصَ والصَّوْمَ من أشقِّ التكاليف.**

﴿كُتِبَ عَلَيۡكُمۡ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ ٱلۡمَوۡتُ إِن تَرَكَ خَيۡرًا ٱلۡوَصِيَّةُ لِلۡوَٰلِدَيۡنِ وَٱلۡأَقۡرَبِينَ بِٱلۡمَعۡرُوفِۖ حَقًّا عَلَى ٱلۡمُتَّقِينَ ١٨٠ فَمَنۢ بَدَّلَهُۥ بَعۡدَمَا سَمِعَهُۥ فَإِنَّمَآ إِثۡمُهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ يُبَدِّلُونَهُۥٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٞ ١٨١ فَمَنۡ خَافَ مِن مُّوصٖ جَنَفًا أَوۡ إِثۡمٗا فَأَصۡلَحَ بَيۡنَهُمۡ فَلَآ إِثۡمَ عَلَيۡهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ١٨٢﴾

الوصيَّة الواجبة

﴿كُتِبَ﴾ نائبُ فاعلِه «الْوَصِيَّـةُ»، وذُكِّر للفصل، ولمعنى الإيصاء كما قال السَّعدُ، الأصل التأنيث ولو كان غير حقيقيٍّ، ويختار إلَّا لداع، كما لِفصل في غير الحقيقي هنا، قال الرَّضيُ ـ زاعما ـ: إنَّ ذلك لإظهار فضل الحقيقيِّ على غيره، وهو تعليل لا يرضى، كيف يقال: اختـار الله ﷻ التذكير ليعلمنا بفضل الحقيقيِّ على المجازيِّ!.

﴿عَلَيْكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ﴾ أي: أسـبابه بحسب الظَّنِّ، وإلَّا فلا يَدري أحد أنَّه يموت في ذلك الوقت ولو اشـتدَّ ضرُّه، ﴿إِن تَرَكَ خَيْرًا﴾ مالاً قليلاً أو كثيرًا، بأنْ يكون له ربعُ دينارٍ زيادةً على ديون الخالق والمخلوق.

[فقه] والأنسب أنَّه إنْ قلَّ ماله عن ذلك، أوصى ولو بأقلَّ من ربع دينار. وذكره بلفظ خيرٍ تلويحًا بأنَّ الوصيَّة من طيب المال حلالاً وجودةً، ويجزي ما دون الجيِّد إلَّا أنَّه لا يحسـن؛ وقد اسـتعمل الخير في المـال مطلقًا، كقوله تعالى: ﴿وَإِنَّهُ لِحُبِّ الْخَيْرِ لَشَدِيدٌ﴾ [سورة العاديات: 8]، وفي المال الحلال كقوله تعالى: ﴿وَمَا تُنفِقُواْ مِنْ خَيْرٍ فَلِأَنفُسِكُمْ﴾ [سورة البقرة: 272].

وقالت عائشة وعليٌّ: الخير المال الكثير؛ والكثرة والقلَّة بالنِّسبة إلى الموصي وحاله رجلاً أو امرأة، ككَثْرة حاجاتِه وكثرة الوارثين. أراد رجل أنْ يوصي فسألَتْه: كم مالك؟ فقال: ثلاثة آلاف درهم، فقالت: كم عيالك؟ فقال: أربعة، فقالت: إنَّما قال الله: ﴿إِن تَرَكَ خَيْرًا﴾، وإنَّ هذا يسير فاتركه لعيالك. ولا شكَّ أنَّه كثير في نفسه لكن قلَّلته بالنِّسبة لعياله، وكذا سأل عليًّا مولى له الوصيَّة عند احتضاره وله سبعمائة درهم، ـ قيل: أو ستمائة ـ فمنعه لكونه ذا عيال، وقال: «إنَّ الله تعالى قال: ﴿إِن تَرَكَ خَيْرًا﴾، والخير هو المال الكثير»؛ ولا شكَّ أنَّ سبعمائة درهم كثير في ذاتها إلَّا أنَّها قليل بالنِّسبة. وعن ابن عبَّاس: من لم يترك ستَّمائة دينار لم يترك خيرًا؛ والخير في العرف العامِّ: المال الكثير، كما لا يقال: ذو مال، إلَّا إنْ كان كثيرًا، وإنْ أوصى من قبلُ وعند حضور الموت نقص عمَّا تجب الوصيَّة معه فله إسقاط ما أوصى به للأقرب. والتَّقييد بالقلَّة والكثرة إنَّما هو بالنَّظر إلى وصيَّة الأقرب الباقية بلا نسخ.

﴿**الْوَصِيَّةُ لِلْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ**﴾ كالإخوة والأخوات والأعمام، والأجداد والجدَّات والأخوال، ثمَّ نُسخ بآيةِ الإرث، وحديثِ: «**لا وصيَّة لوارث**»[1]، إلَّا أن يشاء الورثة، على أنَّه متواتر، وإلَّا فالناسخ آيات الإرث والحديثُ مبيِّن للنَّسخ بهنَّ. قال في حجَّة الوداع إذ خطب فيها: «**إنَّ الله تعالى قد أعطى كلَّ ذي حقٍّ حقَّه فلا وصيَّة لوارث**»[2]. وروي أنَّه خطب على راحلته وقال: «**إنَّ الله تعالى قد قَسَمَ لكلِّ إنسانٍ نصيبَهُ مِن الميراثِ فَلا تَجوزُ لِوارثٍ وَصيَّةٌ**»[3].

---

(1) رواه **الربيع** في كِتَاب الأَيْمَانِ وَالنُّذُورِ، بَابٌ فِي الْمَوَارِيثِ، رقم: 667، عَن ابْنِ عَبَّاسٍ.

(2) رواه **ابن ماجه** في الوصايا (6)، باب لا وصيَّة لوارث، رقم: 2713 و2714، من حديث أنس وكذا أبي أمامة. ورواه **البيهقي** في الوصايا (1)، باب نسخ الوصيَّة للوالدين والأقربين الوارثين، رقم: 12541، من حديث أنس.

(3) رواه **ابن ماجه** في الوصايا (6)، باب لا وصيَّة لوارث، رقم: 2712، من حديث عمرو بن خارجة. ورواه **أحمد** في مسنده، ج6، ص314، رقم: 18108 و18109، من حديث ابن خارجة كذلك.

[فقه] وذلك ولا عبرة بإجازة الورثة إذا كان ما أوصي به لوارث لا يرجع إليهم إنْ ردُّوه، كالوصيَّة لوارثٍ بالكفَّارة أو بشاة الأعضاء أو نحو ذلك، وإنْ كان فيه عمل كالحجِّ والقراءة في موضع فقد يجوز، ومن وقف مع الحديث عمومًا منَعه. وإنْ أوصى الوارث بحقٍّ له عليه جاز إجماعًا مع انتفاء الريبة، مثل أنْ يوصي بأرش ضربة ضربه إيَّاها، أو بمال له أَكَلَه منه بلا رضًا، وخرج من الكلِّ.

[فقه] وبقيتِ الوصيَّة للأقارب الذين لا يرثون من جهة الأب ومن جهة الأم على ترتيب نذكره في الفقه. قيل: المراد بالأقارب ما يشمل المشركين تأليفًا للناس، ورعاية لحقِّ القرابة [في] أوَّل الإسلام وَلَمَّا كثر الإسلام شرع الإرث ونسخ الوصيَّة للوارث. وثبت أنَّ الكافر لا يرث الموحِّد. أو هذه الآية هي الميراث بحسب ما يريد الموصي، ثمَّ نسخ ردُّ التفصيل إليه بالتَّفصيل في آيات الإرث.

﴿**بِالْمَعْرُوفِ**﴾ بأنْ ينوي إنفاذ حكم الله والتقرُّب إلى الله، لا الحميَّة أو الفخر أو الرئاء أو غرضًا من أغراض الدنيا، وأنْ يكون من الثلث، ولا يفضِّل الغنيُّ لغناه، وله تفضيل الفقير، وأنْ لا يكون فوق الثلث، وأنْ لا يكون جزاءً على معصية. ﴿**حَقًّا**﴾ حقَّ ذلك حقًّا، ولا شكَّ أنَّ ما كتبه الله على العباد حقٌّ، فهو مصدر مؤكِّد للجملة. ﴿**عَلَى الْمُتَّقِينَ فَمَنۢ بَدَّلَهُ**﴾ بدَّلَ الإيصاءَ المدلولَ عليه بـ«الْوَصِيَّة»، بل المعبَّر عنه بـ«الْوَصِيَّة»، فإنَّ «الْوَصِيَّة» اسم مصدر ومعناه الإيصاء، أو بدل «الْوَصِيَّة»، فذكر الضمير لأنَّها بمعنى الإيصاء، أو بدل «الحقِّ» المذكور، أو بدل المكتوب المعروف من قوله: ﴿كُتِبَ﴾، أو بدل «الْمَعْرُوفِ»؛ فالمبدَّلُ إمَّا حكم الله، وتبديله تغييره بعد الحكم به، أو كتمُه فينفِّذُ غيرُه، أو تأويله بباطل، أو ترك الإيصاء المأمور به. وإمَّا شأن الوصيَّة بأن لا ينفِّذ الورثة

أو الوصيُّ الوصيَّـــةَ، أو ينقصوا منها، أو يغيِّروا صفتهـــا، مثل أنْ يوصي بثوب جديد فينفقوا خَلِقًا، أو بعتــق عبدين فيعتقوا واحدًا، ويكتم الشَّــاهد، أو يغيِّر ما شهد به، أو يدخل الحاكم فيه بجور، أو ينكر الورثة الوصيَّة.

﴿بَعْدَ مَا سَمِعَهُ﴾ من كتاب الله أو من الموصِي أو الشهود، ﴿فَإِنَّمَآ إِثْمُهُ﴾ إثم التبديل، ﴿عَلَى الَّذِينَ يُبَدِّلُونَهُ﴾ لا على الموصي، أو على من بدَّل حكم الله، لا على غيره، فإنَّه لا تزر وازرة وزر أخـرى؛ والذين يبدِّلونه هم من بدَّله بعد ما سمعه، فمقتضى الظَّاهر الإضمار هكذا: «فإنَّما إثمه عليه»، والهاء عائدة إلى ما عادت إليه هاء «بَدَّلَهُ»، ويجوز كونها مفعولاً مطلقًا عائدة إلى ما عادت إليه هاء «إِثْمُهُ»، وعليه فالمفعول محذوف وهو ضمير عائد إلى ما عاد إليه هاء «بَدَّلَهُ»، كقولك: «الإكرام الشـديد أكرمه الله زيدًا». ﴿إِنَّ اللهَ سَمِيعٌ﴾ بالأقوال والأصوات، أي: عليم بها كلِّها. ﴿عَلِيـمٌ﴾ بالأفعال والأوصاف والاعتقادات وكلِّ شـيء، ومن ذلك عِلْمُه بقول الموصي وغيره وفعـل الموصي وغيره، فيجازي على ذلك.

[فقه] وأنت خبير بأنَّ وصيَّة الأقرب واجبـة فمن لم يوص بها وقد ترك خيرًا هلك، كما قال عليٌّ: «ختم عَمَله بالمعصية». وقيل: نُسـخَ الوجوب فهي مستحبَّة، وقيل: نُسِخ في حقِّ من يرث، وتجب لمن لا يرث ولو كافرًا.

﴿فَمَنْ خَافَ﴾ كإمام وقاضٍ ووصيٍّ وغيرهم، ﴿مِن مُّوصٍ﴾ علم منه بعد موته، كقوله تعالى: ﴿إِلَّآ أَنْ يَّخَافَآ أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ اللهِ﴾ [سورة البقرة: 229]: إلَّا أنْ يعلما، وذلك أنَّ الخوف من الشـيء سـبب وملزوم للبحـث عنه هل كان؟ وللبحث عـن أحواله كقرب وبُعد وشـدَّة وضعـفٍ فيحصل العلـم، وأيضًا لا يخاف منه حتَّى يعلم أنَّه ممَّا يخاف منه. أو الخوف بمعنى التوقُّع الجاري بمعنى الظَّنِّ، فيُفهم حكمُ العِلْمِ اليقينيِّ بطريق الأولى. وأصل الخوف: توقُّع

مكروه بسبب أمارة مظنونة أو معلومة، وَلَمَّا لم يكن للخوف من الميل والإثم بعد الإيصاء معنـــى حملناه على العلم أو الظَّنِّ، للتسبُّب واللُّــزوم البياني. ويجوز إبقاء الخوف على أصله بأن أتُّهــم الموصي في إيصائه. ﴿جَنَفًا﴾ ميلاً عن الحقِّ خطَأً بنســيان أو غلط، ﴿اَوِ اِثْمًا﴾ بأنْ تعمَّد خــلاف الحقِّ كالزِّيادة على الثلث، والوصيَّة للوارث لأجل حقٍّ له على الموصي بأكثر من حقِّه، مثل أنْ يقول: أوصيــت لزوجي بكذا لأجــل أنِّي ضربتها، أو لــم أوف حقَّها في الفراش، أو لأنِّي أكلت مالها بلا رضًا منها، أو أكلته على أنْ أرُدَّه لها، مع أنَّ حقَّها أو أرشــها أو ما أُكِل من مالها أقلُّ، ولم يوجد الســبيل إلى تعيين كمِّية ذلك، وكذا في الوصيَّــة للولد وغيــره، ﴿فَأَصْلَحَ بَيْنَهُمْ﴾ بيــن الموصى له والورثة المعلومين من المقام. أو بين الوالدين والأقربين الموصى لهم الذين تقدَّم ذكرهم آنفًا، وهذا أولى. وإنْ جعلنــا الخوف من موصٍ حال الإيصاء أو بعده في حياته فالإصلاح بينه وبين الورثــة؛ لأنَّ المآل إليهم. وبين الموصى له بأنْ يقال له: زد كذا أو أنقص كذا، بمقتضى العــدل، ومن ذلك أنْ يوصي لفســق أو مكروه، قيل: أو يفضِّل غنيًّا، ﴿فَلَآ إِثْمَ عَلَيْهِ﴾ في الإصلاح، بل له الثَّواب، وذكر نفي الإثم إشــارة إلى عظم ذنب التبديل حتَّى إنَّه ليخاف على المصلح الإثم لما عســاه أنْ يكون في إصلاحه من الخطــإ، وكذا ذكر لذلك قوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيــمٌ﴾ وعد للمصلح بالمغفِــرة والرَّحمة لإقامته بأمر الحقِّ، وإرشاد الضَّالِّ، وأمر بمعروف ونهي عن منكر، ولا يقال: المراد إنَّ الله غفور رحيمٌ للموصي بواسطة إصلاح الإمام أو القاضي أو المفتي أو الوصيِّ أو غيرهم؛ لأنَّه مــات على غير صواب غيــر تائب، هذا ما نقــول، وعند الله ما ليس عندنا، ولا يكون كمن لم يوقع إصلاحًا في شأن وصيَّته؛ لأنَّ ظلمه لم يصل غيره إذا أزيل بالصُّلح الجنفُ كلُّــه. ودونَ ذلك أمرُ الخطإِ في الحظْرِ إذْ لم يتعمَّد، **إلَّا أنَّك خبير بأنَّ الجهل عمد.**

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُتِبَ عَلَيۡكُمُ ٱلصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ ١٨٣ أَيَّامٗا مَّعۡدُودَٰتٖۚ فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا أَوۡ عَلَىٰ سَفَرٖ فَعِدَّةٞ مِّنۡ أَيَّامٍ أُخَرَۚ وَعَلَى ٱلَّذِينَ يُطِيقُونَهُۥ فِدۡيَةٞ طَعَامُ مِسۡكِينٖۖ فَمَن تَطَوَّعَ خَيۡرٗا فَهُوَ خَيۡرٞ لَّهُۥۚ وَأَن تَصُومُواْ خَيۡرٞ لَّكُمۡ إِن كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ١٨٤ شَهۡرُ رَمَضَانَ ٱلَّذِيٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلۡقُرۡءَانُ هُدٗى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَٰتٖ مِّنَ ٱلۡهُدَىٰ وَٱلۡفُرۡقَانِۚ فَمَن شَهِدَ مِنكُمُ ٱلشَّهۡرَ فَلۡيَصُمۡهُۖ وَمَن كَانَ مَرِيضًا أَوۡ عَلَىٰ سَفَرٖ فَعِدَّةٞ مِّنۡ أَيَّامٍ أُخَرَۗ يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلۡيُسۡرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلۡعُسۡرَ وَلِتُكۡمِلُواْ ٱلۡعِدَّةَ وَلِتُكَبِّرُواْ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَىٰكُمۡ وَلَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ ١٨٥﴾

فرضيَّة الصيام

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُتِبَ عَلَيۡكُمُ ٱلصِّيَامُ كَمَا﴾ حال من الكتب المحذوف المنصوب على المفعوليَّة المطلقة، أي: «كتب عليكم الصِّيام الكتبَ ثابتًا كما»، أو نعت لمصدر محذوف، أي: «كتِبَ كتبًا كَمَا» أو «صومًا مماثلاً للصَّوم الذي كتب»، أو حال من «الصِّيَام»، أو نعت له لأنَّ «ال» فيه للجنس فهو كالنَّكرة، أو يقدَّر المتعلِّق معرفة، أي: «الثابت كما»، و«ما» اسم في ذلك، إلَّا في الأوَّلين فمصدريَّة.

﴿كُتِبَ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ﴾ من الأنبياء وأممهم ولو تفاوت قدرًا وزمانًا. وقيل: لم يتفاوت من آدم إلى عهدكم، قال علي: «ما أخلى الله أمَّة مِن

فَرضِ الصَّوم، فارغبُوا فيه، وطيبُوا نفسًا به، واستسهلوه». والمشقَّة إذا عمَّت طابت. ﴿لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ المعاصي وما لا يَعْنِي فيه؛ لأنَّه يكسر النفس فَتَغْتَنِمُوا فيه، وتصفو[1] قلوبكم به لما بعدُ، قال ﷺ: «**يا معشرَ الشبابِ مَن استطاعَ مِنكم البَاءَةَ فليتزوَّجْ، فَإِنَّهُ أَغضُّ للبصرِ، وأحصنُ للفرجِ، ومن لم يستَطِعْ فَعليهِ بالصومِ، فَإِنَّ الصومَ لهُ وِجاءٌ**»[2]. أو تتَّقون التقصير فيه وإفساده، أو تركه، يشير إلى أنَّ قِدمه وعمومَه من موجبات المحافظة عليه، فلا تكونوا بتركها أنقص من غيركم وأنتم أفضل الأمم ونبيئكم أفضل الأنبياء.

[قصص] ويقال: كان على النصارى صوم رمضان فربَّما وقع في حرٍّ، وربَّما وقع في بردٍ فحوَّلوه للربيع، وزادُوا عشرين يومًا كفَّارة لتحويله، والمراد أنَّ غالبه في الربيع أمَّا أقلُّه ففي فبراير، فإنَّ أوَّل صومهم في ثامن فبراير فسبعة أيَّامٍ قبل الربيع، ويقال: ترك اليهود رمضان وصاموا يوما في السنة قالوا: إنَّه يوم غرق فرعَوْن، وزاد فيه النصارى يومًا قبله ويومًا بعده احتياطًا حتَّى بلغوا خمسين، فشقَّ عليهم للحَرِّ والبردِ فنقلوه إلى زمان حلول الشمس في برج الحمل، فالمماثلة في قوله تعالى: ﴿كَمَا كُتِبَ﴾ مماثلة في الوجود والمقدار والزمان، وهو عين رمضان. وقيل: في أصل الوجوب. وقيل: زادوا عشرة كفَّارة للتحويل ثمَّ مرض ملكهم بأكل لحم فشفاه الله، فزاد خمسة، وقال آخر: أتمُّوه خمسين؛ وقيل: زادوا عشرين لموت أصاب مواشيهم؛ وقيل: لموتٍ أصاب أنفسهم.

﴿أَيَّامًا مَّعْدُودَاتٍ﴾ متعلِّق بـ«الصِّيَام»، أي: كتب عليكم الصيام في أيَّام معدودات، أي: كتب عليكم أنْ تصوموا في أيَّامٍ معدودات، ولا بأس بالفصل

---

(1) في الأصل: «ويصفو».

(2) رواه مسلم في النكاح (1)، باب استحباب النكاح لمن تاقت نفسه إليه ووجد مؤونة...، رقم: (1) 1400. ورواه أحمد في مسنده، ج 2، ص 14، رقم: 3592. والبيهقي في الصيام (114)، باب ما جاء في فضل الصوم...، رقم: 8453، من حديث ابن مسعود.

لقلَّته وظهور المعنى، وهو أولى من الحــذف، ومن كل ما هو خلاف الأصل. أو يقدَّر: صوموا أيَّامًا معدودات بدليل «الصيام»، وفيه السلامة من الفصل بـ«لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ»، وبأجنبيٍّ، وهو: «كَمَا كُتِبَ»، إلَّا أنهم يتوسَّعون في الفصل بالظروف.

ووَصَفَها بـ«مَعْدُودَاتٍ» تقليلاً لهــا، أي: هي دون أربعين على ما قيل من أنَّ المعتاد إذا ذكر لفظ العدد فالمراد ما دونها، وأيضًا من شــأن القليل أنْ يُعدَّ ومن شأن الكثير أنْ يُهَال، فيكون المعنى: أيَّاما مضبوطة بالعدِّ لا مجازفًا بها.

وكلٌّ من «أيَّام» و«معدودات» جمع قلَّة فلو شاء لقال: أيَّامًا معدودة، بإفراد معدودة، ولو شاء لقال: شهرًا معدودًا، أو جملة معدودة، وفي ذلك تسهيل. أو لعلَّكم تتَّقون المكاره والمعاصي والكسل في أيَّام معدودات. أو يتعلَّق بضمير «كُتِبَ» الثاني لعوده للصيام عنــد الكوفيِّين، أي: كما كتــب على الذين من قبلكم أنْ يصوموا أيَّامًا معدودات، أو بـ«كُتِبَ» الأوَّل أو الثاني لتضمُّنه معنى: صوموا، أو المعنى: كُتب عليكم الصيام كتابة شــبيهة بكتابته على من قبلكم في كونه في أيَّامٍ معدودات. وقيل: الأيَّام المعدودات يوم عاشوراء وثلاثة من كلِّ شــهر ثم وجب رمضان دونهنَّ. وقيل: لم يفرض قبله صوم. وقيل فرض قبله عاشوراء. وقيل: أيَّام البيض.

ولا يقال: لــو أريد بهنَّ رمضان لــكان ذكر المريض والمســافر تكرارا لأنَّا نقول: وجب الصوم على التخيير بينه وبين الفدية، ثمَّ وجب بلا تخيير فنبَّه على أنَّ رخصة السفر والمرض باقية وأيضًا المسافر والمريض ممَّن شهد الشهر.

﴿فَمَــن كَانَ مِنكُمْ﴾ معشــر البالغين العقــلاء الداخل عليهــم رمضان، ﴿مَّرِيضًا﴾ مرضا يشقُّ معه الصوم بعض مشــقَّةٍ، أو يضرُّه أو يتأخَّر معه برؤه، أو يزيد به المرض. وذلك بالتجربة أو بإخبار الطبيب المســلم الحاذق لقوله تعالى: ﴿يُرِيدُ اللهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ﴾.

[فقه] فإذا كان الصوم يعسر مع مرض حلَّ الإفطار، لا كما قيل عن ابن سيرين أنَّه أفطر لوجع إصبعه، ولا كما قال الشافعي: لا يفطر حتَّى يجهده الجهد الذي لا يحتمل. وروي عن مالك أنَّه يفطر صاحب الرمد الشديد أو الصداع المضرِّ، وليس به مرض يضجعه إنْ شاء. واحتجَّ من أباح الإفطار بالمرض ولو لم يعسر ولم تكن فيه مشقَّة بإطلاق الآية، وهو رواية عن الشافعي، وهو قول ابن سيرين والحسن البصريِّ، وبأنَّ السفر قد يخلو عن مشقَّة وحلَّ الإفطار فيه ولو بلا مشقَّة لأنَّه سبب لها، ويجاب بأنَّ الرخصة لم تتعلَّق بنفس المرض لتنوُّعه إلى ما يزاد بالصوم وإلى ما يخفُّ به، وما يخفُّ به لا يكون مرخِّصًا البتَّة، فجعل ما يزاد به مرخِّصًا، بخلاف السفر لأنَّه لا يعرى عن المشقَّة، فجعل نفس السفر عذرًا.

[فقه] ﴿أَوْ عَلَى سَفَرٍ﴾ ثابتًا أو راكبًا على سفر، ولو قصيرًا بعد مجاوزة الفرسخين ممَّا استوطنه، ولو لم يجاوز الحوزة على التحقيق إنْ جاوزهما ليلا فبيَّت الإفطار من الليل، أو جاوزهما نهارًا فإذا جاء الليل بيَّت الإفطار؛ أو صام يومًا في السفر، فإذا جاء الليل بيَّت الإفطار، وإن أفطر نهارًا قبل المجاوزة أو بعدها نهارًا، أو بلا تبييت فلا كفَّارة عليه لشبهة السفر، ولشبهة أقوال العلماء فيه، حتَّى إنَّ منهم من أجاز أن يفطر من بيته.

[فقه] وَأَمَّا المريض فيبيِّت الإفطار من الليل، وإنْ أفطر بلا تبييت لشبهة المرض فلا كفَّارة عليه، وإن اشتدَّ المرض بحيث لا يطيق الصوم وخاف على نفسه أو عضوه أفطر بقدر ما يصل به الليل، وقيل: أو بما شاء، فيبيِّت نيَّة الإفطار في الليل المستقبل. وزعم بعض قومنا أنَّه يفطر المريض بلا تبييت إفطار بخلاف المسافر؛ لقوله تعالى: ﴿أَوْ عَلَى سَفَرٍ﴾ وليس بشيءٍ؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَا تُبْطِلُوا أَعْمَالَكُم﴾ [سورة محمَّد: 33]، فليتمَّ المريض يومه إن قدر على إتمامه كالمسافر، والمسافر متمكِّن على السفر في أثناء اليوم كما تمكَّن عليه وقت طلوع الفجر.

[فقه] وإنْ كان السَّـفر لمعصيـة لم يجز له الإفطـار على الصحيح، وعليه الأكثر. ويجب الإفطار إنْ كان الصوم يضرُّ المريض والمسافر، وإلَّا ولا مشـقَّة فالصوم أفضل عند بعضٍ، والإفطار أفضل عند بعض، وأوجبته الإماميَّة، وأخطؤوا.

﴿**فَعِدَّةٌ**﴾ قدر ما أفطر، بمعنى: معـدودة، كالطحن بمعنى: المطحون، ﴿**مِّنَ اَيَّامٍ اُخَرَ**﴾ فعليه صوم عدَّة إنْ أفطر، أو يقدَّر: فأفطَرَ عقب قوله: ﴿أَوْ عَلَى سَفَرٍ﴾.

[فقه] وكذلك عليه عدَّة الشـهر إنْ أفطره كلَّه، إنْ كان تسـعة وعشرين قضى تسعة وعشـرين فقط، ولو بدأ القضاء من أوَّل شهر وكان فيه ثلاثون فلا تَهِـمْ، فإنَّما عليه قضاء شـهر رمضان الـذي خوطب به، فإذا كان من تسـعة وعشـرين لم يزدد، **والآية حجَّة لـي**. وذَكَر بعض أصحابنا وشـهَّروه وبعض قومنا أنَّه إنْ بدأ من أوَّل الشـهر أتمَّه زاد على رمضـان أم نقص. وبعض: إنْ نقصَ أَتَمَّه. و«مِن» للبيان أو للتبعيض، أي: عدَّة من جملة أيَّام، مثل أنْ يخصَّ أيَّاما من شهرٍ كأوَّله ووسطه وآخره.

﴿**وَعَلَى الَّذِينَ يُطِيقُونَهُ**﴾ إن أفطروا في غير سـفر، أو يقدَّر هذا بعد قوله: ﴿**فِدْيَةُ طَعَامِ مَسَاكِينَ**﴾ أي: فدية هي طعام مساكين.

والجمع باعتبار الجمع في إفطـاره بأنْ أفطر ثلاثة أيَّام فصاعدًا، ولو أفطر يومًا لكان فدية طعام مسكين بالإفراد، أو يومين لكان طعام مسكينين.

[فقه] يكال لكلِّ مسـكين مدَّان من بُرٍّ أو أربعة من غيره عند العراقيِّين، ومدًّا من برٍّ عند الحجازيِّين. ويجـوز ذلك من غالب قوت البلد. وأجيز مدَّان من شـعير. ويجوز أنْ يأكل في بطنه حتَّى يشـبع غداء وعشـاء. وأجيز أكلة واحدة حتَّى يشبع. وإنْ لم يفطروا فلا فدية عليهم ثمَّ نسخ ذلك بقوله تعالى: ﴿فَمَن شَهِدَ مِنكُمُ الشَّـهْرَ فَلْيَصُمْهُ﴾، أو بقوله: ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنزِلَ...﴾

إلخ، وبقولـــه: ﴿وَأَن تَصُومُواْ خَيْـرٌ لَّكُم﴾ وذلك تدريج لهم لمشـــقَّته إذ لم يتعوَّدوه ليتدرَّبوا، والنســـخ بعد العمل هنا، ولـــو كان الصحيح أنَّه يجوز قبل العمل أيضًـــا، وحكمته قبل العمل قبول المنســـوخ والإذعان له قبل نســـخه، فيثاب على ذلك وغيره ممَّـــا قرَّرته في أصول الفقه. وعن ابـــن عبَّاس: كانوا يفطرون ويطعمون ولو أصبحوا على الصوم.

﴿فَمَن تَطَوَّعَ خَيْرًا﴾ عالج الطاعة بصوم أكثر من العدَّة التي أفطر فيها، أو بإطعام أكثر ممَّا لزمه، ﴿فَهُوَ﴾ أي: الخير وهو صوم الزائد على العدَّة، أو على الإطعام الواجب، أو الضمير للتطوُّع. ﴿خَيْرٌ لَّهُ﴾ أفضل ثوابًا، فهو نفع له أخرويٌّ.

﴿وَأَن تَصُومُواْ خَيْرٌ لَّكُم﴾ من الإطعام والإفطار ولو مع زيادة على القدر الواجب في الإطعام، أو خير لكم من الإفطار والإطعام والزيادة فيه.

وإن قدَّرنـــا: «لا يطيقونه» لنحو كبر مـــن العلل اللازمـــة، أو الذين كانوا يطيقونه ثمَّ عجزوا لِكبر ونحوه من العلل اللازمة ـ مع ما فيهما من التكلُّف ـ فلا نســـخ. وقدَّر بعضهم: لا يطيقونه، أو كانوا يطيقونه شـــاملا لكبر ونحوه، وحمل ورضاع.

[فقه] إلَّا أنَّ الحامل والمرضـــع تقضيان ولو أطعمتـــا. ولا إطعام على مريض يرجـــى بـــرؤه. وَأَمَّا قولـــه ﷻ: ﴿يُطِيقُونَـــهُ﴾ على إبقائـــه بلا تأويل بـ«كانوا»، ولا بـ«لَا» فغير شامل للحامل والمرضع؛ لأنَّهما ولو تطيقان لكن خافتا على الحمـــل والرضيع، وتفطران وجوبًا وتطعمـــان وتقضيان، بخلاف الصحيحِ المطيـــق فإنَّ إفطاره على التخيير بينه وبيـــن الصوم ولا قضاء عليه، وذلك قبل النســـخ. ومن عجـــز بعده على الصـــوم لكبر أو علَّـــة لازمة أفطر وأطعمَ، وقيل: لا إطعام عليه.

[فقه] وقال بعـض: على الحامل والمرضع القضـاء والإطعام إن خافتا على الولد، وإن خافتا عليهما فقط أو عليهما وعلى الولد فالقضاء فقط. وقال أبو حنيفة: لا إطعام على الحامل والمرضع لأنَّهما تقضيان بخلاف الكبير. وعن الحسن: أيُّ مرض أشدُّ من الحمل؟! تفطر الحامل وتقضي ولا تطعم، خافت على نفسها أو ولدها أو عليهما. ويقال: الصوم خير لمن تطوَّع به وهو مريض أو مسافر مع عدم شـدَّة المشـقَّة، وَأمَّا معها فالإفطار خير. والمطيق بحسـب الأصل: اسـم القادر على الشيء مع شـدَّة، فتشمل الآية الكبير بلا تقدير «لا»، وبلا تقدير «كانوا».

﴿**إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ**﴾ يظهر لكم أنَّه خير إن كنتم من أهل العلم، وإن كنتم تعلمون ثوابه وحُسن براءة الذمَّة اخترتموه، أو فافعلوه.

﴿**شَهْرُ رَمَضَانَ**﴾ إضافة عامٍّ لخاصٍّ، كشـجر أراك، وهي للبيان، أي: شهر هو رمضان، فيجوز ذكر رمضان بلا شـهر، وليس اسمًا لله كما ادَّعى من زعم أنَّه مـرويٌّ. والمعنى: كتب عليكم الصيام، صيام شـهر رمضان ﴿**الَّذِي أُنزِلَ فِيهِ الْقُرْءَانُ**﴾ أو تلكم الأيَّام المعدودات ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنزِلَ...﴾ إلخ. أو شهر رمضان، الشهر الذي أنزل فيه القرآن بمرَّة كلُّه إلى السماء الدنيا.

[لغة] والشهر من شَهرتُ الشيء: أظهرتُه؛ لأنَّ الشهور تُعيَّن للعبادة أو للمعاملة. ورمضـان من الرمْض (بإسـكان الميم)، وهو مطـر يأتي قبل الخريف يزيـل الغبار عن وجـه الأرض، فكذلك صومـه يزيل الذنوب. وقيل: سمِّي لارتماضهم فيه عامًا بالجوع والعطش. أو لوقوعه أيَّام رمَض، أي: شدَّة حرٍّ، فسمِّي بعدُ، ولو لم يكن جوع أو عطش أو حرٌّ. أو لاحتراق الذنوب، إلَّا أنَّ هذا يناسـب النزول لا ما قبله، ولا بأس، بل هو المرويُّ عنه ﷺ. أو لمرض الفصال.

قيل: نقلت أسماء الشهور على أسمائها الأولى دفعة، وقيل: تدريجًا، واختير الأوَّل. ووجه الثاني: أنَّهم حفظوا لكلِّ شهر ما وقع فيه، وَلَمَّا تمَّت اتُّفق أنَّهم سمَّوها لتحريم القتال في المحرَّم، وخلوِّ مكَّة عن أهلها في صفر للحرب، وارتباع الناس في الربيعين، وجمود الماء في الجمادين، وشوال أذناب اللقاح في شوَّال، ورجب الناس شجرهم بالعمد لعظم حملها، وتعظيمهم ـ ولو في الجاهليَّة ـ رجبًا، حتَّى إنَّهم يحجُّون فيها كما في ذي الحجَّة، والرجب: التعظيم، وقعودهم عن الحرب في ذي القعدة، وحجُّهم من قبْل الإسلام في ذي الحجَّة أصالة، وتشعُّب القبائل في شعبان.

﴿**هُدًى لِّلنَّاسِ**﴾ حال كونه هاديًا، وإسناد الهداية إليه مجاز عقليٌّ، ولولا قوله: ﴿**وَبَيِّنَاتٍ**﴾ لكان مفعولا من أجله، أي: وآيات واضحات، والهدى أعمُّ لأنَّه يكون بواضح وخفيٍّ. ﴿**مِّنَ الْهُدَى**﴾ مِمَّا يهدي إلى الحقِّ ﴿**وَالْفُرْقَانِ**﴾ ومن الفرقان، مِمَّا يفرق بين الحقِّ والباطل. الهدى الأوَّل: هداية حاصلة بإعجازه، والهدى الثاني: هو الهدى الحاصل باشتماله على الحقِّ. والتفريق بينه وبين الباطل لما فيه من أنواع الحكمة وأمور الدين، من واجب وحرام ومستحبٍّ. أو الأولى: الآداب والديانات الاعتقاديَّة، والثانية أمور الدين. أو الأولى الاعتقادات، والثانية باقي ما ذكر، فلا تكرير.

﴿**فَمَن شَهِدَ مِنكُمُ الشَّهْرَ**﴾ المذكورَ، أي: حضره بالغًا عاقلا صحيحًا قادرًا غير مسافر، رأى الهلال هو أو غيره، أو استكمل العدَّة لشعبان. وليس الشهر مرادًا به الهلال، فسمِّي أوَّل الشهر باسم كلِّه، أو يقدَّر مضاف. قال ابن عبَّاس وعليٌّ وابن عمر: من شهد أوَّل الشهر فليصمه جميعَه ولا يفطر، ولو سافر، ولذلك قال الله جلَّ وعلا: ﴿**فَلْيَصُمْهُ**﴾ ولم يقل: فليصم فيه.

[فقه] والصحيح أنَّ لمن شهد أوَّله أن يسافر ويفطر، والآية لا تمنع ذلك بل توجب الصوم على حاضره ما لم يكن مريضًا أو مسافرًا؛ ولو جُنَّ

في باقيه حتَّى انسلخ فإنَّه يقضي، أو جنَّ قبله وأفاق فيه فإنَّه يقضي ما مضى، وقيل: لا يقضيان بناء على أنَّ كلَّ يوم فرض، وإن جنَّ قبله وأفاق بعده فلا قضاء عليه لأنَّه لم يشهده.

﴿وَمَن كَانَ مَرِيضًا اَوْ عَلَى سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنَ اَيَّامٍ اُخَرَ﴾ كرَّره لئلَّا يُتوهَّم أنَّهما داخلان فيمن شهد المعبَّر به هنا دون ما مضى، ولئلَّا يتوهَّم نسخ قوله أوَّلاً: ﴿فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا...﴾ إلخ بقوله هنا: ﴿فَمَن شَهِدَ مِنكُمُ الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ﴾ بأن يجب الصوم على المريض والمسافر مع أنَّه ليس كذلك، كما نسخ: ﴿وَعَلَى الَّذِينَ يُطِيقُونَهُ﴾.

﴿يُرِيدُ اللهُ بِكُمُ الْيُسْرَ﴾ في دينه، أي: يشرِّعه.

[أصول الدين] وهو مراد أبي حيَّان إذ فسَّر الإرادة بالطلب، قال ذلك خروجًا عن تبدُّل الإرادة، فإنَّ إرادة الله لا تتبدَّل، وذلك منه خروج عن مذهب الاعتزال، إذ زعمت المعتزلة أنَّ إرادته تعالى قد يخالفها العبد وتبطل.

﴿وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ﴾ ومن ذلك أنَّه أباح الإفطار في المرض والسفر دائمًا، وخيَّر بين الصوم والإطعام أوَّلاً، تسهيلاً أو تأنيسًا ثمَّ نسخ لَمَّا تدرَّبتم فتوفَّر لكم الأجر.

﴿وَلِتُكْمِلُواْ الْعِدَّةَ﴾ اللام ليست للأمر بإكمال ما أفطرتم فيه، أو بإكمال عدَّة رمضان ثلاثين أو تسعة وعشرين، بل للتعليل عطفًا على المعنى، كعطف التوهُّم في غير القرآن؛ لأنَّ قوله: ﴿يُرِيدُ﴾ في معنى العلَّة للأمر بالصوم، وكذا قوله: ﴿وَلِتُكَبِّرُوا اللهَ﴾ ولا تكون لام الأمر؛ لأنَّ أمْرَ المخاطب باللام يختصُّ بالضرورة أو شاذٌّ أو لغية[1]. ﴿عَلَى مَا هَدَاكُمْ﴾ أي: ولتثنوا عليه

---

(1) كذا في النسخ المعتمدة.

لأجل هدايته إيَّاكم لدينه، أو تثنوا عليه حامدين عليها، والتكبير للتعظيم والثناء؛ وقيل: تكبير العيد من المغرب إلى صلاة العيد؛ وقيل: تكبير رؤية الهلال. ﴿وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ اللهَ على التيسير والترخيص. ويجوز أن يكون المعنى: فصوموا عدَّة أيَّام أخر لتكملوا العدَّة التي لم يصم المريض والمسافر في مثل تلك العدَّة.

[فقه] وهداكم كيفيَّة القضاء متتابعًا، كما دلَّ له لفظ «عدَّة»، كأنَّه قيل: مجموعة بِنِيَّة من الليل نيَّة واحدة له، لتكبِّروا الله على إرشادكم إلى الحقِّ، ولا سيما القضاء المطلق، ورخَّص في الإفطار للمسافر والمريض وحامل ومرضع، لكي تشكروا. أو العطف على محذوف، أي: ليسهِّل، ولتكملوا، أو لتعلموا ما تعملون، ولتكملوا.

[أصول الدين] ولا يخفى أنَّ أمر الله ونهيه يتخلَّفان، يأمر المكَّلفَ ولا يمتثل، وينهاه ولا ينتهي، وإرادته لا تتخلَّف كما قال أبو حيَّان ردًّا منه على المعتزلة؛ فلا يجوز العطف على اليسر بزيادة اللام، هكذا: يُرِيدُ اللهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وتكميلَ العدَّة، فقد لا يكملها ولا يكبِّر الله، وقد قضى الله بالتكبير والتكميل، هذا باطل لا يصحُّ، إلَّا أن يُتكلَّف بتأويل الإرادة هنا بالأمر. وصائم رمضان يثاب على ثلاثين يومًا ولو نقص الشهر؛ لأنَّه نوى إن تمَّ صامه تامًّا.

[سبب النزول] قالت جماعة من العرب، أو أعرابيٌّ لرسول الله ﷺ: أقريب ربُّنا فنناجيه ـ أي: ندعوه سرًّا ـ أم بعيد فنناديه؟ ـ أي: نجهر، فنزل قوله تعالى:

﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا
لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ (186) أُحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ الصِّيَامِ الرَّفَثُ إِلَى نِسَائِكُمْ
هُنَّ لِبَاسٌ لَكُمْ وَأَنْتُمْ لِبَاسٌ لَهُنَّ عَلِمَ اللَّهُ أَنَّكُمْ كُنْتُمْ تَخْتَانُونَ أَنْفُسَكُمْ فَتَابَ
عَلَيْكُمْ وَعَفَا عَنْكُمْ فَالْآنَ بَاشِرُوهُنَّ وَابْتَغُوا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا حَتَّى
يَتَبَيَّنَ لَكُمُ الْخَيْطُ الْأَبْيَضُ مِنَ الْخَيْطِ الْأَسْوَدِ مِنَ الْفَجْرِ ثُمَّ أَتِمُّوا الصِّيَامَ إِلَى اللَّيْلِ وَلَا
تُبَاشِرُوهُنَّ وَأَنْتُمْ عَاكِفُونَ فِي الْمَسَاجِدِ تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلَا تَقْرَبُوهَا كَذَلِكَ
يُبَيِّنُ اللَّهُ آيَاتِهِ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ (187)﴾

أحكام الصيام

﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ﴾ بعلمي بهم، ونفعي لهم، وإجابة دعائهم، وبأحوالهم، والله قريب سأل العباد عنه أم لم يسألوا، ولكن المعنى: وإذا سألك عبادي عنِّي فقل لهم عنِّي إنِّي قريب. سألوه عن القرب والبعد الحسِّييْن؛ لأنَّهم حديثو عهد بالإسلام، ولا سيما إذا قلنا: إنَّ السائل أعرابيٌّ، فإنَّ البدويَّ كثير الجهل، **وأجابهم بأنَّه قريب قربًا معنويًّا.** ويحتمل أنَّهم مشركون سألوه عن القرب والبعد حسًّا فأجابهم بالقرب المعنويِّ، ولا يبعده قوله تعالى: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي﴾ لأنَّه يحبِّب الإسلام إلى المشركين بهذا وبما هو أعظم، فليس كما قيل: إنَّ قوله: ﴿عِبَادِي﴾ وقولهم فنناجيه يبعد كون السائلين مشركين.

وقيل: سألوه عن القرب والبعد المعنويَّيْن وهم مسلمون، ورجَّحه بعض، وهما قربُ الإجابة وبُعدُها، وإذا قلنا: السائل واحد فالجمع لكون الحكم يعمُّ السائل وغيره، والسؤال لا يختصُّ به، وربَّما سأل غيره؛ ولذا قال: «إِذَا» مع أنَّه قد وقع السؤال من واحد أو جماعة. ويجوز أن تكون «إِذَا» لتنزيل حال النزول منزلة ما تقدَّم عن السؤال. ﴿أُجِيبُ﴾ بإعطاء المطلوب ﴿دَعْوَةَ الدَّاعِي إِذَا دَعَانِي﴾ تفسير للقرب المذكور في الآية خصوصًا، وإن أريد به عموم أنَّه عالم فهذا تقرير له، وعلى الوجهين هو وعد بالإجابة، ولا يشكل تخلُّفها لحكمة، فقد تتخلَّف مطلقًا، وقد تتخلَّف إلى بدل. قال ﷺ: «**ما من مسلمٍ يدعو بدعوةٍ ليسَ فيها إثم ولا قطيعةُ رحمٍ إلَّا أعطاهُ الله تبارك وتعالى إحدَى ثلاثٍ: إمَّا أن يُعجِّل دعوتَه، وإمَّا أن يدَّخر له، وإمَّا أن يكفَّ عنه مِن السوءِ مثلَها**»[1].

﴿فَلْيَسْتَجِيبُواْ لِي﴾ بالطاعة كما أجيب دعاءهم، أو ليطلبوا إجابتي، ﴿وَلْيُؤْمِنُواْ بِيَ﴾ إن كانوا مشركين، وليدوموا على الإيمان إن كانوا موحِّدين. وقيل: الاستجابة بعمل الجوارح كما فسَّرته، والإيمان بالقلب. ﴿لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ﴾ يهتدون إلى مصالحهم الدينيَّة والدنيويَّة.

﴿أُحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ الصِّيَامِ﴾ حقيقة ليالي الصوم، وأضيفت للصوم مع أنَّه لا صوم في الليل بل في النهار لاتِّصالها بنهارها بعدها، ولأنَّ نية الصوم في الليل، أو باعتبار ما قبل نزول هذه الآية من وجوب صوم ما بقي من الليل بعد صلاة العشاء، أو النوم، وهو متعلِّق بقوله: ﴿الرَّفَثُ﴾ ولو كان منحلًّا إلى حرف المصدر والفعل للتوسُّع في الظروف لا بـ«أُحِلَّ»؛ لأنَّ نزول الإحلال ليس في ليلة رفث مخصوصة، ولا كلِّ ليلة رفث، إلَّا بتأويل: أثبت لكم كلَّ

---

(1) رواه **أحمد** في مسنده، ج4، ص37، رقم: 11133، من حديث أبي سعيد. ورواه **مسلم** في كتاب الذكر والدعاء (25)، باب بيان أنَّه يستجاب للداعي ما لم يعجِّل، رقم: 92، بالاقتصار على الشطر الأوَّل منه، من حديث أبي هريرة.

ليلة الرفث، أي: يوقع ثبوته في كلِّ ليلة، وهو بمعنى الجماع، وعدِّي بـ«إِلَى» كما قال: ﴿إِلَى نِسَآئِكُمْ﴾ لتضمُّنه معنى الإفضاء المستعمل مع النساء غالبًا بمعنى الجماع. وهو جمع نسوة، أو لا مفرد له، يقال: أفضى إلى امرأته، أي: جامعها، قال: ﴿وَقَدْ أَفْضَىٰ بَعْضُكُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ﴾ [سورة النساء: 21].

﴿هُنَّ لِبَاسٌ لَّكُمْ وَأَنتُمْ لِبَاسٌ لَّهُنَّ﴾ يمنع كلٌّ من الزوجين الآخر من الزنى بالفرج والعين والقلب واللسان واليد والرجل والإمناء باليد، بكونه فيه كفاية للآخر، كما يمنع الثوب انكشاف العورة، ويقيه من حرِّ جهنَّم وبردها كما يمنع الثوب الحرَّ والبرد عن البدن، ويحتاج كلٌّ للآخر كما يحتاج للثوب، ويخالط كلٌّ الآخر بالالتصاق كالثوب مع البدن. قال ﷺ: «**من تزوَّج فقد أحرز ثلثي دينه**»[1]. وقدَّم كونهنَّ لباسًا لأنَّهم أشدُّ احتياجًا إليهنَّ؛ لأنَّهم أقلُّ صبرًا عن الجماع منهنَّ، وهنَّ أشدُّ حبًّا للجماع إلَّا أنَّهنَّ أكثر صبرًا وأشدُّ حياء. قال ﷺ: «**لا خيرَ في النساءِ، ولا صبرَ عنهنَّ، يغلِبن كريمًا، ويغلِبُهنَّ لئيم، وأُحبُّ أن أكون كريمًا مغلوبًا، ولا أحبُّ أن أكون لئيمًا غالبًا**»[2].

﴿عَلِمَ اللهُ أَنَّكُمْ كُنتُمْ تَخْتَانُونَ﴾ أَوْكَدُ من «تخونون»؛ لأنَّ من معاني «افتعل» العلاج والمبالغة، ولكثرة الحروف، والمعنى: تعرضون للعقاب وحرمان الثواب. ﴿أَنفُسَكُمْ﴾ بالجماع بعد النوم أو بعد صلاة العشاء، وقد حرِّم ذلك ليلة الصوم، والمعنى: تختانون أنفسكم في الجملة طبعًا لا في خصوص الجماع وقت تحريمه، بل هذا داخل في الجملة، ولهذا قال: ﴿كُنتُمْ﴾، ويحتمل أن يريد خصوص ذلك الجماع، أخبر الله بعد وقوعه أنَّه عالم به حين كان.

---

(1) أورده **الهيثمي** في مجمع الزوائد، ج4، ص255، من حديث أنس بما يقرب معناه. ورواه **الطبراني** كذلك في الأوسط، ج1، ص162، رقم: 1، من حديث أنس. وذكر **الآلوسي** في تفسيره أنَّه خبر وليس بحديث.

(2) لم نقف على تخريجه. أورده **الآلوسيُّ** في تفسيره ولم ينسبه، وقال: وفي الخبر: «لا خير...» إلخ. روح المعاني، ج2، ص65.

[سبب النزول] وذلك أنَّ عمر وكعب بن مالك وغيرهما جامعوا وقت لا يجوز، وهو ما بعد أن ينام، فإذا نام حرم عليه الجماع والأكل والشرب إلى الليلة التي بعد، وقد سَمر عمر عنده ﷺ، ووجد رائحة طيِّبة عند زوجه، وقالت: قد نمتُ، وقال: ما نمتِ، واعتذروا للنبيء ﷺ، فنزل ﴿أُحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ الصِّيَامِ...﴾ الآية.

﴿فَتَابَ عَلَيْكُمْ﴾ إذْ تبتم من هذه الكبيرة، أو تبتم فتاب عليكم، أي: قبل توبتكم، قال عمر: يا رسول الله، أعتذر إلى الله وإليك من هذه الخطيئة، إنِّي رجعت إلى أهلي بعدما صلَّيت العشاء، فوجدت رائحة طيِّبة، فسوَّلت لي نفسي فجامعتها. وهذه توبة، وكلُّهم تابوا. ﴿وَعَفَا عَنكُمْ﴾ أزال العقاب كما تعفو الريح الأثر، أي: تزيله؛ أو «تاب عليكم»: أزال التحريم، و«عفا»: غفر لكم ما فعلتم. ﴿فَالْآنَ﴾ اسم الإشارة، ظرف زمان مبنيٌّ موضوع على «الْ»؛ وقيل: «ال» للحضور، وهي المفيدة له، ويقال: أصله: آنَ، فعلاً ماضيًا بمعنى حضر، ثمَّ جعل اسمًا وهو ظرف بمعنى الزمان الحاضر إلى قيام الساعة، أي: باشروهنَّ في الزمان كلِّه متى شئتم بعدما أبحت لكم، فصحَّ أن يعلَّق بقوله:

﴿بَاشِرُوهُنَّ﴾ فليس اسمًا لوقت النزول فقط؛ لأنَّ وقت النزول انقطع والأمر لِمَا بعد، أو يقال معنى «بَاشِرُوهُنَّ»: أبحنا لكم مباشرتهنَّ بعد الحضر، فيكون الآن لوقت النزول على هذا الوجه. وعبَّر هنا بالمباشرة عن الجماع، وهنالك بالرفث لأنَّه هنا حلال بخلافه هنالك فإنَّه فعل محرَّم قبيح. وسمِّي مباشرة لأنَّ فيه إلصاق البشرة، أي: الجلدة بالجلدة غالبًا، بل لو لم يكن إلَّا فرج في فرج، ففيه مسُّ جلد الفرج بجلد الفرج. ﴿وَابْتَغُواْ﴾ اطلبوا ﴿مَا كَتَبَ﴾ في اللوح المحفوظ أو قدَّره ﴿اللهُ لَكُمْ﴾ معشر المسلمين من الولد إجمالاً، إذ ليس لكلِّ فرد ولد، بل الولد لبعض دون بعض، فتعبَّدهم بأن يطلب كلُّ واحد ولدًا، ويرجو أن يكون مِمَّن قدِّر له ولد فيثاب على

الدعاء، وعلى أنَّه كان له ولد مطيع لله نافع له بعد موته مثلا لنيته، أو المعنى دونكم وما أباح لكم من الجماع، وخذوا منه ما شئتم، أو ذلك كلُّه.

[فقه] وهكذا يكـون الجماع بقصد تحصين النفـس عن الزنى، وبقصد طلب ولد مسـلم لا اللذَّة وحدها كالبهيمة. فتضمَّنت الآية النهي عن الجماع في الدبـر إذ لا ولد منه، والنهي عن العزل وهو صـبُّ الماء خارجًا هربًا عن الولد، ولا يعزل عن الحرَّة إلَّا بإذنها خلافًا لمن أجازه، ولا سـيما من أجازه عند فساد الزمان، وجاز عن الأمة المتزوِّجة بإذن مالكها، وقيل: بإذنها، وعن السريَّة بلا إذن. ولفظ «ما» لعموم الجماع والولد، وإن كان للولد فلأنَّ النطفة وما قبل نفخ الروح غير عاقل.

﴿**وَكُلُواْ وَاشْـرَبُواْ**﴾ الليل كلَّه متى شـئتم، لا ما قبل صلاة العشاء أو النوم فقط.

[فقه] والأكل واجب كما إذا خيف الموت بالجوع، أو مضرَّة في بدنه أو للحمل، وجائز إذا جاع دون ذلك، وحرام كأكل الحرام والميتة، والأكل على الشـبع، إلَّا لعق الأصابع والصحفة فإنَّـه جائز على الشـبع، وإلَّا ماءَ زمزم. ومكروه كَريبةٍ في طعام من جهـة المعاملة، وفي نفسـه كالحيوان المكروه. ومستحبٌّ كأكل الحلو عند الإفطار في المغرب، والإفطار به صبح عيد الفطر، والإفطار ضحًى بزيادة الكبد.

﴿**حَتَّى**﴾ غاية للأكل والشـرب لا لهما وللجماع، لقوله ﷺ: «**مَن أصبحَ جُنبًا أصبحَ مُفْطِرًا**»[1] فيجب الكفُّ عنه إذا لم يبق ما يتطهَّر فيه.

---

(1) رواه **الربيع بن حبيـب** في الجامع الصحيح، كتـاب الصوم (51)، باب مـا يفطر الصائم، رقم: 315، من حديث أبي هريرة. ورواه **مالك** في الموطأ، كتـاب الصيام، باب ما جاء في صيام الذي يصبح جنبا في رمضان، رقم: 644، عن أبي هريرة.

﴿يَتَبَيَّنَ لَكُمُ الْخَيْطُ الَابْيَضُ﴾ الضياء الشبيه بالخيط الأبيض ﴿مِنَ الْخَيْطِ الَاسْوَدِ﴾ من بقيَّة الليل السواد الشبيه بالخيط الأسود، متعلِّق بـ«يَتَبَيَّنَ». ﴿مِنَ الْفَجْرِ﴾ حال من الخيط الأبيض. و«مِنْ» للبيان، كأنَّه قيل: والخيط الأبيض هو الفجر، أو للتبعيض اعتبارًا لكون الفجر اسمًا للكلِّ والبعض، فإن أريد به الكلُّ فتبعيضيَّة، وإن أريد به الجزء فبيانيَّة، كما أنَّه إذا قلنا: اسم لكلِّه، فإنَّها بيانيَّة لتقدير مضاف، أي: وهو بعض الفجر.

ولم يبيِّن الخيط الأسود بقوله: من بقيَّة الليل، أو قوله من الغبش، اكتفاءً ببيان الخيط الأبيض لأنَّ بيانه بيان له، ولم يعكس لأنَّ غالب أحكام الصوم من حرمة المباشرة والأكل والشرب مرتبطة بالفجر لا بالليل، وبيان الشيء بيان لضدِّه.

والمراد بالخيط الأسود: طرف الظلمة المتَّصل بالفجر، فلا يشكل اتِّساع الظلمة حتَّى يكون كخيط، أو سمَّاها كلَّها خيطًا لمشاكلة ما هو كخيط، وهو الفجر.

[فقه] ومعلوم أنَّ الله لا يأمر الناس بأكل التراب وغير المغذِّي إلَّا ما كان دواء. وأكل التراب حرام، فيلتحق به ما أشبهه، فليس الله يقول لنا: كلوا التراب وغيره حتَّى يتبيَّن لكم... إلخ، فليس ما لا يغذِّي مفطرًا للصائم؛ لأنَّه لم يدخل في الآية، هذا قلته من جانب من يقول: لا يفطر إلَّا المغذِّي، ولم أر مَن ذَكَرَ مثلَه، **ومشهور المذهب خلافه.**

﴿ثُمَّ أَتِمُّواْ الصِّيَامَ﴾ من الفجر ﴿إِلَى اللَّيْلِ﴾ والأمر للوجوب ولو في صوم النفل لوجوب الوفاء وتحريم إبطال العمل، إلَّا ما أجازه الشرع، كما إذا استثنى من الليل، أو اعترض له أخوه في الله بالإفطار فيما يقال. وفي الآية نفي الوصال.

[سبب النزول] نزلت الآية في صرمة بن قيس، صنعت له زوجه طعامًا فأخذه النوم من شدَّة تعبه في أرضه نهارًا فأيقظته، فامتنع من الأكل بعد النوم، ففي نصف النهار من الليلة غُشِيَ عليه، وَلَمَّا أفاق أتى النبيء ﷺ فأخبره، فنزلت، وكان رجال يربطون في أرجلهم الخيط الأبيض والخيط الأسود ويأكلون حتَّى يمتازا، وذلك قبل أن ينزل: ﴿مِنَ الْفَجْرِ﴾، وكذا جعل عديٌّ رضي الله عنه عقالاً أبيض وعقالاً أسود في وسادته، وجعل ينظر ولا يتبيَّن له الأمر فغدا إلى رسول الله ﷺ فأخبره، فقال ﷺ: «**إنَّ وسادَكَ لَعَرِيضٌ - أو إنَّك لَعَرِيضُ القفا - ذلك سوادُ الليلِ وبياضُ النهارِ**»[1]. ثمَّ نزل ﴿مِنَ الْفَجْرِ﴾ كما فهمه ﷺ، أو نزلت قبل إخباره.

ولا تلتبس الآية بالفجر الكاذب لأنَّه يعقبه سواد، ولأنَّ معه خيطان أسودان لا واحد. وليس في الآية تأخير البيان عن وقت الحاجة لأنَّ الآية موكولة إلى الفهم، فيفهم «مِنَ الْفَجْرِ» قبل نزوله ولو لم يفهمه بعض. وقيل: نزل ذلك قبل رمضان، ففيه تأخير البيان عن وقت الخطاب لا عن وقت الحاجة وهو جائز، ولكنَّ نزولها قبل رمضان لم يصحَّ. ولا يقال: الآية خطاب بظاهرها من نحو العقالين ثمَّ نسخ ذلك الحكم بقوله: ﴿مِنَ الْفَجْرِ﴾ لأنَّ قوله: ﴿مِنَ الْفَجْرِ﴾ نزل مع ما قبله بمرَّة، ولأنَّ الخطاب على المجاز وهو واجب، ولو لم يتفطَّن له نحو عديٍّ.

﴿وَلَا تُبَاشِرُوهُنَّ وَأَنتُمْ عَاكِفُونَ فِي الْمَسَاجِدِ﴾ أي: مقيمون فيما إذا اعتكفتم فيها، فلا جماع ليلاً أيضًا كما لا جماع نهارًا، لا في بيوتكم ولا في المساجد.

---

(1) رواه مسلم في كتاب الصيام (8)، باب بيان أنَّ الدخول في الصوم يحصل بطلوع الفجر، رقم: 33 (1091)، من حديث عدي بن حاتم.

[فقه] ســـواء أَعتكفتم بالصوم، ـ وهو واجب في الاعتكاف ولو في غير رمضان، وهو مذهبنا ـ أم بغير صوم في غير رمضـــان. ويجوز الاعتكاف في كلِّ مســـجد لهذه الآية، وأفضلها مـــا فيه الجماعة والجمعـــة والأذان، وخصَّه بعض بما فيه ذلـــك، وبعض بالمســـاجد الثلاثة، وبعض بالمســـجد الحرام ومسجد المدينة، وبعض بالمسجد الحرام. ولا يصحُّ اعتكاف دون ثلاثة أيَّام، ولا اعتكاف بلا صوم. وأجيـــز يوم ولو بلا صوم، لمـــا روي عنه ﷺ: «**ليس على المعتكف صيام، إلَّا أن يجعله على نفسه**»[1]. ويفسد بالجماع.

﴿**تِلْكَ**﴾ الأحكام من المباشـــرة في الاعتكاف والـــوطء بلا ابتغاء بل لقصد اللذَّة، والأكل والشرب بعد الفجر. ﴿**حُدُودُ اللهِ**﴾ حدًّها لعباده ليقفوا عندها. ﴿**فَلَا تَقْرَبُوهَا**﴾ لا تفعلوها ﴿**كَذَالِكَ**﴾ أي: كما بيَّن لكم تلك الأحكام ﴿**يُبَيِّنُ اللهُ ءَايَاتِهِ لِلنَّاسِ**﴾ المراد: الآيات مطلقًا، أو الآيات الدالَّة على الأحكام كما يدلُّ له قوله تعالى: ﴿**لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ**﴾ المحرَّمـــاتِ من ترك المفروضات، وفعل الممنوعات.

---

(1) رواه **البيهقي** في الصيام 142، باب من رأى الاعتـــكاف بغير صوم، رقم: 8587، من حديث ابن عبَّاس.

﴿وَلَا تَأْكُلُوٓاْ أَمْوَٰلَكُم بَيْنَكُم بِٱلْبَٰطِلِ وَتُدْلُواْ بِهَآ إِلَى ٱلْحُكَّامِ لِتَأْكُلُواْ فَرِيقًا مِّنْ أَمْوَٰلِ ٱلنَّاسِ بِٱلْإِثْمِ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ١٨٨﴾

أكل الأموال بالباطل

﴿وَلَا تَأْكُلُوٓاْ أَمْوَٰلَكُم﴾ أي: لا يأكلْ بعضكم مال بعض لقوله: ﴿أَمْوَٰلَكُم﴾، إذ لا يُنهى الإنسان عن أكل ماله، ولقوله: ﴿بَيْنَكُمْ﴾ ثابتة بينكم، معتبرة بأخذك منه وبأخذه منك، ﴿بِٱلْبَٰطِلِ﴾ الوجه الباطل، وهو الطريق الذي يبطل، أي: لا يجيز العقل الصحيح استعماله ولا الشرع، أو يجيزه ولا يجيزه الشرع، كالرشوة والربا، وما يؤخذ على الزنى أو الكهانة، وكالسرقة والقمار والغصب، والتطفيف وأجرة الغناء وثمن الخمر والملاهي، وشهادة الزور والخيانة في الأمانة، والمراد بالأكل الأخذ ولو بلا إتلاف؛ لأنَّ حبس المال عن مالكه بلا حقٍّ حرام، فيدخل الإتلاف بالأكل في البطن، وإعطاؤها وإفسادها بالأولى، وإذا أكل بعضهم مال الآخر ولم يأكل الآخر ماله فقد دخل في الآية؛ لأنَّ كلَّ واحد نهي أن يأكل مال الآخر، وهذا معنى الآية. وإن قلنا معناها: جمع الأكْليْنِ أن تأكل ماله ويأكل مالك، فأكل أحدهما مال الآخر دون أن يأكل الآخر ماله مستفاد من النصّ.

﴿وَتُدْلُواْ بِهَا﴾ تلقوها، والباء صلة للتأكيد وللسببيَّة، أي: لا تتوصَّلوا بها إلى الحكَّام، أو للآلة، والعطف على «تَأْكُلُوا»، أي: ولا تدلوا، أو الفعل منصوب والواو للمعيَّة، والأوَّل أولى لأنَّه صريح في النهي عن كلٍّ من الأكل

والإدلاء. ﴿إِلَى الْحُكَّامِ﴾[1]، أي: ولا تدلوا بحكومتها بظاهر الأمر أو بحكم الجور، فحُذف المضاف، ويدلُّ لذلك قوله: ﴿إِلَى الْحُكَّامِ﴾، إذ لا معنى لإلقائها إليهم، وإنَّما المراد الترافع بها إليهم بخصام الفجور ليأخذها أو بعضَها، أو يثقل الخصامُ على صاحبها فيتركها. أو لا تلقوها رشوة إليهم. وأصل الإدلاء: إرسال الدلو في البئر، ثمَّ استعمل لمطلق التوصُّل إلى الشيء ﴿لِتَأْكُلُواْ﴾ لتأخذوا ﴿فَرِيقًا﴾ طائفة، هي كلُّ ما خاصم فيه أو بعضه، وعلى كلِّ حال هي من أموال الناس كما قال: ﴿مِنَ اَمْوَالِ النَّاسِ بِالإِثْمِ﴾ بسبب الإثم، فيتعلَّق بـ«تَاكُلُوا»، أو معه فيتعلَّق بمحذوف حال من الواو. والإثم: هو نفس شهادة الزور، واليمين الكاذبة، فإنَّ شهادة الزور إثم لشاهدها، ولا يحلُّ للمشهود له الأكل بها ﴿وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ أنَّه لا حقَّ لكم في ذلك ودعواكم باطلة، وارتكاب الشيء مع عدم العلم بأنَّه معصية قبيح، ومع العلم أقبح.

[فقه] وفي الآية أنَّ حكم الحاكم لا يُحلُّ باطلا، وقد قال ﷺ: «**إنَّما أنا بشر مثلُكم، وإنَّكم تختصمون إليَّ، ولعلَّ بعضَكم يكون ألحَنَ بحجَّته من بعضٍ، فأقضي له على نحو ما أسمع منه، فمن قضيت له بشيء من حقِّ أخيه، فلا يأخذنَّه فإنَّما أقطع له قطعة من نار**»[2]. وعنه ﷺ: «**من حكمت له بحقِّ صاحبه فإنَّما أجذوا له جَذوة من نار**»[3].

[سبب النزول] نزلت الآية في شأن أرض في يد امرئ القيس الكندي، - من كندة بن ثور، قبيلة من اليمن - يدَّعيها عَبْد الحضرميُّ - وفي رواية:

---

(1) في نسخة (ج) زيادة: «عطف على لا تأكلوا».

(2) رواه الربيع في الجامع، كتاب الأحكام، رقم: 588. والبيهقي في آداب القاضي (61)، باب من قال ليس للقاضي أن يقضي بعلمه، رقم: 20502، من حديث أمِّ سلمة. ورواه الطبراني، ج 23، ص 382، رقم: 803.

(3) رواه أبو عوانة في مسنده بلفظ: «من قضيت له بشيء من حقِّ أخيه فلا يأخذنَّ منه شيئا فإنَّما أقطع له جذوة من النار». ج 4، ص 161.

ربيعة بن عبدان الحضرميّ ـ ولا بيِّنة له، فحكم ﷺ على امرئ القيس باليمين، فأراد أن يحلف، فقرأ ﷺ: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ اللهِ وَأَيْمَانِهِمْ ثَمَنًا قَلِيلاً...﴾ الآية [سورة آل عمران: 77]، فترك اليمين، فسلَّم الأرض إلى عبدان، وأرضًا أخرى مكان ما أكل من غلَّتها، وذلك هو الحقُّ.

وعن أبي حنيفة: حكم الحاكم نافذ ظاهرًا وباطنًا، فهو كعقد عقده. ولعلَّه لا يصحُّ عنه ذلك إلَّا حيث لا يصل المحكوم له إلى إدراك ذلك، وإلَّا كان ذلك منه تحنُّفًا عن الحقِّ إلى الضلال. وَأَمَّا ما روي عن عليٍّ أنَّ رجلاً خطب امرأة هو دونها فأبت، فأقام شاهدين، فقال: قد زوَّجك الشاهدان، فمعناه أنَّك زوجه في الحكم الظاهر لشهادة الشاهدين، والغيب لله سبحانه.

﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلۡأَهِلَّةِۖ قُلۡ هِيَ مَوَٰقِيتُ لِلنَّاسِ وَٱلۡحَجِّۗ وَلَيۡسَ ٱلۡبِرُّ بِأَن تَأۡتُواْ ٱلۡبُيُوتَ مِن ظُهُورِهَا وَلَٰكِنَّ ٱلۡبِرَّ مَنِ ٱتَّقَىٰۗ وَأۡتُواْ ٱلۡبُيُوتَ مِنۡ أَبۡوَٰبِهَاۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ ١٨٩﴾

التوقيت بالشهر القمريِّ وحقيقة البرِّ

﴿يَسْأَلُونَكَ﴾ يا محمَّد ﴿عَنِ الاَهِلَّةِ﴾ السائل: معاذ بن جبل، وثعلبة بن غنم؛ فالجمع لأنَّ أقلَّ الجمع اثنان، أو مجازًا، أو لأنَّهما من قوم رضوا هذا السؤال، أو حكم على المجموع. قالا: يا رسول الله، يطلع دقيقًا ثمَّ ينمو حتَّى يكمل، ثمَّ ينقص حتَّى يكون على حال طلوعه أوَّلا ويذهب، لِمَ لَمْ يكن كالشمس بحال واحدة؟.

[لغة] وسمِّي هلالاً لأنَّه يرفع الصوت عند طلوعه أوَّلاً، ورفع الصوت إهلال. وهو هلال في الأولى أو في الثانية أيضًا أو في الثالثة معهما، أو هو هلال حتَّى يحجز بخطٍّ دقيق كما قال الأصمعيُّ، أو حتَّى يبهر ضوؤه سوادَ الليل، وغيَّى بعضهم ذلك بسبع ليال، قيل: وكذا في آخره هو هلال، ولا يصحُّ، وبين ذلك قمر، والمراد هنا مطلق هذا الكوكب كما رأيت في السؤال، يسمَّى قمرًا مطلقًا مجازًا أو اشتراكًا.

وَأَمَّا جمع الهلال مع أنَّه واحد فباعتبار ليالي طلوعه، والسؤال لم يختصَّ بهلال دون آخر. والمضارع لإمكان تكرير السؤال، أو لتنزيل الماضي منزلة الحاضر، أو الماضي منزلة المستقبل، أو تنزيل حالة النزول منزلة ما قبل

السؤال، وقيل: إنَّ السؤال من اليهود للصحابة يعتبر أنَّ سؤال الصحابة سؤال للنبيء ﷺ؛ لأنَّهم مستفيدون منه وسائلون له في كلِّ ما أرادوا.

﴿قُلْ﴾ لهم: ﴿هِيَ مَوَاقِيتُ لِلنَّاسِ﴾ لأمورهم الدنيويَّة والدينيَّة، كأَجَل الدَّين والإجارة والعدَّة والحيض والصوم والحجِّ، وقد ذكره الله. وليس من ذلك المزارع لأنَّها بسير الشمس وشهورها. وهذا جواب على مقتضى الظاهر؛ سألوا عن الحكمة في اختلاف تشكُّل القمر، فقال: حكمته أنَّه مواقيت للناس، إذ لو بقي على شكل واحد لم تتعدَّد الأشهر، وإن كان سؤالهم عن السبب في ذاته.

كان الجواب على خلاف مقتضى الظاهر إرشادًا لهم بأنَّ الأليق أن يسألوا عن الحكمة، **والنبيء ﷺ لم يبعثه الله لدقائق علم الهيئة بل للشرعيَّات**، ولو أجابهم بالسبب لقال: ذلك لِقُرْبِه من الشمس وبعده، ولا بأس به لظهوره، ولا تأباه الشريعة، إلَّا أن تقول الشريعة: لا تجزموا بذلك، بل قولوه على الظنِّ، أو بأنَّ الله جعله سببًا لتولُّد ما يتولَّد، والله هو الخالق كما يخلق النبات بالماء، لكن لا دليل على هذا، وإنَّما ظهر بعضه في الشمس. والميقات آلة الحدِّ قياسًا، فذلك آلة ما يعرف بها الوقت، أو مكانه شذوذًا.

﴿وَالْحَجِّ﴾ عطف على «النَّاسِ» باعتبار مضاف، أي: لأغراض الناس وللحجِّ.

[فقه] فذكْر الحجِّ بعد تعميم لمزيَّته في التوقيت، إذ الوقت أشدُّ لزومًا له، إذ لا يقضى إلَّا في وقت أدائه من قابل أو بعده، وسائر العبادات تقضى في كلِّ وقت حتَّى سائر الأوقات، تقضَى إذا فات وقتها بحسب الإمكان واللياقة، ولا يلزم إبقاؤها إلى وقتها من قابل. واستدلَّ بعضُ

بالآية على جواز الإحرام بالحجِّ في كلِّ السنة، وفيه بُعدٌ ومخالفة للسنَّة، بل هي دليل على أنَّه مخصوص بأشهر يحتاج إلى تمييزها، وإلَّا لم يحتج الكلام إلى ذكر الهلال مع الحجِّ، وَلَمَّا ذكر علِمنا أنَّه احتاج إلى جنس الشهر فبيَّنته السنَّة.

﴿وَلَيْسَ الْبِرُّ بِأَن تَاتُواْ الْبُيُوتَ مِن ظُهُورِهَا﴾ بعد إحرامكم بحجٍّ أو بعمرة بأن تُنقِّبوا البناء ونحوه، أو ترفعوا خلفا مخالفة لحالكم قبلُ، أو تدخلوا بسلَّم لئلَّا يستركم شيء عن السماء، وإذا دخلتم بذلك لحاجة وقفتم حيث لا يظلّكم شيء عن السماء، وترجعوا من ذلك، **ذلكم بدعة مخالفة للشرع**. والنقب إسراف.

﴿وَلَكِنِ الْبِرُّ مَنِ اِتَّقَى﴾ مرَّ مثله وهو قوله: ﴿وَلَكِنِ الْبِرُّ مَنَ ـ امَنَ﴾ [الآية: 177]، أي: من اتَّقى عقاب الله بترك مخالفته وبترك هذه البدعة وسائر المعاصي. وذكر ذلك لأنَّهم سألوه أيضًا عن إتيان البيوت، ولم يذكره في السؤال استغناء بالجواب، مع أنَّه مِمَّا لا ينبغي السؤال عنه لظهور بطلانه، وإن لم يسألوا عنه فإنَّه ذكر لذكر الحجِّ، أو شبّه سؤالهم عمَّا لا يهمُّ ـ وهو الأهلَّة ـ وترك السؤال عمَّا يهمُّ من الأحكام بحالِ مَن ترك الدخول من الباب وعالَجه من غيره.

﴿وَاتُوا الْبُيُوتَ مِنَ اَبْوَابِهَا﴾ بعد الإحرام كما قبله، أو باشِروا الأمور بوجوهها ﴿وَاتَّقُواْ اللهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ تفوزون بالهداية إلى كلِّ برٍّ وبُغية، وإلى أنَّ في كلِّ أفعاله حكمة بالغة.

وعن جابر بن عبد الله، كانت قريش تُدعى الحُمْس، وكانوا يدخلون من الأبواب في الإحرام، وكانت العرب والأنصار لا يدخلون من باب في الإحرام، فبيْنا رسول الله ﷺ في بستان إذ خرج من بابه، وخرج معه

قطبة بـــن عامر الأنصـــاريُّ، ـ وفـــي روايـــة: رفاعة بن ثالـــوث ـ فقالوا: يا رســـول الله، إنَّ قطبة بن عامر ـ أو رفاعة بن ثالـــوث ـ رجل فاجر، وإنَّه خرج معك من الباب، فقال لـــه: ما حملك على ما فعلـــت؟ قال: رأيتك فعلته ففعلت كما فعلتَ. قال: إنِّي رجل أحمسيٌّ، قال: فإنَّ ديني دينك[1]، فنزلت: ﴿وَلَيْسَ الْبِرُّ بِأَن تَأتُوا....﴾ الآية. وعـــن البراء: كانت الأنصار إذا قدموا من ســـفر لم يدخل الرجل من الباب فنزلت الآية. **والمراد اتَّقوا الله في شرع ما لم يشرِّعه، وفي تغيير أحكامه.**

---

(1) أورده ابن كثير في تفسيره، ج1، ص225، رواية عن الطيالسي.

﴿وَقَٰتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَكُمۡ وَلَا تَعۡتَدُوٓاْۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ
ٱلۡمُعۡتَدِينَ (190) وَٱقۡتُلُوهُمۡ حَيۡثُ ثَقِفۡتُمُوهُمۡ وَأَخۡرِجُوهُم مِّنۡ حَيۡثُ أَخۡرَجُوكُمۡۚ وَٱلۡفِتۡنَةُ أَشَدُّ مِنَ
ٱلۡقَتۡلِۚ وَلَا تُقَٰتِلُوهُمۡ عِندَ ٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡحَرَامِ حَتَّىٰ يُقَٰتِلُوكُمۡ فِيهِۖ فَإِن قَٰتَلُوكُمۡ فَٱقۡتُلُوهُمۡۗ كَذَٰلِكَ جَزَآءُ
ٱلۡكَٰفِرِينَ (191) فَإِنِ ٱنتَهَوۡاْ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ (192) وَقَٰتِلُوهُمۡ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتۡنَةٞ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ
لِلَّهِۖ فَإِنِ ٱنتَهَوۡاْ فَلَا عُدۡوَٰنَ إِلَّا عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ (193) ٱلشَّهۡرُ ٱلۡحَرَامُ بِٱلشَّهۡرِ ٱلۡحَرَامِ وَٱلۡحُرُمَٰتُ قِصَاصٞۚ
فَمَنِ ٱعۡتَدَىٰ عَلَيۡكُمۡ فَٱعۡتَدُواْ عَلَيۡهِ بِمِثۡلِ مَا ٱعۡتَدَىٰ عَلَيۡكُمۡۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلۡمُتَّقِينَ
(194) وَأَنفِقُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا تُلۡقُواْ بِأَيۡدِيكُمۡ إِلَى ٱلتَّهۡلُكَةِۛ وَأَحۡسِنُوٓاْۛ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلۡمُحۡسِنِينَ (195)﴾

قواعد القتال في سبيل الله

[سبب النزول] ﴿وَقَاتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱلَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمۡ﴾ ردَّ المشركون رسول الله ﷺ عن البيت عام الحديبيَّة من الحديبيَّة، وهي موضع فيه ماء وشجر، قاموا فيه ثلاثين يومًا وصالحوه على أن يرجع من قابل، وكانوا معتمرين في ذي القعدة ومعهم الهدي، فلمَّا كان العام القابل تجهَّزوا بعمرة القضاء في ذي القعدة، وخافوا أن لا يفي المشركون بذلك، وأن يصدُّوهم عن المسجد الحرام ويقاتلوهم، وكرهوا القتال في الشهر الحرام فنزلت الآية، ودخلوا مكَّة معتمرين، فأقاموا بها ثلاث ليال، وقد فخروا حين ردُّوه، فأنصفه الله منهم فأدخله مكَّة في الشهر الذي ردُّوه فيه.

سـمِّيت عمرة القضاء لأنَّهم وعدوه بهـا فوافوا له بهـا، وذلك في العام السـابع، وعَدُوه بها في العام السـادس يوم الحديبيَّة، وفيها وقع قتالٌ خفيف بحجارة وسهام، والمسلمون ألف وأربعمائة.

وقدَّم «فِي سَبِيلِ اللهِ» ترغيبًا في الإخلاص لإعلاء الدين، والآية تدلُّ على أنَّه لا يجوز لهم قتـالُ من لم يقاتلهم، وهذا المفهوم منسـوخ بما نزل بعده، وهو قوله تعالى: ﴿فَاقْتُلُوا الْمُشْـرِكِينَ...﴾ [سـورة التوبة: 5]، وقوله: ﴿وَاقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ﴾ [سورة البقرة: 191]، فتكون الآيتان على ما زعموا ناسخة سبعين آية نهى فيها عن القتال. وَأمَّا قوله تعالى: ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ﴾ [سورة الحج: 39] فأوَّل آية نزلت في الإذن بالقتال، نزلت قبل هـذه، وهي مثلها في أنَّه يقاتِلون من يقاتلهم، ونسخ المفهوم بناء على أنَّه حكم شرعيٌّ. ومعنى ﴿يُقَاتِلُونَكُمْ﴾: تتوقَّعون منهم القتال بأن أخذوا في أهبته.

﴿وَلَا تَعْتَدُواْ﴾ تُجاوِزوا ما حدَّ لكم، بابتداء القتال، أو بقتل من لا يقاتِل، كالنساء والصبيان والرهبان والشـيوخ والمُعاهد، وكلٍّ من كفَّ يده، وبالقتال بلا دعوة، والمثلة. ﴿إِنَّ اللهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ﴾ عمومًا، وهو لعموم السلب، ولو تأخَّرت أداة العموم، وهي «ال» الاستغراقيَّة عن السلب، والمعنى: لا أحد منهم يحبُّ اللهُ له الخير.

﴿وَاقْتُلُوهُمْ حَيْـثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ﴾ أخذتموهم أو ظفرتـم بهم، أو أدركتموهم قادريـن عليهم، ولو لـم يَبْتَدِئُوكُـم بالقتال، إلَّا عند المسـجد الحـرام فحتَّى يبدؤوكم. كره المسلمون القتال في الشـهر الحرام والبلد الحرام فأباحه الله لهم بـه. ﴿وَأَخْرِجُوهُم مِّن حَيْـثُ أَخْرَجُوكُمْ﴾ موضع الإخراج وهو مكَّة، وسـمِّي التسبُّب في الإخراج إخراجًا؛ لأنَّ أهل مكَّة ضيَّقوا على المسـلمين بالضرب والحبس وإرادة ذلك، وإرادة القتل والمنع عن دين الله، فخرجوا لذلك، وكذا في قوله: ﴿وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ هِيَ أَشَدُّ قُوَّةً مِّن قَرْيَتِكَ الَتِي أَخْرَجَتْكَ﴾ [سورة محمَّد: 13]،

أي: أخرجك أهلها على حذف مضاف، أو أسند الإخراج إليها لحلولهم فيها، ثمَّ إنَّ الإخراج منهم أيضًا مجاز.

وقد أخرجهم المسلمون يوم الفتح، وقتلوا من قتلوا، أحلَّت ساعة من نهار، وكان فيها قتل لبعضهم، وبعد الساعة أمروا بالإخراج، أمرهم الله بقتل من أمكن قتله، وإخراج من لم يقتل بحسب الإمكان. ﴿**وَالْفِتْنَةُ**﴾ الامتحان بالبليَّة، أو نفس البليَّة إذ من شأنها أن يمتحن بها، أو أن يعامل معاملة الامتحان بها، وذلك كالإخراج من الوطن.

لَقتلٌ بحدِّ السيفِ أهونُ مَوقعا   على النفسِ من قَتلٍ بحدِّ فراق

والحمل على الشرك، ولا سيما في الحرم، فإنَّ الإشراك فتنة للباقي عليه ولغيره، وكالصدِّ عن دين الله وعن المسجد الحرام، وكنفس الإشراك فإنَّه يؤدِّي إلى الظلم والفساد؛ وإشراك الإنسان أشدُّ عليه مضرَّة في الدنيا والآخرة من القتل؛ أو لا تتركوا قتلهم للبلد الحرام والشهر الحرام، فإنَّ شركهم فيهما أقبح إن ظهر لكم أنَّ القتل فيهما قبيح، كما قال:

﴿**أَشَدُّ مِنَ الْقَتْلِ**﴾ لاستمرار ضرر الإخراج ونحوه من المضارِّ، كمداومة الضرب والشتم، ولا يخفى أنَّ شركهم أعظم من القتل لهم في الحرم والإحرام، أو القتل لهم فيه الذي استعظموه من المسلمين أعظم من قتلهم المسلمين مطلقًا.

﴿**وَلَا تُقَاتِلُوهُمْ**﴾ لا تقاتلوا المشركين ابتداء، وصيغة التفاعل لكون البدء يستتبع قتالاً، والمعنى: لا تقتلوهم ﴿**عِندَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ**﴾ أي: في الحرم ﴿**حَتَّى يُقَاتِلُوكُمْ**﴾ يَبتدِئُوكم ﴿**فِيهِ**﴾ أي: في المسجد الحرام، أي: في الحرم، وذلك أنَّ «عند» لموضع الحضور، وسائر الحرم حاضر الكعبة منه، ولكم قتالهم في غير الحرم ولو لم يبدؤوكم. ﴿**فَإِن قَاتَلُوكُمْ**﴾ فيه، بدؤوكم بهيئة

القتل، وقع القتل أم لـم يقـع، ﴿فَاقْتُلُوهُمْ﴾ فيه وفي غيـره، اقصدوا قتلهم وعالجوه، ولو أتى عليهم كلِّهم، ولم يقل: «فقاتلوهم» كما هو مقتضى الظاهر مبالغة ووعدًا لهم بالنصر.

ونسـخ تحريم القتال إلَّا إن بدؤوا به بقوله تعالـى: ﴿وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ﴾، وبقوله تعالـى: ﴿وَاقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ﴾ على قول بتأخير نزوله عن قوله تعالـى: ﴿وَلَا تُقَاتِلُوهُمْ عِندَ الْمَسْـجِدِ الْحَرَامِ حَتَّىٰ يُقَاتِلُوكُمْ فِيهِ﴾، ونحو قوله تعالى: ﴿وَقَاتِلُوا الْمُشْرِكِينَ كَآفَّةً﴾ [سورة التوبة: 36]، أي: لا بقيد القتال فـي الحرم بـدءًا، أيُّ الآي نزلت أوَّلاً فهي الناسـخة، وما بعدها تقرير لها، والكلُّ منافٍ لحكم المنسوخ.

﴿كَذَٰلِـكَ﴾ الذي تفعلون بهم مـن الإخراج لهم من حيـث أخرجوكم، وقتلهم حيث ثقفتموهم ﴿جَزَآءُ الْكَافِرِيـنَ﴾ المذكورين، فالظاهر في موضع المضمر للتصريـح بموجب الجزاء وهـو الكفر أو الجنـس، فيدخلون أوَّلاً وبالذات. ﴿فَإِنِ انتَهَوْاْ﴾ عن الشـرك والقتال والصدِّ يغفر لهم ما قد سلف، أو فاقبلُوا عنهم، أو فانتهوا عن قتالهـم، ونحو ذلك مِمَّا يصلح جوابًا، وناب عن الجواب علتُه كما قـال: ﴿فَإِنَّ اللَّهَ﴾ أي: لأنَّ الله ﴿غَفُـورٌ رَّحِيمٌ﴾ لكلِّ تائب. وإن قدَّرنا: فـإنَّ الله غفور رحيم لهـم فهو الجواب لا علَّة لـه، وهذا الانتهاء المذكور عنهم مسبَّب عن قتال المسـلمين لهم بدليل الفاء، ويجوز أن تكون ترتيبًا بلا تسبُّب إلَّا أنَّه قليل.

[فقه] وقاتل العمد تقبل توبته ولو موحِّدًا، ولا دليل لهذا في الآية لأنَّها في المشركين.

﴿وَقَاتِلُوهُـمْ﴾ عند المسـجد الحرام وغيـره، بدؤوكم أو لـم يبدؤوكم، ﴿حَتَّى﴾ إلى، أو كي ﴿لَا تَكُونَ﴾ تثبتَ ﴿فِتْنَةٌ﴾ أي: شـرك وصدٌّ وقتال منهم،

ولا تقبل جزية لأنَّ الكلام في شــرك العرب في الحرمين وما يليهما، وليســوا أهل الكتاب ولا مجوسًا. ﴿وَيَكُونَ الدِّينُ﴾ كلُّه كما في الأنفال، ولم يذكره هنا لأنَّ الكلام هنا فــي أهل مكَّة خاصَّة، والدين: العبــادة والتوحيد والاعتقادات، والأمور التي هي صواب وحقٌّ، يحكم بها ويؤمر بها وتُتَّخذ دينًا. ﴿لِلهِ﴾ لا يعبد سواه، ولا يعتبر شرع غيره من الأديان الباطلة، ولا تعتقد الألوهيَّة لغيره. ﴿فَإِنِ انتَهَوْاْ﴾ عن الشــرك والقتال والصدِّ فانتهوا عن قتالهــم، أو فلا عدوان عليهم، كما قــال: ﴿فَلَا عُــدْوَانَ﴾ أي: لأنَّه لا عــدوان ﴿إِلَّا عَلَى الظَّالِمِينَ﴾ بالشــرك والحرب والصدِّ غير المنتهين عن ذلك، والمنتهي ليس ظالمًا.

والعدوان: البغض والقصد بسوء، كالقتل والسبي والغنم، ولا يقال: العدوان الظلم والاعتداء معبَّرًا به عن الجزاء عليهما للمشــاكلة، لأنَّــا نقول: غير الظالم لا تسمَّى الإساءة إليه جزاء أيضًا، وفي قولنا: المعنى: لا تفعلوا ما هو في صورة الظلم مجازاة بمثله إلَّا علــى الظالمين تكلُّف، وعلَّل قولــه: ﴿وَاقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ﴾ تعليلاً جُمْلِيًّا بقوله:

﴿الشَّهْرُ الْحَرَامُ﴾ ذو القعدة من السنة السابعة عند عمرة القضاء، قال الله: لا تكرهــوا قتالهم في الشــهر الحرام فإنَّــه مقابل قتالهــم وصدِّهم لكم عام الحديبيَّة، فإن منعوكم في عمرة القضاء فقاتلوهم هتكًا لحرمتهم كما هتكوها لكم فــي الحديبيَّة. ﴿بِالشَّــهْرِ الْحَرَامِ﴾ ذي القعدة من الســنة السادســة في الحديبيَّــة، قاتلهم المشــركون فيهــا ببعض ســهام وحجارة كمــا روي عن ابن عبَّاس، وما فــي البخاري من أنَّه لم يقع قتال فــي الحديبيَّة معناه لم يقع قتال كبير، وعن ابن عبَّاس: رمى المسلمون المشركين في عمرة القضاء حتَّى أدخلوهم ديارهم؛ وقيل: لــم يقع القتال في ذي القعدة وإنَّــه هو ما يراد عند النافي. ﴿وَالْحُرُمَاتُ﴾ جمع حرمة، مــا يجب احترامه وحفظه، وهذا احتجاج بجواز هتك حرمة الشــهر بهتكهم إيَّــاه في الحديبيَّة، ولله أن يهتك ما شــاء.

﴿قِصَاصٌ﴾ أي: شأن الحرمات قصاص، أو الحرمات ذوات قصاص، كأنَّه قيل: الشهر الحرام من الحرمة، والحرمة يجري فيها القصاص في الجملة، نفسًا أو عِرضًا أو مالاً، والشهر الحرام مِمَّا أراد الله فيه القصاص بالقتال، وَأَمَّا أن يقال: الشهر الحرام من الحرمة، وكلُّ حرمة يجري فيها القصاص، فالشهر الحرام فيه القصاص فلا؛ لأنَّه لم يثبت أنَّ كلَّ حرمة فيها قصاص.

﴿فَمَنِ اعْتَدَى عَلَيْكُمْ﴾ في عمرة القضاء بالمنع عنها، أو بالقتال في الحرم، أو الإحرام أو الشهر الحرام، ﴿فَاعْتَدُواْ عَلَيْهِ﴾ جازوه على اعتدائه، سمَّى فعلهم باسم الفعل الأوَّل للشبه، ولعلاقة الجوار، وباسم الملزوم، وباسم السبب، وكذا في سائر اعتبار المشاكلة. ﴿بِمِثْلِ مَا اعْتَدَى عَلَيْكُمْ﴾ بالدخول في مكَّة ولو كرهوا، كما منعوكم منها في العام الأوَّل، وقاتلوهم على المنع ولو لم يقاتلوا فيه، بل اقتصروا على المنع كما تقاتلونهم إن قاتلوا، ولا تزيدوا بأن تقاتلوهم، ولم يقاتلوكم ولم يمنعوكم، أو بأن تقاتلوا من لم يقاتل.

[فقه] عمَّم الشافعيُّ القتل بمثل ما قَتل به محتجًّا بالآية، كقتل بمحدَّد وخنق وحرق وتجويع وتغريق، حتَّى لو أغرقه في عذب لم يغرقه في ملح.

﴿وَاتَّقُواْ اللهَ﴾ احذروا عقابه على المبالغة في الانتقام، وعلى الاعتداء الحقيقيِّ الذي هو فعل ما لا يجوز، واتَّقوا الله في الانتصار لأنفسكم بما لا يجوز، وترك الاعتذار بما لا يجوز. ﴿وَاعْلَمُواْ أَنَّ اللهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ﴾ بالعون في أمر الدين والدنيا، وبالنصر وإصلاح الشأن والحفظ، والاتِّقاء اتِّقاء المعاصي إجلالاً لله، واتِّقاؤها خوفًا من عقابها، واتِّقاءُ الله أيضًا إجلالا له.

﴿وَأَنفِقُواْ﴾ أموالكم على أنفسكم أكلاً ولباسًا لتقووا على الجهاد، وفي شراء الخيل ونفقتها وآلتها للجهاد، وشراء السلاح، وللزاد وتجهيز الغزاة بقدر ما تطيقون، وفي صلة الرحم والمحتاج، والحجِّ والعمرة، وأهل

الحاجة والعيال، وجميع المصالح الدينيَّة، **وكلُّ ذلك في سبيل الله**، كما قال: ﴿**فِي سَبِيلِ اللهِ**﴾ ولو كان يتبادر هذا اللفظ في الجهاد، فيراد الكلُّ، ولو كان المراد بالذات في المقام الجهاد، والآية **أمر بالجهاد بالمال بعد الأمر به بالجسد**. ﴿**وَلَا تُلْقُواْ بِأَيْدِيكُمْ**﴾ لا تطرحوا أيديكم، ولا تفضوا بأيديكم، وسمِّي الطرح إلقاءً لأنَّه تصيير الشيء يلقَى، أي: يصادف. والأيدي: الأجساد؛ لأنَّها بعضها الذي تدفع به وتجلب غالبًا، وأقوى، أو لا تلقوا أيديكم منتهية أو منتهين ﴿**إِلَى التَّهْلُكَةِ**﴾ أي: الهلاك، أي: المضرَّة الدنيويَّة وهي القتل، والأخرويَّة وهي عذاب النار.

[صرف] ولا مصدر على هذا الوزن إلَّا «تَضُرَّة» و«تسُرَّة» بمعنى: الضرر والسرور، فهنَّ ثلاثة؛ وقيل: الضمُّ بدل الكسر، ولا داعي إلى إبدال الثقيل بالأثقل، وَأَمَّا الجوار بالضمِّ فلغة في الجوار بالكسر، لا نَقْل، مع أنَّ الضمَّ أنسب بالواو. وأيضًا التفعلة بالكسر مقيس في معلِّ اللام سماعٌ في الصحيح كتجربة وتكملة.

وقيل: الهلاك ما يمكن التخلُّص منه، والتهلكة ما لا يمكن التخلُّص منه. وزيادة الباء في المفعول به قليلة. أو لا تلقوا بأيديكم أنفسكم إلى التهلكة، أي: باختياركم فتأخذ التهلكة بها وتقبضها، فذكرُ الأيدي إشعار بالاختيار، وحذف المفعول. أو لا تجعلوا التهلكة آخذة بأيديكم، كما يقال في العاجز: «ألقى بيده إلى عدوِّه»، فإنَّكم إذا تركتم الجهاد أو الإنفاق فيه أهلككم العدوُّ بالقتل والتغلُّب، إذا تركوا الإنفاق في الجهاد ضعف الجهاد، فيؤول إلى تركه وإلى غلبة العدوِّ عليهم وقتلهم.

[سبب النزول] قال أبو أيُّوب خالد بن زيد الأنصاريُّ: لَمَّا أعزَّ الله الإسلام وكثر أهله رجعنا إلى أموالنا وأهلنا نقيم فيها ونصلحها، فنزلت الآية، فيحتمل أنَّ سببها ما ذكره، فتشمل بعموم اللفظ الإمساكَ عن الإنفاق لحبِّ

المال، وذلك هلاك أخرويٌّ، وقد سمِّي البخل هلاكًا لأنَّه سبب الهلاك، ويشمل الإسراف حتَّى يبقى يتكفَّف.

ففي الإنفاق طرفان مذمومان: إفراط وهو الإسراف، وتفريط وهو الإمساك، نهى عنهما بقوله ﷻ: ﴿وَلَا تُلْقُواْ بِأَيْدِيكُمۡ إِلَى التَّهْلُكَةِ﴾، وأشار إلى الوسط بقوله: ﴿وَأَنفِقُوا﴾. وللقتال طرفان: إفراط وهو التهوُّر، وتفريط وهو الجبن نهى عنهما بقوله: ﴿وَلَا تُلْقُوا﴾ وأشار إلى الوسط وهو الشجاعة بقوله: ﴿وقَاتِلُوهُمْ﴾.

[سبب النزول] وفي رواية: قالت الأنصار فيما بينهم: إنَّ الله قد أعزَّ دينه وكثَّر ناصره، فلو قلنا له ﷺ: «نقيم لإصلاح مالنا وتدارك ما ضاع منها» فنزلت الآية.

[فقه] واستُدِلَّ بالآية على تحريم الإقدام إلى ما فيه الهلاك، وعلى جواز مصالحة الكفَّار والبغاة إذا خاف الإمام على نفسه، أو على المسلمين.

وفسَّر بعضٌ التهلكة بالدخول في وسط العدوِّ. وفسِّر بالبخل ونحو ذلك مِمَّا مرَّ، والعبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب، وهو اشتغال الأنصار بأموالهم كما مرَّ؛ فمن مثَّل لها بمسلم دخل في صفِّ الروم وحده بعده ﷺ لم يخطأ، إلَّا إن قصرها على مثله.

﴿وَأَحْسِنُواْ﴾ بالإنفاق، لا تتركوه ولا تسرفوا، ولا تجعلوه في المعصية، بل على أهلكم وقرابتكم وأهل الحاجة، وفي الجهاد في سبيل الله، وبأعمالكم وأخلاقكم. **﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾** أي: يثيبهم على إحسانهم أو يعطيهم الخير؛ لأنَّ مِن لازِمِ الحبِّ في الشاهد فِعْلَ الخير.

﴿ وَأَتِمُّوا۟ ٱلْحَجَّ وَٱلْعُمْرَةَ لِلَّهِ ۚ فَإِنْ أُحْصِرْتُمْ فَمَا ٱسْتَيْسَرَ مِنَ ٱلْهَدْىِ ۖ وَلَا تَحْلِقُوا۟ رُءُوسَكُمْ حَتَّىٰ يَبْلُغَ ٱلْهَدْىُ مَحِلَّهُۥ ۚ فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا أَوْ بِهِۦٓ أَذًى مِّن رَّأْسِهِۦ فَفِدْيَةٌ مِّن صِيَامٍ أَوْ صَدَقَةٍ أَوْ نُسُكٍ ۚ فَإِذَآ أَمِنتُمْ فَمَن تَمَتَّعَ بِٱلْعُمْرَةِ إِلَى ٱلْحَجِّ فَمَا ٱسْتَيْسَرَ مِنَ ٱلْهَدْىِ ۚ فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلَٰثَةِ أَيَّامٍ فِى ٱلْحَجِّ وَسَبْعَةٍ إِذَا رَجَعْتُمْ ۗ تِلْكَ عَشَرَةٌ كَامِلَةٌ ۗ ذَٰلِكَ لِمَن لَّمْ يَكُنْ أَهْلُهُۥ حَاضِرِى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ (196) ﴾

أحكام الحجِّ والعمرة

﴿وَأَتِمُّواْ الْحَجَّ وَالعُمْرَةَ لِلهِ﴾ ائتوا بهما تامَّين بشروطهما وأركانهما، لا تقطعوهما ولا تكدِّروهما بشيء. والأمر للوجوب، فهما واجبان ذاتًا وتمامًا. وإن قرئ برفع «العمرة» فالمعنى: والعمرةُ ثابتةٌ لله على وجه الوجوب، أو العمرة واجبة لله. ويدلُّ للوجوب أيضًا: ﴿وَأَتِمُّواْ الْحَجَّ وَالعُمْرَةَ لِلهِ﴾. والقائل بعدم وجوبها يقول: الآية أمرٌ بإتمامها بعد الدخول فيها، وكلُّ نفل يجب إتمامه بعد الدخول فيه صحيحًا.

[فقه] فالحجُّ واجب لقوله تعالى: ﴿وَلِلهِ عَلَى النَّاسِ حَجُّ الْبَيْتِ﴾ [سورة آل عمران: 97]، كالصيام وجب بقوله تعالى: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ﴾ [سورة البقرة: 183]، ﴿ثُمَّ أَتِمُّواْ الصِّيَامَ إِلَى اللَّيْلِ﴾ [سورة البقرة: 187]، أمر بإتمامه. والعمرة نفل، لِما روي أنَّه ﷺ قيل له: «العمرة واجبة يا رسول الله؟» قال: «**لا، ولكن أن تعتمر خير لك**»[1]. كما روي عنه ﷺ: «**الحجُّ جهاد، والعمرة**

(1) رواه الترمذي في الحجِّ (88)، باب ما جاء في العمرة...، رقم: 931، من حديث جابر.

تطوُّع»[1]، فالحديث بيان للآية لا نسخ، فضلًا عن أن يقال: الآحاد لا ينسخ القرآن، فأقول: نسـخ هذا الحديث بقوله ﷺ: **«العمرة داخلة في الحجِّ إلى يوم القيامة»**[2]. ولا يضرُّنا احتمال أنَّ وجوبَها تبع لوجوب الحجِّ، أو يصحُّ بها الحجُّ ولو نفلاً. وقد قيل لعمـر: «وجدت الحجَّ والعمرة مكتوبين عليَّ فأهلَلْت بهما جميعًا» ـ بالفاء ـ فقال: هديت لسنَّة نبيئك، فلم يقل له عمر: لم تفرض العمرة، ولا يحتمـل مع الفاء أن يقال: وجبت عليه بالشـروع، ورواية إسـقاط الفاء تبيِّنها رواية الفاء. وعنه ﷺ: **«الحجُّ والعمرة واجبان، لا يضرُّك بإيِّهما بدأت»**[3]. فيجمع بين الروايات بأنَّها غير واجبة استقلالًا كما وجب الحجُّ، وواجبة على مريد الحجِّ أن يعتمر معه قبله أو بعده، ولو كان الحجُّ نفلاً. ومن أحرم لحجٍّ نفل أو عمرة وأفسـده أو أفسدها أتمَّه أو أتمَّها وأعاده وأعادها. **والحقُّ أنَّ الصحابي حجَّة خلافًا للشافعيِّ**، لقوله ﷺ: **«اقتدوا بأصحابـي»**[4]. ولا يخصُّ هذا بمـا رووه صريحًا عنه ﷺ. ويقال: إتمام الحجِّ أن تحرم به من دارك إن دخل شوال، أو إتمام العمرة أن تحرم بها من دارك مطلقًا، وإن دخل شـوال جاز قرنهما. ويقال: إتمامها أن تفرد لكلٍّ منهما سـفرًا. ويقال: أن لا تشـوبهما بغرض دنيـويٍّ كتجر ونكاح. ويقال: أن لا تكون النفقة حرامًا ولا شبهة.

---

(1) رواه **الطبراني**، ج 11، ص 350، رقم: 12252، من حديث ابن عبَّاس، بتعريف لفظ الجهاد.

(2) رواه **مسلم** في الحجِّ (31)، باب جواز العمرة في أشهر الحجِّ، رقم: 203. ورواه **الترمذي** في الحجِّ (89)، باب منه، رقم: 932، من حديث ابن عبَّاس. **والبيهقي** في الحجِّ (27)، باب من قال بوجوب العمرة...، رقم: 8772، من حديث مالك بن جعشم.

(3) رواه **البيهقي** في الحجِّ (27)، بـاب من قال بوجوب العمرة اسـتدلالا...، رقم: 8765، من حديث ابن عبَّاس.

(4) لم نقف على تخريجه بهذا اللفظ، ورواه أصحاب السـنن بلفظ: «اقتدوا بالذين من بعدي» ورواية القطب في **الشـامل** بزيادة: «من أصحابي»... في كتاب النبيء ﷺ... رقم: 108، من حديث ابن مسعود.

﴿فَإِنْ أُحْصِرْتُمْ﴾ أي: حصرتم، فهو موافق للثلاثيّ، أي: منعتم عن الإتمام بعدوٍّ أو مرض، أو غيرهما كضياع نفقة، فيقدَّر في قوله: ﴿فَإِذَآ أَمِنتُمْ﴾ أو شُفيتم، أو زال المانع. أو يؤوَّل: أمنتم بزوال المانع مطلقًا، بل الأمن يكون من المرض كقوله ﷺ: «**الزكامُ أمان من الجذام**»[1]. ونزولها في الحديبيَّة لا ينافي عموم الحكم، فإنَّ خصوص السبب لا ينافي عموم الحكم لعموم اللفظ، وإلَّا فالآية في العدوِّ فقط لقوله: ﴿فَإِذَآ أَمِنتُمْ﴾ فيقاس عليه غيره، هذا مذهبنا ومذهب أبي حنيفة، ويدلُّ له قوله ﷺ: «**من كُسِر أو عَرِج** ـ أي: حدث له العرج ـ **فعليه الحجُّ من قابل**»[2]، وقوله ﷺ: «**لا إحصار إلَّا من مرض، أو عدوٍّ، أو أمر حابس**»[3] وهو عموم. قال عروة: كلُّ شيء حَبَسَ المحرمَ فهو إحصار.

[فقه] وروي عن بعض الصحابة: «من أحرم بحجٍّ أو عمرة ثمَّ حُبس عن البيت بمرض يجهده، أو عدوٍّ يحبسه، فعليه ذبح ما استيسر من الهدي». وأهلَّ عمر بن سعد بعمرة فلُسِع، فقال ابن مسعود: ابعثوا بالهدي واجعلوا بينكم وبينه يوم أمارة، فإذا كان ذلك فليحلَّ. وخصَّ مالك والشافعيُّ الحكم بحصر العدوِّ لقوله: ﴿فَإِذَآ أَمِنتُمْ﴾. وقول ابن عبَّاس: «لا حصر إلَّا حصر العدوِّ»، ويعترض بالحديث المرفوع قبل هذا، وليس

---

(1) لم نقف على تخريجه بهذا اللفظ. وفي كنز العمال: «ما من آدميٍّ إلَّا وفيه عرق من الجذام، فإذا تحرَّك ذلك العرق سلَّط الله عليه الزكام فيسكنه»، رقم: 28337. عزاه إلى الديلميِّ عن جرير.

(2) رواه **أحمد** في مسنده، ج 5، ص 334، رقم: 15731. ورواه **الطبراني** في الكبير، ج 3، ص 224، رقم: 3211. ورواه **البيهقي** في الحج (302)، باب من رأى الإحلال بالإحصار بالمرض، رقم: 10099، من حديث الحجاج بن عمرو الأنصاري.

(3) أورده **الآلوسي** في تفسيره أثرا عن ابن مسعود، وأيَّده بكلام ابن عبَّاس: «**لا حصر إلَّا حصر العدوِّ**»، وأورده كذلك **صاحب موسوعة فقه ابن مسعود، ص 34، نقلا عن ابن كثير، ج 1، ص 410.**

ضعيفًا كما قيل؛ لأنَّه روي من طرق مختلفة. وإن شرط الحاجُّ: «محلِّي حيثُ حُبستُ» فلا هدي عليه إن حبس بعدوٍّ أو غيره، لقوله ﷺ لضباعة بنت الزبير بن عبد المطَّلب: «**حجِّي واشترطي وقولي: محلِّي حيث حبستني يا الله**»[1]، والأصل أنَّه لا يختصُّ هذا بها، بل هو لها ولغيرها عند أحمد، وأحد قولَيْ الشافعي، والحديث حجَّة لنا ولأبي حنيفة أنَّ غير العدوِّ كالعدوِّ في الآية. والعمرة كالحجِّ.

﴿**فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ**﴾ فالواجب ما استيسر، أو فعليكم ما استيسر، أي: تيسَّر، من شاة ثنيَّة أو بقرة، أو بعير. قال ابن عبَّاس: «وما عظم فهو أفضل». وعن ابن عمر: «الهدي بقرة أو جزور، ولا تكفي الشاة». والهديُ بمعنى: الْمُهْدَى، وهو ما يسوق الحاجُّ أو المعتمر هديَّة لأهل الحرم بموجب كما هنا، أو بلا موجب. ﴿**وَلَا تَحْلِقُوا رُؤُوسَكُمْ**﴾ للتحلُّل كما لا تحلقون لغيره إلَّا الضرر. ﴿**حَتَّى يَبْلُغَ الْهَدْيُ**﴾ المستيسر المذكور ﴿**مَحِلَّهُ**﴾ وهو موضع حلوله المعهود.

[فقه] ومحلُّه هو منًى، أيَّام منًى، أو الحرم مطلقًا، ولو قبل أيَّام منًى عندنا وعند أبي حنيفة، ويوقِّت لذبحه، فإذا كان الوقت الذي حدَّ لرسوله احتاط وحلق. وعن ابن مسعود: لُدغ رجل محرم بعمرة فأحصر، فقال: «ابعثوا بالهدي، واجعلوا بينكم وبينه يوم أمار»، أي: أمارة. وعن أبي حنيفة: إن كان حاجًّا فبالحرم متى شاء ويجعل يوم أمار، وعند أبي يوسف ومحمَّد في أيَّام النحر؛ وإن كان معتمرًا فبالحرم في كلِّ وقت عنده وعندهما، وقال الشافعي: يُنْحَرُ حيث أحصر، ولو في الحلِّ فمحلُّه عنده موضع حلول المحصر؛ ويتقوَّى مذهبنا بقوله: ﴿حَتَّى يَبْلُغَ﴾.

---

(1) رواه مسلم في كتاب الحج (15)، باب جواز اشتراط المحرم التحلّل بعذر المرض...، رقم: 104 (1207). ورواه الطبراني في الكبير، ج 24، ص 334، رقم: 833، من حديث عائشة.

[فقه] وعلى المحصر الحجُ أو العمرة أو كلاهما من قابل كما تُقضَى الصلاة والصوم، وكما اعتمر ﷺ من قابل، وهكذا شأن النفل إذا دخل فيه صحيحًا، وقطع أعيد كما يوفي بالنذر والوعد، بل زاد بالدخول. واحتجَّ الشافعيُّ في عدم وجوب القضاء بأنَّ الله لم يذكر القضاء، **قلت:** يلزم عليه أن لا يلزم قضاء ما وجب من حجٍّ أو عمرة إذا أحرم به وأحصر عنه، ولا قائلا بذلك، وإنَّما لم يذكر لأنَّ المقام لشأن الإحصار لا لبيان كلٍّ ما يجب عليه، ووجه اللزوم أنَّ الآية في الإحصار مطلقًا لا في الإحصار عن النفل خاصَّة.

[فقه] واحتجَّ الشافعيُّ في أنَّ النحر حيث حلَّ بالحبس أنَّ النبيء ﷺ نَحَر حين حُبس في الحديبيَّة، وهي من الحلِّ كما قال مالك، فأجيب بأنَّها من الحرم كما قال الزهريُّ عن رسول الله ﷺ: «**إنَّ الحديبيَّة من الحرم**»[1]. فقال لذلك: «إنَّ رسول الله ﷺ نحر هديه بالحرم»، وبه قال أبو حنيفة، وصحَّح أرباب الحديث أنَّها من الحلِّ، ويجمع بأنَّها في طرف الحرم، كما قال الواقديُّ، على تسعة أميال من مكَّة.

﴿فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا﴾ مرضًا يحوجه إلى الحلق، وَأَمَّا المرض الذي لا يحوجه إلى الحلق فكَلَا مرضَ بالنسبة إلى الحلق، ولو اشتدَّ. ومعنى الفاء: التفريع على ما قبلها، فإنَّه يَلزم مِنْ مَنْعِ الحلقِ حتَّى يبلغ الهدي أنَّه لا بدَّ من كفَّارة على الحالق ولو لعذر.

[نحو] **﴿أَوْ بِهِ أَذًى﴾** جملة معطوفة على «مَرِيضًا»، وساغ لأنَّ «مَرِيضًا» خبر «كَانَ»، أو يقدَّر: أو ثابت به أذًى، عطفًا لـ«ثابتًا» على «مَرِيضًا»، فـ«أَذًى» فاعل «ثابتًا»، أو فاعل به. وَأَمَّا أن تعطف الاسميَّة على «كَانَ...» إلخ فلا،

---

(1) أورده بعض الفقهاء أثرا عن الزهري وابن إسحاق وغيرهما لا حديثا، لاختلافهم في الحديبيَّة هل هي من الحلِّ أو الحرم.

إلَّا إن جعلنا «مَـن» موصولة، جعلت فـي خبرها الفاء لعمومها كالشَّـرطيَّة، لا شرطيَّة؛ لأنَّ الأداة الشرطيَّة لا تليها الاسـميَّة، خلافًا للأخفش والكوفيِّين؛ ودعوى أنَّه يُغتفر في الثواني كالعطف هنا ما لا يغتفر في الأوائل لا تتمُّ؛ لأنَّه لا يطَّرد ذلك الِاغتِفار.

﴿**مِّن رَّأْسِهِ**﴾ أي: في رأسه، أو برأسه. أو ﴿مِّن رَّأْسِهِ﴾ بمعنى: أنَّه أتاه الوجع منه، وذلك كجراحة وقمل. ﴿**فَفِدْيَةٌ**﴾ فعليه فدية، وهذا التقدير مطَّرد، وإنَّما جاز أن يقـدَّر: فالواجب فدية؛ لأنَّ النهي عن الحلق يشـير إلى واجب على الحالق، فبيَّنه بقولـه: الواجب فدية. ﴿**مِّن صِيَامٍ**﴾ أي: هي صيام ثلاثة أيَّام، ﴿**أَوْ صَدَقَةٍ**﴾ اثني عشـر مدًّا من غالب قوت مكَّة، على ستَّة مساكين من أهلها. ﴿**أَوْ نُسُكٍ**﴾ يفرِّقه لأهل مكَّة الفقراء شـاة ثنيَّة، وإن شاء فبقرة أو بعير كذلك إن حلق. أو يقدَّر: فمن كان منكم مريضًا وحلق.

[فقه] وكلُّ فعل مناف للإحـرام ففيه ذلك إذا فُعل لأذًى، كلبس المخيط والتطيُّب، وإن فعل لغير أذًى فشاةٌ. وقال الشافعيُّ: كحكم الآية. والحلق كناية عن التحلُّل، فإنَّ معنـى: ﴿وَلَا تَحْلِقُوا رُؤُوسَكُمْ﴾ لا تحلَّلـوا، فالآية على التخيير. قال عبد الله بن مَعْقِل: قعدتُ إلى كعب بن عجرة في هذا المسجد ـ يعني مسـجد الكوفة ـ فسـألته عن قوله تعالى: ﴿فَفِدْيَةٌ مِّن صِيَامٍ...﴾ الآية، فقال: حُملتُ إلى النبيء ﷺ والقمل يتناثـر على وجهي، فقال: «ما كنت أرى أنَّ الجهد بلغ بك هذا! أما تجد شـاةً؟» قلت: لا، قال ﷺ: «**فصم ثلاثة أيَّام، أو أطعم ستَّة مساكين واحلق رأسك**»[1]، فنزلت فيَّ خاصَّـة ولكم عامَّة.

---

(1) رواه الربيع في كتاب الحجِّ (8)، باب في الهدي والجـزاء والفدية، رقم: 432، من حديث ابن عبَّاس. ورواه مسـلم في كتاب الحجِّ (10)، باب جواز حلق الرأس للمحرم إذا كان به أذى...، رقم: 85، مـن حديث عبد الله بن معقل. والنسـائي في المناسـك (96)، باب في المحرم يؤذيه القمل، رقم: 2851، من حديث كعب بن عجرة، مع اختلاف اللفظ.

وتقديم الشاة بوجدانها استحبابٌ منه ﷺ لا ترتيب، وأجاز بعضهم الإطعام في غير مكَّة، وَأَمَّا الذبح ففي مكَّة خاصَّة.

وفي رواية: «**احلق وصم ثلاثة أيَّام، أو تصدَّق بفرق، أو أنسِك بشاةٍ**»[1]، والفرق اثنا عشر مدًّا، ثلاثة أصوع، والصاع ثمانية أرطال بالعراقي، وقال أبو يوسف: «خمسة أرطال وثلث» وهو قول الشافعي، لقوله ﷺ: «**صاعنا أصغر الصيعان**»[2]. وعنه ﷺ: **كان يتوضَّأ بالمدِّ ـ رطلين ـ ويغتسل بالصاع**[3] ـ ثمانية أرطال ـ، وكذا كان صاع عمر رضي الله عنه، وهو أصغر من الهاشميِّ، وكانوا يستعملون الهاشميَّ.

﴿**فَإِذَآ أَمِنتُمْ**﴾ عطف على قوله: ﴿**أُحْصِرْتُمْ...**﴾ إلخ، أي: إذا أمنتم من العدوِّ، أو بأن ذهب العدوُّ، أو ظننتم أنَّه كان وتبيَّن أنَّه لم يكن، وفي الوجهين الإحصار، أو لم يكن ولم تظنُّوا أنَّه كان وأمنتم من المرض ونحوه، ولا إحصار في ذلك، ولا حكم إحصار، أي: أمنتم الإحصار وسائر الموانع، أو كنتم في الأمن من ذلك. ﴿**فَمَن تَمَتَّعَ**﴾ انتفع ﴿**بِالْعُمْرَةِ**﴾ بسبب الاقتصار على العمرة والتحلُّل منها بالطيب ولبس المخيط وتغطية الرأس والجماع وصيد الحلِّ وقطع التفث والزينة والطواف بالبيت كلَّما شاء، سواء أحرم بها وحدها أو مع الحجِّ ثمَّ فسخه، أو بالحجِّ ثمَّ فسخه إلى العمرة، وذلك كلُّه في

---

(1) رواه مسلم في كتاب الحجِّ (10)، باب جواز حلق الرأس للمحرم إذا كان به أذى، مع زيادة في آخره وهي: «تصدَّق بفرق بين ستَّة مساكين أو انسك ما تيسَّر».

(2) في سنن البيهقي: قَالُوا لِرَسُولِ اللهِ ﷺ: يَا رَسُولَ اللهِ، إِنَّ صَاعَنَا أَصْغَرُ الصِّيعَانِ، وَمُدَّنَا أَصْغَرُ الأَمْدَادِ. فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «اللَّهُمَّ بَارِكْ لَنَا فِي صَاعِنَا وَمُدِّنَا...». كتاب الزكاة، باب مَا دَلَّ عَلَى أَنَّ صَاعَ النَّبِيِّ ﷺ كَانَ عِيَارُهُ خَمْسَةَ أَرْطَالٍ وَثُلُثًا، رقم: 7974، ج 4، ص 171. عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ.

(3) رواه مسلم، كتاب الحيض، باب القدر المستحبِّ من الماء في غسل الجنابة، رقم: 325، ج 1، ص 258، عن أنس.

أشهر الحجِّ، وقيل: أو بإتمامها في أشهره مع أنَّه لم يعد إلى الميقات للإحرام بالحجِّ، ولا إلى أهله أو مثل أهله في البعد ولم يكن من أهل الحرم، وأنَّه حجَّ من عامه، وبالتقرُّب إلى الله بعقد الحجِّ في ذلك العام. ﴿**إِلَى الْحَجِّ**﴾ مستمرًّا بتمتُّعه إلى الحجِّ، ومنتهيًا تمتُّعه أو تحلُّله إلى أن أحرم بالحجِّ ولو بلحظة، وذلك أنَّ الدم يلزم بالحلِّ منها. ﴿**فَمَا اسْتَيْسَرَ**﴾ فالواجب، أو فعليه ما تيسَّر ﴿**مِنَ الْهَدْيِ**﴾ شاة ثنيَّة أو بقرة أو بعير، كذلك يتصدَّق به في الحرم، على فقراء الحرم مطلقًا، بعد الإحرام بالعمرة والإحلال منها لا قبل الإحلال، وقيل بعده، وبعد الإحرام بالحجِّ، **والأَولى أن يكون يوم النحر أو أيَّام التشريق.**

﴿**فَمَن لَّمْ يَجِدْ**﴾ هديًا أو ثمنه أو كليهما ﴿**فَصِيَامُ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ فِي الْحَجِّ**﴾ في حال الإحرام بالحجِّ.

[فقه] فيجب أن يحرم قبل السابع من ذي الحجَّة لكراهة صوم يوم عرفة لئلَّا يَضعُف عن القيام والدعاء، وإن كان لا يضعف لم يكره، ولا تؤخَّر هي أو بعضها لما بعد يوم النحر، ولا يجوز صوم يوم النحر، وأجيز صومها في عشرة ذي الحجَّة، ولو قبل الإحرام بالحجِّ فتؤخَّر رجاء وجود الهدي، إلى أن تبقى ثلاثة قبل يوم النحر، والواضح أنَّه لا يصومها إلَّا وهو محرم بالحجِّ في العشرة أو قبلها، والراجح في العشرة، وعند الشافعيَّة كلُّ حقٍّ ماليٍّ تعلَّق بسببين يجوز تقدُّمه على ثانيهما، فجاز ولو ـ عندهم ـ تقديم الذبح للمتمتِّع على الإحرام بالحجِّ، ورجَّحوا إيقاعه بعد الإحرام، والسببان: العمرة في أشهر الحجِّ، والإحرام بالحجِّ بعد التحلُّل منها، بخلاف صوم التمتُّع فلا يجوز عندهم تقديمه على الإحرام بالحجِّ لأنَّه عبادة بدنيَّة لا ماليَّة، فلا يجوز تقديمها على ثاني سببَيْها. وزعموا عن الشافعيِّ أنَّه يجوز صومها أيضًا في أيَّام التشريق في قولٍ له ضعيف عنه، إذ ربَّما تمَّ حجُّه قبل كمال ثلاثة أيَّام التشريق، والله يقول: ﴿فِي الْحَجِّ﴾.

[فقه] وعن ابن عمر أنَّه رخَّص ﷺ للمتمتِّع إذا لم يجد هديًا، ولم يصم حتَّى فاته أيَّام العشر أن يصوم أيَّام التشريق مكانها، وعن الزهريِّ أنَّه ﷺ بعث عبد الله بن حذافة فنادى في أيَّام التشريق: «**إنَّ هذه أيَّام أكل وشرب وذكرِ الله ﷻ، إلَّا من كان عليه صوم من هدي**»[1]. وعن عائشة أنَّه لم يرخِّص ﷺ في أيَّام التشريق أن يُصَمْنَ إلَّا لمتمتِّع لم يجد هديًا. وقال الحنفيَّة: إذا جاء يوم النحر لم يجز إلَّا الذبح. **ومذهبنا ترجيح تأخير ذبح هدي المتعة إلى يوم النحر.** والمشهور عند أبي حنيفة أنَّه بين الإحلال من العمرة والإحرام بالحجِّ، وأجازه بعد الإحرام به. وقال الشافعيُّ: يذبح بعد الإحرام بالحجِّ. وعن أبي حنيفة أنَّه يذبح يوم النحر فقط، ويذبح في الحرم فقط.

[فقه] وأنَّه نسك يأكل منه هو والغنيُّ والفقير؛ لأنَّه وجب لشكر الجمع بين النسكين فكان كالأضحية في التقرُّب بها إلى الله، وكذا قال كثير من أصحابنا: يأكل منه. وقال الشافعيُّ: دمُ جَبْرِ خَللِ إحرامه بالعمرة في أشهر الحجِّ إذ لم يحرم به ولا بهما معًا، فهو جارٍ مجرى الجنايات فلا يأكل منه، واعترض بأنَّه كيف يكون جبرًا لخللٍ مع أنَّ الله أباح التمتُّع؟ فيجاب بأنَّ الله أفهمنا من الكفَّارة أنَّه خلاف الأصل، وأنَّه خلل.

﴿وَسَبْعَةٍ إِذَا رَجَعْتُمْ﴾ فرغتم من أعمال الحجِّ: رمي الجمار وطواف الزيارة والسعي. ويكره صوم أيَّام التشريق. سمِّي الفراغ رجوعًا إلى الأهل أو لغيره لأنَّه سبب، أو سمِّي القصد إلى غير الحجِّ رجوعًا، فإنَّه كان في غيره من

---

(1) رواه مسلم في كتاب الصيام (23)، باب تحريم صوم أيَّام التشريق، رقم: 144 (1141)، من حديث نشيبة الهذلي. وروى الشطر الأوَّل منه أحمد في مسنده، ج 1، ص 166، رقم: 567 و824، من حديث عمرو بن سليم عن أمه. ورواه الطبراني في الكبير، ج 2، ص 37، رقم: 1212، من حديث نشيبة الهذلي.

الإحـلال، أو من كونه غير محرم أصـلا، فقد رجع إلى حـالٍ كان فيها قبل، وهي كونه غير محرم ولا ملتبس بأفعال الحجِّ.

[فقه] وذلك مذهبنا ومذهب أبي حنيفة في مكَّة، إلَّا أنَّا نجيز صومها أيضًا في الطريق راجعًا، ولو وصل أهله قبل تمامها. وقال الشـافعيُّ: «إذا وصلتم أهلكم»؛ وله قول كقولنا وقول أبي حنيفـة. وعن ابن عبَّاس: «إذا بلغتم أمصاركم». وحكم ناوي الإقامة بمكَّة حكم واصلٍ أهلَه. واسـتظهر بعض أنَّ الرجوع ظاهر في هذا المعنى، وقـال مالك: «يجوز صيامها في أيَّام التشريق» يروي في ذلك حديثًا. وقيل: معنى الآية صومها في الطريق حال الرجـوع، وفيه أنَّ الله ﷻ لم يوجب صوم رمضان في السـفر فكيف هذه الأيَّام؟!.

﴿**تِلْكَ**﴾ الثلاثة والسبعة، أي: تلك الجملة ﴿**عَشَرَةٌ كَامِلَةٌ**﴾ هذه فذلكة.

[لغة] والفذلكة إجمال الحساب بعد تفرُّقه، كقولك بعد تفرُّقه: فذلك كذا وكذا، سـواء قلت بعد تفرُّقه: ذلك كذا، أو تلك كذا، أو هؤلاء كذا، أو هذه كذا، أم ذكرت المفرَّق، مثل أن يجتمع عندك ألف وخمس مائة وستُّ مائة تذكرها ثمَّ تقول: فالجملـة ألفان ومائة. وهي مركَّبـة من فاء التفريع و«ذا» الإشـاريَّة مع حذف ألفها وإسـكان ذالها، ولام البعد وفتحها وكاف الخطاب وتاء التأنيث.

وفي هذه الفذلكة فوائد:

[الفائدة الأولى] دفع ما رُبَّما يتوهَّم من أنَّ الـواو بمعنى «أو»، فصرَّحت الفذلكة بعدم ذلـك، فإنَّها قد ترد بمعنـى «أو» نحو: «جالس الحسـن وابن سـيرين» بالواو، وتريد جالس هـذا أو هذا بـ«أو»، وأنت تريـد بـ«أو» أيضًا جواز الجمع. ووجه الواو أنَّه لا يمنع عنك أحدهما إلَّا أنَّه لا بدَّ منهما جميعًا.

قال السيرافي في شرح سـيبويه: الصواب أنَّ الواو كاف في الإباحة؛ لأنَّ الإباحة إنَّما استفيدت من الأمر، والواو جَمعت بين الشيئين في الإباحة، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿فَانكِحُوا مَا طَابَ لَكُم مِّنَ النِّسَاءِ مَثْنَىٰ وَثُلَاثَ وَرُبَاعَ﴾ [سورة النساء: 3]، فالواو بمعنى أو في بعض التأويل.

الفائدة الثانية: الإعلام بأنَّ المراد بالسبعة حقيقتها لا كثرة العدد، فإنَّها قد تطلق للكثرة كما تطلق السبعون، والفائدتان احتراس.

الثالثـة: الإعلام بالعدد إجمالاً كمـا علم به تفصيلاً، كمـا تقول العرب: «علمان خير مـن علم»؛ وهـذه الفائدة تتميم، فـإنَّ أكثر العرب لا تحسـن الحساب. قال رجل لابنه في سفر: يا بني، استبحث لنا عن الطريق، فقال: إنِّي عالم، فقال: «يا بنيَّ، علمان خير من علم».

الرابعة: أنَّ المعتاد أن يكون البدل أضعـف حالا من المبدل منه، فأخبرنا الله ﷻ أنَّ هذا ليس كذلك، فتطمئنَّ نفس الصائم عن الهديِ. فإنَّ معنى كاملة أنَّها كاملة في البدليَّة عن الهديِ، قائمة مقامه، وأنَّها كاملة في أنَّ ثوابها كثواب الهدي، وكاملة في المتمتِّع الصائم لها كالحجِّ بلا تمتُّع.

وأيضًا «كَامِلَةٌ» صفة تقيد المبالغة في محافظة الصائمين على العدد، كأنَّه قيل: فصوموها غير ناقصة. وتفيد أنَّ العشـرة عدد كامل بمعنى انتهاء الأعداد إليه، وكلُّ عدد بعدده مركَّب منه ومِمَّا قبله.

وإذا عددنا التوكيد فائدة فهو فائدة **خامسـة**، كقوله تعالى: ﴿وَلَا طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ﴾ [سورة الأنعام: 38]. وتعدُّ ما مرَّ من أنَّ العرب ليسوا أهل حساب، فَفَذْلَكَ لهم، فهذه فائدة **سادسة**.

السابعة: دفع توهُّم وجود مخصِّص يخصُّ عموم الثلاثة والسبعة.

الثامنة: دفع تصحيف سبعة بتسعة في الكتابة.

التاسعة: ما قيل: دفع توهُّم أنَّه تتمُّ السبعة بالثلاثة السابقة، ثلاثة في الحجِّ، وأربعة إذا رجع.

العاشرة: أنَّ الجملة الاسميَّة أنسب بالتكميل، كما قال: ﴿وَأَتِمُّواْ الْحَجَّ وَالعُمْرَةَ﴾ أي: اجبروه إجبارًا تامًّا، وذلك توكيد للأمر، كأنَّه امتثل فهو يخبر عنه.

الحادية عشرة: أنَّ الصوم طاعة كاملة كما قال ﷺ: «قال الله: **الصوم لي...**»[1].

[خواص الأعداد] والعشرة عدد كمل فيه خواصُ الأعداد، فإنَّ الواحد مبدأ العدد، ولا عدد فيه إذ لا تكرير فيه. والإثنان: أوَّل العدد فإنَّه أوَّل تكرير. والثلاثة: أوَّل عدد فرد. والأربعة أوَّل عدد مجذور، والخمسة أوَّل عدد دائر، فلا يمكن تدوير المجلس قبله. والستَّة أوَّل عدد تامٍّ، أي: تستفرغه أجزاؤه. والسبعة عدد أوَّل تامٌّ فيه أنواع العدد كما يأتي إن شاء الله تعالى. والثمانية أوَّل عدد زوج الزوج. والتسعة أوَّل عدد لثلثه ثلث يستفرغه. والعشرة ينتهي إليها العدد، وكلُّ عدد بعدها مركَّب منها ومِمَّا قبلها.

ويقال أيضًا: السبعة عدد تامٌّ لاشتماله على أنواع العدد، وهي أنَّ العدد إمَّا زوج وإمَّا فرد، وإمَّا مركَّب من زوج، وإمَّا مركَّب من فرد، وإمَّا مركَّب من زوج وفرد، فالإثنان مركَّب من فردين، والواحد فرد، والثلاثة من زوج وفرد، والأربعة من زوجين، والستَّة من فردين وهما ثلاثة وثلاثة، أو من زوجين: أربعة واثنين.

---

(1) أورده القطب في جامع الشمل، وقال: رواه البيهقي في سننه، وتمامه: «وأنا أجزي به، يدع طعامه وشرابه من أجلي...».

﴿ذَٰلِكَ﴾ الحكم من لزوم الهدي أو بدله وهو الصيام. أو ذلك التمتُّع، ويضعِّفه أنَّه قال: ﴿لِمَن لَّمْ يَكُنَ أَهْلُهُ﴾ كناية عن السكنى، ولو لم يكن له أهل. ﴿حَاضِرِي الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ﴾ ولم يقل: على من لم يكن، وتأويل اللام بعلى خلاف الأصل.

[فقه] وحاضِرُو المسجد الحرام عندنا مَن سَكَنَ في الحرم ولو لم يستوطنه، ومَن في داخل الميقات عند أبي حنيفة، ومن في مكَّة عند مالك، ومن بينه وبين الحرم أقلُّ من مسافة القصر عند الشافعيِّ على مذهبه في مسافة القصر.

والقارن لزمه ما لزم المتمتِّع، قرن من أوَّل، أو أدخل الحجَّ على العمرة، أو العمرة على الحجِّ، ووجه ذلك في العمرة أو في إدخال الحجِّ عليها أنَّ الأُفُقيَّ يجب عليه أن يحرم عن الحجِّ من الميقات لا عن العمرة، ثمَّ أحرم عن الحجِّ لا من الميقات، فحصل التحلُّل فجبر بالدم، والحرميُّ مثلاً لا يجب إحرامه من الميقات فلا خلل في تمتُّعه، فلا هدي ولا صوم عليه؛ لأنَّ إحرامه من محلِّه حقٌّ.

﴿وَاتَّقُواْ اللهَ﴾ بالمحافظة على أوامر الحجِّ والعمرة بالامتثال، ونواهيهما بالاجتناب، وعلى سائر الأوامر والنواهي. ﴿وَاعْلَمُواْ أَنَّ اللهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ في ترك واجب حجٍّ أو عمرة أو غيرهما، وفي فعل محرَّم فيهما أو غيرهما، والعلم بذلك يمنعكم عن المقارفة. وأظهَرَ لفظ الجلالة لتربية المهابة.

﴿الْحَجُّ أَشْهُرٌ مَّعْلُومَاتٌ فَمَن فَرَضَ فِيهِنَّ الْحَجَّ فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ
فِي الْحَجِّ وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ يَعْلَمْهُ اللَّهُ وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَىٰ
وَاتَّقُونِ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ (197) لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَبْتَغُوا فَضْلًا مِّن
رَّبِّكُمْ فَإِذَا أَفَضْتُم مِّنْ عَرَفَاتٍ فَاذْكُرُوا اللَّهَ عِندَ الْمَشْعَرِ
الْحَرَامِ وَاذْكُرُوهُ كَمَا هَدَاكُمْ وَإِن كُنتُم مِّن قَبْلِهِ لَمِنَ الضَّالِّينَ (198)
ثُمَّ أَفِيضُوا مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ النَّاسُ وَاسْتَغْفِرُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ
رَّحِيمٌ (199) فَإِذَا قَضَيْتُم مَّنَاسِكَكُمْ فَاذْكُرُوا اللَّهَ كَذِكْرِكُمْ آبَاءَكُمْ
أَوْ أَشَدَّ ذِكْرًا فَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا وَمَا لَهُ
فِي الْآخِرَةِ مِنْ خَلَاقٍ (200) وَمِنْهُم مَّن يَقُولُ رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً
وَفِي الْآخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ (201) أُولَٰئِكَ لَهُمْ نَصِيبٌ مِّمَّا كَسَبُوا وَاللَّهُ
سَرِيعُ الْحِسَابِ (202) وَاذْكُرُوا اللَّهَ فِي أَيَّامٍ مَّعْدُودَاتٍ فَمَن تَعَجَّلَ فِي يَوْمَيْنِ فَلَا
إِثْمَ عَلَيْهِ وَمَن تَأَخَّرَ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ لِمَنِ اتَّقَىٰ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ إِلَيْهِ
تُحْشَرُونَ (203)﴾

تتمّة أحكام الحجّ

﴿**الْحَجُّ أَشْهُرٌ مَّعْلُومَاتٌ**﴾ عند الناس، وقت الحجِّ أشهر، أو الحجُّ ذو أشهر: شوال وذو القعدة وعشرة من ذي الحجّة. ولا يشكل علينا الجمع لأنَّ المعنى أنَّ الحجَّ يوقع في ثلاثة أشهر والأمر كذلك، فإنّه يوقع في التسعة

الأولى وفي ليلة النحر للمراهق[1]، فذو الحجَّة بذلك محلٌّ للحجِّ، بل يوقع باقي أعماله أيضًا بعد ذلك، ولا يلزم من كون شهر محلًّا لكذا أن يكون في كلِّ يوم منه، تقول: فعلت كذا سنة كذا، وإنَّما فعلته في ساعة منها، أو عشرون أو ثلاثون. ووقت العمرة السنة كلُّها. وقيل: نزَّل بعض الشهر منزلة الشهر في قوله: ﴿أَشْهُرٌ﴾ إذ لم يقل: شهران وعشرة أيَّام، أو شهران وعشرون يومًا. وزعم بعض أنَّ الجمع المركَّب من آحادٍ بعضُها حقيقةٌ وبعضُها مجازٌ، ليس جمعًا بين الحقيقة والمجاز، وليس كذلك عندي، وأجاز الشافعيَّة الجمع بينهما.

[فقه] وزعم بعض أنَّ الآية على أنَّ أقلَّ الجمع اثنان مجازًا أو حقيقة، وَأَمَّا من قال ثلاثون يومًا فقد أتمَّ ثلاثة أشهر، ومذهبنا الأوَّل، فلا يفوت طواف الزيارة والسعي ما دام غير ناقض لإحرامه، ولو عامًا أو أكثر، وفاته بالعشرين على الثاني، وبالثلاثين على الثالث، فيقضي الحجَّ مستأنفًا على القولين، ونسب الثالث لمالك في رواية عنه، وابن عمر والزهري، وروي عن الشافعيِّ شاذًّا، وَأَمَّا الإحرام به فلا يجوز بعد عرفة، وأجازه الشافعيُّ ليلة النحر شاذًّا مردودًا. وعن إملاء الشافعيِّ: يجوز الإحرام به في جميع ذي الحجَّة، وهو أشذُّ وأبعد؛ وَأَمَّا الوقوف فلا يصحُّ إلَّا في يوم عرفة في عرفة، إلَّا المراهق فله الوقوف فيها ليلة النحر. وعن أبي حنيفة: شهران وعشرة لأنَّ الطواف ركن يوقع فيه لا قبله، والخلاف لفظيٌّ، فإنَّ ما قبل طلوع فجر النحر من وقت الإحرام والركن الأعظم ـ وهو الوقوف ـ وما بعد ذلك وقتٌ للركن العظيم ـ وهو الطواف ـ وما ليس ركنًا. وزعم أبو حنيفة فيما قيل عنه أنَّه يجوز الإحرام قبل شوال بالحجِّ على كراهة، والتحقيق أنَّه أجازه قبله؛ لأنَّه عنده شرط كالوضوء للصلاة.

---

(1) المراد بالمراهق الذي أرهقه السفر ولم يصل عرفة إلَّا ليلة العيد.

[فقه] ﴿فَمَن فَرَضَ فِيهِنَّ الْحَجَّ﴾ على نفسه بالإحرام به مع النيَّة ولو بلا لفظ، ومع التلبية به مع اللفظ والقصد للدخول فيه، كالدخول في الصلاة، هذا مذهبنا، وقال أبو حنيفة بالتلبية مع النيَّة، أو سوق الهدي معها أيضًا؛ لأنَّ الإحرام في الحجِّ عقد على الأداء، فلا بدَّ معه من ذكر وهو التلبية أو ما قام مقامه وهو السَّوْق كالإحرام في الصلاة. وقال الشافعيُّ: تجزي النيَّة بلا تلفُّظ ولا تلبية؛ لأنَّ الإحرام التزام الكفِّ عن المحظورات، فيصير شارعًا بالنيَّة كالصوم. ومن أفسد حجًّا أو عمرة ولو نفلا لزمه قضاؤها ولو عند من لا يوجب قضاء نفل العبادة منَّا، وكذا قال الشافعيُّ وأبو حنيفة.

[فقه] وقوله: ﴿فِيهِنَّ﴾ دليل على أنَّه لا يصحُّ الإحرام بالحجِّ في غير أشهره فيبطل، وقيل: يصير عمرة، وأجيب بأنَّ المراد بـ«فِيهِنَّ» الكمال ونفي الكراهة، وليس كذلك فإنَّ قوله: ﴿أَشْهُرٌ مَّعْلُومَاتٌ﴾ نصٌّ في تخصيص أشهر، وقوله ﷺ: «**لا ينبغي لأحد أن يُحرم بالحجِّ إلَّا في أشهره**»[1] أراد به التحريم، بدليل الأحاديث الناصَّة على أنَّه لا يصحُّ الإحرام بالحجِّ قبل أشهره.

﴿فَلَا رَفَثَ﴾ لا جماع، كما تُعورف شرعًا، أو فلا فحش: كلام في أمر الجماع ومقدِّماته، وهو المعنى الحقيقيُّ للرفث، وعليه فبالأَولى أن لا جماع. ﴿وَلَا فُسُوقَ﴾ في الحجِّ ولا غيره، ومنها السبُّ والتلقيب[2]، فمن فعل كبيرة بعد الإحرام لزمه دم. ﴿وَلَا جِدَالَ فِي الْحَجِّ﴾ في أيَّامه بعد الإحرام به، ولو مع المكاري أو الخادم أو الرفقة.

[فقه] ومن جادل حتَّى أغضب أو غضب لزمه دم، ولو في الحقِّ أو المباح، وقيل: المراد: لا جدال في أيَّام الحجِّ ولو قبل الإحرام، واللفظ إخبار

---

(1) أورده ابن كثير في تفسيره عن ابن عبَّاس، وقال: رواه الشافعي والبيهقي من طريق ابن جريج عن أبي الزبير عن جابر بن عبد الله، ج 1، ص 235.

(2) في نسخة (ب) و(ج): «واللقب».

والمعنى إنشاء، أي: لا ترفثوا ولا تفسقوا ولا تجادلوا؛ أو إخبار لفظًا ومعنى، أي: لا يثبت ذلك في دين الله، وإن كان فمِن دينِ الجاهليَّة والشيطانِ، والفسوق محرَّم على الحاجِّ وغيره، وذكر هنا للتغليظ كالنهي عن لبس الحرير في حقِّ الرجل حال الصلاة مع أنَّه محرَّم في غيرها أيضًا. أو الفسوق بمعنى الخروج، أي: لا تخرجوا عن حدِّ الشرع إلى المعصية ولو صغيرة، وإلى ما لا يجوز في الإحرام كلبس المخيط والتطيُّب والصيد. وزعم بعض أنَّ الجدال بالحقِّ غير منهيٍّ عنه، ويردُّه مخالفة ظاهر الآية، وأنَّه يفضي إلى شرٍّ، وقد قال الله ﷻ: ﴿فَلَا تُمَارِ فِيهِمْ إِلَّا مِرَآءً ظَاهِرًا﴾ [سورة الكهف: 22]، وقال ﷺ: «**من ترك المراء وهو محقٌّ، بني له بيت في أعلى الجنَّة؛ ومن تركه وهو مبطل بني له في ربضها**»[1] وغير ذلك... وعدم ذكره في قوله ﷺ: «**من حجَّ ولم يرفث ولم يفسق خرج من ذنوبه كيوم ولدته أمُّه**»[2] لا يدلُّ على عدم النهي عنه؛ لأنَّ عدم ذكر الشيء لا يدلُّ على انتفائه.

ويروى أنَّ معنى ﴿لَا جِدَالَ فِي الْحَجِّ﴾: اتركوا الخلاف في الحجِّ، إذ كانت قريش تقف بالمزدلفة وسائر الناس بعرفة، وكانوا يقدِّمون الحجَّ عامًا ويؤخِّرونه عامًا، فأزال الله ذلك؛ فنقول أيضًا: لا جدال في ذلك ولا في غيره، ولو لم يضمر للحجِّ لتأكيد شأنه. ﴿**وَمَا تَفْعَلُواْ مِنْ خَيْرٍ**﴾ كالكلام الحسن مكان الرفث، والبرِّ والتحصُّن مكان الفسوق، والوفاق بالأخلاق الحميدة مكان الجدال في الحجِّ، وغيره كالصدقة والصوم والنفل وسائر العبادة. ﴿**يَعْلَمْهُ اللَّهُ**﴾ فيجازيكم به، وكذلك يعلم الشرَّ لكن لم يذكره؛ لأنَّ المقام مقام مقابلة الخير بالخير، أو أراد العلم بالجزاء.

---

(1) **أورده صاحب قناطر الخيرات.**

(2) **رواه النسائي في كتاب الحج (4)، باب فضل الحج، رقم: 2464. ورواه ابن ماجه في الحجِّ (3)، باب فضل الحجِّ والعمرة، رقم: 2889. ورواه البيهقي في الحجِّ أيضًا (383)، باب فضل الحجِّ والعمرة، رقم: 10384، من حديث أبي هريرة.**

﴿وَتَزَوَّدُواْ﴾ لآخرتكم بالأعمال الصالحة وترك ما ينهى عنه، وترك الطمع والسؤال مع وجود الغنى عنه، فمن لم يتزوَّد لها هلك بالنار، كما يموت مسافر بلا زاد ﴿فَإِنَّ﴾ لأنَّ ﴿خَيْرَ الزَّادِ﴾ لأنَّ الزاد يشمل زاد الدنيا وزاد الآخرة ﴿التَّقْوَى﴾ الحذر عن ترك الفرض وفعل المحرَّم، ومنه الإلحاح في السؤال، بل مطلق السؤال، بلا حاجة إليه مضطرَّة، والخروج إلى الحجِّ بلا زاد فيكون عيالاً على الناس وثقلاً عليهم، فالتحرُّز عن ذلك من جملة التقوى.

ويروى أنَّ حُجَّاج اليمن كانوا يفعلون ذلك، ويزعمون أنَّ ذلك توكُّل على الله، فأوحى الله أن تزوَّدوا ما يبلغكم ويرجعكم، كما رواه البخاري وأبو داود والنسائي عن ابن عبَّاس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، حتَّى فسَّروا الزاد بطعام المسافر وشرابه طبق ما يفعل اليمانيُّون، ويقولون: «نحن حجَّاج بيت ربِّنا ووفد إليه فلا يُطعمنا!»، وربَّما أفضى بهم ذلك إلى النهب والغصب، وما ذكرته أوَّلا هو الراجح لأنَّه ظاهر الآية. وعلى الأخير يكون المعنى: اصنعوا الزاد لسفر الحجِّ؛ لأنَّ خير الأزواد تقوى، ومن لا يصنعه يخرج عن التقوى بالطمع والسؤال.

﴿وَاتَّقُونِ يَآ أُوْلِي الاَلْبَابِ﴾ فقد وضعت فيكم من العقل ما يميل بكم عن المخالفة.

﴿لَيْسَ عَلَيْكُمْ﴾ أيُّها المسلمون على الإطلاق ﴿جُنَاحٌ﴾ إثمٌ ﴿اَنْ تَبْتَغُواْ﴾ في أن تطلبوا ﴿فَضْلاً﴾ رزقًا ﴿مِّن رَّبِّكُمْ﴾ التجارةَ في الحجِّ، هذا ترخيص ونهي لهم عن تحريم التَّجْر بعد الإحرام، فإنَّه لا ينقص ثوابًا ولا يحبطه، والترك أولى، وهو موافق لقوله تعالى: ﴿وَأَتِمُّوا الْحَجَّ﴾، وإن كانت التجارة تنقص فرضًا حرمت، أو مستحبًّا كُرهت.

[فقه] وإذا شوركت العبادة بغيرها، قال ابن عبد السلام: فلا أجر لها، ولو كانت الأغلب والباعث. وقال الغزالي: إن كان الأغلب دنيويًّا فلا ثواب،

أو أخرويًّا فبقدره، وإن تساويا سقطًا؛ وعندي أنَّه يثاب بقدره، ولو أقلُّ قليل، وبه قال ابن حجر.

[سبب النزول] وكانوا يكرهون التجر أو يحرِّمونه في الحجِّ، فنزلت الآية مبيحة بلا جدال ولا فسوق في أسواقكم: عكاظ ومجنَّة وذي المجاز وغيرها، أسواق تقام في مواسم الحجِّ.

وعكاظ من التعاكظ وهو التفاخر، يتفاخرون ويتناشدون، بين نخلة والطائف عشرين يومًا، من أوَّل ذي القعدة، ومجنَّة على أميال من مكَّة، وذو المجاز على فرسخ من عرفة.

[فقه] ومنع أبو مسلم التجر في الحجِّ، وحمل الآية على ما بعد الفراغ من الحجِّ، كقوله: ﴿فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلَاةُ فَانتَشِرُوا فِي الْأَرْضِ...﴾ إلخ [سورة الجمعة: 10]، ويردُّه أنَّ الحمل على إباحة ما تُوهِّم حرمته أو كراهته أولى من الحمل على ما عُلم إباحته، وهو التجر بعد الفراغ من الحجِّ، وَأَمَّا الصلاة فأعمالها متَّصلة لا يقاس عليها الحجُّ؛ لأنَّ أعماله متفرِّقة. وكان ابن عبَّاس يقرأ قراءة تفسير: «أن تبتغوا فضلاً من ربِّكم في مواسم الحجِّ»، وكذا ابن مسعود.

[سبب النزول] قال أبو أمامة لابن عمر: «نكرِي للحُجَّاجِ ويقول الناس: لا حجَّ لنا، ونحن نفعل أفعال الحجِّ كلَّها، فقال: سئل ﷺ عمَّا سألت فنزلت الآية، فقال: «**أنتم الحجَّاج أنتم الحجَّاج**»، وتدلُّ على ذلك الفاء في قوله:

﴿فَإِذَآ أَفَضْتُم﴾ أفضتم أنفسكم، أي: دفعتموها دفعًا شبيهًا بإفاضة الإنسان الماء في الكثرة والسرعة، وذلك هو الأصل، ولا يَرِد أنَّ غير الكثير وغير المسرع لا يتمُّ بل يتمُّ، أوْ لا يذكر الله عند المشعر الحرام بل يذكره فيه. **﴿مِّنْ عَرَفَاتٍ﴾** منوَّن تنوين مقابلة؛ لأنَّه بصيغة جمع المؤنَّث السالم. أو جمع مؤنَّث سالم سمِّي به؛ والمفرد عرفة.

[لغة] وعرفة جمع عارف، تسميةً للمحلِّ باسم الحال، وذلك أنَّه تعارف آدم وحوَّاء فيها، ويتعارف الناس فيها، وعرَّفها جبريل لآدم وإبراهيم ومحمَّد ﷺ، ولقول جبريل فيها: «اِعترف بذنبك، واعرف المناسك». أو لعلوِّها كما قيل لعرف الديك. أو عرفة اسم مفرد وضع للبقعة كعرفات بصيغة الجمع فهما اسمان، ويرجِّحه أنَّ الأصل عدم الانتقال من الجمع إلى جمع آخر، ولكون تنوينه للمقابلة ثبت مع العَلَميَّة والتأنيث كحمزات، وهو تأنيث البقعة؛ وصيغة جمع المؤنَّث لسالم صيغة تأنيث فيراعَى التأنيث في المنع ولو مِمَّا يردُّ إليه الضمير مذكَّرًا، كالهندات علَمًا لرجل، وسكون ما قبل تائه لا يبطل تأنيثه، ولو لم يكن في نية التأنيث كَرَغَبُوت، وأيضًا هي عوض عن تاء المفرد في الجملة.

[فقه] ولزم من الإفاضة أنَّهم فيها، كأنَّه قيل: قفوا في عرفات وأفيضوا منها، فإذا أفضتم منها فاذكروا الله... إلخ. والإفاضة من عرفات واجبة؛ لأنَّ الأمر المجرَّد للوجوب، وهو لا يتمُّ إلَّا بالكون في عرفات، وما لا يتمُّ الواجب إلَّا به فهو واجب، وهو ظاهر بلا تكلُّف عندي، إلَّا أنَّ الكون فيها لا يستلزم اللبث، فيتقوَّى وجوب الوقف بالإجماع والحديثِ، بل يدلُّ على ذلك لفظ الإفاضة؛ لأنَّهما بعد لبث الماء في شأن الماء، فكذا في شأن اللبث.

﴿فَاذْكُرُواْ اللهَ عِندَ الْمَشْعَرِ الْحَرَامِ﴾ ولزم من الذكر عنده أنَّهم أفاضوا إلى المزدلفة ولبثوا فيها، وكأنَّه قيل: أفيضوا منها إلى المزدلفة ثمَّ إلى المشعر الحرام فاذكروا الله فيه، أي: بعد المبيت فيها بالتلبية والتهليل والدعاء.

والمشعر الحرام: جبل في آخر المزدلفة يسمَّى «قُزَح» كعُمر، اسم لملَك موكَّل بالسحاب، أو لملِك من الملوك، أو شيطان في الأصل. روى

مسلم **أنَّه ﷺ وقف به يذكر الله ويدعوه حتَّى أسفر جدًّا**[1]. وسمِّي المشعر لأنَّه علامة من علامات الحجِّ معظَّمة لأنَّه من الحرم ومحلُّ العبادة. وقيل: المشعر الحرام: ما بين مَأْزَمَيْ[2] عرفة ووادي مُحَسِّر، ويروى: ما بين وادي مزدلفة المشعر الحرام ووادي مُحَسِّر ليس من الموقف.

ووادي مُحَسِّر خمس مائة ذراع طولاً، وخمس وأربعون ذراعًا عرضًا. وفي مسلم عن جابر **أنَّه ﷺ لَمَّا صلَّى الفجر** ـ أي: في المزدلفة ـ **بغلَس، ركب ناقته حتَّى أتى المشعر الحرام، فدعا وكبَّر وهلَّل**[3]، فدلَّ الحديث على القول الثاني، إلَّا أن يؤوَّل المشعر الحرام في الحديث بالجبل، أو بتسمية الجزء باسم الكلِّ، والمعنى: واذكروا الله لذاته إعظامًا وإجلالاً واستحقاقًا عند المشعر الحرام.

﴿**وَاذْكُرُوهُ**﴾ أيضًا ﴿**كَمَا هَدَاكُمْ**﴾ أي: لهدايته إيَّاكم عن الضلالة إلى المناسك وغيرها من دينه ﷻ، أو اذكروه ذكرًا شبيهًا بهدايته إيَّاكم إلى ذلك في الحسن، أو اذكروه على نحو ما علَّمكم لا تغيِّروه. ﴿**وَإِنْ**﴾ الشأن، أو أنَّكم، خفِّفت وأهملت، وليست نافية بدليل اللام في قوله: ﴿**كُنتُم مِّن قَبْلِهِ**﴾ أي: من قبل الهدى المعلوم من قوله: ﴿كَمَا هَدَاكُم﴾ ﴿**لَمِنَ الضَّآلِّينَ**﴾ الجاهلين للتوحيد والعبادة، وهداكم الله ﷻ إليهما أحوج ما أنتم، للفترة. ﴿**ثُمَّ أَفِيضُواْ**﴾ منها يا قريش ومن يكون معهم. والمفعول به محذوف، أي: أنفسَكم، ﴿**مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ النَّاسُ**﴾ سائر العرب والعجم أنفُسَهم. أو «أفاض» في الموضعين موافق «فَاضَ» فهو لازم. والمراد: الإفاضة من عرفات.

---

(1) هذا الحديث جزء من الحديث الآتي ذكره، مع زيادة: «ثم دفع قبل أن تطلع الشمس».

(2) المأزم: المضيق.

(3) رواه **البيهقيُّ** في الحجِّ (191)، باب من بات بالمزدلفة حتَّى يصبح، رقم: 9517 من حديث جابر، وذكره **ابن كثير** في تفسيره، وقال: هو من حديث زمعة بن صلاح، ج 1، ص 427.

والخطاب لقريش والحكم عام؛ لأنَّ خصوص السبب لا ينافي عموم الحكم. وقيل: الضمير للعموم لا لقريش خاصَّة فيدخلون بالأولى، قيل: هو أوضح؛ لأنَّ الضمائر قبلُ وبعدُ للعموم، قلت: يناسب خصوص قريش عموم إفاضة الناس، وأنَّهم الذين لا يفيضون كما يفيض غيرهم. وقيل: الناس إبراهيم لأنَّه أبوهم، والمعروف بالمناسك. وكرَّر الإفاضة من عرفات للتأكيد، وليبيِّن لهم أنَّهم ليسوا أولى من غيرهم، بل هم وغيرهم سواء، وإنَّما الشرف بالتقوى لا بالنسب والمكان، وكانوا: يقولون: نحن من ولد إبراهيم، ثمَّ إنَّا سكَّان الحرم وأهل الله، فلا نخرج منه، فيقفون بالمزدلفة منه، وسائرُ الناس يقفون بعرفات خارجة عنه.

أو «ال» للكمال، أي: أفاض الناس الكاملون في شأن الوقوف، وهم الذين يقفون في عرفات، فذلك ذمٌّ لقريش ومن ينحو نحوهم، ترفَّعوا فجازاهم الله بأنَّهم دون غيرهم لأنَّهم خالفوا موقف إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ وغيرهم وافَقه. و«ثمَّ» للترتيب في الرتبة لا في الزمان، يعني أنَّ الإفاضة من عرفات هي العالية لا الإفاضة من المزدلفة للواقف فيها دون عرفات. وقيل: الإفاضة الثانية من المزدلفة إلى منًى بعد الوقوف في عرفات، وهو قول جماعة، وعليه الضحَّاك، ورجَّحه الطبريُّ، فيكون الخطاب للناس كلِّهم، قريش وغيرهم، أو لَهم وفي حكمهم غيرُهم، فالترتيب في الزمان على أصله، أي: من حيث أفاض الناس الأوائل قبلكم من لدن آدم ومن لدن إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ، لا تغيِّروه كما غيَّرته جاهليَّتكم، إذ كنتم من قبل الهدى من الضالِّين.

﴿وَاسْتَغْفِرُواْ اللّهَ﴾ من ضلالكم وتغييركم المناسك، وفيه دليل أنَّ الكفَّار مخاطبون بالفروع، وأنَّهم مؤاخذون على الذنوب. ﴿إِنَّ اللّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ لمن آمن واستغفر.

﴿فَإِذَا قَضَيْتُم مَّنَاسِكَكُمْ﴾ عباداتكم الحَجِّيَّة من وقوف بعرفات والمزدلفة والذكر فيهما ورمي العقبة والحلق وطواف الزيارة والسعي، واستقررتم بمنًى.

[فقه] ويجوز تأخير الطواف والسعي عن أيَّام منًى.

﴿**فَاذْكُرُواْ اللّهَ**﴾ بالتكبير والثناء، وبالغوا في الذكر بالكيفيَّة، ولو أمروا بالإكثار أيضًا. ﴿**كَذِكْرِكُمْ آبَاءكُمْ**﴾ كما تبالغون في كيفيَّة ذكر آبائكم عند المفاخرة في منًى بين الجبل والمسجد، كانوا يعتادون ذلك في جميع يومهم، ويذكرون محاسن حروبهم، رواه ابن جرير وغيره. والآية تلويح إلى جعل ذكر الله مكان ذكر الآباء والحروب، وإلى ترك ذكرها. ﴿**أَوْ أَشَدَّ ذِكْرًا**﴾ أو كونوا أشدَّ ذكرًا لله منكم لآبائكم، أو عطف على الكاف، أو على «ثابتًا»، أي: فاذكروا الله ذكرًا مثل ذكر آبائكم، أو ذكرًا ثابتًا كذكركم آباءكم.

[نحو] فيكون ذكرهم ذاكرًا، كقولهم: «شعرٌ شاعر» (بتنوين شعر) وصومه صائم، من المجاز العقليِّ، والفتح نصب، ويجوز عطفه على «ذِكْرِ» فالفتح جرٌّ، وإذا جعلنا «ذِكْرًا» مصدرًا من المبنيِّ للمفعول لم يكن من المجاز العقليِّ. أو «ذِكْرًا» بدل من «أَشَدَّ» أو معطوف، و«أشدَّ» حال منه بخلاف: «وَأَشَدَّ» فإنَّه على كلٍّ حال من فعل مبنيٍّ للفاعل، ولا تَهِمْ. ويجوز تقدير: «أو كذكر قوم أشدَّ ذكرًا منكم». واختار أبو حيَّان أنَّ «أَشَدَّ» حال من «ذِكْرًا» بعده، ووجهه أنَّ قوله: اذكروا الله ذكرًا كذكركم آباءكم، أو ذكرًا أشدَّ منه، أبلغ من قوله: اذكروا الله ذكرًا كذكركم آباءكم أو أشدَّ. وليس في إعراب أبي حيَّان طلب حالية الذكر، بل فيه طلب الذكر بقيد أن يكون أشدَّ.

﴿**فَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ**﴾ تفريع على قوله: ﴿**فَاذْكُرُواْ اللّهَ**﴾، وهذا تفصيل بالجملة بعد الفاء لا بالفاء، فقد تكون الفاء تعليلا لقوله: ﴿**فَاذْكُرُواْ اللّهَ**﴾، أي: لأنَّ الناس بين مقلٍّ ومكثر، ومصيب في ذكره ومخطئ في منى، فكونوا من المكثرين المصيبين فيها؛ لأنَّ مِنَ الذاكرين مَن يقلِّل ويخطئ، وهو من يقتصر على الدنيا في دعائه. ﴿**رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا**﴾ مالاً وولدًا، أو جاهًا ونحو ذلك، أو بعض ذلك. ومتاع الدنيا كلُّه قليل، ولا يدعو لآخرته،

فقد يؤتى ما يدعو به وقد لا يؤتاه. ﴿وَمَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ﴾ بعد الموت من الجنَّة ﴿مِنْ خَلَاقٍ﴾ نصيب؛ لأنَّه لم يتعرَّض له في الدنيا، ولا يطلق «خَلَاق» إلَّا على نصيب الخير، وسمِّي خلاقًا لأنَّه خلق له، كما سمِّي نصيب لأنَّه نُصب له، أو ما له في ذكره ودعائه نصيب يدعو به لآخرته، أي: وما له في شأن آخرته نصيب من دعائه.

﴿وَمِنْهُم مَّنْ يَّقُولُ رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً﴾ أشياء حسنة، كالإيمان والاعتقاد الحقِّ، والعمل الصالح، والتقوى والعلم، والتوفيق والنصر، والولد الصالح والزوجة الصالحة، والرزق الحلال، وصحَّة البدن، وصحبة الصالحين. ﴿وَفِي الْآخِرَةِ حَسَنَةً﴾ أشياء حسنة كالمغفرة والجنَّة، وتخفيف الحساب، والسلامة من هول الموقف، وإيتاء الكتاب بالأيمان، والشرب من الحوض، والحور والأزواج والأجنَّة والقصور.

وعن عليٍّ: «الحسنة: الزوج الصالحة»، وكأنَّه أراد الآدميَّة لأنَّه ليس للرجل منهنَّ إلَّا واحدة، وهو قول مشهور، وإلَّا فالأزواج الحور للرجل كثيرة. **وهمَّني ذلك حتَّى اطَّلعت أنَّه يكون للرجل الواحدة من الآدميَّات واثنتان وأكثر.**

﴿وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ﴾ في الآخرة بأن لا ندخلها بأن توفِّقنا في الدنيا للهدى، والتوبة من الذنوب. وعن عليٍّ: «النار: المرأة السوء»، أي: دَعَوا الله أن يمنعهم عنها في الدنيا، وهو تمثيل لجميع الأسواء. ﴿أُوْلَئِكَ﴾ القائلون: ﴿رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ﴾، ﴿لَهُمْ نَصِيبٌ﴾ عظيم في الآخرة ثبت لهم، ﴿مِّمَّا كَسَبُواْ﴾ في الدنيا من الإيمان والأعمال الصالحة والتقوى، أي: تولَّد ونتج من كسبهم. أو نصيب عظيم في الآخرة هو ما عملوه في الدنيا، أي: ثوابه فكأنَّه هو لأنَّه عوضه. أو نصيب ممَّا دعوا به دنيا وأخرى، والباقي نكفِّر به سيِّئاتهم أو نعطيهم فيه ما هو خير منه،

أو نكفي عنهم المصائب. أو أولئك القائلون: ﴿رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً...﴾ والقائلون: ﴿... ءَاتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ حَسَنَةً﴾، ونصيبُ الفريقِ الأوَّلِ: ما ذكر له من متاع الدنيا، وما له في الآخرة من العذاب؛ لأنَّ النصيب يطلق على الخير وعلى الشرِّ.

وروي أنَّه ﷺ قال لرجل كالفرخ المنتوف: «**هل كنت تدعو بشيء؟**» فقال: كنت أقول: «اللهمَّ عجِّل عقابي في الدنيا»، فقال ﷺ: «**لا تطيق ذلك، قل: ﴿رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ﴾**»[1] فقال: فشُفي.

﴿وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾ جاء الحديث: «**يحاسب الله الخلق في قدر نصف نهار من أيَّام الدنيا**»[2]، وهو تمثيل للقلَّة، كما روي أنَّه يحاسبهم في قدر حلب شاة أو ناقة[3]، فهو قادر أن يحاسبهم في أقلّ من لمحة، يخلق في قلوبهم معرفة أعمالهم وجزاءها. أو سرعة الحساب قرب يوم الحساب أو المجازاة، كما قيل في قوله تعالى: ﴿فَحَاسَبْنَاهَا حِسَابًا شَدِيدًا﴾ [سورة الطلاق: 8]، **فبادروا لطلب الآخرة، وأعرضوا عن الدنيا.**

﴿وَاذْكُرُواْ اللَّهَ﴾ بالتكبير وغيره أدبار الصلوات، وعند ذبح القرابين ورمي الجمار وغير ذلك... قال مسلم عن نبيشة الهذلي عن رسول الله ﷺ: «**أيَّام التشريق أيَّام أكل وشرب وذكر الله تعالى**»[4] وقال البخاري عن ابن عمر أنَّه كان يكبِّر بمنًى تلك الأيَّام خلف الصلوات وعلى فراشه وفي فسطاطه وفي مجلسه وفي ممشاه في تلك الأيَّام جميعًا، يعني يوم النحر

(1) أورده ابن كثير في تفسيره، ج 1، ص 433. والآلوسي، ج 2، ص 91.

(2) ذكره الخطيب الشربيني في السراج المنير ولم ينسبه، في تفسير نفس الآية.

(3) ذكره الزمخشريُّ في الكشَّاف وغيره ولم ينسبوه، في تفسير نفس الآية.

(4) تقدَّم تخريجه، انظر قوله تعالى: ﴿فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ﴾ (الآية: 196).

وثلاثة الأيَّام بعده المرادة هنا في قوله تعالى: ﴿فِـي أَيَّامٍ مَّعْدُودَاتٍ﴾ جمع يوم معدود مع أنَّه مذكَّر لأنَّ لفظ معدود أكثر مـن ثلاثة أحرف لغير عاقل، فجاز جمعه بألف وتاء.

[فقه] وذلك التكبير وسائر الذكر في تلك الأيَّام مستحبَّان عندنا وعند أبي حنيفـة، إلَّا عند ذبح القرابين فعنده وجب التكبير، وعندنا يسـتحبُّ. ويحتاج إلـى الجمع بين الحقيقـة والمجاز في الأمـر، أو عموم المجاز. والمراد بالأيَّام ما يشـمل الليالي، وعن ابن أبي ليلـى: «الأيَّام يوم النحر ويومان بعده»؛ قيل: وهو وهمٌ، ونُسب لعمر وعليٍّ، والمشهور عنهما وهو قول ابن عبَّاس أنَّ الأيَّام يوم النحر وثلاثة بعده، وعن ابن عبَّاس وابن عمر والحسن وعطاء ومجاهد وقتادة: «الثلاثة بعد النحر»، **قلت**: لا يلزم الوهم، ولعلَّه خصَّ مزيدًا للتأكيد في ذلك بالحـجِّ، والواجب ما عدا اليوم الرابع بالعيد، ولا يخفى اسـتحباب الذكر في الأيَّام الثلاثة ويوم النحر قبلها في الحجِّ وغير الحجِّ.

﴿فَمَن تَعَجَّلَ﴾ النفرَ، أو بالنفر، أو عـن منًى، ﴿فِي يَوْمَيْنِ﴾ يوم القرِّ واليوم بعده. والقرُّ: القرار، وهو عدم النفرِ، ولا بدَّ منه في اليوم بعد العيد، فأضيف للقرِّ. وَأَمَّا النَّفْر بفاء سـاكنة فهو الذهاب، يضاف إليه اليوم الثاني والثالث، فنقول: يوم النفـر الأوَّل ويوم النفر الثاني، لجـواز أن ينفر في اليوم الثاني أو في الثالث، ولا قرَّ بعد الثالث، ويسـمَّى اليوم بعد العيد يوم الرؤوس لأنَّه تؤكل فيه رؤوس الضحايا. ونسـب التعجُّل لليومين مع أنَّه في الثاني فقط تنزيلاً لهما منزلـة اليوم الواحد؛ لأنَّه لا بدَّ منهما، وهو حكمٌ علـى المجموع، أو يقـدَّر مضـاف، أي: تعجَّل في ثانـي يومين، والتعجُّل فيهما صالح للتعجُّل قبل تمام اليوم الثاني وهو المراد، والظرفيَّة لا تصلح لهما في ليلة الثالث.

[فقه] فمن دخلت عليه ليلة الثالث لزمه البقاء إلى الزوال فيرمي قبله أو بعده، وذلك أنَّه مَن نفر في ليلة الثالث لا يصدق عليه أنَّه نفر في اليومين؛ وذلك مذهبنا ومذهب الشافعيَّة، وقال أبو حنيفة: له النفر ما لم يطلع فجر الثالث، وإن طلع فيه لزمه اللبث إلى الزوال فيرمي، وعن أبي حنيفة: له الرمي قبل الزوال فيه وفي اليومين قبله، وعنه لا يجوز إلَّا بعد الزوال، وكذا عند الشافعيِّ؛ وقيل: من لم ينفر قبل زوال اليوم الثاني لزمه اللبث إلى الثالث فيرمي.

﴿فَلَآ إِثْمَ عَلَيْهِ﴾ كما يزعم بعض الجاهليَّة، ﴿وَمَن تَأَخَّرَ﴾ عن النفر فيهما حتَّى رمى في الثالث، ﴿فَلَآ إِثْمَ عَلَيْهِ﴾ كما يزعم بعض الجاهليَّة، ويجوز الوجهان بلا إثم، والثاني أعظم أجرًا لزيادة الرمي والذكر. ﴿لِمَنِ اتَّقَى﴾ أي: ذلك لمن اتَّقى الله في حجِّه، وهو الذي ينتفع بحجِّه ولو كان أيضًا لغيره، أو ذلك لأجل المتَّقي ليُصان عن ترك الواجب لو وجب الثلاثة. ﴿وَاتَّقُواْ اللَّهَ﴾ في الحجِّ وغيره، ﴿وَاعْلَمُواْ أَنَّكُمْ إِلَيْهِ﴾ لا إلى غيره، ولو كان إلى غيره لأمكنكم الإنكار والإخفاء ونَفَعكم. ﴿تُحْشَرُونَ﴾ للجزاء على مثاقيل الذرِّ.

[تمَّ بحمد الله الجزء الأوَّل من تيسير التفسير

ويليه بإذن الله الجزء الثاني، وأوَّله قوله تعالى:

﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُعْجِبُكَ قَوْلُهُ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ (الآية: 204)]

الفهارس

1 ـ الفهرس التفصيلي للمسائل الأصولية

2 ـ الفهرس التفصيلي للمسـائل الفقهيَّة

3 ـ فهرس لبعـض مختـارات الشـيخ

4 ـ فهارس عامَّـة للموضوعات الفرعية

5 ـ فهرس الآيات والعناوين الرئيسـية

الفهرس التفصيلي للمسائل الأصولية

الفهرس التفصيلي للمسائل الفقهيَّة

فهرس بعض مختارات الشيخ

فهارس عامَّة للموضوعات الفرعية

فهرس الآيات والعناوين الرئيسية